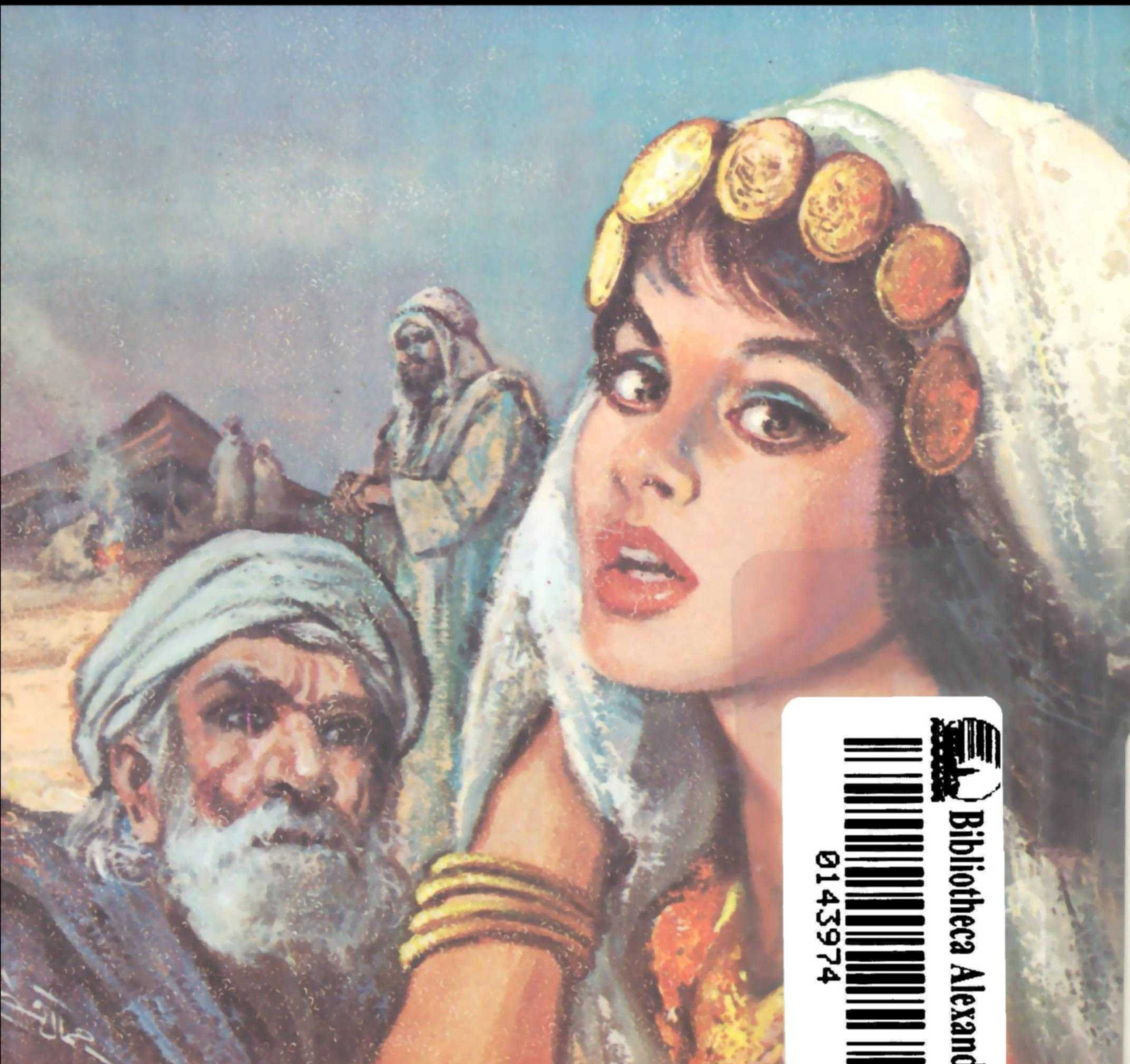
فتاة غسان

روايات تاريخ الإسلام



جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

فَتَاةُ غَسَّانَ

روايات
تاريخ الإسلام

فتاة غسان

تشرح حال الاسلام في اول ظهوره الى فتوح العراق والشام ، مع بسط عادات العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم ، ووصف أخلاقهم وأزيائهم وسائر أحوالهم

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

أبطال الرواية

* **جبلة بن الايهم**	: من ملوك غسان
* **الحارث بن ابي شمر**	: من ملوك غسان
* **عبد لله**	: من امراء العراق
* **هند**	: ابنة جبلة
* **ثعلبة**	: ابن الحارث
* **حماد**	: ابن الامير عبد الله
* **سعدى**	: ام هند
* **سلمان**	: خادم حماد
* **خالد بن الوليد**	: قائد جيش المسلمين في العراق
* **ابو عبيدة الجراح**	: قائد جيش المسلمين في الشام

مراجع رواية فتاة غسان

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخيـــة :

★ تاريخ الطبري ــ تاريخ أبي الفداء ــ تاريخ المقريزي ــ تاريخ ابن الأثير ــ تاريخ المسعودي ــ تاريخ العرب لنويل ديفرجه ــ تاريخ الرومانيين ــ تاريخ الانشقاق ــ تاريخ ابن خلدون ــ تاريخ الأنبياء ــ تاريخ الواقدي .

★ نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب .

★ صموئيل شارب ــ اسحاق الكندي .

★ دائرة المعارف البريطانية .

★ الأغاني للاصفهاني .

★ كتاب ياقوت .

★ صناجة الطرب .

★ عن المؤرخين : جون مري ، وملبطرن ، وسيريل ، ونوركهـارت ، وفوشيه ، ومريل ، ووادتتن .

★ معجم الآثار الدينية .

★ السيرة الحلبية .

★ سيرة ابن هشام .

★ أديان العرب .

★ السيرة الشامية .

- ١ -

ملوك غسان

بنو غسان عرب مسيحيون ، كانوا عمالا لقياصرة الرومان على الشام . وقد نشأوا في اليمن من بني قحطان ، ثم هاجروا منها بعد سيل العرم . وهو سد كان الى جوار مدينة مأرب باليمن ، تهدم في القرن الثاني للميلاد وطغت مياهه على ما جاوره من البلاد والقرى ، فنزح عنها أهلها التماسا للرزق ، ونزل بعضهم بضواحي الشام قرب ماء اسمه غسان فنسبوا اليه واعتنقوا الديانة المسيحية ، ويسميهم مؤرخو المسلمين العرب المتنصرة ، وقام منهم ملوك غسان . وأول من عرف منهم جفنة الذي عاش في القرن الثاني للميلاد واتصل الملك بعده بنسله فحكم منهم سبعة وعشرون ملكا آخرهم جبلة بن الأيهم . وفي أيامه ظهر الاسلام وفتحت الشام في عهد الخليفة أبي بكر الصديق . وانقرضت دولتهم كما سترى . وبقي منهم الآن بقية في ضواحي البلقاء واليرموك وحمص .

ومن العرب النصارى : ملوك الحيرة . ويقال لهم المناذرة (جمع المنذر) . أو الملوك اللخميون نسبة الى لخم بن عدي . وهم من عرب اليمن نزحوا أيضا بعد السيل وأقاموا بالعراق . وكانوا عمالا للفرس هناك .

فالغسانيون كـانوا يقيمون بحوران والبلقاء وما جـاورهما ، وامراؤهم مستقلون بالحكم في كنف الامبراطورية الرومانية ، فيمتازون عن ولاة الروم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية بشروط متفق عليها ، ومنها امداد الرومانيين بالجند عند الحاجـة ولا سيما في حربهـم مع الفرس •

وكان العالم قبيل الاسلام تتنازعه دولتان عظيمتان : الفرس في الشرق ، والرومان في الغرب • وكان النزاع لا يفتر بينهما ، فيستعين أكاسرة الفرس بالمناذرة ، ويستعين قياصرة الروم بالغساسنـة • فتولدت بين القبيلتين العربيتين المسيحيتين ضغائن توارثها الابناء عن الآباء • وكثيرا ما كانت تقوم الحرب بينهما حتى تكاد تبيد احداهما الأخرى •

والنزاع بين الفرس والروم قديم ، وكأنه طبيعي بـين المشرق والمغرب ، فقد كانت الحروب متواصلة قبلا بين الفرس واليونان ثـم بين الفرس والرومان • وكانت المدائن عاصمة الفرس بالعراق كما كانت القسطنطينية عاصمة الرومان • فقضوا أجيالا متوالية بين حرب وصلح •

وفي النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، كان ملك الفرس هو كسرى برويز ، وكان امبراطور الروم موريسيوس ، الذي يسميه العرب (موريقي) فقامت في بلاد الفرس ثورة داخلية آلت الى خلـع كسرى ، فالتجأ الى موريسيوس فساعده وأعاده الى ملكه • وكان ذلك داعيا الى الهدنة بين الدولتين •

وفي سنة ٦٠٢ م قتل موريسيوس ، وخلفه فوكاس (فوقـا) قاتله • فرأى كسرى برويز المذكور ان يثـأر لموريسيوس ولا سيمـا انه كان قد تزوج ابنته ماريا • فعد معاهدة الصلح المذكورة ملغـاة ، وحمل بجيشه على القسطنطينية ، وظل يشدد الحصار عليهـا حتى مل أهلها فثاروا على امبراطورها وأرادوا خلعه ، ثم دعوا هراكليوس (هرقل) ابن واليهم عـلى القيروان فجاء سنـة ٦١٠ م بعمارة بحرية ودخـل

القسطنطينية عنوة وقتل فوقا وجلس على عرشه • وقام الفرس على الروم قومة واحدة شديدة ، فكان كسرى محاصرا القسطنطينية بنفسه ، وقائد من قواده يحاصر بيت المقدس ، وآخر يحاصر الاسكندرية • والناس يفرون من وجه الفرس من كل صوب فلم تأت السنة الخامسة من حكم هرقل حتى استولى الفرس على مصر السفلى ، فلاقوا من أهل مصر والشام ترحابا وارتياحا لارتباطهم بهم وبجندهم اللخميين برابطة الوطن الشرقي والعادات الشرقية ، فلبثوا تحت حكمهم عشر سنوات • ثم شغل الفرس باخماد عصيان بعض ولاياتهم وضعف أمرهم ، فاغتنم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم بجنده فأخرجهم من الشام ومصر ، وأعاد المملكتين الى حوزة الروم • ولم يكد يستريح هرقل من هذه الحروب حتى جاء المسلمون في أوائل الهجرة فاتحين وكان لا يزال في سوريا وحصونه متهدمة وجيوشه مبعثرة وسائر قواته مضعضعة •

وكان بنو غسان يتبعون الحاكم الروماني المقيم بدمشق من قبل امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم بالقسطنطينية ، فترد الأوامر الامبراطورية الى حاكم دمشق وهو يبلغها الى ملك غسان •

وكان كرسي حكومة الغسانيين تارة في عمان بالبلقاء ، وطورا في تدمر ، وأحيانا في الجولان ، وأخرى في بصرى عاصمة حوران في ذلك العهد •

وكان على الغسانيين في الشام في السنة السابعة للهجرة (٦٢٩م) ملكان في وقت واحد : أحدهما الحارث بن أبي شمر ، والآخر جبلة بن الأيهم • وكان الحارث يقيم في بصرى • وفي مكانها الآن قرية صغيرة اسمها « اسكي شام » أي الشام القديمة • وبجوار بصرى هذه دير بحيراء الذي نزله أبو طالب ومعه ابن أخيه صاحب الشريعة الاسلامية حينما قدما الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الاسلامية ببضع وعشرين سنة •

وأما جبلة فهو ابن عم الحارث وكان يقيم بالبلقاء •

- ٢ -

هند فتاة غسان

كان لجبلة بن الأيهم ابنة بارعة الجمال ، عاقلة رزينة اسمها هند • ربيت منذ حداثتها على ظهور الخيل ، فشبت مولعة بركوبها ومجاراة الفرسان في حلبة السباق حتى ذاع صيتها في القبائل وأصبحت حديث القوم ومضرب أمثالهم قبل بلوغها العشرين من عمرها •

وكانت تقيم معظم أيامها « بصرح الغدير » وهو قصر بديع شاهق بناه ثعلبة بن عمرو أحد ملوك غسان في القرن الرابع للميلاد في أطراف حوران مما يلي البلقاء من حجارة ضخمة ، وفيه غرف واسعة تحدق بها البساتين وتجري من تحتها الجداول معظم أيام السنة وبجوار القصر سهل واسع الأرجاء • خصصوه لسباق الخيل في مواقيت معينة من السنة ، يشترك فيه أمهر فرسان البلقاء وحوران ، وقد يقصده أهل البلاد الأخرى • وكانت هند تشترك في هذا السباق وكثيرا ما أحرزت قصب السبق • وكان أبوها يخلع على السابقين خلعا يعدها قبل الشروع في السباق ، فمن نال قصب السبق احتفلوا بالباسه الخلعة في مساء اليوم نفسه احتفالا يحضره الشعراء ينظمون القصائد في مدح الفائز ، وتحمل هند الخلعة بيدها وتلبسها للسابق • فاذا جاء يوم السباق تقاطر الفرسان من أنحاء الشام وحوران والبلقاء وغيرها يستبقون لاحراز تلك الجائزة •

ففي سنة ٦٢٩ م (سنة ٧ للهجرة) أرسل جبلة المنادين ينبئـون الناس بسباق فصل الربيع من تلـك السنة ، وعين له الجائزة درعـا سليمانية كاملة ، وأمر باعداد معدات الاحتفال بجوار صرح الغدير . حتى اذا دنا اليوم المضروب تقاطر الفرسان الى تلك الساحة زرافـات ووحدانا بخيولهم وسياسهم ، وفيهم جماعة كبيرة من الأمراء الغسانيين وغيرهـم ، بعضهم بالعمامة وبعضهم بالكوفية والعقال وبعضهم بالقلانس تشبها بالروم .

وفي صباح يوم الموعد صفت الخيل الى جانب السهل صفوفـا غير منتظمة ونصبت الخيام ليأوى اليها الفرسان أثناء السباق . وفي صدرها خيمة جبلة وهي فسطاط كبير مبطن بالحرير الأحمر ، أرضه مكسوة بالبسط والسجاد ، وعلقت الدرع على أعمدته ليراها الفرسان ويشتاقون الى احرازها .

فلما أشرقت الغزالة وأعدت الخيول شاعت أعين الفرسان نحـو القصر في انتظار هند وأبيها ، فاذا بالأبواب قد فتحت وخرج جبلـة وكان قد جاء الى القصر في اليـوم السابق وبات فيه ليلته استعدادا لحضور السباق . فلمـا أنبىء الناس بخروجه وقفوا لـه ، فمـر بالحديقة ثم فتحت أبوابها فخرج مع حاشيته وعلى رأسه تـاج مرصع تنعكس أشعة الشمس على جواهره فتبهر الأبصار . وكان طويـل القامة أصهب (أي يخالط بياض وجهه حمرة) ذو سبال وعثنـون ، عليه أزار من الديباج المزركش يغطي أثوابه ويديه يجره وراءه . فمشى والخدم تقود أفراسه وراءه معقودة أذنابها وعليهـا القلائد من الذهب والفضة ، حتى جاء فسطاطه فجلس في صدره على سرير من خشب العرعر محلى بالذهب . وساقوا خيله الى مرابطها في خيمة أعدت لها . ووقف الحاجب بباب الفسطاط وراء جماعة من الحاشية بعضهم يحمل سيف جبلة ، وآخر يحمل قوسه . ولم يكد يستوي على سريره حتى استأذن

الشعراء في الدخول عليه فأذن لبعضهم فدخلوا وألقوا التحية وتربعوا على البساط في أرض الفسطاط . فلما رآهم جبلة تذكر حسان بن ثابت فقد كان يختلف اليه كثيرا ويمدحه فيصله بالهبات الوافرة فلما اعتنق الاسلام أقام بالمدينة وانقطع عن الغساسنة وغيرهم .

وبعد هنيهة خرجت هند بنت جبلة من قصرها تحف بها جواريها وقد علم الناس خروجها برائحة طيبها قبل أن يروها ، فمرت بحديقة القصر حتى خرجت من بابها وأعين الفرسان شائعة نحوها وأكثرهم انما يأتي السباق ليتمتع بنظرة منها . فمشت من باب الحديقة مشية صحة ورزانة . وكانت ممشوقة القوام ممتلئة الجسم مستديرة الوجه قمحية اللون مشربة بالحمرة ، سوداء العينين مع كحل ، لا يكاد يصدق الناظر اليها أنها غير مكحلة بالاثمد . وكان شعرها أسود مضفورا قد أرسلت ضفائره خصلة واحدة على ظهرها وفي أطراف الضفائر قطع من النقود الذهبية أو الحلى ، وفي أذنيها قرطان في كل منهما لؤلؤة كبيرة وجعلت على رأسها تاجا صغير مرصعا وضعته مائلا نحو اليمين . وفي عنقها عقد من المرجان وفي أحد معصميها دملج من الذهب عريض مرصع بالياقوت وفي أصابعها الخواتم من العقيق والزمرد وقد أرخت من كتفها رداء حريريا مخططا بألوان بديعة يغطيها الى الرسغ فلا يظهر من أثوابها الا أسفل الحذاء . فتخلف بعض جواريها في الحديقة ورافقتها اثنتان منهن الى الفسطاط وعيون الناس شاخصة اليها عن بعد وهي تنظر اليهم بطرف عينها حياء ورفعة حتى دخلت الفسطاط فرحب والدها بها وأجلسها الى جانبه فقد كان مولعا بها حتى تسلطت على عقله ورأيه وكثيرا ما كان يستشيرها في أموره . ثم وقف الاتباع والخدم خارج الفسطاط ومعهم خادمتاها حيث مقعد جبلة وهند يشرفان منه على ساحة السباق ويريان المتسابقين في أول الشوط .

ثم سمعوا جلبة وقيل ان ثعلبة بن الحارث بن أبي شمر صاحب

بصرى قد جاء بحاشيته فلما سمعت هند بقدومه علاهـا انقباض كاد يظهر على وجهها • أما جبلة فنهض عن سريره الى باب الفسطاط لاستقبال ثعلبة وكان هذا شابا قصير القامة خفيف العضل نحيف الوجه كبير العينين والأذنين ليس عليه من مهابة الملوك الا ملابسه الفاخرة فقد كان لابسا قباء من الحرير مزركشا يجره وراءه على عادة الرومان وسيفه أعقف مرصع يتدلى من حمائله الى يساره وقد أوقف طرفي شاربيه أنفة وكبرا واعتدادا بأبيه •

وكان الغسانيون يتحدثون بهند وثعلبة على أن يعقد لهمـا لمـا بينهما من المكانة والنسب • على أن هذا لم يتجاوز حد الاشاعـة • وكان ثعلبة كثير الاعتداد بنفسه وربما حدثته خيلاؤه أن يترفع عن هند لو خوطب بشأنها • أمـا هي فكانت خالية الذهن من أمـر الزواج ولم تكن معجبة بأخلاق ابن عمها ولا تميل اليه ولولا القرابـة ما خاطبته ولا جالسته •

فلما وصل ثعلبة استقبله جبلة وعانقه ورحب به وأدخلـه الفسطاط وأجلسه على سرير بجانب سريره وأخذ يسأله عن أبيه وسبب تخلفـه عن السباق •

فاعتذر عنه وقال : « انه في شاغل حال بينه وبين ما يريد » • ولم يكن جبلة يكرم ثعلبة الا لمنزلة أبيه ومراعاة لآداب الملوك فيما بينهم •

أما هند فسلمت على ثعلبة سلاما عاديا وجلست تتشاغل بالتفرج على منظر الخيول المتزاحمة هناك •

أما ثعلبة فكان يخاطب عمه وعيناه على هند لا هياما بها بل رغبة في أن يحظى باعجابها وهي كلما التمس اعجابها زادته ازدراء • فلمـا أتم حديثه مع عمه التفت اليها فسألها عن عزمها على النزول الى ساحة السباق فأجابت وهي تنظر الى الميدان أنها لا تنوي النزول الآن ولكنها قد تفعل اذا رأت ما يشوق الى ذلك •

فلما اقترب الضحى خرج بعض الأمراء الغسانيين وأخذوا يهيئون معدات السباق ويرتبونها فنصبوا حبلا يقف الفرسان عنده عندما يهمون بالسباق فيكونون صفا واحدا على استواء واحد ، ثم أخذ أحدهم قصبة طويلة أعدت لذلك اليوم وسار بها الى آخر الساحة فنصبها هناك فمن سبق اقتلعها وأخذها ليعلم الحاضرون أنه السابق من غير نزاع فيقال لمن اقتلع تلك القصبة انه أحرز قصب السباق .

فلما تمت المعدات على هذه الصورة نودي في الفرسان أن يتهيأوا للسباق فركبوا جميعا وجاءوا واحدا واحدا يلقون بالتحية الى ملكهم جبلة فاذا وصل أحدهم أمام الفسطاط ترجل ودخل فقبل يد جبلة ويد ثعلبة وخرج . وهند في أثناء ذلك تنظر في وجوه الداخلين كأنها تتوقع رؤية فارس تعرفه وكانت تفعل ذلك في حذر . فوقع نظرها على أحدهم كان أحسنهم وجها في نحو العشرين من عمره يظهر من لباسه وملامح وجهه أنه ليس من غسان . وكان ربع القامة أسود العينين حادهما لابسا قباء عربيا وعلى رأسه كوفية من الحرير المزركش وقد شد فوقها العقال . فحالما رأته بغتت وعلا وجهها شيء من الاحمرار ولكنها تجاهلت وتشاغلت ببعض الشؤون فتقدم الشاب الى جبلة فقبل يده وخرج ولم يلتفت الى ثعلبة أما سهوا أو عمدا ، فعظم ذلك على ثعلبة ونظر الى هند فاذا هي تشيع ذلك الشاب بنظرها حتى خرج من الفسطاط فاستيقظت عوامل الغيرة في قلبه بلا داع غير ما فطر عليه من الحسد والكبرياء ولم يفه بكلمة .

ثم مر بقية الفرسان حتى تكامل عددهم وركبوا خيولهم واصطفوا الى الحبل فلم تكن تسمع الا قرقعة اللجم وصهيل الخيل ووقع حوافرها تفحص بها الارض كأنها تلج في طلب السباق لتطلق لها الاعنة فتجري في ذلك السهل الواسع الأرجاء وفيها الادهم والاشقر والمحجل والمجنب والمحبب واليعبوب والكميت وغير ذلك من ضروب الخيل .

وفيما كان الفرسان يتهيأون للسباق كان جبلة وهند وثعلبة يتساءلون لمن عسى يكون الفوز في ذلك اليوم . فلم يجب ثعلبة ولكنه اعتدل في مجلسه وأخذ يلاعب شاربيه ولسان حاله يقول : « أنا هو السابق ولا أحد سواي » . وكان كثيرا ما يحرز قصب السبق في مثل هذه الحلبات ولكنه قلما أحرزه عن استحقاق لأن المتسابقين كانوا اذا عرفوه وعرفوا منزلته من جبلة تساهلوا في الجري معه فيسبقهم ويظن أنه انما سبق بمهارته وسرعة فرسه . فلما لم يجب ثعلبة قال جبلة : « ما ظنك براكب ذلك الجواد المحجل اني أراه يكاد يطير عن ظهره وهو الذي نال الجائزة في السباق الماضي » .

فخفق قلب هند عند ذكره . أما ثعلبة فهز رأسه مستهزئا ، وقال هذا غلام غر يدعي الفروسية وهو براء منه . ولولا المصادفة العمياء لما استطاع نيل الجائزة . ولو كنت في مقام ملك البلقاء (يريد جبلة) وكان هذا السباق تحت رعايتي لما أذنت بأن يكون بين فرسانه غريب لا نعرف أصله ولا يليق بنا أن ندخله فسطاط الملك وابنته جالسة لانه لا يعرف مقام الملوك . فأدركت هند أن ثعلبة ينطق عن غيرة لأنه لا يطيق أن يمدح أحد في مجلسه .

أما جبلة فرأى في كلامه انتقادا ولكنه حمله على محمل الاجلال لمقامه مدفوعا بحدة الشباب وقلة اختبارهم ، فأجابه بلطف : « وما يمنع غريبا أن يدخل علينا ونحن بنو غسان مضرب المثل بحسن وفادتنا واكرامنا للغريب » . فخجل ثعلبة وسكت فاستأنف جبلة الحديث قائلا : « على انني أستغرب أمر هذا الشاب لسكناه بيننا مسكن الغرباء وكثيرا ما شاهدته خارجا للصيد مع حاشيته كأنه من أبناء الامراء فمن أي القبائل هو فاني أراه مبالغا في اخفاء أمره وقد سألت عنه بعض امرائنا غير مرة فلم ينبئوني شيئا عن أصله ولا يعلم أحد سر مقامه بيننا ولكنني سمعتهم ينادونه حمادا » .

فظن ثعلبة أن الفرصة مواتية للنيل منه فقال : « وهذا مما يحقره في عيني يا عماه فانه لا يبعد أن يكون جاسوسا مرسلا من ملوك الحيرة فهم لا يزالون على مناوأتنا لا يريدون بنا خيرا ، ولا سيما بعد ما نالهم ونال أسيادهم الفرس من حملات جنودنا وجنود الروم هذين العامين »

فأغضى جبلة عن الجواب • ثم جاءه مخبر ان الخيل استعدت فكيف يرى الملك أن يكون سباقها • قال : « ينقسم الخيالة خمسات يتسابق كل خمسة منهم في شوط على حدة فمن سبق أفرد جانبا حتى لا يبقى أحد لم يجر في حلبة السباق ثم يتسابق السابقون جميعا فمن أحرز قصب السبق منهم فهو صاحب الجائزة • فعاد المخبر وأبلغ الأمراء المنوط بهم السباق فقسموا الخيالة خمسات فجرت أول خمسة منهم حتى توارت عن النظر لان مجال السباق يزيد على الميلين فعاد واحد يحمل القصبة فتناولها رجل خفيف العضل سريع الجري أعد لمثل ذلك فأسرع وغرسها مكانها وأجلسوا السابق الى جانب • وهكذا تسابق كل خمسة على حدة •

أما هند فكانت عيناها شائعتين على « حماد » فلما جاء دوره تبعته ببصرها حتى توارى ورفاقه ولبثت تنتظر عودتهم فعادوا والقصبة في قبضته فأفرد مع السابقين • فقال جبلة لثعلبة : « أرى الرجل قد سبق » • فأجاب والحسد ملء صدره : « أيعد من يسبق هؤلاء الخمسة سابقا تمهل لنرى سباقه مع السابقين ؟ » • فالتفتت هند وقالت برزانة وهدوء كمن لا يهمه سبق حماد أو لم يسبق : « وما يمنع أن يكون سابقا لهم جميعا ؟ • كيف نحكم عليه ونحن لا نعلم شيئا من ضعفه أو قوته • نعم يسوؤنا أن يكون السابق غريبا ولكن ما الحيلة اذا سبق ، أنقبل هذا العار على بني غسان •• ؟ »

فكان لكلام هند وقع السهام على قلب ثعلبة واتقدت الغيرة في

صدره فتبسم كأنه يستخف بقولها وقال : « لا يكون له مسابق سواي ولأعلمنه الفروسية منذ هذا اليوم ! » • قال ذلك وملامح الغدر وسوء القصد ظاهرة على وجهه ، فخافت أن يكون قد نوى بالرجل سوءا ، فلا يزيده دفاعها الا غضبا وحقدا ، فسكتت •

وعند الظهيرة أو نحوها انقضت الأشواط الأولى فاجتمع عشرون سابقا فأمر جبلة بالاستراحة لتناول الطعام وعلف الخيل •

وكانوا قد أعدوا الأسمطة في صرح الغدير وذبحوا الذبائح فجاءت الاخونة يحملها الرجال الى الخيام على كل خوان منها جفنات وفيها الالوان العربية والرومية وبعض الخمور •

وأمر جبلة أن يجلس الفرسان الفائزون معه على خوانه • وكان خوانه من ذهب خالص وجفانه من فضة فجاءوا ومعهم « حماد » فلما وقع نظر ثعلبة عليه جعل يتأمله ناقدا وحماد لا يلتفت اليه . فجلسوا على الأبسطة حول السماط ركعا على ركبة واحدة ، وأخذوا في الأكل • وأراد جبلة أن يقف في خدمتهم على عادة كرام العرب مع ضيوفهم فاستحلفوه الا يفعل أو يكفوا عن الطعام فأطاع وجلس معهم . والى يمينه ابنته هند ؛ والى يساره ابن عمه ثعلبة • ولما أتموا الطعام وتناولوا الحلوى وبعض الخمر أنشد بعض الشعراء قصائد في ذكر كرم الغسانيين وحسن ضيافتهم • فأطرق جبلة خجلا فقد كان يستنكف أن يسمع مدحه بأذنه ، فلما رأى الشعراء منه ذلك نهض أحدهم وقال مهما نبالغ في مدح ملوك غسان فلن نأتي بشيء مما قاله حسان بن ثابت وأنشد :

لله در عصابة نادمتهم ... يوما بجلق في الزمان الاول
اولاد جفنة عند قبر ابيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الانوف من الطراز الاول
يسقون من ورد البريص ضيوفهم ... كأسا تصفق بالرحيل السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

فأمر جبلة حاجبه فأعطى كل شاعر صرة فيها مائتا دينار وخمسة أقمصة .

وكانت الشمس قد دنت من الأصيل واستراحت الخيل واستراح فرسانها .

فنودي في الناس أن هيا الى السباق وكان حديث القوم : « من يا ترى ينال قصب السبق من هؤلاء العشرين » . وكان حماد أقلهم كلاما وأكثرهم تأملا في نفسه شيئا يكتمه . وقضت هند ساعة الغداء وما بعدها تنظر الى وجهه خلسة فآنست فيه جمالا وكمالا ورزانة ودعة . وكان ثعلبة يرقب نظراتها وينظر الى حماد ازدراء وكان حديثه مقصورا على الأطناب فيما فعله وأبوه ، وبما مر به هو من الوقائع الغريبة كقوله أنه ذهب للصيد فلقيه أسد فلم يفر منه بل هجم وضربه بسيفه فقتله ، الى مثل هذا من الأحاديث الملفقة . وكان الحضور يصغون الى حديثه ويؤمنون اجلالا لمقام والده وأكثرهم لا يصدقونه وهو يسرد الحكاية وينظر الى هند يلتمس اعجابها أو استغرابها وهي لا تكترث . وكذلك كان شأن حماد فلم يكن يأبه له أو يعيره التفاتا لأنه كان صديقا يأنف من الكذب .

فلما نودي الى السباق خرج الفرسان العشرون فقال جبلة : « أرى أن ينقسموا الى أربعة أقسام فيتسابق كل خمسة منهم في شوط فمن سبق أفرد ثم يتسابق السابقون وهم أربعة فمن سبق فله الجائزة » . فتسابقوا خمسات فأفرد أربعة وحماد منهم .

كل ذلك وثعلبة لم يركب فرسه ولم ينزل للسباق أنفة واستكبارا وهو يرجو ألا يكون حماد من السابقين فلما رآه بينهم أوجس خيفة وفزع بأمله الى أن سيسبقه زملاؤه المتسابقون فيأمن عقبى الفشل .

واصطف الاربعة بازاء الحبل ووقف الناس على جانبي الميدان ينتظرون نهاية هذا الشوط . فاعتدل الفرسان على صهوات أفراسهم

ووقف جبلة وهند وثعلبة بباب الخيمة ينظرون اليهم وقلوبهم تخفق في انتظار عاقبة ذلك السباق فأطلق الفرسان أعنة خيولهم والناس يتبعونهم بأنظارهم ٠ وكان جواد حماد متأخرا فسر ثعلبة ظنا أنه فشل ٠ ولكن هندا علمت أن تأخره لم يكن الا ضربا من الفروسية فلما تواروا عن أبصارهم وقفوا ينتظرون رجوعهم فاذا بحماد قد عاد يحمل القصبة حتى اذا دنا من خيمة جبلة سلمها الى هند ٠ فصاح الناس مهللين فتناولت هند القصبة وترجل حماد وقبل جواده بين عينيه ٠ وكان عند باب الخيمة رجل يحمل وعاء فيه صبغ أحمر من دم الصيد ليخضب به صدر الفرس اشارة الى سبقه فلما تقدم ليصبغه اعترضه ثعلبة وقال تمهل ان السبق لم يتم بعد ٠ فدهش حماد وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب فقال جبلة : « وعدنا ابن عمنا ثعلبة أن ينازل السابق » ٠ فلم يجب حماد بل عاد الى صهوة فرسه ووقف ينتظر ثعلبة فجيء اليه بفرسه وكان من جياد الخيل عليه قلادة من الذهب الخالص وسرج مرصع بالحجارة الكريمة فركب وهو يتميز غيظا ٠ وكانت هند فرحة بفوز حماد فشق عليها منازلة ابن عمها له ولكنها عللت نفسها بفشل الباغي وهي تزداد تعجبا بما تشاهده من حقد ثعلبة على حماد وليس بينهما ما يقتضي ذلك وكبير النفس لا يتصور الدنايا ٠ ثم أمر جبلة فنودي في الناس ان السباق الآن بين حماد والأمير ثعلبة بن الحارث فوقفوا ينتظرون نهاية هذا الشوط ٠ وكان بعض الذين فاز حماد عليهم يودون أن يكون ثعلبة السابق ، وبعضهم يتمنونه لحماد ليكون لهم أسوة بابن الحارث صاحب بصري ٠

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها أن جواد حماد قد تعب ؛ وجواد ثعلبة لا يزال نشطا فلم يمض القليل حتى عاد حماد وفي يده القصبة ووراءه ثعلبة يسوق جواده الى الفسطاط وابتدر عمه قائلا : « لم يسبقني هو بل فرسه فانه من خيل الجن أو هو

من صلب داحس فرس قيس بن زهير ، ولو ركبته أنا ما استطاع أحد سبقي ، فلما سمعه حماد نزل عن جواده وقال له : « اليك جوادي فاركبه واعطني جوادك » • وكانت هند تنظر اليهما فخافت أن تنقلب العائدة على حماد وقد شعرت بأن حبه تسكن من قلبهـا في تلك الساعات القليلة بما لا يتأتى في أعوام •

أما ثعلبة فقال ما قاله انتحالا لعذر يغطي به خجله وهو لا يظـن حمادا يعطيه جواده ، فلما تنحى له عنه لم ير مندوحة عن الركوب فركبا ونزلا الى ساحة السباق حتى تواريا عن الأبصار ، فلبث الناس ينتظرون عودتهما وكأن على رؤوسهم الطير ، وكـانت الشمس قد مالت نحو المغيب فأرسلت بقية أشعتها الأرجوانية على تلك السهول وما وراءها من الجبال والأودية وقد هدأت الطبيعة وسكن جأش النهار •

فلما أبطأ الفارسان شاعت أبصار الناس الى حلبة السباق ، وملوا الانتظار حتى هم بعضهم بأن يلحق بهما ليرى سبب ذلك التأخـير ، وكثر الهرج والمرج ، وكان أكثر الناس قلقا هند فقد خافت غدر ثعلبة ، ثم ما لبثت أن شاهدت الغبار وبان من ورائه فارسان هما حمـاد وثعلبة والقصبة في يد حماد فما صدقت عينيها وقد كـاد قلبها يطير من الفرح ، أما أبوهـا فشق عليه أن يكون السابق رجلا غريبا يفوز عليهم جميعا ، ولكنه رحب به • فترجل الفارسان ودخلا الخيمة ، فأراد حمـاد أن يعتذر عن ثعلبة فقال : « والله اني لم أسبق الأمير ثعلبة الا بقضاء وقدر ، لأنه فارس مبرز يحق لغسان أن تفتخر به ولو كان قد اعتاد ركوب جوادي لسبقني » • فلم يجب ثعلبة ببنت شفة ثم أعطى حمـاد القصبة الى هند فرأتها قصيرة فتأملتها فاذا هي مقطوعة بنصال براها بري القلم فأرادت السؤال عن السبب فنظر حماد اليها نظرة خفية كأنه يقول لها لا تفعلي ، فسكتت وفي نفسها أن تعرف سبب بريها •

ثم تقدم حامل الصبغ الأحمر فخضب به صدر جواد حمـاد ،

وكان الظلام قد أسدل نقابه أو كاد فأمر جبلة أن يحتفلوا بالباس الدرع في باحة القصر فأنيرت المشاعل ، وسار الناس مشاة وقد غادروا خيولهم مع سياسها بقرب الخيام ، ودخلوا الحديقة وفيها الأزهار والرياحين ، فنزلوا في بقعة واسعة أعدت لمثل ذلك الاحتفال ضرب فيها سرادق كبير وفرشت أرضه بالبسط ، فعلقوا الشموع في جدرانه ، وجلس جبلة في صدره على وسادة من الحرير الموشى وجلست ابنته الى جانبه وثعلبة الى الجانب الآخر وأجلسوا الشاب على مرتفع ليراه الجميع • ثم أخذت الجواري ينشدن أناشيد التهنئة وجاء بعض رجال جبلة يحمل الدرع ثم وقفت هند وأمارات السرور ظاهرة على وجهها فمشت الى مقعد حماد فوقف لها وركبتاه ترتعشان اذ رآها قادمة لتلبسه الدرع ، فنزع عن رأسه الكوفية والعقال فبانت ملامح وجهه جيدا فازدادت هياما به ولكنها استغربت فيه أمرا استغربه كل من شهد الاحتفال ذلك ان حمادا لما نزع كوفيته ظهر شعر رأسه طويلا حتى غطى ظهره فلم يفهموا معنى ارسال شعره على هذه الصورة •

فتناولت هند الخوذة أولا فوضعتها على رأسه ثم تناولت بقية أجزاء الدرع فألبسته اياها والشعراء ينشدون والجواري يرتلن ، وكلهم فرحون الا ثعلبة فانه لبث صامتا مقطب الوجه ولا سيما لما رأى ابنة عمه تلبس تلك الدرع لحماد بيديها وهي فرحة بفوزه • أما هي فانتهزت فرصة انشغال الناس بالتفرج وهمست في اذن حماد قائلة : « نلتقي غدا في دير بحيراء » •

فلما تم الباس الدرع عادت هند الى مجلسها والناس وقوف ، وبعد قليل جاءت الاسمطة ومدت الموائد وجلس الناس للطعام • وبعد انتهاء العشاء تفرقوا فذهب كل الى سبيله وهم يتحدثون بسباق ذلك اليوم وما كان من حماد • وبقي ثعلبة عند عمه وقد أعمل فكره في مخرج ينجيه مما وقع فيه من الفشل •

أما هند فتظاهرت بالتعب واستأذنت في الذهاب الى غرفتها .

ولما بقي جبلة وثعلبة على انفراد ، قال ثعلبة : « لم يسؤني أن سبق الرجل وانما ساءني أن يأخذ الجائزة غريب لا يعرف له نسب ويحرم منها أمراء غسان وفرسانهم » .

فقال جبلة : « أما أنا فلم يسؤني أنه نال الجائزة فقد ينالها سواه في سباق آخر ، وانما أعجب لتستره وقد فاتني أن أسأله عن نسبه وسأرسل اليه وأسأله في ذلك » .

فقال ثعلبة : « لا بد من معرفة حقيقته فقد يكون جاسوسا أو عينا أرسله اللخميون ملوك الحيرة » .

قال جبلة : « ولكن ملك العراق قد خرج من أيدي اللخميين بعد مقتل النعمان بن المنذر وولاية أياس بن قبيصة من قبيلة طي . هذا الى أنه لا يظهر في هيئة هذا الشاب وشكله ما يدل على جاسوسيته فهو أقرب الى أولاد الأمراء منه الى السوقة ، فاذا كان من الحيرة فهو من أمرائهم لأن الهيبة ظاهرة في وجهه » . فشق ذلك المدح على ثعلبة فعمد الى الروغان فقال : « هل يؤخذ الناس بمظاهرهم ؟ كم من رجل تظنه ملاكا فاذا خبرته أخلف ظنك » .

قال : « سننظر في ذلك غدا » . ثم ذهب كل منهما الى فراشه

- ٣ -

غدر ثعلبة

دخلت هند القصر ، وذهبت توا الى أمها وكانت شديدة الولع بها لأنها كانت الوحيدة الباقية من أولاد كثيرين ، فقبلتها وصعدت

بها الى الطابق العلوي وأمرت الخدم فأعدوا لها الفراش ، ثم جاءتها الماشطة بثياب النوم فنزعت حليها وألبستها جلبابا واسعا من الحرير الناعم الشفاف ثم حلت خصل شعرها وجردت ما في ضفائرها وما على صدرها وما في أذنيها ومعصميها وقدميها من الحلى وكان سريرها من خشب الأرز من أجمل ما صنع الصانعون . وعليه الوسائد الحريرية الملونة ، غطاؤها من أبدع أنواع النسج صنع القسطنطينية وكان في الغرفة مشمعة فيها بضع عشرة شمعة تفوح منها رائحة العنبر . فقد كان من ضروب البذخ عندهم أن يمزجوا الشمع بشيء من الأطياب فاذا أنير تصاعدت عند احراقه رائحة الطيب . وكان في جدران الغرفة صور جميلة أكثرها من رسوم القديسين صنع بيت المقدس كصورة ولادة المسيح وصلبه وصعوده كلها متقنة التصوير ملونة بألوان طبيعية ، وفي بعض جدران الغرفة مرآة هي صفيحة مستديرة من الفضة مصقولة صقلا جعلها كالزجاج تعكس النور والاشباح كمرآة هذه الأيام لأنهم لم يكونوا قد عرفوا المرآة الزجاجية بعد .

فبعد أن لبست هند جلبابها وقفت أمام المرآة فأصلحت شعرها وثوبها ، ثم جلست على السرير ولم تنبس ببنت شفة ، وجلست أمها على وسادة تعجب بجمال ابنتها وبقوامها وبما وهبتها العناية من الصحة والتعقل ، وفي نفسها شيء تريد أن تبديه ، وهند غارقة في بحار الأفكار يمر في ذهنها ما رأته ذلك النهار من الغرائب ، وكلما تذكرت حمادا وسبقه ثعلبة وما أظهره هذا من الحسد وما ادعاه من الفروسية ثم عودته فاشلا ، ازدادت احتقارا له ونفورا منه ، وحبا لحماد . ولكنها كانت الى هذا شديدة الحرص على منزلة أبيها وشرف قبيلتها ، فتخشى أن يعلق قلبها بحماد ويكون من أصل دنيء فيحول ذلك دون رضاء أبيها وعشيرتها فتشقى . فكانت كلما تصورت ذلك اقشعر جسمها فتعلل نفسها بأن من كان في مثل هذه الشهامة وهذه الأخلاق ، مع ما يتجلى في

وجهه من الهيبة لا يمكن أن يكون دنيء الأصل وتعد نفسها أن تكشف حقيقة حاله عندما يلتقيان في دير بحيراء •

وكانت أمهـا (واسمها سعدى) في الخامسة والأربعين من عمرها ، لا يزال الجمال ظاهرا في وجهها • فقد كانت من أجمل بنات غسان وكثيرا مـا تغزل بهـا شعراؤهم فلمـا تزوجها جبلـة حسده كـل أهـل عشيرته عليهـا •

جلست هند على السرير بجلبابها وقد أرخت شعرهـا وحسرت عن زندين مستديرين ممتلئين مشرقين يزينهمـا الوشم • على صورة الصليب وعليه السيد المسيح وصورة مريم العذراء تحمل طفلها • وكأنها المعنية بقول الشاعر :

نالت على يدهـا ما لم تنله يدي   نقشا على معصم أوهت به جلدي
كـأنـه طـرق نمل في أناملهـا   أو روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدهـا من نبل مقلتها   فألبست زندهـا درعا من الزرد

واتكأت على وسادة من ريش النعام أهدتها اليهـا امرأة حاكـم دمشق ، وألقت رأسها على كفها التماسا للراحة وقد ضايقها الجلوس معتدلة بين الرجال طول ذلك النهـار ، ولبثت صامتة لا تتكلـم وأفكارها تائهة فتذكرت القصبة المبرية التي أعطاها حماد اياهـا عند سبقه ، وتذكرت ما بدا على وجه ثعلبة من دلائل السوء والحقد مما جعلها ترتاب في أمره وتود أن تسأل في ذلك ، فمنعها حماد •

وأخيرا ، بدأت أمها الحديث : « لـماذا لم تنزلي حلبـة السباق يا هند ؟ » •

قالت : « لم أر مسوغا ، لأن الفرسان كانوا كثيرين وطال الجدال بين المتسابقين حتى غابت الشمس فلم يبق وقت لركوبي » •

قالت : « وما الذي دعا الى هذا الجدال ؟ »

قالت : « بعد أن تم السباق أراد ثعلبة مسابقة السابق ففشل فزادنا خجلا » .

فتبسمت سعدى تبسما خفيا وقالت : « رأيت الفرسان كثيرين فمن الذي فاز بقصب السبق ؟ »

قالت وقد أبرقت أسرتها : « ناله شاب غريب اسمه حماد لا يعرف أحد نسبه ، فشق ذلك على أبي وعلى ابن عمي ، اذ لا يليق أن يكون السباق في حمانا ويفوز بقصب السبق غريب »

قالت : «ومن يكون الفارسان اللذان تسابقا آخر النهار »

قالت : « ثعلبة ابن عمي وحماد »

قالت « رأيتهما مرتين »

قالت : « تسابقا في أول شوط فسبق حماد ، ولكن ثعلبة أنكر عليه ذلك ونسب السبق الى الفرس فتنازل له حماد عن فرسه وركب هو فرس ثعلبة . ويا ليتنا بقينا على العار الأول لأن ثعلبة عاد مخذولا هذه المرة أيضا . ومما استغربته أن حمادا جاء بالقصبة مبتورة كأنها ضربت بسيف »

فضحكت سعدى وقالت : « ألم يخبركم كيف بريت ؟ » . قالت : « لا ، وقد هممت بالسؤال فرأيت حمادا يريد التكتم فكففت »

فقالت : « بورك فيه ، انه حقا شهم على خلق عظيم ، ولا ريب انه رفيع النسب »

فطربت هند لامتداح أمها حمادا وقالت : « ما معنى ذلك يا أماه ؟ هل تعلمين من أمر هذه القصبة شيئا ؟ »

فهمست قائلة : « نعم . اعلمي يا هند أن القصبة قطعت بسيف ابن عمك ثعلبة » . فبغتت هند واشتاقت الى معرفة تفصيل الخبر فاعتدلت على سريرها وقالت : « كيف وقع ذلك ؟ »

قالت : « ان ابن عمك كان عازما على الفتك بذلك الشاب ، ووالله لو فعل لألبسنا عارا لا تمحوه الأيام »

فازدادت هند استغرابا وقالت لها : « وما أدراك بذلك يا أماه ؟ »

قالت : « رأيتهما رأي العين »

فقالت : « وكيف تيسر لك رؤيتهما ونحن أقرب اليهما منك ولم نرهما »

قالت : « تمهلي لأقص عليك الخبر » . فأصغت هند بكل جوارحها ، فنهضت سعدى الى الباب فأغلقته وجلست تقص عليها الخبر وتحاذر ان يسمعها أحد فقالت : « لما خرجتم جميعا الى الخيام وخرج أكثر من في القصر وراءكم ، بقيت أنا وسليمة المولدة وبعض الخدم ، وكنا نرى المتسابقين يبدأون بالشوط ولكننا لا نرى آخره فخرجنا وفي نفسي أن أرى حلبة السباق وكيف يقتلع السابق القصبة فانه منظر يفرح القلب اذ ليس ألذ من النصر ، فخرجنا من باب الحديقة الخارجي الى البساتين المجاورة على ضفة الغدير لا يرانا أحد ، حتى وصلنا الى مكان تحت شجرة أشرفنا منه على حلبة السباق ونحن على مرمى حجر منها نرى ولا نرى . فلما كان الشوط الأخير رأيت ابن عمك متأخرا عن حماد لا لتعب جواده فاننا كنا نرى الجواد يريد أن يطلق له العنان فيمسكه هو كأنه خاف أن يقع عن ظهره ، والا ذلك لكان السابق فالسبق في الميدان للأفراس اذا أحسن فرسانها ركوبها واستطاعوا الثبات على ظهورها فخوف ثعلبة أكثر عارا عليه من تأخره عنه . أما حماد فأطلق لفرسه العنان وكان يستقبل عرض الفلاة كما تستقبل الأم رضيعها حتى وصل الى القصبة . وفيما هو يقتلعها رأينا ثعلبة وقد هجم واستل سيفه وهم بقتله . فتلقى حماد السيف بالقصبة فقطعت ثم رأينا حمادا وقد اقتلع ثعلبة عن صهوة جواده ورماه أرضا وجثا على صدره فخفنا أن يقتله ، وسمعنا ثعلبة يستجير به

ويستعطفه فنهض عنه وصافحه وعفا عنه وعادا »

فما أتمت سعدى حديثها حتى اختلج قلب هند اعجابا بشهامة حماد ، وازدادت احتقارا لثعلبة وقالت لأمها : « أهذا هو ثعلبة بن الحارث ٠٠؟ أيليق بغسان أن يكون ابن ملكها خسيسا الى هذا الحد ٠٠؟ أيليق به أن يغدر بشاب في ريعان الشباب لا ذنب له الا أنه سبقه ؟٠ هذا الى أنه نزيل بلادنا وله علينا حق الجوار ! »

فرأت أمها انها على حق ، ولكنها لم تشأ أن تمكن البغض في قلبها لابن عمها ، فثعلبة أرفع بني غسان مقاما وليس هناك أكفأ منه زوجا لهند ، ولعل جبلة يرغب في ذلك فاذا نفرت منه كان نفورها سببا لتنغيص عيش ابنتها فقالت لها : « لا بد لنا من تأنيبه ولومه حتى يرعوي ويتخلق بأخلاق من كان في مقامه ونسبه »

فسكتت هند لا عن اقتناع ولكن لترى ما يكون من أمر حماد في الغد ، وهي تعلم أن ذهابها الى الدير لا يتيسر بغير أمها فاذا لحظت هذه اجتماعها بحماد وسألتها عنه ٠ فبماذا تجيب ، وأمها حادة الذهن سريعة الخاطر دقيقة الملاحظة ٠ وفكرت في الأمر فرأت ألا بد لها من عون أمها ، وقد سرها أن سمعتها تنصفه وتثني على شهامته ولكنها رأت أن تجتمع به وحدها أولا لتعرف منه حقيقة حاله وتستطلع أفكاره ثم تطلع أمها على الأمر بالاسلوب الذي تختاره ٠

فقالت لها : « لقد نذرت نذرا لدير بحيراء لم أف به بعد ، ومضت عليه مدة طويلة ويلوح لي أن ما رأيناه في هذا النهار من نكد انما كان لتأخرنا عن الوفاء بالنذر »

قالت : « لعله كذلك ، فان لهذا الدير كرامات كثيرة ولا يغتفر تأجيل النذور فأسرعي الى الوفاء » ٠ قالت : « أرى أن أذهب اليه غدا ان شاء الله »

قالت : « ولكنني لا أستطيع الذهاب معك غداً لأني ذاهبة مع أبيك الى البلقاء فاذا أجلت الأمر بضعة أيام نذهب معاً »

فسرت هند لهذا الحل الذي جاء عفواً فقالت : « لا أراني أستطيع التأجيل ولا أرى ما يدعو الى ذهابك معي فقد أصطحب بعض الخدم متنكرة وأقضي نهاري هناك ثم أعود »

قالت : « افعلي ما بدا لك » . وذهب كل الى فراشه ، أما هند فلم يغمض لها جفن من التفكير فيما مر بها ، وفيما تقوله لحماد اذا اجتمعت به في الغد .

- ٤ -

حماد وابوه

كان حماد قد عاد من صرح الغدير تلك الليلة يتعثر بأذياله لانشغال باله بهند وبما لا يزال يرن في أذنيه من قولها : « سنلتقي غداً في دير بحيراء »

فلما خرج من الصرح لقيه خادمه بقرب الخيام ومعه الفرس ، فنزع الدرع عنه ثم ركب وسار يطلب منزله ، وكان مقيماً في قرية يقال لها « غسام » على ستة أميال غربي مدينة بصرى ، ولم يكن قد أتى الشام منذ بضعة أشهر ، وقد جاءها لأمر لا يعلمه الا واحد . فأقام بمنزله هذا يقضي بعض نهاره فيه ، وبعضه في الصيد يصحبه أبوه وبعض الخدم ، فيخرجون للصيد في ضواحي البلقاء ويعودون وقد جاءوا بصيد كثير

من الغزلان ومـا اليهـا .

وكان قد تمرس بركوب الخيل منذ صباه ، كما كان جواده مـن أحسن الجياد العربية . وكان قد سمع بهند وقرأ شعرا في وصفها قبـل خروجه من بلاده فعلق بهـا سماعا . ثم دعاه أبوه الى أن يصحبه الـى الشام فأسر في نفسه أن يسعى في التقرب منها لظنه أنـه دونها مقاما . فأخذ يتردد على صرح الغدير راكبا أو ماشيا يعلل نفسه برؤيتها . وكـان ينزل الغدير أحيانا فتراه ويراها وهي لا تفقه مراده فاذا سمع باحتفـال تشهده هند هرع اليه عساه أن يلفت نظرها . فكانت اذا رأته ارتاحت لرؤيته وهيبته ورزانته . فلما كان السباق الأخير أظهـر من الفروسية والشهامة وكرم الاخلاق ما زادها ارتياحا لمشاهدته ، واتفق أن نزلـت السباق يوما فتخاطبا وتبادلا نظرات الحب فنزل من قلبها منزلا رفيعـا وصارت تشعر بشوق الى رؤيته اذا غاب ، على أن ميلها هذا لم يكـن يتجاوز حد الارتياح ولم يدر بخلدها أمـر الزواج . على أنها فهمت أنه متيم بها ولم تكن قد ذاقت طعم الهوى على انها آنست في حمـاد اخلاقا تتفق وأخلاقها . فلما شاهدت في السباق شهامته وبراعته رأت في نفسها ميلا شديدا اليه وهذا أول مرة خطر في بالها أمر الاقتران به وشجعهـا ما آنست من ارتياح أمها له ، وامتداحها شهامته والثناء على مروءته ، ولكن أمرا واحدا كـان يعترضها فيوقفها عن عزمهـا وهو تستر حماد ، وجهلها نسبه . فخافت ألا يكون ذا حسب ترتضيه ، أو أن يكون علـى مذهب غير مذهبها ، فان العرب كانوا اذ ذاك على مذاهب شتى ، فيهـم النصارى واليهود والوثنيون والمجوس . وظهر اثناء ذلك الاسلام لكنه لم يكن قد أدرك الشام بعد . وكانت الوثنية والمجوسية واليهوديـة محصورة في جزيرة العـرب : المجوسية في بني تميم ، واليهودية في نمير وبني كنانة وكندة وغيرهم . وكان كثير من اليهود في يثرب ، كخيبر

والأوس والخزرج الذين قدموا يثرب بعد سيل العروم وفيهم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع ولم يكن هؤلاء عربا بل حلفاء للعرب • وكـان عرب الجزيرة يأتون الشام وبصرى للتجارة وفيهم الوثني والمجوسي واليهودي والنصراني ، فيمكثون في مصر أو دمشق أو غيرهما بضعة أسابيع أو بضعة أشهر ثم يعودون •

فخافت هند أن يكون حماد وثنيا أو مجوسيا فيمتنع الزواج بينهما ، وأرادت أن تلقاه في الدير لتتحرى ذلك كله •

ومضى حماد بعد خروجه من القصر يحث جواده وخادمه يجري بجانبه وهو يريد أن يدرك منزله قبل أن يقلق أبوه لغيابه ، وكان قد فارقه فجر ذلك اليوم ولم يعد •

وبينما هو في ذلك سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه ، ثم سمع صوت أبيه يناديه : (حماد) فقال : « نعم يا أبي • هـل خرجت للبحث عني ؟ » •

قال : « كيف لا وقد أبطأت وقد مضى هزيع من الليـل ونحن كما تعلم في ديار الغربة » •

فسكت حماد وسارا معا على فرسيهما حتى مرا ببساتين القـرية بين أشجارها والناس نيام ، فوصلا الى المنزل في أطرافها فدخـلاه وقد أنيرت غرفه بالمصابيح ، فأسرع حماد الى غرفته فجاءوه بالمـاء والثياب فغسل وجهه ويديه ورجليه وبدل ثيابه واتكأ على وسادة وأبوه الى جانبه وكان أبوه ـ واسمه عبد الله ـ أميرا من أمراء العراق اللخميين ذوي اليسار ، بلغ الخامسة والأربعين من عمره ، وقد قضى أكثرهـا في الأسفار والحروب في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق فحنكته التجارب والأيام وعلمته ، وقد انقطع في ذلك العام الى حماد لقضاء مهمة جاءا من أجلها الى بلاد الشام •

فلماجلسا قال عبد الله : « ما الذي أعاق عودتك يا ولدي ؟ » •

قال : « ألم أقل لـــك أمس اني ذاهب الى صرح الغدير للاشتراك في السباق » •

قال : « بلى فهل طال مقامكم في السباق حتى الآن ، وهل كـــان المتسابقون كثيرين ؟ » •

قال : « نعم يا أبتاه ان السباق لم ينته الا بعد الغروب ثم احتفلوا بالباس السابق درع جبلة • أمـــا المتسابقون فكانوا كثيرين وفيهـــم جمـــاعة من أمـــراء غسان في مقدمتهم ثعلبـــة بن الحـــارث صاحب بصرى » •

فقال : « ومن كان الفائز ؟ » •

قال: « ابنك حماد » •

فبغت وقال : « أنت ؟ مرحى مرحى ، هكذا تكون الفروسية ، لقد سبقت أمراء غسان وأنت غريب بينهـــم ، فهـــل لبست الـــدرع وأين هـــي ؟ »

قال : « نلت قصب السبق ولبست الدرع بعد نزاع ، ولكنني شهدت من كرم أخلاق جبلة ورجاله ما حقق لنا مـــا نسمعه عن حسن وفـــادة الغسانيين • أما الدرع فهي معي » •

فقال عبد الله : « وهل نزلت فتاة غسان الى الميدان هذه المرة ، فقد أخبرتني بالأمس وسمعت من كثيرين أنهـــا تحسن الفروسية وكثيرا ما تنزل الى الميدان لمسابقة الفرسان » •

فلما ذكرت هند خفق قلب حمـــاد وظهرت عليه البغتة ولبـــث برهة يفكر ، فأدرك عبد الله حيرته وقال : « ما بالك لا تجيب يا ولدي ؟ »

فانتبه حماد وخجل مما ظهر عليه ، فقال : « لم أفهم مرادك » •

قال : « سألتك عن هند بنت الملك جبلة هـــل نزلت للسباق هذه

المرة ؟ »

قال : « لا يا أبتاه لم تنزل ولكنها شهدت السباق وختمت حفلته بالباس الدرع للسابق » . قال ذلك وامارات السرور والهيام ظاهرة على وجهــه .

فلحظ عبد الله أن حمادا على غير ما عهده ، فأراد سبر غوره فقال : « وكيف رأيت فتاة غسان ، هل هي كما نسمع عنهــا من الجمـــال واللطف ؟ » .

فأبرقت أسرة حماد ، وطفق يصف جمالها ولطفها وصفا يدل عــلى تعلقه بها ، فكان يتكلم وعيناه مشرقتان وقلبه يخفق ، وكثيرا ما كانت تخونه الألفاظ في التعبير عن أوصافها .

فخاف عبد الله على حماد أن يكون قد شغف بها ، فأطرق وظهرت عليه دلائل القلق ، فأتم حمـــاد كلامه وعبد الله مطرق كـــأن أمرا ذا بال اعترضه .

فنظر حماد اليه وقد عجب لحاله وما طرأ عليه من التغيير بغتة وقال له : « ما بالك يا أبتاه هل ساءك من أمري شيء ؟ » .

قال : « لا يا ولدي ولكنني أفكر في هذه الفتاة وما خصها الله به من المواهب والخصال وكذلك تكون بنات الملوك » .

فسر حماد لهذا الاطراء ؛ ولكنه خـــاف التصريح بأكثر من ذلك لئلا ينكر عليه أبوه طموحه الى الظفر باحدى بنات الملوك ، فسكت .

وأراد عبد الله أن يعلم هل هند تبادل حمادا الحب فقال : « أرى هنــدا قد وقعت من قلبك موقعــا عظيمــا ، فهــل تعلــم هي بمـــا تكنه لهـــا ؟ » .

فقال : « لا أعلم منزلتي عندها ، ولكنني لم أر منها نفورا » .

فقال : « قد تكون واهما فحسبت لطيف حديثها حبـــا أو ميلا » .

قال : « لا أظن أن قلبي يخونني ، وقد دلتني بعض القرائن على أنها تحبني » •

فقال : « وكيف تحبك وأنت غريب لم تنتسب ، وبينك وبينها حجاب من منزلتها الرفيعة ؟ »

قال : « أعلم انها تحبني ••• » • وسكت •

فقال عبد الله : « أفصح يا ولدي ولا تخف علي شيئا فأنت تعلم أني زهدت في العالم كله لأجلك ، فاشرح هواك ولا تخف فان ما يسرك يسرني » •

فقال : « قلت لك أنها تحبني » •

قال : « اذن أنت طامع في الزواج منها ؟ »

قال : « لا أدري ، وكل شيء بقضاء وقدر » •

فتحقق عبد الله وقوع حماد في غرام هند ، فبغت وصمت وجعل يتلهى بنتف عثنونه وقد أهمه الأمر كثيرا •

فلما رأى حماد ذلك ظن أنه استعظم عليه أن يطمع في مصاهرة ملك غسان فقال له : « ما بالك لا تتكلم هل ساءك ما ظهر مني ؟ »

فابتدره عبد الله قائلا : « لا يا ولدي لم يسؤني ذلك ولكنني أفكر في أمر عظيم يهمني كما يهمك وقد قطعنا الصحاري والقفاز من أجله وأراك وقد شغلت عنه بأمر آخر » •

قال : « وما تعني بالأمر العظيم وما الذي شغلني عنه • لم أفهم مرادك » •

فقال : « ألم نأت من العراق الى بصرى لنفي نذرا نذرناه لك منذ احدى وعشرين سنة ولم يبق على أجله الا بضعة أيام » • قال : « بلى » •

فقال : « فمالي أراك قد شغلت عنه بالحب والحسان ؟ »

فخجل حماد عند سماع هذا التوبيخ من أبيه فقال : « وهل يؤخذ من كلامي اني مشتغل بالحب ؟ » • فقال عبد الله : « أتظنني غافلا أم تحسب دلائل الحب تخفى على البصير ؟ » •

فتحير حماد ولم يدر كيف يدفع قول أبيه ، ورأى الأجدر به أن يبوح له اذ لا غنى عنه في اتمام قصده فقال : « وهب أني أحببتها وأحبتني ، فهل هذا يمنع الوفاء بالنذر ، وهو قص شعر رأسي في دير بحيراء » •

قال عبد الله : « أن هناك صلة كبرى لا يمكنني التصريح بها الا يوم تقص شعرك ، وستعلم اذ ذاك أمورا أنت غافل عنها الآن ، فلا تلمني على موقفي في أمر حبك لبنت ملك غسان • أنا أعلم أن حبك لها شرف ، لا سيما اذا كانت هي تحبك • ولكنني لا أستطيع التصريح بشيء الا في اليوم المضروب لوفاء النذر وهو يوم أحد الشعانين • فنحن الآن في الصوم الكبير ولم يبق الا بضعة أيام فتتم السنة الحادية والعشرون من ميلادك فنقص لك شعرك ونكشف حقيقة أمرك فتدخل عالما جديدا وتطلع على أسرار ربما كان فيها ما يحول بينك وبين هند » •

فتعجب حماد واشتاق الى مجيء يوم الشعانين شوقا زائدا ، وأخذ يفكر فيما سمعه ثم قال : « وماذا عسى أن يحول بيني وبينها ؟ »

قال : « قلت لك اني لا أقدر على التصريح بأكثر من ذلك ، فأرى أن تتبصر وتتأنى ففي التأني السلامة » •

وكان في عزم حماد أن يطلعه على ما تواعدا عليه من اللقاء في دير بحيراء فلما رأى منه هذا التهويل حسب أنه يحتال لصرفه عن هند ، فكتم أمره •

وكان الليل قد انتصف وغلب التعب والنعاس على حماد ، ولحظ

عبد الله ذلك فقال : « هلم بنا الى الفراش يا بني ، الى أن يقضي الله بما يشاء . وأوصيك ألا تقطع أمرا أو تصله الا بعد يوم الشعانين فانك اذا فعلت شيئا بعد ذلك فانما تفعله عن بصيرة » .

فذهب حماد الى فراشه وقد أهمه أمر يوم الشعانين حتى كاد ينسيه هندا وموعدها ، وود أن يفعل ما أمره أبوه ، ولكن عواطفه غلبت عليه فبات ينتظر صباح الغد انتظار الظمآن للماء فقضى معظم الليل ولم يغمض له جفن وهو يتردد بين حديث الشعانين وحديث هند حتى كان آخر الليل فنام قليلا .

— ٥ —

في دير بحيراء

استيقظ حماد في الفجر ، فلبس ثيابه وعبد الله لا يزال نائما ، وأراد أن يوقظه ليستأذنه في الذهاب الى بصرى بحجة التفرج فخشي أن يصحبه اليها ، وعزم على الخروج وحده خفية .. فركب جواده ولبس الكوفية والعقال ، وأرسل القباء على كتفيه وظهره كالعباءة ، ثم سار مشرقا قاصدا الى مدينة بصرى ، ولم يصطحب أحدا من الخدم اخفاء لغرضه . وكانت الطريق بين غسان وبصرى على خط مستقيم كأنها عبدت بالقدة والفادن والبركار ، مرصوفة بالحجارة الصلدة شأن جميع الطرق الرومانية وقد تأكلت الحجارة لكثرة مرور عجلات مركباتهم ، وكان يحدها من الجانبين حائطان ضخمان ارتفاع كل منهما ذراع . ولم

يسر ساعة حتى أطل على بصرى وأول ما شاهده منهـا حوضها الغربي الكبير الواقع خارج السور وهو خزان للمياه طوله ١،٣٥٠ قدمـا وعرضه ٦٥٠ قدما • وكـان لبصرى أحواض أخرى في الشرق والشمال لخزن المـاء خوفا من الجدب لبعدها عن الانهر والغدران •

فلمـا دنا من الحوض عرج عليه ووقف يتأمل اتساعـه حتى كاد يحسبه بحيرة كبيرة لأنه كان قد بلغ معظم امتلائه في أوائل الربيـع ، ثم صعد الى مرتفع من الارض ليرى المدينة منه ، ولم يكن قد دخلهـا بعد ولكنه قرأ عنهـا في كتب الفرس والكلدان وعرف أنهـا واقعة جنوبي حوران شرقي نهر الاردن ، وهي تبعد حوالي ٩٠ كيلومترا الى الجنوب الشرقي عن دمشق ، وحوالي ١٣٠ كيلومترا الى الشمال الشرقي لبيت المقدس • وهي مدينة قديمة العهـد عاصرت دول اليهـود فاليونـان فالرومـان •

فأشرف عليهـا وقد أشرقت الشمس ، فوجدهـا مربعة الشكل تقريبا تملأ بقعة كبيرة من الارض المنبسطة ، وحولها سور يزيـد محيطه علـى أربعة أميال ، ورأى خارج السور البساتين والاشجار والكروم وسائر أصناف الغرس ، كمـا رأى من وراء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الافق • وقد أعجبه منظر المياه في الاحواض حول المدينة تتلألأ بانكسار الاشعة عنها ، وشاهد في المدينة بنايات هائلة مغبرة لأن حجرهـا من الصنف الحوراني الاسمر المشهور •

واشتاقت نفسه الى مشاهدة أسواق المدينة ، فسار نحو بـابها الغربي فرأى عنده القوافل ، وفيها الجمال والبغال والحمير ، بعضهـا قادم من العراق يحمل الاقمشة الفارسية ، وبعضهـا من اليمن يحمل الاطياب والمر واللبان • وشاهد قوافل أخرى تحمل البضائع الرومانية وسائر مصنوعات الشام • وتأمل الباب فاذا هو مرتفع هـائل مصنوع

على النمط الروماني ، وفيه العضائد والاعمدة والنقوش ، وعلى عتبته من الاعلى نقش باللغة اللاتينية لم يستطع قراءته فهم بالدخول من ذلك الباب فرأى الطريق مرصوفا بالحجارة والناس يتزاحمون فيه ذهابا وايابا فآثر الترجل فدخل وقاد الجواد وراءه في طريق المدينة الاكبر وهو يقطعها من الغرب الى الشرق ، ويقطعه شارع آخر مثله من الشمال الى الجنوب ، وهما أكبر طرق المدينة ومنهما تتفرع الطرق الصغيرة والدروب والازقة والحارات على زوايا قائمة • فعجب لنظام تلك الطرق وحسن هندامها لانه لم ير لها شبيهها ولا في المدائن عاصمة الفرس في ذلك العهد •

ولم يكد يخطو في ذلك الطريق بضع خطوات حتى تراءت له عن بعد قنطرة قائمة في عرض الطريق ، فعلم انها قوس نصر اعتاد الرومانيون بناءها تذكارا لنصر أو لاحتفال يفخرون به ، فلما دنا من القنطرة رآها مؤلفة من ثلاث أقواس : قوس متوسطة كبيرة ، وقوسين جانبيتين صغيرتين • وعلو القنطرة أربعون قدما وعرضها أربعون وسمكها عشرون • وكلها مبنية بأحجار ضخمة قائمة على عضائد مهندمة • وفي أعلى القوس كتابة باللاتينية تشوق حماد الى معرفة معناها ، فالتفت الى أحد أصحاب الحوانيت وقد عرف من شكل أنفه أنه روماني ، وكلمه باللغة الكلدانية الممزوجة بالعبرانية • فالتفت الرجل الى زميل له جالس بالقرب منه كأنه يطلب اليه أن يترجم له ، فجاء هذا الى حماد وأجابه عن سؤاله الخاص بتلك الكتابة بقوله : « معناها أن يوليوس يوليانوس قائد الفرقة الاولى البرطية هو الذي بناها » • فأعجب حماد ببذخ الرومان وأيقن أنهم أقرب الى العظمة والترف من ملوك فارس ، وقال في نفسه : « اذا كانت هذه حالهم في دور الانحطاط ، فما بالك بهم حين كانوا في ابان مجدهم » • ثم مر من تحت القوس وظل

سائرا حتى وصل الى مزدحم من الناس عظيم ، عند مفترق الطرق حيث يلتقي الطريقان الكبيران وهناك الحوانيت الكبيرة وباعة الاقمشة الثمينة . ورأى في أحد أركان المفترق بناء شاهقا ذا أروقة ونوافذ وأعمدة ونقوش بديعة فسأل عنه فقيل له : « ان هذا هيكل بناه الرومان لعبادة الاوثان قبل تنصر قياصرتهم ، وأما الآن فقد اتخذوا بعضه كنيسة والبعض الآخر لسكن كبار رجال حامية الروم في بصرى » . والتفت الى ما حوله فاذا هو في منتصف المدينة حيث تمتد أربعة طرق كبيرة تنتهي عند السور بأربعة أبواب : غربي وشرقي وشمالي وجنوبي . ثم توجه الى الطرق الاخرى ليمر منها ويخرج من الباب الشرقي ومنه الى الدير ، فشاهد بين أبنية بصرى قصورا شاهقة معظمها كنائس وبعضها من الهياكل التي بنيت على عهد الروم قبل تنصرهم ، ومنها ملعب بديع كانوا يزاولون فيه ألعاب السباق والمصارعة وما اليها .

وشاهد على الابنية كتابة ، بعضها نقوش وبعضها أصبغة . وأكثرها مكتوب باليونانية واللاتينية ، وبعضها بالبنطية ، فأخذ يتأمل ما هنالك من الرساتيق وفيها التجار وأكثرهم من الغرباء ، بينهم الدمشقي والحلبي والرومي والفارسي والعراقي . ثم وصل الى سوق الصناع فوجد أكثر الصاغة من الفرس والروم ، وصناع الاقمشة الحريرية من الدمشقيين . ومر بسوق الأسلحة وفيها صناع السيوف الدمشقية الشهيرة وأكثرهم من أهل دمشق . ولاحظ أن أبنية بصرى على اختلاف أشكالها مسقوفة بالحجر عقدا على شكل القبور ، ورأى الناس تتزاحم في الاسواق رجالا ونساء ، فيهم الوطنيون ولغتهم الارامية أو البنطية ، وفيهم الروم ولغتهم اللاتينية ، وبعضهم يتكلم اليونانية . ورأى جماعة كبيرة من العرب الغساسنة لا يزالون على

بداوتهم لانهم يقيمون خارج المدينة ولا يدخلونها الا لحاجة . فعرفهم من لباسهم البدوي وأعجب بكل ما رآه هناك حتى كاد ينسى موعده مع هند ، ثم انتبه فاذا بالشمس قد كادت تبلغ الضحى فهرول حتى خرج من الباب الشرقي قاصدا الى الدير وقد عادت اليه هواجسه فامتطى حماد جواده ومضى به حتى وصل الى مرتفع أشرف منه على بناء شاهق كبير حوله الاشجار والبساتين فسأل عنه رجلا مر به هناك ممتطيا حمارا وعليه قيافة أهل بصرى ، فقال الرجل : « هذا دير بحيراء يا سيدي » .

فساق حماد جواده حتى دنا من الدير وهو يخشى أن تكون هند قد سبقته اليه ، مع علمه بأن المسافة بين الدير وقصر الغدير لا يمكن قطعها في أقل من بضع ساعات فلا يتيسر لها المجيء قبل الظهر . وأخذ يتأمل الدير فاذا هو بناءان : أحدهما كبير فيه قبة فوقها صليب وهو بناء الكنيسة والآخر صومعة على رابية . فترجل وشد جواده الى شجرة هناك ، ثم مشى نحو الكنيسة فوجدها مبنية على النمط الروماني ، فدخل صحنها حتى جاء البيعة فرأى المكان ديرا وفيه كنيسة وشاهد الرهبان والقسس وكلهم من الروم يتكلمون اللغة اليونانية ، وهي لغة الكنيسة الشرقية الى ذلك العهد وبها تؤلف الكتب الدينية ، وسمع بعضهم يتكلم اللاتينية وهي لغة الحكومة وبها تصدر أوامرها ، وبعضهم يتكلم اللغة السريانية المزوجة بالعبرانية وهي لغة أهل البلاد بعد الفتح . وشاهد آخرين يتكلمون لغات أخرى ، فسأل عن هذا الاختلاط فقيل له أن مدينة بصرى مركز أسقفية بلاد العرب الكبرى ، وفيها يقيم رئيس الاساقفة ومنها يرسل الاساقفة الى ما يتبعها من الاسقفيات ، فدخل البيعة وزار هيكلها وقبل صورها . ثم سأل عن دير بحيراء فقيل له : « هو هذه الصومعة القائمة على الرابية القريبة من الدير » .

فسار اليه وعجب لطراز بنائه ولم يكد يصدق انه بيت اذ وجده خمسة أحجار ضخمة أربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع واحد ورأى الناس يفتحونه ويغلقونه بسهولة . فسأل رجلا واقفا بجانبه لاح له أنه من أهل دمشق : « ما هذا البناء وكيف يصنعون الابواب من الحجارة ؟ » فقال الرجل : « ان هذا النمط من البناء كثير في بلاد حوران لأن أرضهم صخرية والاخشاب فيها قليلة فيصنعون أبوابهم ونوافذ بيوتهم وأجنحتها من الحجر ، وقد يبنون منزلا كثير الغرف وفيه النوافذ والابواب والاروقة والسقف ولا يدخلون في بنائه شيئا من الخشب قط » .

فوقف هناك ينظر الى ذلك البناء الغريب ولم يكد يهتدي الى الباب لو لم ير الناس يخرجون منه فصعد الى الصومعة حتى وقف عند بابها فاذا هي غرفة مظلمة أشبه شيء بالمغارة لخلوها من النوافذ الا نافذة ضيقة في بعض جوانبها ، ودخل فرأى أرض الغرفة حجرا واحدا أيضا وفي جدرانها صور وأمام كل صورة مصباح ضعيف النور . وفي بعض جوانب المكان راهب هرم أرسل لحيته على صدره وتجعد جلد وجهه الا أنفه فانه ما زال بارزا كبيرا ، وبيده مسبحة طويلة ، وقد جلس الاربعاء على حجر منحوت كالمقعد والتف بثوبه الرهباني والناس يدخلون اليه يتبركون بتقبيل كفه وهو يتمتم كأنه يدعو لهم . فمن زاره سار الى الدير بعد ذلك لزيارة الكنيسة وبجوار الكنيسة غرف لمن أراد الاستراحة أو الاقامة .

فتأثر حماد بمنظر ذلك الراهب الهرم اذ تمثلت له فيه مظاهر الشيخوخة واضحة وضوحا تاما ولكنه لحظ أمرا واحدا لفت نظره ، وذلك أنه رأى لباس هذا الراهب كلباس رهبان النساطرة في العراق وكان قد شاهد كثيرين منهم هناك ، فتقدم نحوه وقبل يده فنظر

اليه الراهب وتأمله كأنه يعرفه وأمره بالجلوس فجلس وهو أكثر رغبة منه في مجالسته لانه ود كثيرا أن يعرف قصة ذلك البناء • وكـان حماد قد تفقه في علوم تلك الايام في مدرسة الرهبان الشهيرة بالعراق فتثقف وصار محبا للتعلم ، فقال له الراهب : « لعلـك من عرب العراق يـا ولدي » فتعجب حمـاد لسؤاله فقال : « نعم يا سيدي وكيف عرفت ذلـك ؟ » •

قال : « عرفته من ملامح وجهك لاني عاشرت عرب العراق زمنا • وهل أنت مقيم هنا أم جئت زائرا ؟ » •

وقال : « جئت لأفي بنذر علي لهذا الدير » •

قال : « وما نذرك ؟ » •

قال : « نذر أبي الا يقص شعري الا في هذا الدير ، وأنه لا يقصه الا بعد مضي السنة الحادية والعشرين من عمري وسيكون ذلك في أحـد الشعانين القادم فجئت اليوم للتبرك والتمتع بمنظر هذه الصومعة اذ كثيرا ما حدثنا أهل بصرى عن الراهب بحيراء • أأنت هو يـا سيدي ؟ »

قال : « لا يا ولدي ان الذي تسأل عنه قتله بعض الاشرار غيلة » •

قال : « كيف قتلوه ولماذا ؟ • فاني شديد الميل الى استطلاع خبره ؟ »

فتنهد الشيخ تنهدا عميقا وحدق ببصره كأن شبابه عاد اليه وأخذ يمشط لحيته بأصابعه وقال : « أما بحيراء فهو من نعم الله علـى بنـي الانسان • ولا أظن الأرض تجود بمثله • وقد وقعت يا بني على الخبـير بأمره • فاعلم أن اسمه الحقيقي ليس بحيراء بل يوحنـا واما بحيراء فلفظ كلداني معناه العالم المدقق ، لقبوه به لتبحره في العلوم »

فقال حماد : « وهل عرفته يا سيدي عن قرب ؟ »

قال : « اني أحد تلامذته ، وقد تتلمذ له كثيرون غـيري ، منهـم سلمان الفارسي • أما أنا فقد رافقته من أول ظهوره الـى أواخر أيامه»

فازداد حماد ميلا الى معرفة حقيقة بحيراء فقال : « وما حكايته ؟ فقد شوقتني الى معرفتها »

فقال : « اعلم يا ولدي ان يوحنا بحيراء كان راهبا نسطوريا على مذهب آريوس ونسطور ، ولا أظنك تجهل هذا المذهب وان يكن أتباعه الآن قليلين لمخالفته مذهب القياصرة » .

قال حماد : « نعم أعرف كل شيء عنه ، وقد اطلعت على دقائقه على أحسن عارفيه في المدرسة »

فقال الراهب : « اذن لا حاجة بنا الى شرحه ، فأنت تعلم أن أساس هذا المذهب انكار ألوهية السيد المسيح وان تسميته الاها غير جائزة ، فانتحلوا له اسما فقالوا : (يجب ان يسمى كلمة الله وأن والدته مريم يجب أن تدعى مظهر الناسوت لا والدة الله) . وأنا أعترف لك بأني تلميذ بحيراء ، وأعترف أيضا بأني تلميذه في كل شيء ما خلا هذا المذهب ، فقد قضيت أيام صحبتي له في جدال دائم معه فلم يقنع أحدنا الآخر . أما في العلوم الأخرى فله علي الفضل الاكبر فقد أخذت عنه علوم الفلك والحساب والطوالع وسائر علوم هذه الايام . وكان يقيم أولا بدير فيما بين النهرين بالعراق وكنت أختلف اليه هناك أتلقى عنه بعض العلوم ولم أكن أعرف ما يذهب اليه . فلما اطلع رئيس الدير على تمذهبه بالأريوسية غضب عليه وأخرجه من الدير . فسار قاصدا الى دير طور سيناء في العقبة على حدود مصر ، فذهبت معه للانتفاع بعلمه وحبا في خيره لعلي أقنعه وأرده الى مذهبنا ، فرحب بنا رهبان طورسيناء وأعجبوا بعلمه وفضله فأقمنا هناك زمنا ثم جاء كتاب من رئيس ديره الاول الى رئيس دير طورسيناء أن يخرجه من ديره . فأمره بذلك أو يرجع عن مذهبه . فأبى وخرج وأنا معه ، ثم أتينا هذا الدير وأقمنا بهذه الصومعة معا ، الى أن ذهب الى مكان في جزيرة العرب لم يسمه ولم أعد أراه من ذلك الحين ، ثم وقع الى أن اليهود قتلوه غيلة »

فقال حماد : « ألا تعلم اسم المكان الذي ذهب اليه ؟ »

قال : « كلا ولكنني ظننته ذهب الى الحجاز لحادث جرى له على مشهد مني منذ أربعين سنة ونيف » •

قال : « وما هذا الحادث ؟ » •

قال : « جرت عادة القوافل القادمة من بلاد العرب أو غيرها أن تقف هنا للاستراحة من حر الصحراء والاستقاء ، فيجلس بحيراء بينهم ولا سيما اذا كانوا من الوثنيين أو المجوس ، وكنت أجلس معه أيضا • فيأخذ في تعليمهم عبادة الله ولا يريد بهم الا خيرا ، وكان يعتقد أن الله ظهر له في الرؤيا وأنبأه أنه سيكون سببا لهداية بني اسماعيل سكان جزيرة العرب • لأن العرب كانوا يعبدون الكواكب والاوثان الا جماعة من النصارى أو اليهود ، وجماعة أخرى كانت تقر بالخالق وتنكر البعث • فكان بحيراء يفكر ليلا ونهارا في مصير تلك الجزيرة وأهلها ، فرأى مرة رؤيا قصها علينا قال : (رأيت فتى جميل المنظر شهما ، مولده ببرج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل ، علمت أنه هو الذي سيهدي أبناء جلدته بني اسماعيل الى معرفة الله ، وانه يقوي أمرهم ويشد أزرهم ويجمع كلمتهم فيذللون أبناء عمهم بني اسحاق ويتسلطون عليهم حينا من الدهر ، كما أشار الى ذلك دانيال في نبوءته انه يخرج من العرب اثنتا عشرة دولة • ثم اتفق منذ حوالي أربعين سنة أي في نحو سنة ٤٨٠ من التاريخ البصروي الذي يبدأ سنة ١٠٥ بعد الميلاد ، وهي السنة التي اتخذ فيها الرومان بصرى عاصمة لولاية حوران ودعوها تروجانا الجديدة ، ان وصلت قافلة من قوافل الحجاز وصلت الى هذه الساحة وفيها جماعة كبيرة من عرب قريش الذين يقيمون بمكة ، وعندهم مقام شهير يؤمه الناس من سائر أنحاء جزيرة العرب وغيرها يسمى الكعبة • وعرب قريش هؤلاء كانوا حجاب الكعبة ولهم نسب وشرف يتصل باسماعيل • فنزلت

القافلة تحت تلك الشجرة الكبيرة التي تراها شرقي هذه الصومعة فظللتهم جميعا ، وعقلوا جمالهم وربطوا حميرهم وأنزلوا الاحمال التماسا للراحة ثم قدموا للاستقاء . فخرج بحيراء للتحدث اليهم وتعليمهم فشاهد بينهم غلاما جميلا تلوح عليه ملامح المهابة والنجابة والذكاء ، فحالما رآه بغت والتفت الي وقال : (أنظر الى هذا الغلام فانه مولود في البرج الذي قلت لكم عنه وهو الذي سيهدي بني اسماعيل . ثم سأل كبير التجار عنه ، فتقدم رجل كهل تتجلى في وجهه دلائل الجلال والوقار ، وسأله : (من يكون هذا الغلام ؟) . فقال : (هو ابن أخي) . فأنبأه بحيراء بمستقبله وقال له : (احذر اليهود فانهم اذا عرفوه كادوا له كيدا) . ثم عرف ان اسم الفتى محمد ، واسم عمه أبو طالب . وأقام أولئك الركب عندنا حينا وقد آنست من بحيراء اكراما لهم وترحابا بهم لم أعهده مع غيرهم . ثم ساروا الى بصرى فالشام وعادوا بعد ذلك الى مكة ، ثم كانوا كلما مروا بنا أقاموا عندنا كالعادة » .

فقال حماد : « وهل صحت نبوءة بحيراء ؟ » .

قال : « نعم فان ذلك الغلام القرشي أصبح نبيا كبيرا تسمى دياناته الاسلام ، وقد انتشرت سطوته في كل جزيرة العرب ويسمى أتباعه المسلمين . ويحدثنا التجار القادمون من الحجاز عن أعماله وحروبه وانتصاراته . فسكان جزيرة العرب بعد أن كانوا قبائل مشتتة يغزو بعضها بعضا اتحدوا قلبا وقالبا تحت لوائه ، ولا يبعد أن يحمل بهم على الشام والعراق » .

فقال حماد : أظنني سمعت شيئا عن هذا النبي يوم كنت في العراق ، فما رأيك اذا حمل على الشام والعراق ؟ .

فبهت الشيخ وفكر برهة واغرورقت عيناه بالدموع وقال : « آه يا ولدي أظنه يستولي عليهما جميعا لما نعلمه من اختلال الاحوال ، فان قيصر الروم لم يكد ينتهي من حروبه مع الفرس بعد ، وهذه قلاعنا

وحصوننا لا تزال متهدمة وحكامنا في شاغل عن ترميمها بالانقسامات الدينية التي هي أصل الشقاء . الا ترى بطاركتنا في جدال دائم على أمور ما أنزل الله بها من سلطـان ، فبطريرك الاسكندرية يقاوم بطريرك القسطنطينية ، وبطريرك انطاكية يخالف هذا وذاك . وقد كانت دياتنا واحدة لأن السيد المسيح واحد علم تعليما واحدا فأبت مطامع بني الانسان الا الانقسام فتعددت الفرق المسيحية وأشهرها الآن ثلاث وهي : الملكية القائلون بقول مركيانوس الملك على عهد الشقاق الواقع بين بسطوريوس وكرلس وهم الروم . واليعقوبية القائلون بمقالة كيرلس الاسكندري ويعقوب البردعاني وساويروس صاحب كرسي انطاكية . والنسطورية القائلون بقول نسطورس . وترى الشعوب منقسمة أيضا مثل هذا الانقسام حتى تمكن العداء بينها . حمانا الله من عواقب الغرور ، ناهيك باليهود وهم ألد أعداء الدولة وقد يبذلون أموالهم وأرواحهم في سبيل خـرابهـا »

وما أتم الراهب الشيخ كلامه حتى انهكه التعب وأثـر في أعصابه ما قاله عن حال الروم وما خافه عليهم من سطوة العرب ، فتململ وتنفس الصعداء وتزحزح من مكانه كأنه يريد أن يبكي ، فنهض حماد وقد علم أمورا لم يكن عالما بها قبلا ومـال ميلا كثيرا الى معرفة التفصيل ولكنه خاف أن يثقل عـلى الشيخ بعدمـا رأى من تعبه ومللـه ، وشغل عن ذلك باستبطاء مجيء هند . فودع الراهب وقبل يده وطلب رضاه وخرج فاذا بالشمس قد مالت عن خط الهاجرة ، فجلس على حجر منحوت قائم تحت شجرة كبيرة لعب النسيم بأوراقها وتطايرت الطيور بين أغصانها ، فألقى ظهره على جذعها وأخذ يفكر فيما سمعه من ذلك الراهب ، فغلب عليه الملل وهو لم ينم أمس الا قليلا فغمضت عينـاه لحظة رأى فيها حلما شبيها بما سمعه من الراهب فخيل اليه أنه سار الى المدينة بالحجاز وشاهد المسلمين عاكفين على صلواتهم وأن نبيهم قال له : « أنت لست

حمادا وستلاقي عذابا ولكنك تجد بعد العسر يسرا » .

ثم أفاق على صوت صهيل الخيل ، فالتفت فاذا بفارستين بلباس أميرات البلقاء وراءهما خادمتان وقفتا تحت شجرة بالقرب منه فنهض لتوه فرآهما ملثمتين ، ولكنه عرف من الفرسين أنهما هند واحدى خادماتها ، فتشاغل ببعض الشؤون لئلا ينتبه أحد الى حاله ولبث ينتظر اشارتها وقلبه يخفق فمشت نحو الصومعة وهو واقف لا يبدي حراكا حتى صعدت اليها ودخلت الباب فانتظر هنيهة فلم تعد . فمشى نحو الصومعة يتردد بين الصعود والبقاء فاذا باحدى الملثمتين قد عادت نحوه فعرف من مشيتها أنها ليست هندا . فلما دنت منه قالت له أتعرف تاجرا يبيع الحلى كان هنا ، فأدرك أن هندا تسأل عنه باسم أحد باعة الحلي لتخفي أمره على الخادمة فأجاب على الفور : « أنا هو ذلك التاجر فما غرضك ؟ »

فقالت : « ان سيدتي تسأل عنك » .

قال : « وهل تريد ابتياع شيء الآن ؟ »

قالت : « نعم فأين بضاعتك ؟ » .

قال : « في حانوتي على مقربة من هذا المكان ، ولكن الحلى التي أبيعها غالية الثمن لا يستطيع اقتناءها الا الاغنياء فاذا كانت سيدتك من أهل اليسار جئتها بما تريد » .

فتبسمت المرأة مستخفة وقالت : « نعم انها من أكثر نساء حوران والبلقاء ثراء »

فقال : « أين هي ؟ » . قالت : « في الصومعة . تعال »

فصعد حتى دخل الصومعة ، فرأى هندا جالسة على مقعد من الحجر فألقى التحية وتجاهل وسأل : « أين التي تريد الحلى ؟ »

فقالت هند : « هي أنا فأين حليك ؟ »

قال : « هي في دكاني على مقربة من هذا المكان ، هل أذهب وآتي

بهـا ؟ »

قالت : « لا ندري ما نحتاج اليه منها ، فربما أتيت بما لا حـاجة لنا به وتركت ما كانت اليه حاجتنـا »

فقال : « قولي ما أنواع الحلى التي تريدينها فآتيك بأحسن ضروبها وأعـود حـالا »

قالت : « نحتاج الى أقراط من اللؤلؤ وأساور من الذهب المرصع فأت بأحسن ما عندك منهـا »

فقال : « سمعا وطاعة » . وعاد فركب فرسه وسار بأسرع من لمح البصر حتى دخل بصرى وهرول الى سوق الصاغة ، وكان لا يخلـو جيبه من بدرة لما قد يحتاج اليه في غربته ، فابتاع أساور وبضعة أقراط وعاد الى الصومعة ولقيه خادم وقال له : « لعلك بائع الحلـي ؟ » . قـال : « نعم » . قال : « ان مولاتنا تنتظرك في غرفة من غرف دير بحيراء ». . فعاد الى الدير فلقيته الخادم ودخلت به على سيدتها وهي في غرفة وحدها . وكانت قبل مجيئه مضطربة استعدادا لساعة اللقاء ولكنها تجلدت لئـلا تلحظ خادمتها شيئا يكشف حقيقة أمرها . فلما دخل استقبلته كما تستقبل رجـلا غريبا فأمرت لـه بوسادة جلس عليها وجلست هي علـى وسادة أخـرى .

فوضع حماد الأساور والأقراط بين يديهـا فقلبتها ، وتظاهـرت بأنها أعجبت باحداها . فقالت : « ما رأيك في هذه الأساور ؟ » . قال : « هي من صنع القسطنطينية وصناعتها دقيقة يفضلها الراسخون بالعلم على هذا النوع الآخر من صنع خراسان »

قالت له : « وما ثمنها ؟ » . قال : « انها غالية الثمن يا مولاتي ، فهي تساوي خمسمائة دينار » . ولم تكن تساوي حقيقة الا عشرة دنانير .

قالت : « لا بأس ، ولكنني لا أستطيع ابتياعها ما لم أرها لأمي »

فقال حماد : « حسنا تفعلين وأين تقيم أمك ؟ »

قالت : « على مقربة من هذا المكان ، ولكنك لا تعرف من نحن ولذا أرسلها مع هذه الفتاة وأبقى أنا هنا ريثما تعود ، فاذا استحسنتها أمي أرسلت الثمن فاشتريتها والا فاني أعيدها اليك كما هي » .

فقال : « ولكنني لا أستطيع البقاء هنا طويلا » .

قالت : « لا تخف . فان الفتاة ستسير على جواد سريع ، واذا أبطأت عوضنا عليك الخسارة فاطمئن » .

فقال : « أرجو اذن أن تحتفظ بالأساور لئلا يقع شيء من أحجارها » .

قالت : « لا تخف انها أحرص منك عليها ، ولولا ذلك لأرسلتها مع سواها من الخدم وهي أيضا متى عادت نالت حظها من بضاعتك » .

قال حسنا .

فأخذت الأساور ووضعتها في منديل أعطته الى الخادم وقالت لها : « اركبي الفرس وخذي معك الخادمين وأسرعي الى أمي واعرضي هذه الأساور عليها واخبريها عن الثمن كما سمعت وعودي بالجواب حالا » .

قالت : « سمعا وطاعة » . وركبت وسارت وفي قلبها أن تحظى من مولاتها بهدية من تلك الحلى .

أما هند وحماد فبقيا في الغرفة على انفراد ، فقضيا برهة صامتين مطرقين والهوى يتكلم ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « لقد أحسنت فهم مرادي يا حماد » .

فنظر اليها وتنهد وقال : « كيف لا أفهم مرادك ، وأنت اذا نطقت فانما تنطقين بلساني ، أو فكرت فانما تفكرين بجناني ؟ » . فأطرقت حياء تبعثر الحلى الملقاة أمامها كأنها تريد التكلم ويمنعها الحياء . ولبث

هو ينظر الى وجهها وقد هـام بحسنها وأخذ بما يتجلى في محياها من نضارة الشباب وما ينبعث من عينيها من أشعة الذكاء ، وسكت ينتظر منها بدء الحديث .

فقالت : « أظنك تستخف بي وتحسبني جريئة ؟ » .

فتنهد وقال : « ما كنت أبخس فتاة غسان حقها أو أجحد النعمة التي أولتني اياها بهذا الاجتماع ، وكيف أحظى برؤية بنت ملك غسان ولا أعد نفسي أسعد خلق الله ؟ »

قالت : « ان هذه الملكة أصبحت أسيرة بكماء لا تعرف ما تقول فقل أنت ، لعلك تعبر عن بعض ما بي » .

قال : « اذا سمحت مولاتي فاني أسيرها وعبدها ولا أحسب تنازلها الا منة وكرما » .

قالت : « أتعلم يا حماد لماذا اجتمعنا في هذا البيت وهـو مـن بيوت الله ؟ »

قال : « لا أدري يا سيدتي فلعلك أردت تأنيبي لأني تطاولـت الى مقـام الملوك »

قالت : « كلا فانك لم تفهم مرادي ولا أنت تتكلـم بلساني ولا تفكـر بجناني »

قال : « ماذا اذن ؟ »

قالت وقد توردت وجنتاها : « جئت لأهنئك بتلك الدرع دليل سبقك فأنت السابق ، وفي الاشارة غني »

قال : « أما تلك الدرع فانها أثمن ما نلت وما سأنال من خيرات هذا العالم فهي تقيني نوائب الزمان ، وهي تعويذة أتقي بهـا حبائـل الشيطان . ولكن من أين لي أن أكون السابق وأنا رجل غريب لا تعرفون من أمري شيئا والمقام مقام ملوك ؟ »

فنظرت اليه بطرف عينها وقد ذبل جفناها وابرقت حدقتاها وقالت : « ولكن لكل مجتهد نصيب وما الملك يا حماد الا من ملك القلـوب وتسلط على العواطف لا من جمع الأموال وحاز حطام الدنيا الفانية . وما السابق الفائز الا من حاز قصب السباق ولبس الدرع على مشهد من الناس » .

فالتفت اليها وقد شعر بميلها اليه وقال : « ذلـك سخاء عهدناه في بني غسان ، فهـل تعطفين على أسيرك بكلمـة تشفي غليلـه وتبرد لظـاه » .

فتنهدت وقد اشتد بها الهيام ، وقالت : « ماذا أقول وكل جارحة من جوارحي تنطق بما في قلبي ، ولكن مـالي أرى حمـادا يبخل علينا بكلمة ؟ » .

قال : « بماذا يبخل حماد ولم يبق له ما يجود به ولا يرى حـاجة الى القول ، فكل جوارحه قد كتب عليها أنه أسير حبك وان رضـاك أكبر أمانيه » .

فنظرت اليه وقد أخذ الحياء منها مأخذا عظيما وقالت : « اعذرني يا حماد على ضعفي فجنس النساء مهما تبلغ قوته ضعيف فاشفق وقل كلمـة » .

فمد يده الى يدهـا فاذا هي باردة كالثلج ، وخيل له أنهـا ذائبة بين أنامله ، وما لمسها حتى شعر بقشعريرة أشبه بمجرى كهربـائـي في سائر أعضائه ، ولا ريب أنها شعرت بمثل ذلك أيضا ، فجعل يدهـا بين يديه وقال : « أقول كلمة وأرجو ألا تكون ثقيلة عليك » .

فأطرقت ثم قالت : « قـل لقد نفذ صبري وأخشى أن يخونـنـا الوقت » .

قال : « اعلمي أني أسير حبك ولا أبغي من هذا العالم الا رضاك

فماذا تقولين ؟ »

قالت : « انك تعبر عن عواطفي » •

فأيقن حماد أنها تحبه ولكنه بقي خائفا من أن يسبقه ثعلبة اليهـا فيخطبها ويقبل أبواهما جبلة والحارث ويغلبانها على رأيها ، فأراد علم ضميرها فقال لها : « وما شأن ابن الحارث ؟ » •

قالت : « لا شأن له فهو حارث غير حاصد ! » • فقال : « ومـا شأن من لم يحرث أو يغرس ؟ » •

قالت : « ان الغرس غرس الله ، واذا لم يبن الرب البيت فباطلا يتعب البناءون » •

فضغط أناملها وهم بتقبيل يدها فمنعه الحياء فأعادها وهو يرنو اليها وقال : « ولكن كيف ترضين بمن لا تعرفين نسبه ؟ » •

قالت : « ان من القلب الى القلب نسبا ، ولا عبرة بقرابة الحارث بعد ما عرفناه من خسة ابنه » •

فقال : « وما دليلك على خسته ؟ » •

قالت : « لقد دلتني تلك القصبة فانها جماد ناطق » •

فعجب لاشارتها الى القصبة ولأنها عالمة بما فعله ثعلبة بالأمس ، فأراد التحقق • فقال : « وماذا قالت لك القصبة ؟ » •

قالت : « لقد نطقت نطقا صريحا بأن ابن الحارث جبان دنيء » •

فقال وقـد مل الألغاز : « فما قولـك فيمن لا تعرفـين حسبه ولا نسبه ؟ » •

قالت : « من كان قلبه دليله لا يخشى سوءا • فحماد أرفع مـن أن يكون من السوقة لأن أخلاقه جديرة بالملوك فاذا لم يكن ملكـا فهو أمير جليـل » •

قال : « ولعله من قوم بينهم وبين أبيك عداوة » •

فجذبت يدها من بين يديه بلطف وتنفست الصعــداء ولسان حالها يقول : « أحبك مهما يكن من أمر » • فلم يبق عنده ريب في حبها له فاعتدل في مجلسه وقال لها : « ان أسيرك يا حبيبتي ليس من طبقات الملوك ولا هو من السوقة بل هو أمير ابن أمير ولكنه دون مقام جبلة بن الأيهم ملك غسان » •

فاطمأن قلبهــا بأنه ليس من السوقة ، فأرادت أن تعرف من أي القبائل هو •

وكــانت قد لحظت من لهجته أنه من أمراء العراق فقالت : « أمن أمراء العراق أنت ؟ » •

قال : « نعم يا سيدتي فهل يغير هذا شيئا من شعورك ؟ » •

قالت : « كلا ، بل أنت فوق ما تمنيت فانكم بني لخم أصحاب نسب وحسب ومنكم بنوماء السماء » •

فــالتفت اليها وقال : « أما وقد تنازلت فرضيت بحبي ، فاني طوع اشارتك ، فهل ترين لهذا الأمير حظا من قربك » •

قالت : « لقد أبنت لــك مرادي وكشفت لك عواطفي وأنت عــلى ما رأيته فيك من الحزم والدراية فلا تعدم وسيلة لاسترضاء أبي » •

فعظم عليه الأمر لعلمه أن استرضاء أبيها من أصعب الامور ، وهو يعلم منزلته منهــا فضلا عن الضغائن بين لخم وغسان فبهت برهــة ولم يتكلــم •

فابتدرته قائلة : « ما بالك تتردد ؟ هل خفت الطريق ؟ » •

قال : « لا أخاف شيئا في سبيل قربك ، ولكنني أرى الطريــق وعرا لمــا أسسه أجدادنا من الضغائن بين لخم وغسان » • فتبسمــت وقالت : « لا تخف يا حماد ان ما يصعب عليك يسهل علي ، فاطمئــن اني معك وهذا يكفي » •

قال : « رضيت فان رضاك من رضى المولى وهاأنذا أكرس حياتي في خدمتك » .

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب وأظلمت الدنيا ولم تعد تتعارف الوجوه فهما بالخروج من الغرفة ، وفيما هما يتودعان اذ سمعا صهيل الخيل خارج الدير ورأيا الرهبان في جلبة فوقفت هند بغتة . فقال حماد : « ما الذي راعك يا حبيبتي ؟ » .

قالت : « أظن ثعلبة قادما الى الدير ، فلعله علم باجتماعنا فجاء يريد بنا سوءا فالأجدر بنا أن نفترق لئلا نفتح بابا للكلام » .

وما أتمت كلامها حتى دخل عليها رجل بملابس الباعة ببصرى ، ومد يده فألقى قطعة من الحلى في جيب حماد ثم أخرجها وقال : « هذه الأساور لي فمن أين جئت بها انها مسروقة من دكاني » . فلم يجبه حماد وصفعه على وجهه فقلبه على قفاه خارج الغرفة ، واذا بجماعة من جند بصرى قد هموا بحماد فأمسكه أحدهم بذراعه وقال له : « انك سارق » . فنفر منه حماد وصاح به قائلا : « اخسأ يا كلب العرب » . وصاحت بهم هند : « دعوه » . فهمس هو في أذنها : « احذري أن تخبريهم من أنت لئلا يفتضح أمرنا » . فتجمهروا حوله وهموا بالقبض عليه ثم سمعوا صوتا يقول : « أمسكوا هذا اللص وائتوني به حيا أو ميتا انه جاسوس ذميم » . فعرف حماد صوت ثعلبة فخرج الى جهة الصوت والجند يفرون من أمامه ويتفرقون حوله ولم يستطع أحد أن يمسكه فصاح به : « تقدم أنت يا جبان لنرى من هو الخائن ؟ » . واستل حماد خنجره وهجم على الجموع يبحث عن ثعلبة فلم يعرفه بينهم فاعترضه أحدهم وهم بالقبض عليه فطعنه حماد طعنة أصابت كتفه فصاح من شدة الألم ، فتفرق الناس فأراد حماد الفرار خوف الفضيحة فتذكر هندا فخاف أن يفتك بها ذلك الخائن فعاد اليها وقال لها : « انجي بنفسك لئلا نقع كلانا وفي

وقوعك عار علينا » • فقالت : « لن أتركك بين أيدي هؤلاء اللئـام ، والله لن يظفروا منك بطائل » • وهمت بأحدهم فاستلت حسامه وهجمت على الجند وكانوا عديدين فتفرقوا أيدي سبا فقالت : « خسيء الأنذال هلم الي » • وخرجا معا والليل قد سدل نقابه فأسرعـا الى فرسيهمـا فركباهما وسارا •

وكان ثعلبة قد بات تلك الليلة في صرح الغدير كما قدمنـا فقضى ليلته يفكر في أمر حماد وفوزه في ذلك اليوم ، وكيف ظهر من ابنـة عمه ميلها اليه واستخفافها به هو ، وكان كلمـا تصور هندا تلبس حمادا الدرع والناس يرتلون وينشدون اتقدت نيران الغيرة والحسد في صدره وهاجت فيه حاسة الغدر وشعر بميل الى هند حتى أصبح شديد الرغبة في خطبتها بعد أن كان يترفع عنها • وكل ذلك من عوامل الحسد فان الرجل قد يرى فتاة فلا يعتد بهـا ولا تحسن في عينيه ، فاذا سبقه اليهـا أحد وآنس منها ميلا الى هذا واستخفافا به حسنت في عينيه فأصبح يرى في خطبته هندا انتقاما من حماد وتشفيا من هند ، لأنه لحظ منهـا شماتة به ، ففي حرمانها من حبيبها شفاء لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة • فبات ليلته في قصر الغدير يفكر في ذلك ، فلما أصبح أخذ يستطلع أخبار هند فسار الى المطابخ وتظاهر بالتفرج على مناظر الأطعمة والذبائح فسمع الخدم يتحدثون بعزم هند على زيارة دير بحيراء •

ولم تستطع هند الخروج قبل رحيل ثعلبة فلمـا علمت أنه ذهب مع أبيها وأمها تنكرت وسارت كما قدمنا •

وسار هو مع جبلة وامرأته الى قرب البلقاء ثم تركهمـا وعرج على بصرى فلم يبلغها الا عند الغروب ، فدبر حيلة للقبض عـلى حماد بأن يلصق به تهمة اللصوصية والجـاسوسية ، حتى اذا انتفت الواحدة ثبتت الاخرى فجاء بأحد خماري بصرى وأوعز اليه ان يتهم حمـادا

بالسرقة ذريعة للقبض عليه ، فاذا قبض عليه اتهمه بالجاسوسية أو اغتاله . وكان أبوه الحارث قد سار الى بيت المقدس عصر اليوم السابق أثناء غيابه هو في السباق ، فان هرقل امبراطور الرومان ، ويسميه العرب قيصر الروم ، كـان قد تغلب على الفرس وأخرجهم من الشام وانتهى من حروبه معهم في تلك السنة ، وكان قد نذر انه اذا كشف الله عنـه جنود الفرس سار ماشيا على قدميه من حمص الى بيت المقدس . فلما نصره الله بعث الى الحارث بن أبي شمر أن يوافيه الى بيت المقدس ليعد نه الانزال ويرمم ما تهدم من الأسوار والحصون في الحرب . فانتهز ثعلبة غياب أبيه واستخدم الجند فجاء بشرذمة منهم الى الدير وفعل ما فعله .

فلما سمع صوت حماد ورأى السيف بيد هند ، فر هو ورجالـه على أن يكمنوا لهم في الطريق .

- ٦ -

مسبعة الزرقاء

ظل حماد وهند يسوقان جواديهما نحو صرح الغدير ، وقـد سارا في غير الطريق الذي ظنا أن الخادمة تعود منه لئلا تلتقي بهمـا فيكتشف أمرهما . فلما انفردا في الصحراء وأمنا العيون . قال حمـاد : « تبـا لذلك الخائن ، والله لوددت لو كـانت تلك الطعنة في صدره فنتخلص من شره » .

فقالت : « سينال جـزاءه ، وأخشى أن يكون قـد كمـن لنا في بعض الطريق » .

فقال حماد : « طيبي نفسا ، فان جنود غسان كلهـا بل جنـود قيصر وكسرى لا تستطيع أن تمس شعرة منك ما دمت حيا مقيما بجانبك . ولقد شهدت منك اليوم شجاعة حقرتني في عيني نفسي ، فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء » .

قالت : « تلـك دوافع الحب قد تذهب برشد صاحبهـا فيقتحم الأهوال » .

فقال : « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكـم ، فقد شعرت بعد هذه الوقعة أن روابط الحب بيننا قد زادت متانة ، ولا أرى في السماء أو في الأرض ما يحول بيننا » .

فأوقفت هند فرسها كأنها تريد التصريح بأمر ذي بـال ، فأوقف حماد فرسه فمدت يدها اليه فمد يده وتصافحا . وقالت : « أعاهدك عهد الله لأبقين على حبك الى آخر نسمة من حياتي » .

فنسي حماد موقفه لعظم غرامه وفرحه بحبهـا اياه ، وقـال : « ان هذا العهد يا هند لينسيني كـل أسباب الشقاء ووالله لأقتحمن أعظم الاخطار وأجوب الفيافي والقفار في سبيل حبك يشهد علينـا سهيل والميزان وسائر نجوم السماء والله أكبر الشاهدين » .

فأطرقت هند وقد غلب عليها الحياء ولسان حالهـا يقول : « واني أعاهدك بذلك أيضا » .

فقال لها حماد : « أما وقد تعاهدنا على الحب فلتكن تلـك الاساور تذكارا لهذا ، وقد أعددتها عن غير قصد ، فأرجو أن تقبليها وان لم تلق بمقام بنت ملك غسان » .

فنظرت اليه وفرسها يشاغلها بالاقدام والاحجام كأنه شعر بمـا يتقد فوقه من لواعج الغرام وقالت : « ان حبنا مقدر منذ الأزل ، وقد أراد الله أن تكون هذه الأساور تذكارا لاعلانه ، ولهذا سأحافظ عليها ما

حييت ، ولكن أتعلم ما هو تذكاري عندك ؟ » .

قال : « كيف لا أعلم وصلصلة تلك الدروع لا تزال ترن في أذني فهي تقيني غائلات الزمان باذن الله » .

قالت : « حرسك الله ووقاك » .

فلما تبادلا العهد أركضا فرسيهما حتى صارا على مقربة من صرح الغدير ، وقد عرفاه من النيران الموقدة بالقرب منه وهي نار القرى كان يوقدها الغسانيون ليهتدي بها المارة ممن يطلبون طعاما أو مبيتا .

فوقف حماد وقال : « هذا قصرك سيري اليه وأنا أعود الى منزلي » .

فقالت : « أخاف عليك ذلك الخائن فقد يكون كامنا برجاله والليل بهيم وهو يريد سوءا » .

فهز رأسه استخفافا وقال : « ذريه وكل جند أبيه ولا تخافي علي بأسا باذن الله » . فألحت عليه أن يدخل القصر مستضيفا فقال : « انك لتزيديني رغبة في المسير وحدي واني لأستحيي من نفسي أن أخاف ابن الحارث ورجاله ولو كانوا ألوفا » .

فلما لم تجد سبيلا الى اقناعه ودعته فقبض على يدها وضغط عليها وجددا العهد وقالت : « سر في حراسة المولى ورعايته » . وسارت هي الى القصر فلبث هو واقفا حتى تحقق دخولها الحديقة فحول جواده نحو منزله وهو على مسافة بعيدة ، وحثه على السير وقد ترك قلبه في صرح الغدير ونسي نفسه فلم يشعر الا وهو في مكان لا يعرفه . فأوقف جواده ونظر الى ما حوله فاذا به في أرض قفراء لم يعهدها ، ففكر برهة لعله يفقه أين هو فلم يستطع ، فنظر الى النجوم وأبراجها ، وكان خبيرا بعلمها فرأى أنه ضل الطريق الى منزله ، فحول عنان جواده الى الجهة التي ظن أنها تؤدي اليه . وأركض الجواد حتى وصل الى البساتين والمغارس .

وفيما هو سائر بين الاشجار والطريق كثيرة الحصى سمـع وقع حوافر جواد مسرع نحوه فأصاخ بسمعه وحدق بعينيه جهة الصوت وهو يقترب منه والظلام محالك ، فلمـا دنا القادم سمع صوتا يناديه : « حماد » فعرف أنه صوت أحد خدمه فناداه باسمه « سلمـان » وهو اسم الخادم . قال : « نعم يا سيدي قف عندك » . فوقف حتى تقـابلا فقال حماد : « ما الذي جاء بك الآن ؟ » .

قال : « أدر عنانّ جوادك واتبعني لأخبرك الخبر » . واسرع فتبعه وسارا وهما لا يتكلمان وقد قلق حماد لذلك حتى بعـدا عن مساكن الناس وانفردا في الصحراء فأمسكا عناني الفرسين فقال حماد : « قل يا سلمان ما الذي جئت من أجله ؟ » .

قال : « جئت بأمر من سيدي أبيك لكي تفر في أقرب فرصة من البلقاء الى عمان » .

قال : « ولمـاذا » . قال : « لأن صاحب بصرى بعث شرذمة من رجاله فقبض على أبيك واستولى على كل ما في البيت » .

فبغت حماد وقـد أدرك السبب ولكنه تجاهل وقـال : « ولماذا فعلوا ذلـك ؟ » .

قال : « زعموا أنه جاسوس من ملك العراق فساقوه مخفورا الى بصرى ، وسمعت الرجال يسألون عنك في بادىء الامر فلمـا لم يروك قبضوا على سيدي ونهبوا المنزل ولم يغادروا شيئا ، فأسر الي أبوك أن أقتفي أثرك ثم أفر الى عمان ننتظره هناك شهرا فان أبطـأ بحثنا عنـه في بصرى » .

قال : « وهل أصابوه بسوء ؟ » .

قال : « كلا يا سيدي ولكنهم أوثقوه وساقوه الى بصرى ، ولا بد من أن يقتفوا أثرك للقبض عليك ، وهذا ما حمل سيدي على تحذيـرك

فهيا بنا الى عمان لنقيم بها متنكرين شهرا ثم يقضي الله بمـا يشاء » •

فانقبضت نفس حماد وكادت تخنقه العبرات ، وعلم ان الـذين قبضوا على أبيه هم ثعلبة ورجاله ، فحدثته نفسه أن يثني عنان جواده الى بصرى وقد كبر عليه الفرار ولكنه أطاع أمر أبيه وسار مع سلمان صامتا يفكر في حاله مع هند وكيف ساقـه الحب الى هـذه العاقبة • فبعد أن مشيا مدة صامتـين قـال حماد : « أتعرف هـذه الطرق يا سلمـان ؟ » •

قال : « نعم يا سيدي أعرفها جيدا وقد طرقتها مرارا مع سيدي أبيك منذ بضعة أعوام » •

★ ★ ★

وكان سالمان شابا في الثلاثين من عمره رافق عبد الله في أكثر أسفاره حتى حنكته التجارب وعلمته الايام ، وكان فطنا يتفانى في خدمة مولاه ، مما جعل هذا يركن اليه ويثق به ، وقـد عهد اليه في العنـاية بحمـاد وان يسير به الى عمان الواقعة على مسافة ستين ميلا من بصرى ، وعلى أمل أن يتخلص من أسره ويجتمع به هناك • وعمـان هذه مدينة قديمة كانت تسمى في عصر الاسرائيليين « ربان عمون » وكانت عاصمة العمونيين الذين تضافروا هم والموابيون وأخرجوا سكان شرقي البحر الميت والاردن واحتلوا مكانهم • ولهذه المدينة ذكر كثير في التوراة وقد تخربت مرارا حتى بناها بطليموس فيلاذلفيا ، ثم صارت في أوائل الميلاد أسقفية ذات أهمية كبرى يقيم بها أسقف تابع لأسقف بصرى الاكبر ، وفيها كثير من الابنية الرومانية والهياكل والكنائس •

وما زال حماد وسلمان يحثان جواديهما حتى انتصف الليل وبعـدا

عن بصرى كثيرا ، فوقفا وقد تعبا وتعب الجوادان . وطلع القمر في ربعه الاخير وقد أرسل أشعته على تلك السهول والجبال ، والارض خالية لا أثر للادميين فيها ولكنها مكسوة بالغابات وأكثرها من شجر الزيتون والجوز ، فسارا حثيثا وحماد غارق في بحار التأمل تتقاذفه الهواجس وقلبه يخفق تارة شوقا الى هند وطورا خوفا على أبيه ، فاذا تذكر ثعلبة اتقدت نيران الانتقام في جسمه وود لو يلقاه ليقطعه اربا اربا ، ولكنه كظم ما في نفسه وعاد الى الحديث مع سلمان والجوادان يجريان على الرمل لا يسمع لحوافرهما صوت والجو هادىء وضوء القمر ضعيف . فقال حماد : « أخبرني يا سلمان ماذا فعل هؤلاء الطغام بأبي وبالمنزل ؟ » .

قال : « كنا في غفلة ومولاي في قلق لغيابك لا يدري أين انت ، فلما غابت الشمس ازداد قلقه فهم بالركوب للبحث عنك ، وفيما نحن في ذلك وقد أسرجت جوادي لأكون في ركابه اذا بنا نسمع صهيل الخيل ووقع حوافرها ، ثم تقاطر الرجال عشرات فأحاطوا بالمنزل سائلين : أين الامير حماد ؟ وأغلظوا القول فسألناهم عما يريدون منك فلم يجيبونا الا بالشتم والسباب ، فقابلناهم بالمثل ، فقبضوا على سيدي الأمير بعد أن دافع دفاعا مجيدا وهو أعزل فأوثقوه ، ونهبوا المنزل . فاغتنمت فرصة اشتغالهم بالنهب ودنوت من سيدي فأوصاني بأن أقتفي أثرك وأحذرك المجيء . ولولا المقادير لقبضوا علي ولكني تمكنت من الفرار وجئت اليك » .

فقال : « وهل أخذوا متاعنا وأموالنا ؟ » .

قال : « أخذوا ما وجدوه من المتاع ، أما الذهب والفضة فهما مكنوزان في مكان لا يعرفه أحد سوانا » .

فسأله حماد : « وهل أخذوا الدرع التي جئت بها أمس ؟ » .

قال : « كلا فانها في هذا الخرج على فرسي » .

فسر حماد لبقاء الدرع ذكرى حبيبته .

وفيما هما في الحديث آنسا نارا بعيدة فقال حماد : « ما هذه النار ؟ أقريبون نحن من القرى ؟ » .

فوقف سلمان ونظر الى ما حوله وفكر قليلا ثم قال : « ان النور الذي تراه آت من بلدة يسمونها بيت الجمال أو أم الجمال . فاذا شئت أن نعرج عليها فعلنا ، أو نسير حتى نشرف على جدول فيه ماء نشرب منه ونسقي جوادينا ونبيت هناك بقية ليلتنا » .

قال : « دعنا من البيوت لئلا ينكشف أمرنا » .

وسارا حتى أشرفا على واد فيه ماء جار من الشرق الى الغرب وقد غطته الاشجار من الجانبين ، فوقفا يتأملان فيه فهالهما منظره لسكون الطبيعة وهدوء الليل بحيث لا يسمعان سوى نقيق الضفادع وحفيف الشجر يداعبه النسيم ، وشعرا ببرد خفيف فترجلا ونزلا الوادي يقودان الجوادين وراءهما وضوء القمر لضعفه لا يريهما الطريق الا بصيصا . وكان الصدى يردد وقع حوافر الخيل ، فسمع له دوي في في جوانب الوادي حتى خيل اليهما أن فرسانا آخرين قادمون . على أن هيبة المكان كانت مسيطرة عليهما ولا سيما سلمان فقد كان أكثر وجلا من حماد لعلمه أنهما على مقربة من الزرقاء وهي مشهورة بضراوة ما فيها من السباع على أنه كتم ذلك عن حماد لئلا يثير هواجسه واتخذ عدته للدفاع عند الحاجة . فظلا سائرين حتى اقتربا من الماء ونظرا الى ما فوقهما فاذا هما في واد بين جبلين يكسوه النبات وفيه أشجار كبيرة .

فشد سلمان الجوادين الى شجرة بالقرب من الماء ، وسار مع حماد الى الماء فاغتسلا وشربا ، فنزع حماد كوفيته وعقص شعره حتى لا

يرف على كتفيه ووجهه ، وفرش سلمان عباءته على منبسط من الأرض تحت شجرة هناك ثم جلسا عليها والجوادان يصهلان ويفحصان الارض .

ثم اتكأ حماد وجلس سلمان بجانبه يحادثه وحماد ساكت ينظر الى ما حوله من روعة الطبيعة ويفكر في هند وفي أمره مع ثعلبة ، فتركه سلمان وسار الى الجوادين فحلهما وجاء بهما الى الماء ووقف بهما على منحدر بالقرب من متكأ حماد ، وضم العنانين وربطهما ووقف بجانبهما متشاغلا بتقليب حسامه وعيناه شاخصتان الى قمم تلك الجبال كأنه يتوقع محذورا وحماد غافل عن ذلك بهواجسه . فلما سقي الجوادين أعادهما الى مربطهما وجاء الى حيث سيده .

★ ★ ★

أسند حماد ظهره الى جذع الشجرة . وكان التعب قد أخذ منه مأخذا عظيما فالتف بعباءته وغلب النعاس عليه فنام . أما سلمان فلم يستطع رقادا خوفا من غائلة السباع وجعل يتوسل الى الله أن يمضي الليل بسلام . فما زال كذلك الى قبيل الفجر فذبلت عيناه ، ولم يكد يغمضهما حتى سمع صهيل الجوادين معا وقرقعة اللجامين فانتبه ونظر فاذا بهما قد أجفلا فخفق قلبه واستعاذ بالله ونهض لساعته والتفت يمنة ويسرة فلم ير شيئا . ثم سمع وقع حجارة تتدحرج من قمة الجبل المقابل حتى وصل بعضها الى الماء على مقربة منه وأجفل الجوادان وأكثرا من الصهيل فانتبه حماد وصاح : « ما هذا يا سلمان ؟ » .

فقال : « انهض يا سيدي اننا في خطر » . فنهض حماد وأسرع

سلمــان اليه وقال : « نحن على مقربة من الزرقاء وأخشى أن يكون بعض السباع قد ورد المــاء ولا خوف علينا لان الماء يفصل بيننا وبينها • فهلم الى جوادك لنعود من حيث أتينا » •

وما كـادا يركبان حتى رأيـا أسدا منحدرا الى المـاء والاحجار تتدحرج أمامه وعيناه تتلألآن ، فأدارا عناني جواديهما نحو الجبــل فسمعا صوتا كالرعد القاصف ارتجت لـه جوانب الوادي • فقــال سلمــان : « هذا زئير الأسد يا سيدي فأسرع بنـا ولا تخف فان المـاء حائل بيننا وبينه » •

فوخزا الجوادين وصعدا حتى وصلا الى مرتفع والأسد يزأر من بعيد ، وهما يحسبانه وراءهما لهول زئيره ومجاوبة الصدى • فلمـا وصلا الى قمة الجبل التفتا الى الوادي وكـان النور قد لاح فشاهــدا الأسد عند المـاء يشرب •

فقال حماد : « مـا فعلت بنـا يا سلمان وكيف جئت بنـا الى هذا المكـان ؟ » •

قال جئته مضطرا وكنت أحسبه بعيدا عن مسبعة الزرقـاء ، يلوح لي أن الأسد بعد عن عرينه كثيرا فورد الماء ولا يلبث أن يعـود ولا خوف علينـا باذن الله » • فوقفا برهة ينظران الى مجـرى الغديـر في أسفل الوادي فاذا بالأسد قد شرب والتفت يمينا وشمـالا وزأر زئيرا اصطكت له مسامعهما وكـان ذلك أول عهد حمـاد بالزئير أمـا سلمان فكان قد شاهد الأسد وسمع زئيره في بعض حدائق كسرى ورآه يغالب ويصارع •

أما حمـاد فما زال يراعي الأسد في صعوده الجبل وهو يدل بمشيته تيها وقد أرسل ذنبه فوق ظهره حتى توارى عن أنظارهما ، وكـانت الشمس قد أشرقت أو كادت وأحس حماد بالجوع والتعب فقـال :

« ما عهدك بالطعام هنا ؟ » . قال : « خل عنـك الاهتمـام فأنا كفيل به ، فاذا سرنا قليلا لا نلبث أن نصل الى دير على مقربة منـا نقيـم به يومنا ضيوفا ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين . » فمشيـا حتى أشرفا على بناء فوقه قبة عليها صليب فعلمـا أنه دير وفيه كنيسة فنزلا هناك فاستقبلهما الرهبان بالترحاب وأنزلاهما على الرحب والسعة ، فقضيا نهارهما وكان طعامهما مقصورا على ألوان بسيطة لكنها لذيذة وفي جملتها أنواع من الجبن والقشدة واللبن واللحم المقلي مع البيض وأنواع التين المجفف والزبيب والجوز والمشمش المجفف فضلا عن الخمر المعتقـة فان خمر الأديرة مشهورة بجودتها . ولقيا من حسن وفـادة أهل الدير ما شغلهما عن هواجسهما . على أن حمادا لم يهدأ له بـال وما برحت صورة هند في مخيلته كما كانت لمـا فارقها ليلا راكبة الى قصر الغدير وهـو ينتظر وصولها اليه .

فباتا ليلتهما في الاحاديث ، ولا سيما عن ذلك الأسد . فعلما أن المسبعة بعيدة عن الدير ولكنها في طريقها الى عمـان ولا بد للسائر الى عمان من المرور بها الا اذا دار في طريق طويل بعيد .

ولمـا أصبحا تزودا وصليا وسارا على بركة الله وسلمـان يفضل المسير في الطريق البعيد خوفـا من السباع وحماد يأنف من خوفه ويثنيه عن عزمـه .

- ٧ -

عبد الله في السجن

لنترك حماد وسلمـان سائرين الى عمان ولنعد الى عبـد الله وما

كان من أمره ، فقد تقدم أنه جيء به الى بصرى مخفورا متهما بالجاسوسية وهو يعجب للعنف الذي اتخذه الرجال في القبض عليه • وقطرا لعلمه ببراءة ساحته تحقق أنه لا يلبث أن يقف أمـام الحارث فيثبت براءته فيفرج عنه فيذهب الى عمان حيث يلتقي بحمـاد ثم يأتيان لوفـاء النذر بدير بحيراء • وهذا مـا حمله على ضرب الأجل شهرا وقد فـاته السبب الحقيقي في أسره •

فسار به الجند الى بصرى وحجزوه في غرفة من غـرف قلعتهـا جنوبي السور ، فبات بقية ليلته قلق البال على حمـاد لئـلا يـأتي المنزل قبل أن يلتقي بسلمـان فيقع في الفخ ، فلمـا مضى الليل ولـم يأتوا به ترجح عنده أنه نجـا • وفي الضحى جاءه رجلان عليهمـا لباس الجند الروماني وهو الخوذة من النحاس الأصفر يتدلى منهـا خصلات من شعر أذناب الخيل والأدرع من الفولاذ تحتهـا أثواب حمـراء لا تتجاوز الركبة • ويحمل كل منهمـا حربة صغيرة وترسا من الفـولاذ وعلى صدره شرائط من الحرير مزركشة بالذهب على شكل حرفين أحدهما [] عرف أنه الحرف الاول من اسم الامبراطور هرقل والثاني لم يعرف تفسيره ولكنه الحرف الاول من اسم الفرقة التي ينتمي اليها الجنديان • ولم يكن يتقلد هذه العلامة غير الخيالة منهم • وكـان مع الجنديين رجلان من جند ثعلبة بلباسهما العربي ، فأشاروا الى عبد الله فتقدم وصعدوا به الى طابق علوي في القلعة حتى وصلوا الى قـاعة مفروشة بأحسن الأثاث الروماني ، وفي صدرهـا عظيم رومـاني علم من لباسه ومقعده انه رئيس الحامية الرومانية ، وكـان جالسا في صدر القاعة على كرسي مذهب يصعد اليه بدرجتين ، متشحا بقميص مدرع بحراشف من نحاس محلاة بالذهب تحته ثوب ضيق لا يتجاوز الساقين الا قليلا • وكـان ضخما كثير العضل والدهن • وشاهد بين يديه رجالا

أكثرهم في مثل لباسه وهم أهل مجلسه من الروم ، الا رجلا كـان جالسا بالقرب منه عليه لباس العرب عرف أنه ثعلبة بن الحارث . فتحقق عبد الله أنهم جاءوا به الى قائد جند الروم في بصرى ، فوقف متأدبا في وثاقه ، فخاطبه القـائد (وكـان اسمه رومانوس) بلسان الترجمـان قائلا : « مـا اسمك ؟ » . قال : « عبد الله » .

قال : « من أي البلاد أنت ؟ » . قال : « من العراق » .

قال : « وما صنعتك ؟ » . قال : « اني من امراء العراق أعيش من ريع أملاكي وأتجر ببعض أصناف التجارة » .

قال : « وما الذي جاء بك الى هذه الديار ؟ » . قال : « جئت لأفي نذرا علي لدير بحيراء » .

قال : « وما نذرك ؟ » . قال : « أن أقص شعر ولدي في الحـادية والعشرين من عمره » .

فالتفت رومانوس الى ثعلبة وأسر اليه شيئا ، ثم نظر ثعلبـة الى عبد الله واستقدمه حتى دنـا منه فقال له : « كيف تدعي انك جئت لقص شعر ابنك وأنت مقيم هنا منذ أشهر ولم تقصه ؟ » .

قال : « لأني نذرت الا أقصه الا في أحد الشعانين القادم » .

فضحك استخفافا وقال : « تلك حجج واهية لا ترد عنكم تهمـة التجسس في خدمة ملوك الحيرة ، والا لمـا أقمتم بقرية بعيدة وتبترتم عنا وحاولتم اخفاء أمركم ، فمن كـان فيّ مثل ما أنتم فيه مـن اليسار لا يترك مدينة بصرى بمنتزهاتها وطرقها ومسرحها وملاعبها ويقيـم بقرية حقيرة مثل قرية غسام ، فاعترف والا كان عقابك شديدا » .

قال : « قلت لكم الصدق كل الصدق » .

فقال : « ليس للصدق نصيب من قولك ، هذا الى أنكم تنتسبون الى أمراء العراق ، وقد أخذنا غلامك متلبسا بالسرقة » .

فلم يفهم عبد الله معنى كلامه وظنه يغرر به ليستطلع شيئا عنه فقال : « لعلكم أسأتم الفهم فاننا لا نقترف مثل هذه الأعمال ، ولدينا من نعم الله ما يكفينا مؤونة السرقة » .

فهز ثعلبة رأسه استهزاء وأخذ يلاعب شاربيه عجبا وقال : « وقد تحققنا الآن جاسوسيتك وسنكشف ذلك عيانا » . ثم قام اليه وأخذ يفتش أثوابه وجيوبه بدعوى البحث عن أوراق أو أشياء تؤيد تهمته فوجد حقا فتحه فاذا فيه خاتم عليه فص كبير من العقيق الأحمر ، فتأمله ثعلبة فرأى عليه كتابة بالحرف السطرنجيلي وهو من الاقلام التي كانت مستعملة في العراق فظهرت البغتة على عبد الله ولكنه تجلد .

فجعل ثعلبة يقلب الخاتم بين يديه ويتأمله فلم يستطع قراءته فالتفت الى رجل من التراجمة حوله وقال له : « هل تستطيع قراءة ما على هذا الخاتم ؟ » .

فأخذ وقرأه وجعل ينظر الى عبد الله تارة والى الخاتم أخرى ، حتى ظهرت على وجه عبد الله ملامح الخوف والحضور ينتظرون ما يقوله الترجمان حتى مل ثعلبة الانتظار فقال له : « قل ماذا قرأت ؟ » .

قال : « ان على هذا الفص اسم (النعمان بن المنذر) وعليه شارة الملك » . فبهت الجميع وجعلوا يتأملون ذلك الخاتم واحدا واحدا وينظرون الى عبد الله . وأخيرا خاطبه رومانوس قائلا : « كيف وصل هذا الخاتم اليك ؟ »

فأجاب وهو يحاول ألا يتلجلج : « ابتعته من بعض الصاغة »

فانتهره ثعلبة قائلا : « أتقول بعد هذا أنك لست جاسوسا ، وأنت تدعي أنك ابتعت خاتم النعمان بن المنذر ملك العراق من بعض الصياغ . فمتى كانت خواتم الملوك تباع في الاسواق ... ؟ قل ما الذي أوصل

هذا الخاتم اليك ؟ » • فلم يجب فأعاد السؤال عليه ثانية وثالثـة فأصر على الصمت •

فتفاوض ثعلبة وورومانوس سرا ثم قال لعبد الله : « ان وجود هذا الخاتم معك مما يزيد الشبهة في خيانتك الا اذا أخبرتنا كيف وصل اليك ومـا هي حكايتـه »

فسكت ولم يجب • فازداد حنق ثعلبة وقال له : « قـل أجب »

فقال عبد الله : « قلت لك اني لا أعرف عنه غير ما قلته ، وهو أنـه وصل الي عرضا في سوق الصاغة فقد يكون المترجم لم يحسن القراءة أو لعل ما قرأه اسم رجل يشبه اسم الملك النعمان »

فضحك ثعلبة وقال : « هذا كلام هراء ، ولو كان أبي الحارث هنا الآن لأثبت نسبة هذا الخاتم الى النعمان ملك العراق اذ رأى خاتمـه على كتبه مـرارا ، وستبقى في السجن حتى تعترف بالحقيقة والا فانت مقتول شر قتلـة »

قال عبد الله : « افعل ما بدا لك فما أنـا ممن يخافون القتـل لأني بـريء »

قال : « سترى عاقبة قحتك هذه عند ما نأتي بابنـك الغلام الغـر ونريك خيانته رأي العـين »

ثم التفت ثعلبة الى الحراس الاربعة وكانوا لا يزالون وقوفا علـى الباب وقال : « خذوه بأمر البطريق (القائـد رومانوس) الى بـرج القلعة ، وأبقوه مخفورا ريثما ننظر في أمره »

وكان لقلعة بصرى برج شامخ يستحيل الفرار منه ، فـلا طريق لمن يحاوله الا نافذة اذا وثب منها لا يدرك الارض حيا •

فصعدوا به طابقين آخرين وأدخلوه البرج وهو غرفة صغيرة ذات نافذتين وباب صغير فأغلقوا الباب عليه وتركوه • فلما خلا بنفسه أخـذ

يفكر فيما مر به ويراجع ما سمعه عن ابنه فلم يفهم معنى اتهامه باللصوصية . ولكنه شكر الله لوقوعه هو ونجاة حماد لانه ما زال متحققا نجاته من تلك الاشراك . على أن العثور على الخاتم عرقل مساعيه فلبث برهة يفكر ثم نهض الى نافذة البرج الشرقية فأشرف منها على مدينة بصرى كلها بعماراتها وطرقها وأسوارها وحولها الاحواض المائية الكبيرة وأشعة الشمس تنعكس على أسطحها . وكان الجو صافيا فنظر الى ما وراء ذلك فشاهد في عرض الافق جبلا عليه بناء يكاد البعد يحجبه ولكنه عرف أنه قلعة سرخد (صلخد) الشهيرة وبينها وبين بصرى طريق حجري على استقامة واحدة مرصوف بالحجارة الضخمة كسائر الشوارع الرومانية الكبرى وخيل اليه أن بصرى وضواحيها حديقة يانعة في وسط صحراء لان بلاد حوران جبلية جرداء غبراء اللون .

وتحول الى نافذة جنوبية فأشرف على أرض أكثر خصبا من تلك ، يتراءى فيها عن بعد قرية أم الجمال لا يظهر شيء من أبنيتها لبعدها . فتذكر حمادا ومسيره الى عمان فقال في نفسه : « لعله الآن بقرب هذا المكان مع سلمان » . ثم هاجت به هواجسه وتذكر ما مر به منذ شبابه وخاف أن يقتل قبل أن يبوح لحماد بسره وقد كتمه عنه وعن سائر أهل الارض أكثر من عشرين سنة . فتراكمت عليه الهواجس حتى نسي موقفه وما هو فيه من الخطر العظيم .

★ ★ ★

قضى عبد الله نهاره في مثل هذا ، ثم جاءوه ببعض الطعام فلم يتناول شيئا ، وبات تلك الليلة وعاد في صباح اليوم التالي الى النافذة فحدثته نفسه أن يثب من البرج لعله ينجو ، فنظر الى أسفله فاذا هناك

هوة عميقة لا يمكن أن يصل الى قاعها حيا ، فصبر منتظرا ما يجيء به القدر .

وفي اليوم الثالث أفاق على أصوات النواقيس من الاديرة والكنائس ، فأطل من النافذة المشرفة على المدينة فرأى الناس في هرج ومرج وقد زينت الشوارع بسعف النخل وأغصان الزيتون وخرج الناس زرافات ووحدانا يحملون الشموع وأغصان الزيتون يؤمون الاديرة والكنائس ، وفيهم الرجال والنساء وأولادهم بين أيديهم يحملون الازهار والشموع وقد تزيوا بأحسن ما عندهم من اللباس وأنواع الزينة فعرف أنه يوم أحد الشعانين والناس يحتفلون به على عادتهم ، وتذكر حمادا وموعد النذر فعظم عليه الامر واشتد به حتى بكى ، ثم عاد الى صوابه وتجلد تجلد اللذين لا يتزعزعون لريب الدهر فقال في نفسه : « ان الدهر لا يستقر على حال فلا بد لهذه الازمة أن تنفرج »

وقضى بضعة أيام لا يأكل الا قليل وقد هدأ روعه وجعل يفكر في وسيلة ينجو بها من تلك الورطة ويحمد الله لنجاة حماد لأنه لا يصبر على الأذى ولم يألف مشاق الزمان وكوارث الحدثان . ففي ذات صباح جاءه الحراس وأمروه بالنزول الى المجلس فنزل وقد استعد للدفاع فلما وقف بين يدي رومانوس وثعلبة قال هذا : « كيف تراك ؟ » .

قال : « أرى اني أسير بين يدي البطريق » .

قال : « لماذا لا تعترف بحقيقة أمرك فنفرج عنك ؟ » .

قال : « قلت لكم الحق فلم تصدقوني » .

قال : « أنبئنا أين ابنك فنعفو عنك » .

قال : « من أين لي أن أعلم ذلك وقد أخذتموني على غرة وكان خارج البيت فلا أعلم مقره » .

ثم كلمه رومانوس قائلا : « انظر يا هذا ، اذا أنت تماديت في انكارك

فلا مندوحة من ارسالك الى مولانا الامبراطور في حمص فهو أولى بالقصاص ولا ينجيك من بين يديه حيلة ، فخير لك أن تعترف هنا وتنجو بنفسك » .

قال : « قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني فافعلوا ما بدا لكم » .

فأمر رومانوس باعداد الحراس ليسيروا بعبد الله والخاتم الى الامبراطور هرقل في حمص . فقال عبد الله في نفسه : « لعل في ذلك بابا للفرج فان الامبراطور أكثر رأفة وتعقلا من هؤلاء » . فأركبوه فرسا وهو موثق وحوله عشرة حراس بينهم خمسة من جند الروم وقد ركبوا الخيل بلا ركاب على عادتهم .

- ٨ -

الامبراطور هرقل

كان الامبراطور هرقل اذ ذاك في حمص ، وقد جاءها على أثر انتصاره على الفرس انتصارا لم يكن يتوقعه فنذر أن يسير الى بيت المقدس ماشيا ، فوصل عبد الله الى حمص وهرقل قد خرج منها على قدميه وفاء لنذره والحارث بن أبي شمر الغسائي معه يعد له الطريق . فكان هرقل يسير والبطاركة والأساقفة بين يديه ، وعلى رأسه التاج ، والصولجان في يده ، وقد تزمل بوشاح أرجواني مزركش وأمامه الحارث ورجاله يفرشون البسط في الطرق ليمشي عليها . فسار عبد الله مخفورا وراء الموكب من حمص الى بيت المقدس ورأى الجند يحف بالموكب وكلهم مشاة يتقدم كل فرقة علم في أعلاه نسر

من الفضة أو صليب ، الا سرية صليبهـا من الذهب مرصع بالياقوت والماس كانت تحيط بالموكب عن قرب • وكـان الناس في الطرق يخرجون من القرى لمشاهدة الامبراطور ماشيا وحاشيته حـوله علـى البسط والسجاد والناس يلقون الأزهار على الطرق وبعضهم ينتهرهـا عـلى الامبراطور ورجاله وآخرون يرشون الطرق والمـارة بالروائح العطرية على اختلاف أنواعها ، حتى وصلوا الى بيت المقدس وقد زينهـا أهلها وخرج البطريرك والأساقفة بالصلبـان والمباخر يحرقـون فيها البخور والند والعنبر والمشاعل أمامهم • فاستقبلوا الامبراطور خـارج المدينة وعادوا به بالترتيل والأنـاشيد والصلوات ، والناس يزحم بعضهم بعضا يتسابقون لمشاهدة الامبراطور • وكـانت شوارع بيت المقدس تعج عجيجا بالمـارة فضلا عن المطلين من النوافذ والشرفـات وأسطح المنازل ، حتى وصل الموكب الى كنيسة القيامة والنواقيس تدق والقسس يرتلـون ويسبحون • ثم أقيمت الصلاة شكرا لله على مـا أولاهم من النصر على أعدائهم الفرس •

كل ذلك وعبد الله وحراسه يرافقون الجماهير فلحظ عندما أشرف على أسوار المدينة أنها متهدمة وآثار منجنيق الفرس والروم لا تزال ظاهرة فيها حتى لحق معظمها بالارض • وما زالوا سائرين حتى أتوا دار الحكومة فساقوا عبد الله الى السجن فلما أصبحوا ساروا الـى الحارث بن أبي شمر فبلغوه الرسالة وسلموا اليه عبد الله وحكـوا له حكايته ودفعوا اليه الخـاتم فحفظه حتى يعرضـه عـلى هرقل • فلبث عبد الله في السجن شهرا لم يتمكنوا في أثنائه من تقديمـه الى هرقل لتزاحم الوفود من سائر الانحـاء يهنئون الامبراطور بمـا أوتيه مـن النصر •

فلما تمت مهمة الحارث وهم بالرجوع الى بصرى تذكر عبـد الله

فاستأذن هرقل أن يدخل به عليه فأذن له ، فساقــوه مخفورا الى قاعة كبيرة بالقرب من الكنيسة أعـدت لجلوس الامبراطور ورجـال دولته ، وقد أحدق بهــا الحراس بأسلحتهم وملابسهم الرسميــة وقوفا اجلالا للامبراطور . فدخل أولا الحــارث ثم استدعي عبد الله فدخــل القاعة وقد هاله مــا فيهــا من مظاهر الابهــة والعظمة ، فشاهد الامبراطور جالسا في صدر القاعة على سرير من الذهب الخالص يكــاد لمعانه يبهر الناظرين ، وعلى رأسه تــاج مرصع يتلألأ ، وعــلى منكبيه وشاح من الخز سماوي اللون مزركش بالذهب ، وفي يده صولجــان الملك وهــو عصا طويلة من الذهب المرصع في أعلاهــا رسم النسر الرومــاني مرصع بالحجارة الكريمة . وكــان هرقل كبير الجثة عظيم الهيئة زاد المشهــد وقارا ، والى يمينه بطريرك أورشليم بمــلابسه الرسمية وعصــاه ، والى يساره سرجيوس بطريرك القسطنطينية ، والى كــل من الجانبين القواد والاساقفة وسائر رجال الدولة على كراسي من الذهب . وكانت أرض القاعة مكسوة بالسجاد المزركش والابسطة الثمينة .

ورأى بين الأساقفة أسقفا رآه مرة في الحيرة وهو كيرلس أسقف فاسيس في بلاد الاكراد ، وكــان يسمع بسعة علمه ودهــائه فعجب لوجوده هناك ، وازداد عجبا لمــا رآه بجانب البطريرك الأورشليمي في منزلــة البطاركــة ورأى بجانب البطريرك القسطنطيني بطريركــا لــم يعرفــه .

فهاله الموقف ولكنه تجلــد ، وقد علمته الايــام أن ما يراه من مظاهر الابهة ليس الا أعراضا زائلة ، وأن الحق سلطــان يعلو ولا يعلى عليه . ولم يكن من شأن الامبراطور النظر في مثل هذه الدعوى التافهة لولا ما أهمه من أمر الخاتم فأحب استطلاع أمره بنفسه ، فلما مثل عبد الله بين يديه خاطبه والحارث يترجم بينهما ، وأخذ الخاتم بيده يتأمله ثم قال

لعبـــد الله :

« من أين أتيت بهذا الخاتم ؟ »

فأجابه عبد الله مطرقا : « جاءني عرضا يا مولاي ، فاشتريته » .

قال : « لا يعقل أن مثل هذا الخاتم يباع في الاسواق أو يلقى على الطرق وهب أنك وجدته على قارعة الطريق ألم يكن الاجدر بــك أن تــرده الى صاحبه ؟ » .

فقال عبد الله : « مولاي يعلم أن صاحب هذا الخاتم اذا صــح انه النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة ، فهو في عداد الاموات منذ عشريــن سنة وأكثر » .

قال الامبراطور : « أليس مــن أبنائه أحد على قيد الحياة تدفعه اليــه ؟ » .

فسكت عبد الله . فقال الامبراطور : « ما بالك لا تجيب ؟ . أجب ولا تخف وهب أنك جاسوس فنحن لا نخاف الجاسوسيــة بعــد أن منحتنا العناية الصمدانية أكاليل النصر على أكاسرتكم » .

فقال عبد الله : « لقد نطق مولاي ببراءتي من الجاسوسية مــن تلقــاء نفسه والحمد لله اذ لم يبق ثمة حاجة اليها والصلح قد عقــد بــين جلالته وكسرى ملك الفرس » .

قال هرقــل : « نعم ، ولكنا شديدو الرغبة في معرفة كيفية وصول هذا الخاتم اليك وسبب اقامتك بجوار بصرى كل هذه المــدة متنكرا على مــا علمت من عاملنا هناك » .

فظل عبد الله مطرقا ولم يجب .

فقــال الامبراطور : « قل يــا رجل فان هرقل امبراطور الروم يكلمــك » .

فجثا عبد الله عند قدمي الامبراطور كأنه يحاول تقبيلهما وقــال :

« أنا أعلم ذلك يا سيدي ولكنني لا أستطيع التصريح بأكثر مما فهت به بين يديـك » .

قال : « اذن أنت تكتم أمرا تحاذر أن تبوح به » .

قال : « صدق مولاي » .

قال : « أتكتم ذلك عن امبراطور الرومانيين ؟ ألا تخشى بطشه أو تخاف الموت ؟ » .

قال : « لا أظن أحدا لا يخاف الموت ، ولكنني أوثره على التصريح بالسر ، وها أنذا بين يديك فأمر بما تشاء » .

فتعجب هرقل لاصراره وقال : « يا للعجب ! . أتقول ذلـك ولا تخـاف ؟ » .

قال : « اني أعلم يا مولاي بأن موتي وحياتي بين شفتيك ، ولكنني لا أستطيع غير ذلـك » .

فالتفت هرقل الى من حوله من البطاركة والاساقفة والقواد وقـال : « مـاذا ترون في هذه الجسارة ، فـاني أزداد ميـلا الى معـرفة سر هذا الخـاتم ؟ » . فالتفت البطريرك الأورشليمي الى عبد الله وحرضه عـلى الاقرار ، وفعل مثل ذلـك أيضا البطريرك الانطـاكي ولكـن بلا جدوى .

فأراد هرقل تهديده فأمر بالجلاد فجاء والسيف بيمينه فقال له : « ائتني برأس هذا الرجل » . فقـاده الى بـاحة الكنيسة وعبد الله يسرع أمامه لا يتردد فربط عينيه وأركعه على نطع ودار حولـه دورة والامبراطور يراه ، فلما دار الدورة الثانية استقدمـه هرقل وأمر بحل رباط عينيه وقال له : « ألا تزال مصرا على الكتمان ؟ » .

فقـال عبد الله : « أقسم برأس مولانـا الامبراطور وسر التثليث المقدس أن ليس في أمر هذا الخاتم ما يمس جلالتكم بوجه من الوجوه

ولكن كتمان سره فرض علي لا أستطيع التحول عنه » .

فازداد الامبراطور استغرابا وقال لمن حوله : « كيف العمل ؟ » .

فقال عبد الله : « أقترح على مولاي رأيا عساه يحوز القبول » .

قال : « ما هو ؟ » . قال : « اننا معشر النصارى نحترم سر الاعتراف فاذا شئتم أن أبوح بسري لغبطة البطريرك الأورشليمي فعلت ، على أن يقول لجلالتكم اذا كان السر يمسكم من قريب أو بعيد ولا يصرح بتفاصيل قصتي وعندئذ تتحققون صدقي » .

قال : « لا بأس » . وأشار الى البطريرك فخلا بعبد الله في الكنيسة ساعة أطلعه فيها هذا على سر الخاتم .

ولما هما بالرجوع الى القاعة قال عبد الله : « أرجو من مولاي البطريرك أن يخبرني من هو البطريرك الجالس بجانب البطريرك سرجيوس ؟ » .

قال : « هو اسناسيوس بطريرك اليعاقبة ومقامه بالاسكندرية : وقد جاء ليطلع الامبراطور على الخلاف المذهبي بين الملكية واليعاقبة في مصر » .

فقال : « ألا يزالون على خلافهم وكنا ظنناه انتهى ؟ » .

فتنهد البطريرك وقال : « كاد يزول ولكنه لم يزل ، ومولانا الامبراطور رجل حازم ذو رأي سديد يعلم عاقبة هذا الانقسام ، فلاح له أن يجد وسيلة للتوفيق بين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين والطبيعة والمشيئة ، فاستعان بالبطريرك سرجيوس القسطنطيني فاستنبط منذ بضع سنوات عقيدة متوسطة وهي الاعتراف بطبيعتين في المسيح لهما مشيئة واحدة وفعل واحد ، وعرض عقيدته هذه على البطاركة والاساقفة فقبلها أكثرهم . وفي عزمه أن ينقل البطريرك أثناسيوس الى كرسي انطاكية ويرسل الاسقف كيرلس الى الاسكندرية بطريركا وواليا

عليهـا ، لعله يوفق بين الكرسيين الانطاكي والاسكندري ، ولكنني لا أظنهما يتفقان فان التعصب متمكن من الجانبين وليست هذه الاختلافات في نظري الا مماحكات لفظية يتمسك بها بطاركتنا رغبة في السلطة الدنيوية فلتكن ارادة الله • فما أجدر بالمملكة المسيحية أن تكون على مذهب واحد تقول قولا واحدا تأييدا لدولة الروم العظمى ، فقد كفانا مـا نجم عن هذا الانشقاق من المصائب • نـاهيك بما نعانيه من دسائس اليهـود فانهم يبذلون كـل ما يملكون بغية هلاكنـا لو استطاعوا اليه سبيلا » •

فأعجب عبد الله برغبة هرقل في جمع كلمة رعيته ، وتحقق مـا سمعه عن تأنيه وحزمه ، ولكنه لم يكن يرجو له الفوز ببغيته لمـا يعلمه من تمكن الشحناء بين الاحزاب ، ثم قبل يد البطريرك وخرجـا •

وفيما همـا عائدان الى القاعة شاهد الحرس في هرج وبينهم رجل غريب بلباس أهـل البادية ليس عليه غير الشلمة والعمـامة متقلـدا حسامـا أعقف وبيده حربة وقد علاه الغبار ولوحتـه الشمس وظهرت على وجهه آثـار الاسفار وكـان عبد الله خبـيرا بقبـائل العرب لكثرة اختلاطه بهم فلاح له أن الرجل من أهل الحجـاز فعجب لمجيئه وليس في بيت المقدس أحد في مثل لبـاسه وشكلـه ، ولولا اشتغالـه بأمر نفسه لخلا به وسأله عن حاله ولكنه اضطر أن يمشي مع البطريرك الى قاعة الامبراطور ، فدخلا وجلس البطريرك في مجلسه ووقف عبـد الله في موقفـه •

فسأل هرقل البطريرك : « كيف رأيت الرجل ؟ » • قال : « رأيته صادقا وعذرته في كتمان أمره وأمر هذا الخـاتم ، وقد أطلعني علـى خلاصة حكايته فاذا هي مستقلة عن جلالتكم ولا علاقة لها بالـروم قاطبة ، ولكنه سر مقدس أقسم عـلى كتمـانه فلا يستطيع التصريح به الا في أوانـه » •

فاقتنع هرقل والتفت الى عبد الله وعبد الله مطرق اجـلالا ووقارا وقال له : « لقد غفرنا لك فاذهب بسلام » ٠ وأعطاه الخـاتم ونـادى الحارث فوقف بين يديه فبلغه عفوه وأمره أن يدفع اليه كتاب الامـان فتقدم عبد الله وجثا أمـام الامبراطور وشكر نعمته وتقهقـر يريـد الخروج ، فرأى ذلك البدوي قد أذن له في الدخول وفي يـده رق من جلد يريد تقديمه الى الامبراطور ، فاعترضه الحارث فقال البدوي : « بيدي كتاب الى جلالة الامبراطور أريد تسليمه اليه فأخذ الحـارث الكتاب فاذا هو مختوم بالطين فقدمه الى هرقل ووقف عبد الله ينظر الى ما يكون من أمر ذلك الكتاب ٠

فرأى هرقل قد فضه وتأمله فلم يستطع قراءته فناوله الى ترجمانه فنظر اليه ثم قال : « انه مكتوب باللغة العربية » ٠

فقال هرقل : « اتله علينا » ٠ فقرأه فاذا فيه :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتـين وان توليت فان اثـم الاكابر عليك ٠٠ محمد رسول الله » ٠

فلما أتم قراءته ترجمه فدهش من في المجلس لشدة لهجته ، فالتفت هرقل الى من حوله كأنه يستشيرهم في شأنه وهو لم يفهـم المـراد منه ، لأنه لم يكن قد سمع بتلك الدعوة الا همسا فقال : « من ينبئني بحكاية هذا الرجل ؟ » ٠ فلم يستطع أحد فتقدم عبد الله ومثل بين يديه فقـال لـه : « هل سمعت شيئا عن صاحب هذا الكتاب ؟ » ٠ وأمر بالكتاب فدفع اليه فقرأه وقال : « نعم يا مولاي ان صاحبه نبي ظهر في مكة مـن بلاد الحجاز ، من قبيلة يقال لها قريش دعا الناس الى عبادة الله وكـان أكثر العرب يعبدون الاوثـان فأجابه جماعة كبيرة منهم بعد أن قاسـى العذاب من اضطهاد أهله وعشيرته وأهل وطنه ، فهاجر الى يثرب فنصره

أهلها وشدوا أزره وانتشرت دعوته في أقاصي بلاد العرب ، ويظهر من كتابه هذا انه يدعو مولاي الامبراطور الى الاسلام » .

فلما سمع المجلس قوله كثر اللغط فيما بينهم واستخفوا ، فالتفت هرقل اليهم كأنه يستطلع رأيهم فقالوا له : « ان في كتاب هذا الرجل جرأة كبيرة وتطاولا على مقام الامبراطور » . فأشار هرقل اشارة فهموا منها أنه يطلب سكوتهم فسكتوا ، والتفت الى البطريرك عن يمينه مستفهما ، فقال البطريرك : « اني أرى في هذا الكتاب جرأة لم يسبق لها مثيل ، لان كاتبه يبدأ خطابه بذكر اسمه ثم يذكر اسم جلالتكم فقد قال : (من محمد رسول الله الى عظيم الروم) . والعادة في خطاب الامبراطور أن يكون الاستهلال باسمه ثم اسم مخاطبه فأرى الا تعيروا هذا الكتاب التفاتا » .

فقال هرقل : « ولكن علينا أن نبحث عن سيرة هذا النبي وصفاته ، فهل تعرفون أحدا من قريش نسأله عنه » .

فقال الحارث : « أعرف أميرا من أمراء مكة اسمه أبو سفيان قدم آنفا لتجارة في غزة ، وهو أقدر من يخبرنا عن صفات هذا النبي » .

فقال هرقل : « الي به » .

فقال الحارث : « سمعا وطاعة فسيكون الرجل هنا بعد بضعة أيام ان شاء الله » .

قال الامبراطور : « وعند ذلك نعقد مجلسا يحضره هذا العراقي لانه يعرف العربية وعسى أن ينفعنا » . وارفضت الجلسة .

★ ★ ★

خرج عبد الله من المجلس وقد دهمه الوقت وتأخر على حماد ،

وكـان قد عرف أبا سفيان في بعض أسفارة الى مكـة ولم يتح لـه أن يتحدث اليه ، فأحب أن يراه ثانية ويسمع حديثه عن صـاحب هـذه الدعوة ، فسار توا الى دار الضيافة بالدير فأقام على الرحب والسعة ، وخرج في أثناء ذلك الى المدينة فطاف أحياءها وتفرج عـلى مشاهدها فرأى فيها أخلاطـا من اليهود يتخاطبون بالعبرانية الممزوجة بالالفـاظ الكلدانية وفيهم جماعة من السريان •

ورأى جماعة كبيرة من الروم وفي أيديهم أكثر مرافق البـلاد ولهم السيادة على أهلهـا • ولم يسمع في أحاديث الناس الا الجـدال بـين القائلين بالطبيعة وبين القائلين بالطبيعتين فأيقن أن هذا الخصـام سيكون سببا في القضاء على الدولة •

فلمـا أزف الوقت المضروب للاجتماع ذهب الى الحارث وسارا معا الى كنيسة القيامة فدخلا صحنها فشاهدا جماعة من البدو عـرف عبد الله من لباسهم أنهم من عرب الحجاز ، فأدرك أنهم رجـال أبي سفيان ورأى بينهم رجلا يمتاز بحسن زيه وكبر عمامته واتساع عينيه وقد تزمـل بالعباءة المزركشة وتقلد الحسام دون سائر رجالـه فقد كـانوا يحملون الرماح ومعظمهم عراة الرؤوس وفيهم من شد ربـاطا حول شعره من الأعلـى •

فلم يتكلم عبد الله ولكن الحارث تقدم الى أبي سفيان ، فوقف له هذا وقد عرف أنه الحارث بن أبي شمر ، فحياه وأخبره أنه جـاء طوعـا لأمر الامبراطور • فقال له : « البث حتى ندخل على مولانا الامبراطور ثم نبعث اليك » فدخلا ، فأمر هرقل باستقدام القرشي فخرج الحارث ثم عاد وحده وقال للامبراطور : « ان الرجل أبى الدخول الا بحسامه » • قال هرقل : « فليدخل » • فدخل أبو سفيان ومعه بعض رجالـه ، فبهرهم ما في القاعة من الزينة ودلائل البذخ ، ووقف أبو سفيان أمـام

الامبراطور وقبل الارض بين يديه وحياه قائلا : « أبيت اللعن » • وهي تحية الملوك في الجاهلية • فتعطف وأمره بالجلوس ، فتربع على الأرض وجعل سيفه عرضا على فخذيه وجلس رجاله وراءه فأدرك هرقل انها عادتهم في الجلوس فلم يكترث •

- ٩ -

صاحب الشريعة الاسلامية

خاطب هرقل أبا سفيان بوساطة الترجمان قائلا : « من أي القبائل أنت ؟ » • قال : « من قريش » • قال : « أتعرف رجلا اسمه محمد ظهر فيكم يدعو الناس الى دين جديد ؟ » •

قال : « أعرفه وهو من ذوي قرباي ، لكنني لست على دعوته فقد جاءنا بدين جديد ونحن على دين آبائنا ، وطالما نهيناه فلم ينته » •

قال هرقل : « أود أن أعرف حقيقة هذا الرجل فقد أثار أمره اهتمامي فهل لك أن تنبئني عنه وعن دعوته وما يدعو الناس اليه ؟ » •

فأسند أبو سفيان كوعه على ركبته ليستريح في جلوسه ، والتفت الى من حوله فاذا هو محاط بجماعة كبيرة من البطاركة والامراء والقواد ، فعلم أنه يقص حكايته على أعظم رجال الروم والترجمان يترجم كلامه فقال : « أبيت اللعن أيها الملك ، ان محمدا صاحب هذه الدعوة الذي توصل الى مخاطبة قيصر الروم قد ربي يتيم الأبوين صفر اليدين ، ولكنه من أصل عريق في الشرف والسؤدد من قبيلة قريش التي أنا منها ، ويتصل نسبنا بعدنان ونسب عدنان باسماعيل

ابن ابراهيم فنحن من أشرف العرب نسبا وأطيبهم طينة • وكـان جدنا اسماعيل قد بنى لنا بيتـا يحج اليه الناس من أقطار العالم اسمه الكعبة بنـاه في مكة بالحجاز وهي مسقط رأسي ومحل اقامتي ومركـز تجارتي ومقـام أهلي •

« وكـانت ولاية هذا البيت تارة في قريش وتـارة في سواهم حتى اغتصبها منهم منذ قرنين أو أكثر بنو خزاعة وهم قبيلة من عـرب اليمن القحطانية • اذ لا يخفى على مولاي القيصر ان العرب يرجعون في أنسابهم الى أبوين هما : اسماعيل الذي قدمت ذكره ومنه قبيلتنا وسائر قبـائل الحجاز ، وقحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن • ولم تستطع خزاعة الاستئثار بولاية الكعبة الا لمـا تفرقت كلمة قريش وضعف أمرهم ، الى أن ظهر جدنا قصى فبذل الدم والمـال حتى ظهر على خزاعة واسترجع ولاية البيت الى قريش وتولى هو كل أعمـال الكعبة وهي الحجابـة والسقاية والرفادة والندوة واللواء » •

فلم يستطع الترجمان فهم هذه الكلمات وأشكل عليه تفسيرها فقال هرقل : « أفهمنا ما معنى هذه الاعمال ؟ » •

فقال أبو سفيان : « ليس في مكة يا مولاي حكومة مستقلة كحكومة القيصر ، وانما هي مكـان عبادة لأن الكعبة يزورها الناس كمـا يزور النصارى ديرا من الاديرة ، ولكنها أعظم من ذلـك كثيرا ، فمن تـولى أعمالها كـانت اليه حكومة مكة وولاية أمرها على قدر ما يتولى من تلك الأعمال • فمن تولى الحجابة كـانت له حجابة الكعبة أي أن مفاتيحها تكون بيده يفتحها لمن أراد ويمنعها ممن أراد • وأمـا السقاية فهي أن بجانب الكعبة بئرا قديمة يقال لها بئر زمزم احتفرهـا جدنا اسماعيل فمن يتولى السقاية تكون تلك البئر في عهدته يسقي الحجاج منهـا • أمـا الرفادة فهي خراج أو مال تدفعه قريش الى من يتولى الرفـادة

فيصنع منه طعاما للحجاج الذين يزورون الكعبة من أقطار الارض لأنهم ضيوف عليه • وأمـا اللواء فهو العلم الذي يعقدونـه للحرب وصاحب اللـواء يعقد الألوية للجند الذاهبين للقتال ، وهو بمنزلة قـائد الجند عندكم • أمـا الندوة فهي مجلس القضاء ولهـا بيت في مكة يجتمع فيه رجال قريش للمشورة والمداولة ، وصاحب هذه الدار هو صاحب الشورى والرأي واليه يرجع الأمر • ففي هذه الامور الخمسة تجتمع السلطة المطلقة للدين والدنيا ، لمن يتولاهـا فيكون القضاء والجنـد والكعبة والمـال في يده ؛ ولقد حاز جدنا قصي شرف ذلـك كله اذ قطع مكة أرباعـا بين قومه ، وبه اجتمعت كلمة قبيلتنا وعـادت اليهـا سطوتها وعلا نجم سعدها فتيمنت بأمـره حتى صارت لا تزوج امرأة لرجل من قريش الا في داره ، وفيها يتشاورون في كل أمر نزل بهم ، ويعقدون لواء الحرب ضد غيرهم وصفوة القول كان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره • وكـان له أربعة أولاد هم : عبد الدار ، وعبد مناف جدنا ، وعبد العزى ، وعبد • فلمـا شاخ قصي كـان عبد مناف قد شرف في زمـانه وعظم أمره وكذلك عبد العزى وعبد الدار ، فأراد قصي أن يشرف عبد الدار وكان بكره فدعاه اليه وأوصى له بمناصب الكعبة الخمسة المتقدم ذكرها فصار شرف مكة كلـه الى عبد الدار والى بنيه من بعده •

« ثم خلف عبد الدار أولادا ، وخلف عبد مناف أولادا آخرين وهم : عبد شمس ، وهـاشم ، والمطلب ، ونوفل • وكـانوا رجـالا أشداء • وعبد شمس هو جدي فغبط بنو عبد مناف بني عمهم عبـد الدار على ما في أيديهم من أمر الكعبة ونازعوهم عليـه حتى كـاد يفضي أمرهم الى الحرب ، ثم تداعـوا الى الصلح واقتسموا ذلـك الشرف فيما بينهم فأعطيت السقاية والرفـادة لبني عبد مناف ، وأعطيـت الحجابة

واللـــواء والندوة الى بني عبد الدار ، وتم الصلح على ذلك وانحسم الخلاف . ولا تظنـــوا اني أطلت الكـــلام عـــلى غير طـــائل أو اني دخلت فيمـــا لم أسأل عنه فـــان لمـــا قلته علاقة كبرى فيمـــا سألتموني عنه . فقد تولى السقاية والرفـــادة أولا عبد شمس ، ولكنـــه كـــان كثير الأسفار لا يقيم بمكة الا قليلا فعهد بهمـــا الى أخيه هـــاشم ، وهاشم هو جد أبي محمد الذي تسألونني عنه . ثم مات هـــاشم فوليهما أخوه المطلب وكـــان سمحا سمته قريش الفيض لسمـــاحته .

« وولد لهاشم ولد سماه شيبة ثم سمي عبد المطلب لحكـــاية طويلة لا محل لها هنا وهو جد محمد لأبيه . فلمـــا مات المطلب تولى الرفادة والسقاية ابن أخيه هذا أي عبد المطلب . وولد لعبد المطلب عشرة أولاد ذكور منهم عبد الله أبو محمد » .

« وكان عبد المطلب قد أراد حفر بئر زمزم فمنعه أقـــاربه من ذلك ، فلاقى أمورا صعابـــا ، ولكنه فـــاز بحفرها فنذر انـــه اذا ولد لـــه عشرة أولاد لينحرن أحدهم عند الكعبة . فلمـــا هم بالوفـــاء بنذره لـــم يدر أي أولاده ينحر ، فاستخار هبل الصنم الأكبر القـــائم في الكعبة بواسطة القـــداح » .

فأشكل أمر هذه القـــداح على الترجمـــان ولم يستطع تفسيرها فاستفسره عنها .

فقال أبو سفيان : « ان لنـــا في الكعبة أصنامـــا كثيرة اتخذناها وسيلة بيننا وبين من نعبده وأعظمها صنم اسمه هبـــل عنده سبعة قداح ، هي أسهم بلا ريش ، كـــل قدح عليه كتـــابة بمعنى ، فقدح كتب عليه (العقـــل) وقدح عليه (نعـــم) وقدح عليـــه (لا) فـــاذا أرادوا أمرا ضربوا عليه القداح فاذا خرج (نعم) فعلوا مـــا جاءوا من أجلـــه ، واذا خرج (لا) لـــم يفعلوه . وقدح فيه (منكم) وقدح فيـــه (ملصق)

وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيـه (المياه) اذا أرادوا أن يحفـروا للمـاء ضربوا القداح وفيهـا ذلك القدح فحيثما خرج عملـوا به • فجاء عبد المطلب الى هبل وأخبر صاحب القداح بنذره ، فاصطنع لأولاده عشرة أقداح لـكل رجل منهـم قدحـه وعليـه اسمه ، وكـان عبد الله أبو محمد الذي نحن في صدده أصغر بني عبد المطلب وأحبهـم اليه • فلما ضربت القداح خرج القدح الخـاص بعبد الله ، فهم عبـد المطلب بذبحه فمنعته قريش من ذلـك وقالوا : (لا بل يجب أن تعذر فيـه) فانطلق الى عرافة في المدينة (يثرب) فوجدوهـا بخيبر ، فجـاءوهـا فسألوها عذرا ، فسألتهم : (كم دية الرجـل عندكم ؟) • قـالوا : (عشرة من الابل) • قالت : (فخذوا الغلام وعشرة من الابل واضربوا عليه وعليهـا القداح ، فان خرجت عليه فزيدوا في الابل عشرة فعشرة حتى يرضى الاهكم وتخرج القداح عليها فتنحروهـا) • فخرجـوا وضربوا القداح فما زالت تخرج على عبد الله حتى بلغ عـدد الابـل مـائة فخرجت عليها ، فذبحوها ونجـا عبد الله وبقي حيا وتـزوج فولد لـه محمد •

« ولم أطل عليكم الكلام الا لتعلموا مقدار ما نحن فيه من تعظيم الكعبة وأصنامها ، فانها ضالتنا وغايتنا نستشيرهـا ونستخيرها ، واليها تحج الناس من سائر أقطار الارض ولنـا بهـا منفعة وتجارة لمـا يأتينا بوساطتها من أصناف الناس عربها وعجمها • وقد ذكرت لكـم كم سفكنا من الدمـاء في سبيل استبقائها فهي مصدر نعمتنا ومنبع أقواتنا ومرجع آمالنـا • وقد مضت عليها القرون الطويلة قائمة والناس يكرمونهـا ويعظمونهـا ويذبحون عند أصنامها الذبـائح ويقدمون اليهـا الهدايا الى اليوم • ولكن صاحب هـذا الكتاب (وأشار الى الرق أمـام هرقل) قام يدعو الناس الى هدم ما بناه أجداده فيها » •

فلما بلغ أبو سفيان في كلامه الى هذا الحد ، ظهرت على وجه هرقل دلائل الاستغراب ، وخاطب البطريرك الى يمينه باليونانية قائلا : « أرى هذا الرجل يشكو ممن يريد هداية قومه عن عبادة الأصنام . فاذا كانت هذه هي غاية هذا النبي فنعمت الغاية » . فتداول الحضور الحديث برهة مؤمنين على ما قال الامبراطور ، وازداد شوقهم لمعرفة بقية الخبر وكيف استطاع محمد أن يقوم بدعوته رغم خطورتها ويتمه وضعفه ، فالتفت هرقل الى أبي سفيان وقال له : « لقد أفصحت فيما رويت فهل لك أن تفسر لنا كيف تمكن هذا النبي من القيام بدعوته ؟ » .

فقال أبو سفيان : « رأيت أبيت اللعن كيف نجا عبد الله بن عبد المطلب من الموت ، وكان أبوه يحبه فزوجه امرأة من قريش اسمها آمنة ولم تطب اقامته معها طويلا اذ اضطر الى سفر الى غزة التي أنا آت منها الآن ، ومرض في طريقه فعادوا به الى مكة فمات قبل أن يصل الى مكة بجوار يثرب ، ودفن هناك . وكانت امرأته آمنة حين مات حاملا ، ولم يترك لها الا أربعة من الابل وقطيعا من الماشية وجارية اسمها بركة . وكانت تقيم ببيت في ضواحي مكة عند جبل شرقيها اسمه جبل أبي قبيس . وهناك ولدت ابنها هذا في عام الفيل وهو العام الذي جاء فيه أبرهة الأشرم من الحبشة لفتح مكة (سنة ٥٧٠ م) . فلما ولدته كان جده عبد المطلب في الكعبة فحملوه اليه فباركه وسماه محمدا . ومن عادتنا أيها الملك أن نرضع أولادنا من المراضع ، ويندر أن يعيش لنا ولد على لبن أمه ، وتختار المراضع من أهل البادية لصحة أجسامهن ، فاختارت له أمه مرضعا من أهل الطائف اسمها حليمة فأرضعته حولين قضاهما في سهول الطائف وأوديته ، فنشأ نشيطا وسمعت الناس يروون عن طفولته أخبارا

غريبة لم نسمع بمثلها من قبل • منهـا أن مرضعه تركته يلعب مع ولدها ذات يوم خلف البيوت فاذا بولدهـا قد جـاء يقول : (ان أخي القرشي أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقا بطنه) • فخرجت هي تلتمسه فوجدته وحده فسألته عن أمره فقال : (جـاءني رجلان عليهمـا ثياب بيض وشقا بطني وأخرجـا منه شيئا لا أدري مـا هو وغسلاه بالثلج) • فخافت حليمة على الغلام فحملته الى أمه بمكة فقضى فيهـا مدة يرعى الغنم ويطوف الأحياء مع الأولاد ، وكـان كل من رآه أعجب بذكـائه وجماله ونور محياه ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفيت أمـه في الأبواء بين مكة والمدينة ودفنت هناك ، فأصبح الغلام يتيم الأبويـن فاحتضنه جده عبد المطلب وأحبه أكثر من حبه لأولاده ، فكان الناس يكرمونه من أجل جده ، وكان على صغر سنه يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والشيوخ ويحادثهم بما يقربه الى قلوبهم وعواطفهم ، وبعد سنتين توفي عبد المطلب فولى السقاية ابنه العباس • أمـا الرفادة فنيطت ببني نوفل من ولد عبد شمس جدنا ، فأصبح محمد يتيما غريبـا فكفله أبو طالب أحد أعمامه • وكـان أبو طالب أقل من العباس مالا ولكنه كـان وجيهـا مقدما في قريش فاحتضن الغـلام وتولى تربيته • والسبب في احتضانه ايـاه دون سائر أعمامـه أن أبا طالب وعبد الله أبـا محمد كـانا أخوين شقيقين • ولا شك أيهـا الملك العظيم أن كفالة أبي طالب هذه كانت سببا عظيما في نجاح دعوة محمد وبقائه حيا . لأن أبا طالب كـان وجيها في قريش محترمـا مكرمـا فأقام محمد ببيته كأحد أولاده • وكـان أبو طالب اذا خرج الى تجـارة أو سفر اصطحب محمدا ، فينزل بالأديرة ويجالس الرهبـان والعلمـاء • وأشهر ما سمعناه عنه نزوله بدير بحيراء قرب بصرى • فقد أخبرنـا بعض الذين رافقوه في رحلته أن الراهب بحيراء تنبأ بأمور كثيرة عـن

مستقبل حياته ، وأوصى عمه أبا طالب بأن يعتني به ويحرسه من اليهود . وكان محمد اذا عاد من سفر قضى معظم ساعات نهاره في الكعبة يحدث الناس ويجادلهم ويطارحهم الرأي ويعجبون لذكائه وقوة برهانه ، فقد كان على صغر سنه ذكي الفؤاد فصيحا واسع الاطلاع مما اكتسبه من مجالسة عمه ومخالطة الناس في أسفاره ، مع أنه أمي لا يعرف القراءة وهو لا يزال كذلك الى الآن ، وكان مخلصا حسن الطوية حتى لقبوه بالأمين فاذا جاء أو ذهب قالوا : (جاء الأمين أو ذهب الأمين) .

« وأهل مكة أيها الملك أهل تجارة يحملون الأموال من مشارف الشام واليمن وفارس والعراق الى مكة وغيرها وهم مشهورون بالتجارة كثيرا حتى ان نساءهم كن يتعاطينها . وكان في مكة امرأة غنية اسمها خديجة بنت خويلد من سلالة عبد العزى بن قصي ، وكانت لشرفها وغناها تستأجر الرجال للتجارة في مالها ، وتفرد شيئا منه تجعله لهم . فسمعت بمحمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واشتهر بالاستقامة والنشاط ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها الى الشام تاجرا وتعطيه أكثر مما كانت تعطي غيره ، فسار في تجارتها مع غلام لها اسمه ميسرة وعاد وقد أكسبها مالا طائلا فأحبته وعرضت عليه أن يتزوجها ففعل وولدت له أولادا وهم : القاسم ويكنى به (فيقال أبو القاسم) . والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة . وأما القاسم والطاهر فماتا قبل أن أظهر دعوته . وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ونحن لا نعرف من أمره غير ما عرفناه من حسن خصاله ومهارته واستقامته ، ثم اجتمعت قريش يوما لبناء الكعبة ، وذلك على أثر سرقة كنز كان في جوفها ، والعثور عليه عند رجل من خزاعة . وكان البحر قد رمى بسفينة عند جدة

لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فأخذنـا خشبهـا واعددنـاه لتسقيف الكعبة ، وكـان بمكة رجل قبطي يحسن النجـارة فاغتنمنا هذه الفرصة لبنائها واقتسمنا العمل لكيلا يحوز أحدنـا من الشرف في ذلك أكثر مما يحوزه غيره • فجئنا بالحجارة والأخشاب حتى تم البناء ولم يبق الا رفع الحجر الأسود الأثري الى مكـانه فاختصم الناس فيمن يرفعه منهـم ، وكـانت كل قبيلة تدعي أنها أحق برفعه ، حتى تعاظم الخصام وهموا بالقتال • ثم اتفق رأي عقلائنـا أن يحكموا فيما بينهم أول داخل من باب المسجد في ذلك اليوم • فكـان محمد أول داخل فقالوا : (هذا هو الأمين قد رضينا بحكمه) • فأخبروه الخبر فرأى رأيـا حسنا لم يخطر ببال أحد منا • ذلـك أنه أتى بثوب واسع جعل الحجر فيه وقـال : (لتأخذ كل قبيلة بناحية منه) • فرفعناه جميعا حتى بلغنا به موضعه ، فوضعه هو بيده وانحسم الخلاف • وقد حدث هذا بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة ، وحدثت حرب الفجار بعد عـام الفيل بعشرين سنة • وكـان لعمله هذا وقع حسن علينـا فخرج الناس من الكعبة يتحدثون بفطنته وتعقله وكنت في جملة المعجبين به ولا أزال أعترف بفضله لولا مـا أراد من تحقير آلهتنـا وتعييب أصنامنا كمـا سأقصه عليكـم • وبقينا تتحدث بحسناته ونعجب بأخلاقه حتى بلغ الأربعين ، فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله في شعب الجبال حتى صـار يأوى الى الكهوف ، وذكر أن المـلاك جبرائيل ظهر لـه وعلمه الصلاة فعلمهـا لامرأته خديجة ولزيد بن حارثة مولاه ولعلي ابن عمه أبي طالب ، وكان علي غلاما صغيرا ، وعلمها أيضا لعبد الله بن أبي قحافة الذي يسمـونه الآن أبا بكر ، وتبعه آخرون • وهو يتلو عليهم آيـات يقول ان ربـه علمه اياهـا ونحن لا نعبأ بذلك لأنه لم يمس آلهتنـا بعيب • ولكنـه ما لبث أن جمـع عمومته وأهل عشيرته الأقربين ودعـاهم الى تـرك

الآلهــة فأجابه عمه عبد العزي (أبو لهب) منكرا عليه جرأته هــذه ونصح له أن يرجع عن ذلــك ، فأبى •

« ثم بلغنا أنه سب آلهتنا وعــاب أصنامنا ، فشق ذلــك علينــا واجتمعنا وفينا نخبة من أشراف قريش وتداولنــا أمره بيننا ، فــرأى بعضنا أن نقتله وقال بعضنا : (اذا قتلنــاه أسأنا الى عمه أبي طــالب وهو رجل جليل القدر فالأجدر بنــا أن نخاطبه في شأن ابن أخيه ولا سيما أن أبا طالب هذا ظل على دين آبائنا ولم يؤمن بدعــوة ابن أخيه) • فسرنــا جميعا الى أبي طــالب في منزله فتلقانا على الرحب والسعة وأكرم وفادتنا على عادته ، فلما استقر بنــا المقــام قلنا : (يا أبا طــالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعــاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آبــاءنا فأما أن تكفه عنا أو تخلي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافــة فنكفيكه) • فأجابنا أبو طالب جوابــا لطيفا ووعدنا وعــدا حسنا وردنا ردا جميلا ، فانصرفنا عنه على أمل أن يردع ابن أخيه عن عمله ، فــاذا هو مصر على ما كــان عليه وبقينا نسمع مــا كنا نسمع عنه قبلا • وكــان ممن أيد دعوته من قريش ابن عم لامرأته ، اسمه ورقة ابن نوفل ، وكان نصرانيا مثلكم ، فاشتد غضبنا وهممنا بــأن نفتك به ثم رجعنا الى مجاملة عمه فاجتمعنا اليه مرة أخرى وقلنا لــه : (يا أبــا طالب أن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وأنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، واننا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى يهلك أحد الفريقين) • فآنسنا هذه المرة من أبي طــالب انصياعا وكأنه رأى اجابة سؤالنا اذ لا طاقة له بفراق قومه وعشيرته ومعاداتهم ، وبلغني أنه لمــا خرجنا من منزله بعث الى ابن أخيه فقال له : (يا ابن أخي ان قومك قد جاءوا الي فقالوا كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الامر ما لا أطيق) • فآنس من اصراره على دعوته وبقائه علــى عزمه مــا كــاد

يغضبه ، لولا أن محمدا قال له : (يـا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهر أو أهلك مـا تركته) • ثم بكى فرق له قلب عمه وتذكر ان ابن أخيه في منزله وله عليه حق الجوار فعاد الى نصرته وطمأن قلبه ووعده أنه لن يسلمه أبدا •

« ثم علمنا ذات يوم أن محمدا ذكر آلهتنا فيمـا نزل عليه من كتابه فقال : (أفرأيتم اللات والعزى ، ومنات الثالثة الاخرى ، تلك الغرانيق العلى ، أن شفاعتهن لترتضي) • فسررنا سرورا لا مزيد عليه وقلنـا هـا قد تم الوفاق لأنه جـاء يمثل عقيدتنا • لكنه مـا لبث أن رجع عن ذلك وأبدل بهذه الفقرة الأخيرة فقرة زادتنا نفرة منه ، وذكر آلهتنا بكل سوء فقال : (ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) • الى غير ذلك مما زادنا نفورا وبعدا •

« فحرنا في أمرنا مع هذا الرجل ، ولبثنا نتوقع فرصة لنتخلص منه ونرجو رجوعـه ، فاذا هو باق على عزمه ، وكثيرا ما كان بعض رجالنا اذا التقوا به تهددوه فلا يبالي ، وفيما نحن في ذلـك سمعنا أن عمـه حمزة بن عبد المطلب قد آمن بدعوته وأخذ ينصره ، وحمزة هذا رجـل شديد تهابه قريش فاشتد به أزره وازداد ثباتا في دعوته فقلنا : (لندعون محمد الينا نكلمه ونخاصمه حتى نعذر فيه) •فاجتمعنا في الكعبة وفينا كل أشراف قريش ، واستقدمناه فجاء فقلنا لـه (لقد بعثنا اليك لنكلمك ، فاننا لا نعرف رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتست الآلهة وسفهت الأحلام وفـرقت الجماعة ، فما أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك • فان كنت انما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلـب

عليك ــ والرئي التابع من الجن ــ بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لـك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك) • فأجابنا بقلب لا يهاب الموت قائلا : (ما بي ما تقولون ، وما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علـي أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني وبينكم) • فأردنا أن نمتحن اعتقاده فقلنا له : (ان كنت غير قابل شيئا مما عرضناه عليك فانك قد علمت أنـه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربـك الذي بعثك بما بعثك به فيغير لنا هذه الحال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب فانه كـان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وانه بعثك رسولا كمـا تقول) • فأجابنا وهو لا يتلجلج ولا يتردد قائلا : (ما بهذا بعثت اليكم ، انما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغت ما أرسلت به اليكم فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم) • وطال الجدال بيننا في مثل ذلك وهو باق على قوله حتى خرج ونحن لا نرى سبيلا الى الايقاع بـه »

★ ★ ★

كان أبو سفيان يتكلم والجميع صامتون يتطاولون بأعناقهـم ، يعجبون لما سمعوه • فقال بطريرك القسطنطينية لهرقل : « اني أرى أن

هذا الرجل جاءهم بالحق » . وعاد لاستماع الحديث فقال أبو سفيان : « وما زال أمـر محمد يستفحل حتى كثر أنصاره ، ومن غريب ما رأينا أنهم كانوا يحتملون منا الامور الصعاب والاضطهاد الشديد دون أن يكفروا به ، حتى اذا ضيقنا عليهم فر جماعة منهم الى بلاد الحبشة فحماهم ملكها وأخذ يناصرهم . أمـا محمد فبقي في مكة يدعو الناس بالحسنى والصبر ونحن غافلون ، حتى سمعنا باسلام عمر بن الخطاب ، وهو من أعظم رجال قريش ، فتأيدت دعوته به كما تأيدت بحمزة ، فعظم أمره واشتد أزره فصار دعاته يتكاثرون يوما بعد يـوم بمن ينضم اليهم من القبائل ، فخفنا عاقبة ذلك فاجتمعنا وائتمرنا على أن نكتب كتابا نتعاقد فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ألا ننكح اليهم ولا ننكحهم ولا نبيعهم شيئا ولا يبتاعوا منا شيئا ، فكتبنا صحيفة تعاهدنا عليها وتواثقنا وعلقناها في جوف الكعبة ولكنهـا ما لبثت أن نقضت لأننا تعهدناها يوما فاذا هي قد أكلتها الأرضة فتشاءمنا وسقط في أيدينا فلبثنـا ننتظر مـا يأتي به الزمـان . ومنذ حوالي عشر سنوات توفي أبو طالب وخديجة ، فذهب الذي كنا نهابه ونجل مقامه فنلنا من محمد ما لم ننله قبـلا ، فسمناه أنواع العذاب والاضطهاد حتى كثيرا مـا كنا ننثر التراب على رأسه ، فخرج من مكة الى الطائف عسى أن تنصره قبيلة ثقيف التي قضى زمن رضاعته فيها ، فلم ينل هنالك خيرا بل كـانوا يسبونه ويؤذونـه ويعترضون له في الطريق ويسومونه ألوان العذاب حتى ظننـاه يرجع ويترك دعوته ولكنه لم يزدد الا ثباتـا . وكـان يذهب الى المواسم حيث تجتمع القبائل للبيع والشراء كموسم عكاظ وغـيره ويعـرض نفسه عليهم ويدعوهم الى دينه . فكـان أكثرهم اقبالا عليه قبائـل الخزرج من أهل المدينة (يثرب) فانهم بايعوه بيعات تعرف ببيعات العقبة لوقوعها في مكان اسمه العقبة بقرب مكة » .

فقال الترجمان عند ذلك : «ومـا معنى المبايعة عندكم ؟ » • قـال أبو سفيان : « أن يتراضى الفريقان على أمر كـالبيع والشراء ، وسمعت أن محمدا يأخذ العهد على مبايعيه أن يكونوا على دعوته • ومن أمثلـة ذلك قولهم : (بايعناك على الا نشرك بالله ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتـان نفتريه بين أيدينـا وأرجلنـا ولا نعصاك في معروف) • وقد كانت بيعة العقبة هذه أول أمر الأنصار وهـم أهـل المدينة ، وسماهم الأنصار لأن أمره ضعف بعد وفـاة عمـه وخديجة كما قدمت فجاء الخزرج وبايعوه ونصروه فسماهم الأنصـار • وهؤلاء ذهبوا الى المدينة ونشروا دعوته بين أهلهـا فتبعه منهم كثيرون ، فلمـا رأى تضييقنا عليه بمكة أمر أصحابه بالهجـرة الى المدينة وسمـاهم المهـاجرين تمييزا لهم عن الأنصار • فلمـا علمنا بذلك وتبين لنـا انه اذا سار الى المدينة سيمتنع بأنصاره وأصحـابه وربما عادوا الى مناوأتنا ، اجتمعنا في دار الندوة بجانب الكعبة للتشاور فيما نفعل بهـذا الرجل ، فقال بعضنا : ننفيـه ، وقال آخرون : ان نفيه لا يمنـع اجتماعه بأصحابه وأنصاره ، فقـال آخرون : فلنقتله ونجعل دمـه متفرقـا بـين القبائل لئلا يجتمع أعمامه بنو عبد مناف على المطـالبة بدمه ، فجئنا برجـال من كل القبائل وسرنـا جميعا خلسة حتى أتينـا منزله وتربصنا له حتى ينـام ، فلمـا ظنناه نام وقد شاهدنا رجلا ملتفا ببردة حسبناه هـو ، خرج الينا ونحن نظنه سواه فكلمنا وحثا التراب على عيوننـا وفر من أمامنا ونجـا ، وتبعه من بقي من أتباعه في مكة الى المـدينة • وهناك نصره المهاجرون والانصار ، وهم جنده الى هذا اليوم مع من انضم اليهم من القبائل على أثر الحروب التي حاربهـا والغزوات التي غزاهـا ، فانه لم يدع قافلة لنا تمر بالمدينة الا غزاهـا وفرق أسلابهـا وأموالها بين رجاله ، حتى كانت بيننا وبينه غزوتا بدر الكبرى والصغرى ، وغزوة

أحد ، وغير ذلك مما يطول شرحه » .

فعجب هرقل لحديث أبي سفيان ورآه لما فرغ من حديثه قد علت وجهه الكآبة فقال له : « وكيف حال صاحبك اليوم ؟ » .

قال : « انتشر أمره بين القبائل في بلاد العرب الا مكة فانها لا تزال ممتنعة عليه ، وظنها ستمتنع برجالها . وقد بلغني أنه سيقدم لفتحها ولكنه سيلقى منا غير ما لاقاه في وقائعه الاخرى » .

فقال هرقل : « يؤخذ من كلامك أن الرجل جاءكم بالقول الحق ، فان عبادة الله أولى من عبادة الاصنام وأنتم انما قاومتوه ظلما » .

فقال أبو سفيان : « ان أكثرنا أيها القيصر يؤمن بالله ، ولكننا تتخذ الاصنام (ليقربونا الى الله زلفى) ونحن نعترف بالبعث والاعادة ولكننا لا نؤمن بالرسل » .

فاعترضه أحد البطاركة قائلا : « لا تظنكم قاومتموه الا خوفا على تجارتكم ان تبور اذا حطم آلهتكم وقل ورود الناس اليها » .

ثم أشار هرقل إشارة فهم الحضور منها انه اكتفى ، فتقدم الحارث الى أبي سفيان وأومأ اليه فوقف وقبل الأرض بين يدي هرقل فقال له الامبراطور : « لقد سرنا لقاؤك واستفدنا من حديثك ، وقد تكبدت المشقة بالقدوم الينا جزاك الله خيرا » . فقبل أبو سفيان الأرض ثانية وقال : « أبيت اللعن أيها الملك العظيم ، فاني بالمثول بين يديكم أفاخر أهل الحجاز كافة ، اذ قلما تيسر لأحد منهم أن يخاطب قيصر الروم » .
قال ذلك وخرج ورجاله معه فأمر له هرقل بخلعة من الحرير المزركش .

ثم التفت هرقل وتناول الكتاب وهو من الرق وأمر أن يحفظ في قصبة من ذهب ، وأمر بهدية الى دحية حامل الكتاب . وصرفه

- ١٠ -

غزوة مؤتـة

كـان عبد الله قد رأى أبا سفيان قبل ذلك في مكة ، فلمـا خرج هذا من عند هرقل تبعه الى صحن الدار وابتـدره بالتحية ولم يكن أبـو سفيان يتذكر وجه عبد الله ، ولكنه سرعان ما أنس اليه ، لمـا بينهما من رابطة اللغـة في أرض قل فيها العرب ، ثم سأله أبو سفيان عن وجهة سفره فقال : « اني مسافر الى عمان » . فقال أبو سفيان : « ان في طريقك اليها أودية وعقبات كثيرة ، هل جئتها من قبل ؟ » .

قال : « جئتها من هذا الطريق منذ بضعة أعوام » .

فقال أبو سفيان : « أما وقد تعارفنا فلنسر معا لأننـا عازمون على الحجاز ، ويسهل علينـا المرور بعمان فاذا مكثت أنت فيهـا ودعناك وسرنا في سبيلنـا ، ولكن قافلتنا لا تزال في غزة وفيها جمالنا وأثقالنا وخيولنا فلنقم هنا يوما أو يومين حتى نستقدم القافلة ونسير جميعا » .

فقال عبد الله : « حسنا وأنا أذهب الآن لوداع الحارث ولقضاء بعض حاجاتي ونلتقي الليلة في الساحة بقرب الكنيسة » .

قال أبو سفيان : « نعم الرأي ما رأيت » .

وافترقا فعاد عبد الله الى القاعة وكـانت الجلسة قد ارفضت فالتقى بالحارث خارجا يبحث عنـه ، وسأله هذا : « هـل تسير معـي الى بصرى ؟ » . فتحير ولم يدر بما يجيبه وخـاف اذا أبى الذهـاب معه أن يحمل ذلك محملا سيئا وهو لا يريد الذهاب الى بصرى قبل أن يلتقـي بحماد ، وخاف أن يخبره بما اعتزمه من الذهـاب مع أبي سفيـان الى عمان ، فأثنى على تعطفه وشكر عنايته في انقاذه وقال : « ان مجيئـي

الى بيت المقدس قد حبب الي الاقـامة بها حينا قبل أن أسير الى بصرى ، على أني حيثما كنت فأنا في ظل حمايتكم وحماية مولانـا القيصر » .

فسلمه الحارث كتاب الامـان وودعه ، فسار عبد الله حتى التقى بأبي سفيان فقضيا بضعة أيـام في القدس حتى جاءت القافلة فتهيأوا للسفر . وكـانت القافلة تنتظرهم خارج المدينة .

وفي صباح اليوم الثالث أعدت الخيول لركوب أبـي سفيـان وحاشيته ، فقال أبو سفيان لعبد الله : « هل عندك جواد لركوبك ؟ » .

قال : « لا ، فاني تركت جوادي في بصرى » .

فأمر له بجـواد وقال له : « اركب هـذا الجواد الآن فاذا جئنا القافلة أعطيناك جوادا يليق بك » .

فركبوا حتى جاءوا القافلة خارج المدينة فجلسوا للاستراحة قليلا وعبد الله لا يقر له قرار حتى يلقى حمادا . ثم جاءوه بجواد آخر عليـه سرج ثمين فلمـا وقع نظره عليه اختلج قلبه في صدره لأنه رأى فيـه شبيها بجواد حمـاد ، ثم تأمله جيـدا فاذا هو بعينه فـأعاد نظره الى السرج فاذا هو سرج جواد حماد ، فبغت وكـان أبو سفيان واقفـا على مقربة منه يرقبه فلما رأى ذلك منه سأله عن أمره ، فأجابه بقوله : « اني في ريب من أمر هذا الجواد لانه جواد ابني » .

فقال أبو سفيان : « وكيف عرفته ؟ » .

قال : « عرفتـه من لونه وقده وسرجـه وقد رأيته مهرا رضيعا وأعرف أمه قبله .

فعجب أبو سفيان لهذا الاتفاق الغريب وقال : « وأين كان ابنك ؟ » .

قال : « كان راكبا من بصرى الى عمـان فأين ظفرتم بهذا الجواد ؟ »

قال : « ظفرنا به تائها بالقرب من الزرقاء » .

فخاف عبد الله أن يكون حماد قد أصابه سوء ، فأعـاد السؤال عن

الظروف التي وجدوا فيها الجواد فقال أبو سفيان : « كنا قادمين من الحجاز الى الشام منذ بضعة أسابيع ، وفيما نحن بالقرب من الزرقاء نحاذر أن نقترب من مسبعتها اذ شاهدنا هذا الجواد تائها في الصحراء ، فأرسلت بعض رجالي في أثره ، وجاءوا به بعد عناء فسقناه معنا الى غزة ثم جئنا به الى هنا كما ترى » .

فبهت عبد الله ولبث صامتا لا يتكلم وقد اشتد قلقه على حماد مخافة أن يكون قد ذهب فريسة السباع وفر جواده منه ، وهو يعلم أن الجواد أصيل لا يترك صاحبه الا اذا مات أو أسر أو غاب عنه . فترقرقت الدموع في عينيه ولكنه تجلد وقال : « أراني كثير القلق على ابني ولا يهدأ لي بال حتى أتفقد المكان الذي وجدتم الفرس فيه » .

فقال أبو سفيان : « هو في طريقنا الى عمان فاذا شئت مررنا به وبحثنا معك عما تريد فان أمر ولدك يهمنا كما يهمك » .

ولم يشأ عبد الله أن يركب جواد ابنه بعد ما رابه من أمره ، فأركبوه غيره وساروا وهو لا ينبس ببنت شفة لتبلبل باله ، فقضوا يومين سائرين وعبد الله لا يأكل ولا ينام الا قليلا ، حتى صاروا على مقربة من الزرقاء فقال أبو سفيان : « ها قد بلغنا المسبعة فلنترك القافلة وجمالها وأحمالها ولنصحب بعض الفرسان الى السهل حيث عثرنا على الفرس ، وسار هو وعبد الله ومعهم عشرة فرسان وهم يحاذرون أن يلقاهم أسد أو وحش . فلم يسيروا الا قليلا حتى وقف أبو سفيان وقال : « هذا هو المكان الذي عثرنا فيه على الفرس فقد رأيته يركض في هذا السهل » .

فقال عبد الله : « وأين المسبعة ؟ » .

قال : « هي الى يميننا فاذا رأيت أن نعرج عليها فعلنا » .

فقال عبد الله : « سأقتفي أثر حوافر الجواد لعلي أقف على أثر

لولدي ، فاني أخاف أن يكون قد أكله سبع » •

فقال أبو سفيان : « نحن معك » • وأمر رجاله فتفرقوا بين التلال يبحثون ، وبعد برهة عاد أحدهم يسوق جواده حتى دنا منهما فقال : « رأيت آثار أناس بالقرب من شجرة هناك » •

فهمز عبد الله جواده وتبعه أبو سفيان والرجل ، حتى دنوا من المكان فاذا هناك شجرة كبيرة تحتها بقايا جواد مقتول لم يبق منه الا جمجمته وسرجه وبعض عظامه • فعرف عبد الله من السرج أنه جواد سلمان مخادمه فصاح قائلا : « هذا جواد سلمان فأين حماد ؟ » • وأخذ يدور حول الشجرة وبالقرب منها فرأى آثار نسيج عرف من فحصه أنه عباءة فظنها عباءة حماد مزقتها أنياب الوحوش ، فدق كفا بكف وقال : « هذه هي عباءته فأين بقاياه ؟ هل أكله السبع ولم يبق على شيء منه ؟ » • قال ذلك وأخذ قطع العباءة وجعل يقبلها ويذرف الدموع ويصيح : « واولداه ! » • ولم يعد يستطيع الوقوف •

فتأثر أبو سفيان وكل من حضر من حاله ، ولولا خشونة البداوة وتعودهم القتل والنهب لبكوا معه • أما أبو سفيان فقال له : « هون عليك أخا لخم فاننا لم نحقق موت الغلام بعد ، وأنت لم تعثر على جثته » • وأخذ يخفف عنه ويطمئنه بمثل هذا الكلام وهو لا يهدأ له بال ولا ينفك عن البكاء وجعل يدق كفا بكف ويقول : « أهذه آخرة حياتك يا حماد ؟ من لي بالأنياب التي نهشت جلدك الناعم فأحطمها ؟ وأين تلك المخالب التي غرست أظافرها في لحمك فأمزقها ؟ واولداه ! أهذا هو وفاء النذر ؟ أهذه عاقبة الصبر عشرين عاما لنقص لك شعرك ؟ » •

فلما رأى أبو سفيان شدة اضطراب عبد الله وبكائه رق له وخاف عليه ، فجلس الى جانبه وأمسكه بيده وأخذ يخفف عنه بما يؤمله من

بقاء ابنه حيا وقال له : « ان ما رأيناه من الآثــار لا يدل على شيء ممــا خفته فلو كــان الأسد فتك بابنك لرأيت شيئا من بقايــاه ، لان الأسد ان أكل ثيابه لا يستطيع أن يزدرد سيفه ورمحه وبقية سلاحه ، فلعله فر ونجــا ولم يفتك الأسد بغير الجواد ، فأرجع الى صوابك وتبصر في هذا الأمر فانك رجل عاقل خبير . هذا الى أن البكاء لا يجديك نفعا . هلم نبحث في هذا الجوار لعلنا نقف على ما يكشف لنا الحقيقة » .

فقال عبد الله : « صدقت أخا قريش ، ان البكاء لا يجديني نفعــا ولكنني أخاف اذا بحثت ألا ازداد الا فشلا ويأسا فدعني أبك ولدي وأقبل عباءته في هذه الصحراء حتى يلقاني الأسد الذي افترسه ، فأما أن أنتقم له منه أو أن يفترسني أيضا فذلك خير لي » .

ومــا زال أبو سفيان يهدىء من روع عبــد الله حتى نهض وسار ماشيا بين التلال والصخور ، وأبو سفيان يصحبه ورجاله منبثــون في أنحــاء السهل يبحثون . فوصل عبد الله وأبو سفيــان الى غدير صغير أشرفــا عليه من أكمة ، فآنس عبد الله عند الغدير شبحــا فهرول نحوه فاذا بثيــاب وسلاح فتأملهــا فاذا هي عباءة حمــاد ورمحه وسيفــه فضم السيف الى صدره وصاح قائلا : « هــذا هو سلاحه وهذه هــي عباءته لا تلك ، فأين هو ؟ » . فأخذوا يبحثون في ذلك الجوار حتــى ملوا ، وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل ولم يجدوا شيئا فتحقــق عبد الله أن حمادا ذهب فريسة الأسد فعاد الى البكاء حتى انفطر قلــب أبي سفيان اشفاقا عليه ، فأخذ يعزيه ويخفف أحزانه وهو لا يــزداد الا بكــاء .

فقال أبو سفيان : « يا أخــا العرب ان الحزن لا يجدي نفعا ، ووالله لو كــان ابنك أسيرا في ايوان كسرى ، أو قصر قيصر لبذلنــا أنفسنــا في سبيل انقاذه ، لان لك علينا حق الجوار ، هذا الى أنــك رجــل قد

وقعت من نفسي موقعا عظيما فنعمت بصحبتك ، وتراني رهن اشارتك » .

فسكت عبد الله برهة ولم يجب ، ولبث غارقا في بحار هواجسه يراجع في ذهنه تاريخ حياته وما جاء من أجله الى بصرى وما كان من أمر النذر ، ثم رجع الى صوابه وتجلد شأن ذوي العزم ، ورأى من الحزم أن يتدبر الأمر بالصبر والتروي فلاح له أن يسير الى عمان يبحث فيها عن حماد فلعل أحدا ينبئه بحاله ، ونظر الى الشمس وقد قاربت الزوال وبينهم وبين الطريق بضعة أميال ، ورأى أبا سفيان ورجاله واقفين ينتظرون وأشفق أن يكون في بقائه هناك خسارة لهم فقال لأبي سفيان : « اني يا أخا قريش شاكر لحسن صنيعك ، وأخشى أن أكون سببا لضرر ينالك على يدي ونحن في هذه الصحراء التي شربت دم ولدي ، فسيروا أنتم الى مقصدكم في حراسة الله » .

فأجابه أبو سفيان قائلا : « دع عنك هذا ، اننا لن نبرح هذا المكان الا وأنت معنا ، لنكون في خدمتك حتى تصل الى مأمنك ، واذا شئت المجيء معنا الى مكة فعلى الرحب والسعة تنزل عندنا ، فاختر لنفسك » .

فهم عبد الله بأبي سفيان وضمه الى صدره لما آنسه من تلطفه وقال : « لقد وفيتم الكيل وأجزلتم الجميل . أما المسير معكم فغير مستطاع ولا بد لي من النظر في الامر فاما أن أسير الى عمان واما أن أعود الى منزلي بقرب بصرى حتى يحكم الله بما يشاء » .

قال : « اننا في ركابك الى عمان ثم الى حيث تشاء » . قال ذلك وأمسك بيد عبد الله وسارا معا ، وعبد الله ممسك بسيف حماد يتنسم منه رائحته ، وعادوا جميعا الى القافلة .

وكان عبد الله أثناء عودته صامتا يفكر في حاله ويتردد بين أن يسير الى عمان وهو لا يدري ما يلقى هناك ، وبين أن يظل في مكانه . على أنه لما تروى في الامر وراجع ما مر به من أهوال ذلك اليوم اعترضه

أمل رآى من خلاله بصيصا هيأ له أن حمادا حي ، وذلك أنه يفكر في أمر ما عثر عليه من بقاياه فلم يجد دليلا قاطعا على موته لأنه لم يعثر على شيء من جثته فقال في نفسه لو أكلته السباع لبقيت منه بقية مثل بقية ذلك الجواد من جمجمة أو عظام أو قطع من ثوبه ممزقة . ثم فكر فيما وجده من السلاح فاذا به لم يره في الموضع الذي رآى فيه بقايا الجواد فقضى مدة يتردد بين اليأس والرجاء حتى وصلوا الى القافلة .

فقال أبو سفيان : « ماذا ترى يا أخا لخم ؟ هل تسير معنا الى الحجاز ؟ أم نوصلك الى مكان تريده في الشام ؟ » .

فقال عبد الله : « اني والله لا أدري ماذا أقول ، ولا أعلم ماذا أعمل ، فأرى أن تتركوني في هذا المكان أفكر في أمري حتى ألهم أمرا أعمله فاني لا أفقه من أمري شيئا » .

فقال أبو سفيان : « لسنا تاركيك وأنت في هذه الحالة » .

فقال عبد الله : « لقد غمرتموني بفضلكم وأنسيتموني حزني بتعزيتكم ، وأما وقد أصررتم فاني أود الذهاب الى عمان لعلي أستطلع خبرا جديدا » .

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال فباتوا ليلتهم وأصبحوا قاصدين الى عمان ، فدنوا منها والشمس قد دنت من مغيبها فقال عبد الله : « أستودعكم الله فاني سأدخل عمان أنتظر ما يأتي به القضاء » .

★ ★ ★

ودع أبو سفيان عبد الله ومضى ومن معه في طريقهم تاركين معه جواد حماد وبعض الزاد ، فلما خلا عبد الله الى نفسه نظر الى عمان

وقد أشرف عليها من مرتفع فاذا هي مدينة خربة لم يبق من أبنيتها الرومانية الا بضعة مبان متهدمة أعظمها هيكل خرب على تل بالقرب من غدير كاد ماؤه يجف ، ورأى على مقربة من ذلك المكان بيوتا حقيرة يسكنها بعض الفقراء . فسار نحو الهيكل وقطع الطريق اليه على جسر يظهر من منظره انه كان عظيما وتهدم فوصل اليه ماشيا يقود جواد حماد وراءه .

فما وصل الى ذلك البناء حتى غابت الشمس واغبر وجه الافق ، فجلس على حجر من أحجار الهيكل ملقى عند بابه وأمسك بزمام الجواد ونظر اليه فرآه هادئا كئيبا كأنه شعر بما يخامر قلب عبد الله من القلق فشاركه في حزنه ، ثم نظر الى ما حوله فاذا هو في أرض خالية ، من الناس لا يسمع فيها صوت ولا يرى فيها الا الاشباح والتلال والاحجار والاشجار ، والتفت الى ذلك البناء العظيم فرأى الذلة والمسكنة قد ضربتا عليه لما يتجلى فيه من آثار الخراب ، فكان له من ذلك عبرة ذكرته بمصير كل انسان ، ثم تذكر حاله مع حماد وما مر به من الاهوال ، فغلب عليه القلق واشتد به الحزن حتى ترقرقت الدموع في عينيه . ثم حانت منه التفاتة فرأى بيوت القرية عن بعد فحدثته نفسه بأنه سيجد حمادا بين أهلها فنهض بغتة يريد الذهاب اليها . ثم عاد الى صوابه فقال في نفسه : « لا أراني الا في اضغاث أحلام ، ان حمادا قد أصبح في عداد الأموات » . فعادت اليه أحزانه فجلس على ذلك الحجر كئيبا .

وقضى مدة في مثل هذه الحال يتردد بين اليأس والرجاء والليل قد أسدل نقابه وعلا نعيق البوم وضجت أصوات الضفادع في ذلك الغدير القليل الماء ، فخاف أن يكون جلوسه خطر على حياته من وحش يفترسه أو لصوص يسطون عليه فيقضي نحبه قبل أن يتحقق أمر حماد . فعاد

الى ذكرى أحزانه فأمسك بحسامه وقبله وبكى .

وما زال في ذلك حتى شعر بالبرد والنعاس على أثر ما قاساه من تعب المشي ، فأسند رأسه الى جدار الهيكل وهو بين اليقظة والمنام وعنان الفرس في يمينه ، فما شعر الا والجواد يصهل ويفحص الأرض بحوافره ، فعلم ان هناك أمرا ذا بال فوقف وأصاخ بسمعه وحدق بعينيه فلم ير شيئا ولا سمع صوتا ، فعاد الى متكئه وهو لا يستطيع الرقاد لشدة القلق ، فألقى بأذنه الى الارض ليستطلع سبب اضطراب الجواد لعله يسمع صوتا أو يستنبىء نبأ جديدا . فسمع وقع أقدام كثيرة فعلم أن الجواد لم يجفل عبثا وان جماعة قادمون الى ذلك المكان ، فهيأ نفسه للدفاع وصعد الى ربوة بالقرب منه لعله يرى أشباحا عن بعد فلم ير شيئا لأن الظلام كان شديدا ، فعاد الى مكانه وهو يتوقع أمرا خطيرا .

وقضى بقية الليل في مثل هذه الحال حتى دنا الفجر ، وكان قد أخذته سنة من النوم ، فأفاق على صهيل الجواد فرأى بالقرب منه جماعة كثيرة من الرجال في لباس البدو ، فظنهم لأول وهلة من رجال أبي سفيان ، لأنهم في مثل زيهم وقيافتهم ، ولكنه ما لبث أن سمع بعضهم ينتهرونه ، ثم هموا به يريدون القبض عليه فهم بالركوب على الجواد للدفاع عن نفسه فتجمهروا حوله وهم كثيرون فلم يستطع دفاعا ، فأمسكوه وأوثقوه وساقوه وهو يكاد يتميز غيظا فقال لهم : « ما تريدون مني ولا ثأر بيني وبينكم ؟ » .

فقال كبيرهم : « ألست من بني غسان وقد قتلتم رسولنا وأهنتم نبينا ؟ » .

فقال : « لقد أخطأتم المرمى ، فما أنا من غسان وانما أنا غريب في هذه الديار » .

فقالوا : « ان كنت صادقا فيما تقول فبرىء نفسك أمام أميرنا » .
قالوا ذلك وساقوه موثقا وأخذوا سلاحه وجواده ، فمشى معهم حتى أشرفوا على خيام مضروبة ، فرأى جموعا كثيرة من عرب الحجاز ومعهم الاحمال والاثقال والخيل والجمال ، فساروا به الى فسطاط كبير عرف من العلم الابيض المنصوب أمامه انه فسطاط الامير ولم يكد يدنو من الفسطاط حتى تقاطر الرجال زرافات ووحدانا وكلهم من البدو مكشوفو الرؤوس تغطي أجسام أكثرهم شملات يلتحفونها ، وقد لوحت وجوههم الشمس وظهرت عليهم آثار الأسفار ومعظم سلاحهم من الرماح والنبال .

فأوقفوه خارجا ودخل بعضهم الى الفسطاط ، ثم عاد فقاده الى الداخل ، فرأى في صدر المجلس رجلا معمما وعليه جبة جالسا على بساط وبين يديه بضعة من الرجال في مثل لباسه ، فعرف أنهم أمراء ذلك الجيش ، فاستعاذ بالله مما رماه به سوء طالعه ، فخاطبه الأمير قائلا : « من أنت يا أخا العرب ، أأنت من رجال الحارث بن أبي شمر ؟ » .

قال : « لست من أهل هذه الديار » .

قال : « وممن أنت اذن ؟ » . قال : « من لخم » .

قال : « وما جاء بك الى هذا المكان ولخم في العراق ؟ . لعلك جئت لنجدة الروم من لخم وجذام وبلقين ، فقد علمنا أن هرقل جند جندا فيه أخلاط من العرب المتنصرة » .

قال : « ولست من أولئك ، بل جئت في حاجة ولا ألبث أن أعود » .

قال : « أصدقنا الخبر فانك أسير بين أيدينا » .

قال : « قلت لكم الصدق » . قال : « وما دليلك على ذلك ؟ » .

وكان عبد الله قد عرف من لغتهم ولباسهم أنهم من قريش ، فتذكر

أبا سفيان فظن استشهاده به ينجيه من الخطر فقال : « دليلي انني كنت بالأمس مع أبي سفيان أمير قريش ، وهو صديق حميم لي فـاذا كـان بينكم فاسألوه » .

فما أتم كلامه حتى قطب الأمير وجهه وقال له : « أصديق أنت لذلك المشرك ؟ لقد زدتنا شكـا في أمرك ، ومـا الذي دفعك الى صداقـة هذا الزنيم ؟ » .

فارتبك عبد الله في أمره ولكنه تجلد وقال : « عرفته منذ بضعـة أيام فقط ، وقد جـاء لتجارة في هذه الانحـاء فاصطحبته زمنا يسيرا ثم افترقنا بالأمس » .

قال ذلك وقد تذكر حكـاية أبي سفيان وعداوته لصـاحب دعوة الاسلام فأدرك انه بين أيدي رجال صاحب الدعوة الاسلامية .

فقال له الامير : « لو اقتصرت على انك من لخم لهان الأمر ، ولكنك أقررت بصداقتك لعدونـا ، فأنت في أسرنـا حتى نرى مـا يكون من أمرك » . ثم أمر فأخرجوه مخفورا الى خيمة منفردة جعلوه فيها .

ولو كـان عبد الله ممن لم يألفوا الاخطار لاستعظم الأمر ولكنه وهو البريء كظم الغيظ الى أن يتسنى له كشف حاله ، وبقي في ريب مـن أمر هذا الجيش وسبب قدومه من الحجاز الى الشام . فلمـا دخـل الخيمة جاءه أحد الحراس وأخذ يسأله عن أبي سفيان وكيف لقيـه وأين فـارقه فاغتنم الفرصة فقـال للرجل : « الى أيـن تقصدون بهـذا الجنـد ؟ » .

قال : « نقصد مشارف الشام لحرب الروم » .

قال : « وما الذي دعاكم الى حربهم ؟ » .

قال : « دعانا الى حربهم ما رأيناه من قحتهم » .

فقال : « وما أوجب ذلك وأنتم من قريش ومقامكم بالحجـاز وليس

بينكم وبينهم رابطة ؟ » .

فقال « ان نبينا محمدا قد أرسله الله للنـاس كـافة ، وقد بعث الى الروم بكتـاب دعـاهم فيه الى الاسلام فما وصل الكتـاب الى الغساني أمير العرب المتنصرة حتى مزقه وقتل رسولنا ، فكبر الأمر على نبينا فبعث بمولاه زيد بن حارثة في هذا الجند لقتال الروم » .

فقال عبد الله : « قد رأيت رسولكم الى هرقل وقد جـاء بمثل هذا الكتاب فلم يفعل به شيئا » .

قال : « ذلـك كتاب غير هذا ، وقد أرسله قبلـه أما أن هرقل لم يفعل مثل ما فعله الغساني فلأنه هاب ملكنـا ، وأمـا الغساني فقد غره جهله وسوف يلقى منـا مـا لقيه عرب الحجـاز واليمن ممـن أبوا الاسلام » .

فقال عبد الله : « ومن الامير الجالس في صدر الخيمة ومن هم الامراء الذين حوله ؟ » .

قال : « هو زيد بن حارثة مولى رسول الله ، أما الامراء الآخرون فالجالس منهم عن يمينه : جعفر بـن أبي طالب ابن عم نبينا ، والجالس عن يساره : عبد الله بن رواحة . وقد أوصى بالامارة على هذا الجيش لكل منهما عند الحاجة . وقد أمرنا نبينا أن نأتي المكـان الذي قتـل فيه رسوله وهي قرية يقال لها مؤتة فندعو أهلهـا الى الاسلام فان أبوا قاتلناهم حتى تفنيهم عن آخرهم أو يحكم الله بيننا وبينهم » .

فأدرك عبد الله سر الأمر . فقال للرجل : « وما الذي جنيته أنـا حتى سقتموني أسيرا وما أنا من الروم ولا من غسان ؟ » .

قال : « ما أظـن عليك بأسا من هذا الأمر ، ولو لم تظهر صداقتك لابي سفيان لكان ذنبك خفيفا ولكنك ستبقى في أسرنا فقد نحتاج اليك أثنـاء الحرب » .

فسكت عبد الله وقد ذهب عنه الروع وصار ينتظر ما يأتي به القدر ، وكلما ترجح له موت حماد تمنى أن يقتل فيلحق به .

وبعد يومين قامت الحملة الى مؤتة .

تركنا حمادا وسلمان وقد خرجا من الدير وسلمان يؤثر غير الطريق الذي سارا فيه لخوفه من مسبعة الزرقاء وحماد يحببه اليه اختصارا لطول المسافة .

فلما رأى سلمان اصرار حماد أذعن وسارا في أقرب الطرق ، ولكنه ظل خائفا ، وأراد الاحتراس فأوعز الى حماد فلبس درعه تحت أثوابه ، وسارا حتى أمسيا بالقرب من غدير نزلا على ضفته وتناولا شيئا من الزاد ، وكأن نفس سلمان حدثته بخطر قريب فهم يتجسس المكان قبل اشتداد الظلام . وكان حماد قد نزع عباءته وسلاحه وجعلهما الى جانبه على ضفة الغدير ، فلما نهض سلمان نهض حماد معه وقادا جواديهما وراءهما ، وصعدا الى أكمة أطلا منها على السهل المحدق بهما وجعلا ينظران الى ما حولهما من السهول وفيها بعض الآكام تتراءى كأنها جماعات من الناس أو أسراب من الوحوش ، فهالهما ذلك المنظر ثم سمعا زئيرا عن بعد فأجفل الجوادان وأخذا يفحصان الارض بحوافرهما .

فقال سلمان : « ها قد أحدق بنا الخطر وهذا ما كنت أتخوفه يا سيدي فهلم بنا الى النجاة » . فقال حماد : « وماذا ينجينا ؟ » . فالتفت سلمان فرأى شجرة فقال : « عليك بهذه الشجرة فتسلق أغصانها فان الأسد لا يقوى على الوثوب اليها » . ثم أخذا يتسلقان الشجرة وقد نسي حماد سلاحه وعباءته بعد أن شدا الجوادين اليها .

ثم سمعا صوت الزئير يدنو منهما فتشبثا بالاغصان وهما يحاذران أن يراهما الاسد على علمهما بامتناعهما عليه ، ثم ما لبثا أن رأياه وثب

عن أكمة بالقرب منهما أما الجوادان فأنهما أجفلا وصهلا صهيلا طويلا وحاولا الفرار فانقطع زمـام جواد حماد فهام في عرض الصحراء • وأما جواد سلمان فلم يستطع التخلص وظفر به الاسد فمزق صدره بمخلبه ثم مزق عنقه بأنيابه وأخذ ينهش لحمه •

ثم وقف الاسد ونظر الى ما حوله فرأى عباءة سلمـان فهم بها كأنه ظنها رجلا فمزقها بين أنيابه ومخالبه أي ممزق وأخـذ يتيـه بمشيتـه المعهودة حول الشجرة وقد تنسم رائحة الرجلين في أعلاها وعجز عـن ادراكهما فجعل يحك جلده بجذعها ويزأر حتى مالت الشجرة بهمـا وخافا السقوط فتمسكا بالأغصان وتثبتا في مكـانيهما وقلباهمـا يخفقـان خوفا وحذرا والاسد لا يقلع عن الزئير وهو يخطر ذهابا وايابا وعيناه تتلألآن في الظلام كأنهما سراجان منيران ، حتى مل الاسد فزأر زأرة دوى لها السهل الواسع ورددت صداها الآكام ، ثم أرسل ذنبه فوق ظهره وعاد من حيث أتى •

ولبثا يرقبانه وهو يخطر الهوينى متبخترا تيهـا وعجبا حتى واراه الظلام عنهما ، ولكنهما ما زالا يسمعان زئيره عن بعد وهمـا صامتان لا ينبسان ببنت شفة • فلما تحققا النجاة • قال سلمان : « أرأيت يـا سيدي ما كنت أخافه ، فشكرا لله الذي أنبت الشجرة في هذه الصحراء لتكون سببا لنجاتنا من الموت بين مخالب الاسد » •

فتحقق حماد عظم الخطر الذي تخلصا منه ولكنه أسف لذهـاب جواده • فقضيا معظم الليل مستترين فوق تلك الشجرة يخافـان النزول منها حتى انبلج الصبح فنزلا ونظرا الى جواد سلمان فاذا هو مضرج بدمائه ولا حياة فيه • فقال سلمان : « هلم بنا الى عمـان راجلين ، وقد كـان في طاقتنا أن نذهب اليها راكبين • ولكن تلك مشيئة المولى فنشكره لنجاتنا من مخالب الاسد ، وأما ما خسرنـاه فمتـاع يسهل تعويضه » •

فقال حماد : « ان الجواد عزيز علي ، فهل تظننا نظفر به بعد ؟ » .

فقال : « دعنا من الجواد الآن وهيا نقطع هذه المسبعة قبل أن يدركنا الظلام » .

فقال : « ولكنني أعزل وقد تركت السيف والرمح والعباءة على الغدر فهلا عدنا للبحث عنها ؟ » .

فقال : « لا أراني أستطيع تعيين المكان الذي كنا فيه ، لأن الطرق تشابهت علي ، وأخشى اذا أطلنا البحث أن تفوتنا الفرصة للنجاة وقد نجونا من الاسد مرتين فلا نأمن أن ننجو منه في المرة الثالثة ونحن على أقدامنا » .

فأطاعه حماد وسارا الى عمان فوصلا اليها وآقاما بها بقية الشهر المعين دون أن يأتي عبد الله ، فقضيا أسبوعا آخر وهما على أحر من الجمر فلم يأت أيضا ، فابتاعا جوادين آخرين عادا عليهما الى بصرى من طريق آخر ، خوفا من الاسود ، وهما في قلق على عبد الله وغيابه ، وأخذا يدبران وسيلة يدخلان بها المدينة أو ما جاورها على غير علم ثعلبة أو أحد من رجاله .

- ١١ -

بين هند وأمها

كان ثعلبة قد بقي في بصرى بعد ذهاب عبد الله وفي نفسه غل على هند وحقد على حماد ، فبث رجاله في ضواحي المدينة للبحث عنه فلم يقف له على خبر ، فأنفذ نفرا من خاصته سرا يتحسسون حال

عبد الله بعد ذهـابه الى هرقل فأنبأوه بمـا كـان من عفو الامبراطور عنه وذهابه مع أبي سفيان ، ولكنهم لم يعرفوا عنه شيئـا بعد ذلـك لأنهم لم يستطيعوا مرافقة القافلة خوفـا من انكشاف أمرهم ٠

واستبد بثعلبة حقده على حمـاد وغيرته منه فأصبح يصر على الزواج منها ليحرم حمادا منها ٠

وقد يعاشر الشاب فتاة أعواما لا يهمه من أمرهـا شيء ، ولا يخطر له الاقتران بها ، وربمـا كان في نفسه ترفع عنها وهو يزعم أنهـا لو عرضت عليه لا يرضاها ، فاذا آنس منها ميلا الى غـيره أو رأى غيره ميالا اليهـا ولا سيما اذا كـان الحب متبادلا بينهما فان عوامل الغيرة تثور في قلبه ويتحول حبه الفاتر الى شغف شديد ولا يرتـاح له بـال الا بنيلهـا ٠ ولا يقتصر ذلـك على هذا النوع من الحب ولكنه يتناول سائر أنواعه ٠ فقد ترى عقارا أو متاعا معروضا للبيع ولا يهمـك ابتياعه فـاذا رأيت الناس يقبلون عليه آنست في نفسك ميـلا الى شرائـه ٠ والظاهر أن ذلك غريزي في الناس على اختلاف أدوار حيـاتهم ، واذا أردت أن تطعم الطفل شيئا لا يحبه نفر منـه فـاذا تظاهرت باعطاء هذا الشيء الى سواه رأيته يطلبه بلجاجة ويتناوله بلذة ٠

فثعلبة لم يكن يهمه أمر الزواج بهند ولا هو أحبهـا حب الزواج الا بعد ما آنس من ميلها الى حمـاد ، فدفعته عوامل الغـيرة الى الاقتران بها ولكن خبث فطرته جعل ذلك الميل مقرونـا بالانتقام ٠ ولمـا لم يجد سبيلا الى ذلك بالقوة عمد الى الحيلة فحدثته نفسه أن يشكوهـا الى والديهـا ويكشف لهما ما كـان من انفرادها بحماد في الدير ، ولكنـه خاف أن تكون تلك الوشاية سببا لغضب عمه فينقلب عليـه لعلمه بمنزلة هند عنده فربما صدقها وكذبه ، ورغب في حمـاد عنه ٠ فلم ير سـبيلا الى شفاء غله الا بخطبتها من أبيها ٠

فلما عاد أبوه من بيت المقدس بسط له عزمه على الاقتران بهـا لمـا بينهما من رابطة القرابـة ، فسر أبوه بذلك ووعده أن يخـاطب جبلة في الأمر •

وركب الحارث ذات يوم الى البلقاء في موكبه وحاشيته ، فاستقبله جبلة بالتجلة والاكرام ، وان يكن في نفسه منه غـيرة لاحرازه الوجـاهة عليه لدى هرقل ودار الحديث بينهما ، فذكر الحارث رغبته في مصاهرته ، فأبدى جبلـة ارتياحـا ووعده بانجـاز الامر قريبا وهو غـافل عما تضمره هند •

فلمـا رجع الحارث الى بصرى خلا جبلة الى زوجته ، وذكـر لها حديث الحارث فلم يسمع منها رفضا أو قبولا فقد كـانت تعلم ما في نفس هند من احتقـار ثعلبة ، ولكنها استمهلته حتـى تسأل الفتـاة وتطلع على رأيهـا وان لم يكن من عاداتهم أن يتركوا أمر الاختيار للبنت ولكـن هندا كانت ذات سلطـان على أبويهـا يحبانها كثيرا ولا يخرجان عن رأيهـا •

★★★

كانت هند بعد أن عادت من الدير الى القصر قد تسكن منهـا حب حماد والاعجاب بشهامته حتى أنساها هذا كل شيء ، فأخذت تدبـر حيلة تتخلص بهـا من لوم والدتها على غيابهـا • فلمـا دخلت القصر رأت أمهـا في قلق لغيابهـا فبادأتها بالعتب على ابطاء الخادم بالرجوع اليهـا بالاساور • فقالت أمها : « اننا استحسنا الاساور وأعدنـا الخادمة لتعجيل حضورك • فادعت هند أنهـا انتظرت رجوعهـا حتى حـل الظلام فاستصحبت بعض خدم الدير حتى أوصلها الى القصر • فاستغربت

أمهـا ذلك الاتفـاق وجعلت تعتذر لهـا عمـا حملتها من المشقـة وقالت : « لعل الخادمة سارت اليك من غير الطريق الـذي جئت منه ولا تلبث أن تعود » •

فتظاهرت هند بالتعب وسارت الى غرفتها وهي مضطربـة قلقة على حماد من غدر ثعلبة لما تعلمه من لؤم هذا وخيانته •

فقضت ليلها لم يغمض لها جفن الى قبيل الصباح ، فنامت قليلا ثم أصبحت فجعلت تتنسم الاخبار ممن يذهب من خدم صرح الغدير الى بصرى لابتياع حاجات القصر ، فما لبثت أن علمت بالقبض عـلى عبد الله وفرار حماد ، فسرت لنجاته ولكنهـا ظلت خائفة لا تستطيع سبيلا الى الوقوف على خبره فقضت بضعة أيام منقبضة النفس لا يلذ لهـا طعام ولا يهنـأ لها عيش حتى ظهر أثر ذلـك في وجهها ، وأمهـا تبالغ في تسليتها لمـا ألم بهـا ، وهند تعتذر بانحراف صحتهـا على أثر التعب مـن ليلة الديـر •

فجعلت تخرج معها للنزهة أثنـاء النهار الى الضواحي ، تقضيان الساعات معا في البساتين على ضفاف الغدير ، وهند تزداد انقباضـا وضعفا حتى امتقع لونهـا وقل طعامهـا • فارتابت والدتها في أمرهـا وازدادت حنوا عليهـا وميلا لاستطلاع حقيقة حالهـا فلم تجـد الى ذلـك سبيلا • وكـانت سعدى من الذكـاء والفطنة على جـانب عظيم فخيل اليها الا بد لذلك التغيير من سبب ، فلما كلمهـا زوجهـا في أمر ثعلبة ورغبته في هند ، اتخذت ذلك وسيلة لاستطلاع مـا في ضميرهـا فدعتهـا ذات يوم الى الخروج معهـا الى الغدير وأمـرت الخـدم فأعدوا لهما وسائل الراحة ، فخرجتا حتى أتتـا ضفة الغدير ، وكـان الجو صافيا والنسيم عليلا والمـاء يجري أمامهما ، وكـانت هند بلبـاس البيت وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة أرسلتهـا على ظهرهـا ، وشدت

عصابة حــول رأسهـا كمن يشكو الصداع . فقضت مسافـة الطريق من القصر الى المكـان المقصود تسير الهوينى صامتـة تجـر ذيـل ردائهـا ، وتتشاغل تـارة برفعه عن الأرض لئلا يعلق ببعض الأشواك النابتة ، وطورا تلهو بالتأمل فيـا يتطـاير عن الأشجـار من الطيور . فلما وصلت الى المكـان اتكأت على وسادة من الحرير المزركش صنع دمشق فوق بساط ثمين تحت شجرة ظللتهمـا ساعـة العصر ، وكانت والدتهـا قد جمعت بعض الأزهـار في ضمة واحدة جاءت بهـا اليهـا فتناولتها وهي لا تتكلم فهمت بسازحتهـا فقالت : « اليك هذه الازهار فان لتقديمهـا معنى تفقهينه » .

فتناولت هند الازهار وهي لا تفهم المراد .

فقالت لها أمها : « ما بالك لا تتكلمين ؟ » .

قالت : « اسأليني أجبك » . قالت : « قد سألتك فأجبت » .

قالت : « لم تسأليني ولا أجبتك » . قالت : « بل أجبت » .

قالت : « كيف ذلك ولم أفه بكلمة ؟ » .

قالت : « ان تناولك هذه الازهار من يدي جواب عن سؤالي » .

قالت : « لم أفهم مرادك يا أمـاه فافصحي » .

قالت : « أضمرت في سري وأنـا أقدم هذه الازهار اليك انك اذا قبلتها من يدي كان أخذها جوابا عما في ضميري » .

قالت : « مالي أراك تخاطبينني بالرموز ؟ » .

قالت : « ما لنا ولهذا فاني أسألك سؤالا آخر فهل تصدقينني فيـه » .

قالت : « قولي فاني طوع أمرك » .

قالت : « أتحبين ابن عمك ثعلبة ؟ » .

فلما سمعت ذلـك علا وجهها الاحمرار ثم أعقبه الاصفرار وظهر

الانقباض عليها ولم تجب •

فقالت أمها : « قد وعدت بالجواب ولا أراك تجيبين ؟ » •

قالت : « اني لم أر مسوغا لهذا السؤال ، ولم أفهم مرادك منه ، وأنت تعلمين منزلة هذا الشاب عندي » •

قالت : « ما لنا وللمزاح فاني أسألك سؤالا صريحا فأرجو الجواب عنه صريحا فهل تحبين ثعلبة ؟ » • فتجلدت هند وتجاهلت وقالت : « أليس هو ابن عمي ، اني أحبه محبة الاعمام وان يكن لا يستحق هذه المحبة » •

قالت : « ولكنني أسألك هل تحبينه محبة غير هذه ؟ » • فأدركت هند مغزى كلام والدتها فنفرت ولم تجب •

فاقتربت سعدى منها حتى التصقت بها وقالت : « ما بالك لا تجيبينني فان أباك عهد الي في أن أسألك عن ذلك ، فبم أجيبه ؟ »•

فسكتت هند ولبثت تفكر في غرض أمها فتوسمت من وراء هذا الكلام شيئا قرأته في ملامح وجهها ولكنها تجاهلت ولم تكترث وظلت متكئة تنظر الى أمها شزرا •

وكررت أمها السؤال ، فاعتدلت هند في مجلسها ونظرت الى أمها والاستغراب باد على وجهها وقالت : « أفصحي يا أماه فان لسؤالك معنى انقبضت له نفسي ، فماذا تعنين بحبي لهذا النذل السافل غير الحب الذي أوجدته القرابة بالرغم مني » •

ففهمت أمها ما عند هند من الكره لثعلبة وكانت قد لحظت ذلك قبلا فتجاهلت حتى تستطلع أفكارها فقالت : « لا تسرعي الى الطعن في ابن عمك فانه سيكون أقرب اليك من ذلك » •

فنفرت هند حتى وقعت الأزهار من يدها ونظرت الى أمها معاتبة وقالت لها : « أرجو ألا أسمع منك يا أماه ما يثير عواطفي فاني لا

أرى مسوغا لتكديري بهذه الألغاز ، فليس لثعلبة وطر عنـدي ولا هـو ممن يطمع في قرابة فوق هذه ، فبحق حبك لو استطعت التبرؤ منه لفعلت وأنت أعلم الناس بمنزلته عندي وأظنك أقدر مني على الجواب عن هذا السؤال . فهل تمزحين » .

قالت : « بل أنا جادة فان عمك الحارث كلم أبـاك بشأنك ، فبم نجيبه ؟ » . فالتفتت هند الى والدتها باستخفاف كأنهـا تقول : « لا أصدق ما تقولين » .

فأجابتها بملامح عينيها وابتسامها أنها تريد الجد وقالت : « لا بل اني أسألك سؤالا صريحا : هل تحبين ثعلبة » .

فنهضت هند عند ذلك وتظاهرت بجمع الأزهار التي كـانت قد وقعت من يدها وازدادت امتقاعـا وظنت سكوتها جوابـا كافيـا . وظنها في محله لكن سعدى بالغت في التجاهل لعل الحديث يجرهـا الى معرفة سبب انقباض ابنتها بعد ليلة الدير فقـالت لها : « مـا بـالي أخاطبك فتتشاغلين عن جوابي . فهل خطـابي لا يستحـق الجـواب عنـدك ؟ » .

فترامت هند على صدر والدتها تقبلها وقبلت يدها وقد خجلـت من هذا التوبيخ وقالت : « ما كـان لي أن أفعل ذلك يا أمـاه ، ولكنني أعجب لسؤالك واصرارك في طلب الجواب وأنت تعلمين اني أريد التبرؤ من القرابة القديمة فهل أجر عـلي همـا جديـدا .. ؟ فليس لثعلبة وطر عندي » .

فقالت : « أظنك شغلت عنه بغيره .. » . قالت ذلـك وتظاهرت بالمزاح ولكنهـا آنست في وجه هند تغييرا سريعـا فعلاه الاحمـرار بغتة وسكتت .

فقالت سعدى : « ما بالك لا تجيبينني وأرى وجهك يتكلـم وعيناك

تعترفان فما بال لسانك لا ينطق ؟ » •

فتذكرت هند حبيبها واشتغالها به عن كل شيء ، وتصورت ما أتاه ثعلبة ، فاشتد تأثرها حتى ترقرقت الدموع في عينيها ، فحولت وجهها لتخفي على أمها ما كاد يظهر من عواطفها ، وتشاغلت بمراقبة غزال نافر رأته يثب على التلال عن بعد وظلت صامتة •

فازدادت أمها ارتيابا في شأنها ، ورأت هذه الفرصة مناسبة لكشف المخبأ فقالت لها : « ما بالك تحولين وجهك عني يا هند ؟ انك تخفين شيئا » •

فبقيت هند مشيحة بوجهها وتمنت أن تكون في خلوة لتطلق لدموعها العنان ، فأمسكتها أمها بيدها وحاولت النظر في وجهها ، فأفلتت هند وغطت وجهها بكمها لئلا يظهر بكاؤها • فتحققت سعدى ان هندا تبكي فكاد قلبها ينفطر وقالت لها « ما بالك يا هند ؟ ما الذي يبكيك ؟ » •

فأوغلت هند في البكاء وهي تحاذر أن تسمع أمها شهيقها حتى بللت كمها ولم تستطع كبت عواطفها • فتحققت سعدا ان هندا مشغولة القلب ولكنها لم تفقه حقيقة الحال ، فحاولت استطلاع السر فقالت : « اذن أنت في شاغل عن ثعلبة ؟ » •

فظلت هند صامتة خجلا وقد سترت وجهها بكمها بين يديها •

فسكتت سعدى وأخذت تفكر فيمن عسى أن يكون ذلك الشاغل ، وخافت أن تلح على ابنتها بالسؤال فتزيدها خجلا فلا تعترف لها بالواقع • ومضت بضع دقائق وهما صامتتان ، وأخيرا تظاهرت سعدى بالجد ونادت هندا قائلة : « أما وقد ظهر منك ما ظهر فلم يعد ثم داع الى الاخفاء فقد تحقق لدي انك في شاغل ذي بال ، فأفصحي يا ابنتي وقولي ما في ضميرك فاني أمك ، وأنت تعلمين حبي لك فاجعليني مستودع

سرك واتخذيني صديقة وأطلعيني على مكنونـات قلبك ، فنحن الآن في خلوة لا يرانا أحد ، وقد قضيت أياما أفكر فيما غيرك وقبض نفسك وأنت تخفين علي حقيقة حالك . أما ابن عمك ثعلبة فانه لن ينال منك شعرة وأنا أعلم الناس به ، وهبي أن أباك رضي به فأنا لا أرضاه لك » .

ثم همت بها وضمتها الى صدرها ، وهند تبالغ في تغطيـة وجهها حياء . فقالت لها سعدى : « افصحي يـا ابنتي وأخبريني فقـد نفذ صبري ، قولي ما في نفسك فاني عون لك على ما تبغين » .

فلما سمعت هند كلام أمها ، رفعت رأسها ونظرت الى أمهـا بعينين أذبلتهما الدموع وغيرهما الهيام ، وحاولت الكـلام فمنعها الحيـاء فأعادت وجهها الى ما بين يديهـا وألقت نفسها على صدر أمهـا وقد أخذ الهيام منها مأخذا عظيما .

فرفعت سعدى رأس هند بين ذراعيها وقالت : « قولي يـا ابنتي ولا تخشي شيئا فنحن في خلوة لا يرانا أحد ، هل تحبين أحدا ؟ » .

فتنهدت هند تنهدا عميقا ولم تجب ، فعدت أمها تنهدهـا جوابا شافيا فقالت : « ومن ذا الذي تمكن حبه منك حتى تسلـط على قلبك ونحن نحسبك أثبت جأشا من الرجـال ، وما عهدنـاك مسترسلة لعواطفك الى هذا الحد ؟ » .

فأطرقت هند وقالت : « لا بأس بي ولا أحب أحدا ، ولكنـي أحب التخلص من هذا العالم فاني شقية كتب علي العذاب من يـوم ولدت ! » . قالت ذلك وعادت الى البكـاء .

فانصدع قلب أمهـا لذلك ، وجعلت تقبلها وتضمها الى صدرهـا وتقول : « ما هذا الكلام يا هند ؟ هل يئست ممن تحبين ؟ » .

فنبذت هند الحياء عند ذلك وقالت : « نعم يا أمـاه اني يئست ، فأبكي على ابنتك واندبيها لأنها تعيسة شقية ! » . فتحققت سعـدى

صدق ظنها وأرادت الوقوف على جلية الأمر فقالت : « وما سبب تعاستك وأنت فتاة غسان وزهرة هذه البلاد ، والناس يتحدثون بتعقلك ، وأترابك يحسدنك على مقامك ؟ » .

قالت : « على أي شيء يحسدنني ؟ » وازدادت بكاء ولسان حالها يقول : « حتى على الموت لا أخلو من الحسد ؟! » .

فتساقط الدمع من عيني سعدى رغم محاولتها التجلد ، اشفاقا على هند وأدركت أنها عالقة بحب رجل لا سبيل لها اليه فقالت لها : « لا تذكري التعاسة وأنت الآمرة الناهية ، ولا تخشي بأسا فأنا آخذ بيدك واعمل على اسعادك ، فأفصحي عن ضميرك ، وكفانا بكاء . واعلمي أن ثعلبة سيرتد خائبا » .

فحرقت هند أسنانها عند ذكر ثعلبة وقالت : « ان الشر كله من هذا الخائن ، وهو وحده سبب الشقاء ، وهل تظنينه رغب في خطبتي لأنه يحبني ؟ » .

قالت : « وكيف اذن ؟ » .

قالت : « انه فعل ذلك انتقاما من ذلك الشهم الذي أبقى على حياته كرما وأنفة » .

فتذكرت سعدى حكاية السباق وما كان من شهامة حماد . وأحست كأن غشاوة انقشعت عن عينيها فأيقنت ان الفتاة مغرمة بحماد . فبغتت ولم تبد جوابا لعلمها أن الرجل غريب عن ديارهم ، وكانت قد سمعت بفراره والقبض على أبيه متهما بالجاسوسية فوقعت في حيرة ، على أنها لم تكن تنفر عندما كان هذا الشاب يذكر في عرض الحديث بل كانت ترتاح لذكره والتحدث عنه ، لما ظهر من شهامته وكرم أخلاقه ، ولكنها استغربت وقوع هند في هواه مع أنفتها وشكها في حسبه فضلا عن أنها لم تجتمع به .

ونظرت هند اليها لترى ما يظهر منها بعد هذا التلميح ، فلما رأتها صامتة قالت : « ألم أقل لك اني شقية ؟ ها ان الاشارة الى سبب شقائي أفقدني حنوك ! » •

فقالت : « كلا يا ابنتي ، لقد وعدتك بأن أنصرك ، وما زلت عند وعدي • ولكن الخبر جاءني على غرة فبغتني ، فهل أنت تحبين ذلك الشاب ؟ أنه حقا شهم كريم النفس وأنت تعلمين منزلته عندي من يوم السباق » •

فسكتت هند وكان سكوتها جوابا بليغا •

أما سعدى فاستعظمت أن تزف ابنتها الى رجل لا يعرف له حسب ولا نسب ، ثم هو متهم مع أبيه بالتجسس ، فضلا عن غضب الحارث وثعلبة عليه ، وخيل لها أن بقاء هند على عزمها قد يحدث شقاقا بين جبلة والحارث • ولكنها لم تكشف الامر لهند اشفاقا من جرح شعورها بعدما رأت من شدة تعلقها بحماد ، فعمدت الى الملاينة ومسايرتها لترى ما يكون من أمر ثعلبة مع حماد ، فقالت : « ان حمادا أهل لحبك ، ولكن كيف بلغ بك الحب الى هذا الحد والرجل غريب عنا ؟ » •

فقطعت هند الكلام وقالت : « ألم أقل لك اني سائرة الى الهلاك ، فقد علمت ما يخامر ذهنك ، ولكن ما الفائدة من كل ذلك وحماد في مكان لا نعرفه ولعله ذهب فريسة غدر ذلك اللئيم ؟ » • قالت ذلك وعادت الى البكاء •

فقالت أمها : « لا تجزعي يا هند ، ان الله على الباغي • ولكنني أستغرب تعمد ثعلبة الايقاع بهذا الشاب وليس بينهما علاقة ؟ »•

قالت : « هو الحسد والغيرة ولؤم الطبع ، على أن هذا الخائن لا يساوي قدة من نعل حماد » • قالت ذلك وهي تشرق

بدموعها .

فأخذت سعدى تخفف عنها وتطيب خاطرها حتى سكن روعها ، ثم رأت أن تلم بتاريخ هذا الحب وكيف حدث فقالت لها : « ترى كيف أسلمت قلبك لحماد وأنت لا تعرفين حسبه ولا نسبه ؟ » .

قالت : « انه حسيب نسيب وسيماه في وجهه » .

فقالت : « ولكن الوجوه لا تدل على الأحساب » .

فقالت : « علمت أنه من أمراء العراق ، وهذا يكفي . وهبي أنه أقل من ذلك فقد ملك عواطفي بقوة من الله تمجد اسمه ، فها أنذا أطلعتك على مكنون قلبي » . قالت ذلك وأطرقت حياء وقلبها يرقص فرحا لما آنسته من عطف أمها ، فاستأنفت هذه حديثها وقالت : « وكيف عرفت حسبه ؟ » .

فانتبهت هند الى أنها أخطأت وكذبت يوم ذهبت الى دير بحيراء ، فهمت بيدي أمها وجعلت تقبلهما وتقول : « عفوك يا أماه . لقد ارتكبت ذنبا يوجب غضبك » .

فقالت : « وماذا تعنين ؟ » .

فقصت عليها حكاية دير بحيراء ، واعترفت بكل ما دار بينها وبين حماد وهي تطرق تارة وتبتسم أخرى ، وأمها تسمع لها حتى انتهت فأحست كأنها أفاقت من غفلة ، فسايرتها وطمأنتها وقالت لها « اصبري حتى نرى وسيلة لا تشين شرفك أو شرف الاسرة » .

فاطمأن قلب هند لرضاء أمها ، ولكنها ظلت على قلقها لغياب حماد ، بل صارت بعد ما آنسته من عطف أمها أكثر قلقا عليه لان خوفها من المعارضة كان شاغلا لها عن التفكير فيما وقع فيه حماد من الخطر .

وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب وهما ذاهلتان لو لم تريا الرعاة عائدين بالماشية من المراعي الى الحظائر بالقرب من الصرح ،

فهمتا بالنهوض ومشتا الهوينى وكل منهما في شاغل . فرأت هند أن تغتنم الفرصة للاستعانة بأمها على البحث عن حماد ، فدنت منها وأسندت يدها على كتفها وقالت : « ما الحيلة يا أماه لكف سعاية ثعلبة عن حماد ؟ أيحل في شرع الله أن يذهب هذا الشهم فريسة الحسد والغدر ؟ » .

قالت : « خففي عنك يا ابنتي وقري عينا ، فاني كفيلة بنجاته باذن الله ، ولا بد من الصبر والتؤدة لنرى ماذا جرى له في غيابه » .

قالت ذلك وهي ترتاب في بقائه حيا وقد يكون ظنها أنه ليس على قيد الحياة مما أعانها على أن تغتفر لابنتها نزولها الى حبه وهو غريب ، فبالغت في طمأنتها حتى وصلتا الى صرح الغدير ، وقضتا بعض تلك الليلة في مثل هذه الاحاديث .

وفي الصباح التالي بدأت سعدى تستطلع خبر حماد ، فعلمت بعد أيام أن هرقل عفا عن عبد الله وأمر له بكتاب الامان ، فأخبرت هندا بذلك فسرت لبراءته من تهمة التجسس ، وغدت تترقب وقوفها على مقر حماد لتبلغه ذلك ، فلم تجد اليه سبيلا . فلما طال غيابه زاد قلقها ولكنها صبرت في انتظار ما يأتي به القدر وهي تنذر النذور سرا لدير بحيراء .

- ١٢ -

درع حماد

كانت هند جالسة في حجرتها ذات يوم ، فاذا بها تسمع مناديا بجوار القصر يقول : « من نذر نذرا لنجران المبارك ؟ » فأطلت من

النافذة فرأت فارسا متزملا بعبـاءة وعلى رأسه قلنسوة الرهبـان ، وفي يده صليب من الفضة ، فعلمت أنه منادي دير بحيراء ــ ونجـران اسم من أسمائه ــ يطوف البلاد والقرى يجمع النذور عـلى عادته في كـل عـام .

فلما سمعت اسم الدير ثارت عواطفها وتذكرت حبيبها ومـا دار بينها وبينه هناك ، على أنها تفاءلت خيرا لعلمهـا ان المنادي كثير التجوال ، ولعل عنده خبرا عن حماد ، فأمرت أحد الخدم أن يستقدمـه ، فجـاء الرجل الى القصر حاملا خرجا . فحياها تحية الملوك وناولهـا الصليب فقبلته وقبلت يده وقدمت له وسادة جلس عليهـا ووضع الخـرج الى جانبـه .

وكانت أمهـا في شاغل ببعض شؤون القصر وليس في الغرفة سواها فتأملت وجه الرجل فاذا به غير الراهب الذي يمر بهم عـادة فخـافت أن يكون محتالا أو جاسوسا ، فسألته : « هل لـك في الذهاب الى قاعة الطعـام ؟ » . فأثنى على كرم الغسانيين واعتذر بأنه غير جـائع ، فقالت له : « من أين قدم الأب المحترم ؟ » .

قال : « أتيت من الجولان في البلقاء أجمع النذور » .

فقالت : « هل جمعت شيئا كثيرا ؟ » .

قال : « نعم يا سيدتي ان المسيحيين أكثروا في هذا العـام مـن النذور حتى ملأت خرجي هذا من خيراتهم » . وتناول الخرج بيده وهزه فسمعت له صوتا يشبه صليل الحديد .

فقالت : « مـا هي أنواع النذور التي جمعتها هذا العام . اني أسمع لهـا صليلا » .

قال : « ان في خرجي هذا نذورا كثيرة لم يدخل دير بحيراء مثلهـا منذ بني حتى الآن » . قال ذلك وتبسم ، فارتابت هند في قولـه وأدركت

أن وراء ابتسامته معنى خفيا ، فقالت : « وكيف تـأتي لـك ذلك والنذور تحمـل الى الدير ذهبـا وفضـة وحجـارة كريمـة من أقـاصـي البـلاد ؟ » .

قال : « لم أخرج لهذه المهمة الا في هذا العام فجئت بـالعجائب والغرائب » .

فآنست في كلامه لهجة غريبة ولم تستغربها لعلمهـا ان الرهبان في دير بحيراء أخلاط من أمم كثيرة ولغات شتى ، ولكنهـا ازدادت شبهة في مغزى كلامه فقالت : « ومـا هي الغرائب التي اتفقت لـك دون سواك ؟ » .

قال : « جئت الدير بنذر لم يسبق له مثيل لا لغـلاء ثمنـه بـل لغرابته » . قال ذلك وحل رباط الخرج ومد يده اليه وحـاول اخراج ما فيه فسمعت صليلا كصليل الدرع ، فتذكرت درع حماد فـاختلج قلبها في صدرها وعلا وجهها الاحمرار فقالت : « هـات مـا عندك » . فأخرج يده وفيها قطعة من درع لم يقع نظر هند عليهـا حتى امتقـع لونها وبغتت للشبه الذي بينهـا وبين درع حمـاد ، فتناولتها وتأملتها فاذا هي من تلك الدرع بعينها . فالتفتت الى الراهب فرأته يتغافل عنها ولكنها قرأت في وجهه سرا يحـاول اخفاءه والابتسام يكـاد يظهـره ، فابتدرتـه قائلة : « من أين أتتك هـذه الدرع ومن هو الـذي أعطاكها ؟»

قال : « أعطانيها صاحبها » .

فقالت : « هل تعرف مكانه فانها مسروقة من عندنا ؟ » .

فالتفت اليها قائلا : « لا أظن صاحبهـا سارقا ، فهو رجل أمين ابتاعها بثمن غال جدا » .

فقالت : « ربما كـان ذلك كما تقول ولكنني أعلـم أن هـذه الدرع كـانت عندنا ، فلا بد من رؤية الذي أعطاكها ، فهل هو قريب من

هذا المكـــان ؟ » .

قال : « هو قريب جدا ، واذا صدق ظني فهو في أقرب مكان منك ، وأنت تعلمين أنه ليس سارقا ! » .

فأدركت أنه يشير الى حماد وأنه عالم بشيء ممـــا بينهما ، فتجاهلت ولكن الحياء والبغتة غلبا عليها فقالت : « ما تعني بهذا الكلام ؟ أراك تلقيه جزافـــا » .

قال : « كلا يـــا سيدتي ، اني أتكلم عن يقين ، ولكنـــك تتجاهلين والحقيقة ظاهرة في وجهك ! » .

فتحققت عند ذلك أنه رسول من حماد ، ولكن سوء الظن سبق الى ذهنها مخافة أن يكون قادما بدسيسة من ثعلبة ، فتجاهلت أيضا وقالت : « أراك تقول كلاما لا أفهمه ، فلعلك مخطيء في ظنك » .

قال : « لست مخطئا بل أتكلم عن يقين وان كنت في شك ممـــا أقول فسلي الاساور تصدقك الخبر » .

فقالت : « أي الاساور تعني ؟ » .

قال: « الاساور التي بيعت هذه الدرع بهـــا ، واذا بقيت عـــلى تجاهل العارف جئتك بتاجر الحلى عينه » .

فايقنت عند ذلك أنه رسول حماد اليها ، وحدثتها نفسهـــا أن تسأله عنه ولكنها تجلدت حتى تخبر أمهـــا ، فنهضت لتوها ولم تفه بكلمـــة وذهبت الى أمهـــا وأخبرتها بما كـــان فقالت : « أخشى أن يكون الرجل جاسوسا من ثعلبة ، فلا تبوحي له بشيء قبل أن تتحقق رسالته » .

★ ★ ★

جاءت سعدى وهند تتبعها ، فلما دنت من الراهب وقف لها وحياها

فأظهرت الجفاء قائلة : « لعلك قادم من دير بحيراء الآن ؟ »

قال : « كلا يا سيدتي بل أنا آت من البلقاء » .

قالت : « ارني الدرع » . فأراها اياها فتحققت انها الدرع التي نالها حماد جائزة سبقه يوم السباق ، فتناولتها من يده وقالت له : « ان هذه الدرع من عندنا ، ولعلها مسروقة فهل تعرف الذي أعطاكها ؟ » .

فتبسم الراهب ساخرا وقال : « أظنني أعرفه » .

فقالت : « وأين تركته ؟ » .

قال : « تركته في بعض قرى البلقاء على بضع ساعات من هذا القصر » .

قالت : « أمقيم هو هناك أم راحل ؟ » .

قال : « مقيم ينتظر عودتي » .

قالت : وقد استغربت ذلك : « وماذا يتوقع من رجوعك وقد ذكرت أنه دفع اليك هذه الدرع نذرا للدير ، فما معنى رجوعك اليه ؟ اني أرى في كلامك تناقضا » .

قال : « لا تناقض فيما أقول فان صاحب هذه الدرع شرط الا تكون نذرا الا بعد أن أعود اليه بخبر عن أمر يهمه » . قال ذلك وهو ينظر الى هند بطرف عينه كأنه ينتظر اشارة منها ، فآنس في وجهها اشراقا ، فتبسم وأومأ بجفنه الى أمها كأنه يقول : « هل أبوح بالسر أمامها ؟ » .

فتحققت هند ان الرجل مرسل من حماد اليها ، ولكنها تجلدت ولم تجبه ؛ فجلس والدرع في يده ينتظر ما تشير به هند .

أما هي فأومأت الى أمها وخرجتا معا وتركتاه وحده ، ثم قالت هند لأمها وقلبها يرقص فرحا : « لا ريب عندي يا أماه في أن الرجل رسول من حماد ، ويلوح لي من كلامه أنه آت ببشرى ولكنه لم يتجرأ

على التصريح بها أمامك ، لظنه أنك لا تعلمين بما بيني وبين حماد فاسمحي لي أن أكلمه بالصراحة لنعلم الخبر الصحيح » . فوافقتها أمها ، وذهبت الى غرفة أخرى ، ثم أرسلتا الى الراهب فجاءهما والخرج على ذراعه ، فلما جلس قالت له سعدى : « عزمت عليك أن تخبرنا بحقيقة أمرك ومن هو صاحب هذه الدرع ؟ » .

فنظر الراهب الى هند كأنه يستشيرها في الجواب ، فقالت له : « قل ولا تخف » .

فمد يده الى الخرج وأخرج الخوذة وقال لهند : « اذا كنت لا تعرفين الذي ألبسته هذه الخوذة بيدك فمن العبث أن أخبرك عنه » .

فخفق قلب هند وعلا وجهها الاحمرار وقالت : « نعم نعرفه ، فقل أنت ما اسمه ؟ » .

قال : « اسمه حماد يا سيدتي » . فأبرقت أسرة الفتاة أي ابراق ، ولولا حجاب التعقل والرزانة لرقصت طربا ، ولكنها أمسكت وقرأ الرجل في عينيها آيات البشر ، ثم قالت : « صدقت ، فأين هو حماد الآن ؟ » .

قال : « هو في مكان غير بعيد لا يجسر على القدوم الى هذه الديار لأسباب لا يجهلها عامة غسان فضلا عن خاصتهم » .

فقالت سعدى : « قل لنا اذن من أنت فاني لا أظنك راهبا » . فرفع القلنسوة عن رأسه وقال : « لا أظنكما تعرفانني ، ولكنني أعرفكما بنفسي فاني عبدكما سلمان خادم سيدي الامير حماد » .

فاستأنستا به كثيرا ، وأخذت هند تسأله عن حماد وما جرى له ، فقص عليها خبره منذ خروجهما فرارا من غسان الى أن نجوا من الأسد وسارا الى عمان وعادا منها ، ثم قال : « وقد جئت متنكرا بهذا اللباس وتركت سيدي حمادا في بعض القرى في قلق شديد على أبيه

وفي شوق ولهفة لمولاتي » • وأشار الى هند •

فقالت سعدى : « ألم يبلغكمـا خبر سيدك الأمير عبد الله بعد ؟ » •

قال وقد حملق عينيه ومال بكليته لاستماع خبره : « لا يـا سيدتي ، فمـا خبره ؟ » •

قالت : « علمنـا أن الامبراطور هرقل عفا عنه وأمر باطلاق سراحه مصحوبا بكتاب الامـان » •

فانبسط وجه سلمـان عند سماعه الخبر وود لو يطير الى حماد يبشره ، ولكنه استشار سعدى في الامر فقالت : « أرى أن تسرع الى مولاك بالخبر وتطمئنه عن هند ، وقل له : ان أمهـا تهديك السلام • ولكن احذر أن يعلم أحد في الارض انك جئت هذا المكان أو نطقت بهذا الكـلام ، فليبحث هو عن أبيه وستتصل الأخبار بيننا علـى مقتضى الاحوال ، وليكن هو مطمئن البال والايـام بيننا » • وكانت هند تسمع كلام أمها ساكتة ، على أنها لم تكتف بهذه المواعيد البعيدة بل كـانت ترد لو تضرب أجلا للقاء ولكن الحياء أمسكها •

أما سلمـان فسر كثيرا لمـا آنسه في سعدى من الرضاء عن حماد ، وان رأى قولهـا مختصرا مقتضبـا لا يشفي غليلا • فاكتفى بمـا سمعه ولبس قلنسوته وودعهما وخرج •

★ ★ ★

وما كادت سعدى تتحقق بقـاء حماد حيا وترى هندا قد انتعشت فواهـا وزال امتقاعها ، حتى عـادت اليها هواجسها بسببه وكـانت مسايرتهـا لهند في شأنه على أساس أنها كانت تحسبه مـات بعد أن انقطعت أخباره • فلما تحققت بقاءه تمثل لها الامر مجسما ، وندمت

على ما فرط منها من مجاراة هند ، لغموض نسب حماد ولما تخشاه من ايقاظ الفتنة بين زوجها وبين الحارث اذا منعت ثعلبة من ابنتها . ثم تذكرت غدر ثعلبة وكره هند له فصوبت رفض طلبه ولكنها أحست بتحرج الموقف ، فلبثت برهة صامتة تفكر في الامر وهند تتأمل في ملامح وجهها وتنتظر ما يبدو منها . فلما طال سكوتها آنست منها ترددا فانقبضت نفسها وعادت هواجسها اليها ، فتركتها ومشت الى غرفتها وألقت نفسها على السرير حزينة تراجع في ذهنها حكاية سلمان وما قالته لها أمها فلم تر في قولها ما يشفي غليلا ، فأحست ان أمها انما كانت تسايرها توددا فعظم عليها الأمر .

وفيما هي في ذلك جاءت أمها ورأت الدموع تتلألأ في عينيها ، فهاج حنوها ونسيت همومها ودنت منها وهي تبتسم مخفية ما في نفسها وهند تنظر الى وجهها لعلها تستطلع شيئا جديدا . فلما رأتها تبتسم اطمأن خاطرها ولكنها أدركت أنها انما فعلت ذلك حنوا ، فعمدت الى اثارة شفقتها التماسا لعونها ، فتظاهرت بالغضب دلالا وأطرقت هنيهة لا تتكلم .

فقالت سعدى : « مالي أراك قلقة ؟ ألم يكفك ما سمعته عن حماد ؟ » .

وبقيت هند ساكتة ، فازدادت سعدى عطفا عليها ، وألقت يدها على كتفها وقالت : « ما بالك ساكتة يا هند ؟ ألا تشكرين الله على نعمته عليك ؟ » .

قالت : « شكرته كثيرا ولكنني أراه لم يأذن بانقضاء شقائي بعد ، فاني لم أكد أسمع ما سرني حتى رأيت ما كدرني ! » .

قالت : « وما الذي يكدرك ؟ » .

قالت : « يكدرني أن أرى حبل عونك يكاد ينقطع » .

قالت : « وماذا تعنين ؟ » .

قالت : « أعني ما قرأته في وجهك من آيات التردد ، ولا لوم عليك فقد عاملتني بما أستحقه » . قالت ذلك ووقفت تتشاغل بحل ضفيرتها وعقصها أمام المرآة ، فقربت سعدى منها تنظر اليها وتتوقع منها ابتساما ، فرأتها لا تزال منقبضة فخافت أن تعود الى حالها من الضعف فهان عليها أن تعاونها على نيل طلبتها ، وهمت بها فقبلتها وضمتها الى صدرها قائلة : « انزعي عنك الظنون يا هند ، فاني على ما عاهدتك عليه ولن تري مني الا ما يسرك » .

فانتعشت نفس هند ولكنها تظاهرت بالشك فقالت : « يكفيني أمل بلا عمل فاني أراك تسخرين بي » .

فضحكت سعدى ملء جوارحها وقالت : « ذلك خلق المحبين فانهم لا يستقرون على حال » .

فنظرت هند اليها شزرا وشعرها لا يزال محلولا وأصابعها تتخلله . فلما رأت أمها تضحك انبسط وجهها وعادت اليها الآمال فتبسمت وحولت وجهها نحو المرآة وتشاغلت بضفر شعرها .

فمدت سعدى يدها الى الضفيرة وتناولتها وقالت وهي تتم ضفرها : « دعينا من ضفر الشعر فاننا فيما هو أدعى الى الاهتمام » .

فقالت هند : « لا أرى الاهتمام بشيء آخر الا عبثا » .

قالت : « أمن العبث أن تتخلص من مطالب ثعلبة ؟ » .

فلما سمعت اسمه نفرت وانقبض قلبها ولكنها توسمت بابا للفرج فقالت : « يا حبذا لو صح » .

وكانت سعدى قد فرغت من ضفر الشعر ، فأمسكتها بيدها وأجلستها على السرير ونظرت اليها نظرة فهمت هند منها أنها جادة ، فأصغت اليها فقالت : « دعينا من الاوهام يا هند ولنبحث في الامر

بالتـــروي » .

فقالت : « قولي ما تريدين واذكري وعدك » .

قالت : « لا أقول الا ما يرضيك ولكنني أعلم أنك عاقلة رزينــة ولا أظنك ترتابين في حبي لك وعطف أبيك عليك . واذا أتينا أمرا ساءك أو سرك فانما نأتيه التماسا لراحتك » .

فخافت هند أن يكون وراء هذه المقدمـــات نصيحة تسنعبــا من حماد . فلبثت صامتة وقلبها يخفق في انتظار اتمــام الحديث .

فقالت سعدى : « لا يسعني الاغضاء عن اهمالك البحث عن أصل حماد وفصله ، فان الحب يعمي ويصم . فأرجو منك أن تستجمعي رشدك وتسألي عقلك هل يرضى بما رضيه قلبك » .

قالت : « نعم يا أماه ، اني في كمال عقلي ولا أرى في عملي هذا خطأ . ولا ريب عندي انك اذا رأيت حمادا وعرفت فيأخلاقه فانك سترين فيه مـــا رأيته أنا ، فهو شاب كريم الاخلاق ولا بد من أن يكون ذا حسب ونسب ؛ فـــاذا لم يكن ملكـــا أرضيا فهو مـــلاك سمـــاوي ولا تنسي ما شهدنـــاه من شهامته وعظم خلقه فان هذا وحده يكفي ؛ والمـــرء بأصغريه لا ببرديه ؛ فهبي أنه ليس ذا حسب فهـــو لا ريب شهم كريـــم » . قالت ذلك وأمارات الهيام بادية في وجهها تخالطهـــا ملامح الخجل .

فقالت سعدى : « اذا كان الامر كما تقولين فـــاني أهنئك بهـــذا النصيب ، ولكننا يجب أن نتدبر الامر بالحكمة حتى لا ينجم عن عملنا ما يعود على أبيك بسوء أو يؤول الى حرب ، وأنت تعلمين علاقتـــه بابن عمه الحارث وما بينهما من المنافسة المموهة بالمجاملة ، فنخشى أن يؤول عملنا هذا الى حرب تتقد نارها وتسفك فيها الدمـــاء » .

فقالت : « أتريدين اذن أن أرضى بثعلبة و .... » .

فقطعت سعدى كلامهـــا قائلة : « كلا لا أريد ذلك ولا أرضـــاه ،

ولكنني أريد الا تستعجلي الامر ، فان في العجلة ندامة » •

قالت : « ومــاذا أفعل ؟ » •

قالت : « اتركي لي تدبير ذلــك ، وأرجو أن تنالي مناك عــلى أحسن سبيل » •

قالت : « ها اني قد ألقيت حملي عليك وجعلت قيادتي في يديك فافعلي ما تريدين » • فقبلتها سعدى وطمأنتها وسارت الى غرفتها •

★ ★ ★

عاد سلمــان الى حماد ، وكــان هذا في مأمن خفي ينتظر عودته بفارغ الصبر ، فلما لقيه استطلعه الخبر فأجابه وامارات السرور ظاهرة في وجهه ، وبشره بالعفو عن أبيه وببقاء هند على حبه وبرضاء والدتهــا بذلــك • فلم يكن يوم أسعد على حمــاد من ذلك اليوم • فــأبرقت أسرته وتمثلت له السعادة خادمــا مطيعا ، وقضى بقية يومه يردد حديث سلمــان عن هند وما ينطوي تحت كلام أمها •

ثم ما لبث أن عاد الى ذكرى أبيه وقد خاف عليه طول الغيــاب ، فاستشار سلمــان في أمره فقال : « أرى أن نبحث عنه ، فاذا التقينا به تركنا تدبير ذلك اليه » •

فقال حماد : « أنسير الى بصرى متنكرين ؟ » •

قال : « لا خوف علينــا بعد صدور العفو من هرقل ، ولكن ثعلبة غادر لا يؤمن جانبه ، فامكث أنت هنا وسأمضي وحدي الى منزلنــا في غسام ، للوقوف على حقيقة الخبر » •

فقال : « وكيف تعلمه ؟ » •

قال : « سأذهب للبحث عن الاشياء المخبأة التي تركناهــا بجوار

منزلنا لا يعلم بها أحد سوانا ، فاذا لم أجدهـا علمت ان سيدي عاد من سفرته وأخذها فنبحث عنه في بصرى وجوارها ، وان لم أجدهـا علمت انه لم يعد بعد فأسير الى بيت المقدس للبحث عنه » •

فاستحسن حماد الرأي ، ولمـا أصبحـا ركب سلمان وهو بلباس الرهبان وترك حمادا في منزل رجـل من بقايا الانبـاط الذين كـانوا يقيمون جنوبي البلقاء • وكـان الانباط في الزمن القديم أمـة عظيمة ذات عز ومجد ، وكـانوا واسطة عقد التجارة بين مصر والشام والعـراق وبـلاد العرب ، يقيمون شرقي العقبة بين مضر والشام وبلاد العرب ، ولا تزال بعض آثـارهم باقية حتى الآن فيمـا يسمى « بـاترا » أو « بطره » • ويغلب على الظن أن أصلهم من أنباط مـا بـين النهريـن ، وما زالت دولتهم قائمة حتى غلبهم الرومانيون في أوائـل القـرن الثاني للميلاد فتشتت شملهم وتفرقوا في البلاد واختلطوا بقبائل العرب الاخرى • وكـان التنجيم من وسائـل معائشهم وقـد حملـوه معهـم من بين النهرين •

وكـان صاحب المنزل المشار اليه طاعنا في السن لم يرزق أولادا ، ويعيش من زراعة بقعة من الارض صغيرة ، ولـم يكن يحب الغسانيين لأنهم على زعمه أحدث نعمة من الانباط وهؤلاء أولى منهـم بالسيادة • وذلـك طبيعي فيمن كـان من سلالة الحكام ثم رأى السيادة في غير أهله فلا يستطيع حبهم أو الاذعـان لهم فاذا خلا الى نفسه ندد بحكومتهم وعدد معائبهم • وذلـك من أدلة الضعف في بني الانسان •

وكـان سلمان لما عـاد بحماد من عمان قد عرف هذا الرجل وعلم كنه حاله ، فرأى أنه أحسن ملجأ يلجأ سيده اليه حتى يعود بخبـر هند ، فلما عـاد يخبرهـا كما تقدم واتفقا على أن يذهب هو الى غسان سار اليهـا مطمئن البـال ، لكنـه غـادر حمـادا عـلى مثل الجمر في

انتظـار رجوعـه .

فلم يمض يومان حتى عاد سلمـان ومعه التحف والنقود التي كانوا قد خبأوها بجوار منزلهم ، فدفعها الى حماد وهو منقبض النفس كاسف البال وقال له : « اني لأخشى على سيدي دسيسة ابـن الحارث ، وأخاف أن يكون قد غضب لما نالـه من العفو فأنفـذ اليـه رجـالا اغتالـوه » .

قال : « وما الذي حملك على هذا الظن ؟ » .

قال : « اني تدبرت الأمر ، واستطلعت الخبر من أهل بصرى سرا ، فعلمت أن الخبر بالعفو وصـل اليهم من عشرة أيـام ، وأن سيدي خرج من بيت المقدس مع قافلة سارت الى الحجـاز رأسا ، فهل تظنه سار معهـا ؟ » .

فقال حمـاد : « وكيف يعقل أن يسير الى الحجاز ونحن على موعد معه للقـائه في عمـان ، فلا يبعد أن يكون قد رافق القافلـة الى جوار عمان ثم عرج عليهـا » .

قال سلمـان : « ولكنه يعلم أن موعدنـا قد فات ، اذ قد مضى شهران أو أكثر منذ افترقنا » .

فقال حمـاد : « لعله أراد المرور بعمـان ليتحقق عودتنا ، ولا يلبث أن يعلم بذلك ، فلنصبر وتتنسم أخباره » .

فصمت سلمان وهو لا يزال خائفا على سيده ، ولكنـه تظـاهر بالاقتناع تخفيفا عن حمـاد ، وكـان لا يزال بزي الرهبـان وقد غشيه الغبار فنزع ثيابه وغسل وجهه ، وكـان صاحب المنزل قد خرج في بعض المهـام وترك كلبـه يحرس المضارب ريثما يعود . فاغتنما الفرصـة وأخفيا مـا جاء به سلمـان من الاموال فجعلا بعضه في جيوبهمـا وبعضه بـين الثيـاب .

- ١٣

خطبة هند

تركنـا هندا في صرح الغدير مؤملة الاجتماع بحماد ، ولكنها كانت ترى ظلا من الريب يعترض آمالهـا لأن ذكـاءها ودقة نظرهـا أوحيا اليها شكـا في رضاء أمهـا بحمـاد ، أما هذه فكانت تحاول اقناع نفسها بصواب ما وعدت هندا به ، ولكنهـا ما زالت ترى في ضميرهـا مـا يعترض مقاصدهـا • على أنهـا كانت تتغلب على ذلـك الخاطر ارضاء لابنتهـا وتنتظر مـا يأتي به القـدر •

وفيما هي جالسة ذات يوم في الصرح جاءهـا خادم ينبئها بقـادم من البلقـاء ، فهرولت اليه لعله جـاء بخبر من جبلة وقد طـال أمد غيابه ، فرأت فارسا من رجال زوجها ترجـل وقبل يدهـا ، فاستطلعت الخبر فقال : « ان الأمير قادم اليكم في صباح الغد وهو يقرئك السلام » •

فقالت : « أهلا ومرحبا فاننا نستعد لاستقباله » • ثم دخلت وقـد أدركت أنه آت ليسألهـا في أمر هند وثعلبة • فانقبضت نفسها وشعرت بحرج الموقف وجعلت تفكر في حل المشكلة •

وفيما هي في قلقهـا جاءت هند ، وكـانت قد رات الفارس وعلمت سبب مجيئه فخفق قلبهـا لما يعترض آمالهـا من الشكوك وتوقعت أن ترى أمهـا في ارتبـاك ، فلمـا علمت بخلوتهـا دخلت بغتة فرأتها فيما تقدم من الانقباض ، وحيتهـا فانتبهت سعدى لحالهـا فحاولت الابتسام لتخفي ما يخامر قلبها ، فابتدرتها هند بصوت مختنق قـائلة : « لا يشغلك شاغل يا أماه ، فمـا في الامر ما يدعو الى هذا الاهتمام ؟ » •

فقالت سعدى : « لست في هم يـا بنيتي ، ولكنني أشعر بانحراف

في صحتي » .

فقالت : « صدقت ولكن سببه هند » .

قالت : « كلا فانك تسليتي ومنشأ سعادتي الا ترينني أنشرح صدري وانبسط وجهي حالما وقع نظري عليك » .

قالت : « أرى ذلك ولكنني أرى التكلف باديا ، فلا ترتبكي ولا تقهري نفسك فان كل حال تزول » . وقد أرادت هند بهذا أن تختبر أمها وتتحقق موقفها من أمرها قبل قدوم أبيها لأن على اجتماعهما هذا يتوقف مستقبلها .

فقالت سعدى : « ما بالك تكلمينني بالرموز ألم تتحققي الآن اني عندما وعدتك به ؟ » .

قالت : « تحققت ذلك ولكني أراني سببت لك تعبا وارتباكا » .

قالت : « ان التعب لأجلك راحة ، فأقلعي عن هذه الظنون ، وهلم تتدبر الأمر فنتفق على خطة نسير عليها . فان أباك قادم غدا ، وأظنه سيفتح حديث ثعلبة فماذا تقول ؟ » .

قالت : « أنت تعلمين ما في قلبي فأجيبيه بوحي حكمتك . أما أنا فاذا سئلت فلا جواب عندي الا الرفض مهما يكلفني ذلك » .

قالت : « هبي أنه سألنا عن سبب هذا الرفض فهل أذكر له حكاية حماد ؟ » .

قالت : « لا أدري ما تقولين فقد كشفت لك مكنونات قلبي وقد وعدتني بتدبير الامر فافعلي ما تشائين » .

فسكتت سعدى وقد وطنت نفسها على مجاراة ابنتها ، وخرجت من حجرتها وأمرت أهل القصر بضرب المضارب واعداد الذبائح لاستقبال جبلة وحاشيته في صباح الغد .

فلما كان الصباح قام الخدم ففرشوا البسط ونصبوا الخيام

وذبحوا الذبـائح وأوقدوا النيران ، ولبست سعدى وهند مـلابس الاستقبال . وعند الضحى ظهر الغبـار من جهة البلقـاء فخرج أهـل القصر لمـلاقاة جبلة ورجـاله ، وأطلت سعدى من بعض النوافذ المشرفة على السهل . أما هند فاستلقت على سريرهـا واجفة خائفة مما تصورتـه من غضب أبيها اذا علم بمـا في نفسها ، ومـا لبثت أن سمعت قرقعة اللجم وصهيل الخيل بجوار القصر فعلمت ان أباهـا وفرسانه وصلوا ، فخفق قلبهـا ولكنها تجلدت وأطلت من الشرفة فرأت الفرسان يتحولون الى الخيام المضروبة لهم هناك ، وترجـل أبوهـا أمـام الحديقة ودخل بلباسه الفاخر وقد لف رأسه بكوفيـة حولهـا العقال ، والتف بالعباءة فوق القباء ، فاستقبلته سعدى بوجـه باش يخامره بعض الانقباض . ثم جاءت هند فقبلت يده فضمها وقبلها ، واستغرب مـا في وجهها من النحول فسألها السبب فأجابته أمهـا بأنهـا تشكو من ألـم عارض . ثم ساروا جميعا الى قاعة مفروشة بالبسط والسجاد والوسائد ، فدخل جبلة ممسكا هندا بيدهـا حتى جلس في صدر القاعة وأجلسهـا الى جانبه وقد أذكى فيه عواطف الحب والحنو مـا آنسه فيهـا من الضعف فما صدق أن خلا بها وبأمهـا حتى سألهما عما تشكو هند منه ، فطمأنتاه وألحتا عليه أن يبدل ثياب السفر ويستريح ففعل .

أما سعدى فآنست في وجه زوجها انقباضا لم تعهده فيـه ولا سيما عند رؤيته هندا بعد غياب طويل ، واعتزمت استطلاع السبب بعـد الغداء والاستراحة ولكنها لم تستطع لانشغال جبلـة بتفقد غرف القصر ونزوله الى الاسطبل ليرى أفراسا له كـان قد تركهـا هناك ، ولحظت أنه يبدو كأنما فعل ذلك تخلصـا من سؤالهـا واستفهامهـا . فلمـا كـان المساء جلسوا للطعام وكل منهم في أمر يشغلـه ، فلـم يدر بينهم حديث غير ما لا بد منه عـلى المـائدة . وبعد العشاء تفرق الخـدم

كل الى شأنه ، وبقي جبلة وزوجته وابنته في القاعـة على حدة • وكان جبلة متكئا على وسادة ، وهند الى جانبه ، وأمهـا بين يديه •

فنظر الى هند وتأمل وجهها ثم التفت الى سعدى وقـال لها : « لقد أطلت الغيبة عليكم هذه المرة لشواغل انتابتني ، وكنت أعـد النفس بالقدوم اليكم منذ أيـام فلم أستطع الا اليوم • وكنت أحسب مجيئي هذا يفرح كربتي فلم أر الا ما يزيدني انقباضا » •

فتطاولت سعدى بعنقها قائلة : « ليس في هنـد ما يدعـو الى الانقباض فقد يمر على الانسان أيـام يتوعك فيها مزاجه لغير سبب يعرفه ، ولكنني توسمت في وجهك انقباضا منذ قدومـك هـذا الصباح ، وكنت أغالـط نفسي • وأحسبني مخطئة وقد اعترفت بـه فـأرجو أن تفصح عن السبب » •

قال : « ليس فيما تشاهدينه في من الانقباض ما يهمك الاطلاع على أسبابه فهو أمر عارض لا يدعو الى بحث » •

فقالت : « لا أظن أمرا يهمك لا يهمنا ، ومهما يكن من شأنه فان بالنا لا يهدأ الا بمعرفته » •

فقال : « دعينا من الخوض فيه فقد يكون سحابة صيف تنقشع » •

فاشتاقت سعدى الى استطلاع الخبر وأدركت انه منقبض مـن شيء سمعه ولم يتحقق صدقه • فقالت : « هب انك لم تتحقق مـا سمعته فأطلعنـا عليه » •

قال : « جـاءنا قادم من الحجـاز يخبرنا بقدوم جند من العـرب لحربنـا » •

فبغتت سعدى وقالت : « ومـا سبب قدومهم ولا نعـرف بيننا وبينهم ما يوجب حربـا ؟ » •

فهز رأسه واعتدل في مجلسه وجعل يمشط لحيته بأصابعه وقال :

« ان هؤلاء العرب عصبة قوية برياسة نبي ظهر بينهم يدعو النـاس الى دين جديد ، وقد أرسل الينا كتابا يدعونـا فيه الى دينه فوصـل كتابه الى الحـارث فمزقه وأمتهن حامله فشق ذلـك على صاحب الدعوة فأنفذ جندا من رجاله لقتالنـا ، فبثثنا العيون والارصـاد لمراقبة طريقهم ولا نعلم متى يصلون » .

فبغتت هند عند ذكر الحارث وقالت في نفسهـا : « كتب علينـا الشقاء على يد الحارث وابنه فلا حول ولا قوة الا بالله » . ونظـربت الى أبيهـا وقد ثارت فيها الحمية وقالت : « ومـا يخيفنا من قـدوم هؤلاء العدنانيين ونحـن بنـي غسان رجـال أشداء لا نرهب القتال ؟ » .

فانشرح صدر جبلة لمـا أظهرته هند من الحماسة وقـال : « نعم اننا لا نخاف حربهم ، ولكننا كنـا في غنى عن حشد الرجـال واعداد معدات الدفاع ، وحصوننا لا تزال متهدمة عقب حروبنا مع الفرس سامح الله فيما جره علينا من البلاء » .

فقالت سعدى : « يلوح لي ان هؤلاء العدنانيين يريدون قتـال الحارث لا قتالنا » .

قال : « نعم ولكننا تابعون للروم فاذا احتاجوا الى دفاع استنجدونا جميعا ولا يسعنا الا الاذعان » .

فقالت هند : « أيخطيء الحارث ونحن ندفع عنه ؟ » .

قال : « ذلك ما لا بد منه اذا دعت الحال ، وسنرى مـا يكون من أمـر هذا الجند ، فقد جاءني الحارث أمس وناقشته في الامر مليـا ، وأخذنا في حشد الرجال واعداد معدات القتال وعلى الله الاتكال » .

فلما سمعت سعدى باجتماع الحارث بزوجها أيقنت أنهمـا تحدثا في شأن هند وتوقعت أن تسمع الحديث منـه ساعـة لا تكون هنـد معهما ، فتظاهرت بالملل وقالـت : « أظنك تعبت في سفرك ، فهل تذهب

الى الفراش ؟ » . فأدرك مرادها وأجاب دعوتها ونهض ، ونهضت هند ولم يفتها الامر فانصرفت الى حجرتها بعد أن نظرت الى أمها من طرف خفي كأنها تذكرها بوعدها .

★ ★ ★

خلت سعدى الى جبلة بعد أن بدلا ثيابهما ، فاتكأ كل منهما على سريره ، والسريران متقابلان ، وفي الغرفة شموع مضاءة ، وقد استولى السكوت على صرح الغدير الا ما يسمع من صهيل الخيل في معسكر حاشية جبلة من بعيد .

فبدأ جبلة بالكلام قائلا : « عهدت اليك في مهمة منذ أيام ، وكنت أتوقع قدومك الينا بخبر اتمامها فأبطأت حتى استبطأ الحارث جوابي فجاء يستعجلني فيه . وقد آنست منه تغيرا اذ كان يتوقع جوابا عاجلا ، فان ما سمعه عن قدوم العدنانيين . جعله يرغب في استعجال حفلة الزواج » .

فأحست سعدى بما جرته على نفسها من المتاعب بما أغدقته على هند من الوعود ، وترددت برهة في الجواب ، فابتدرها جبلة قائلا : « ما بالك لا تجيبينني ؟ هل هناك مجال للتردد ؟ » .

قالت : « لا أدري ، ولكن هندا منذ ذكرت لها هذا الامر وصحتها كما رأيت » .

فقال : « وماذا كان جوابها ؟ » . قالت : « لا سلبا ولا ايجابا ! »

قال : « اذن هي راضية ؟ » . قالت : « لا يدل السكوت دائما على الرضاء » .

قال وقد بغت : « وماذا اذن ؟ أتظنينها ترفض ؟ » .

قالت : « لا أدري ، ولعلي مخطئة في ظني » .

فقال وقد استغرب جوابها : « أفصحي فاني أرى وراء هـذا التردد مـا يؤول الـى خطـر جسيم » .

فقالت : « وأي خطـر تخافـه ؟ » .

قال : « ألا تعلمـين أن الرفض يدعـو الى نفـور بيننا وبـين الحارث ؟ » .

فقالت وهي تتجاهـل مراده : « وأي علاقة بين الامريـن ، أيكون الـزواج قسرا ؟ » .

فهب من مجلسه وقد ازداد استغرابا وقال : « أبـلغ من هنـد أن ترفض ما اختاره لها أبواها ؟ » .

قالت : « لا تقـل : (أبواها) بل قل : (أبوها) فقط » .

فحملق وقال وقد علا صوته : « أتجارينها في رفضها يا سعدى ؟ » .

فأجابته بصوت منخفض قائلة : « لا ، لم أجارها في شيء ، ولكني خفت عليها الموت ، فاذا كنت ترى أن نضحي بهند فريسة لذلك الرجـل فزوجهـا بـه » . قالت ذلك وأطرقت وقد شرقت بدموعها .

فبهت جبلة عند سماع تلك العبارة ، ولبث برهة يحسب نفسه في منام ثم قال : « ماذا تعنين يا سعدى ؟ أتتكلمين عن يقين ؟ » .

قالت : « لم أذكـر الا ما تحققته بعد جدال طويل ، واذا كنت لا تصدق مقالي فهذه هند ادعها اليك وخاطبهـا وجهـا لوجـه فقد نفدت حيلتـي فيهـا » .

فرجع جبلة الى صوابه وذكـر حبه لهنـد واعجابـه بشهامتهـا وتعقلهـا ، ولكنه خاف عواقب الرفض فقال لها : « أدعيها الـي لأخاطبها وأسمـع اعتراضهـا » .

فوقفت سعدى وهمت بالخروج الى غرفـة هند ، ولكنهـا رأت

أن مجيئها الى أبيها في غضبه قد ينتهي الى عاقبة وخيمة ، فرأت من الحكمة أن تخفف من غضبه وتهدىء روعه قبل مجيء هند ، فدنت منه والدموع ملء عينيها وقالت : « سأذهب لآتي بها على أني ألفتك الى أمر أرجو أن لا يبرح ذهنك » .

قال : « وما ذلك ؟ » . قالت : « أنت تعلم شهامة هند ورقة احساسها ، وكم تحملت من الصبر والكبت لما فاتحتها في أمر ثعلبة ، وتعلم أيضا رأينا نحن في ثعلبة وأنه غير كفؤ لها بعد ما خبرناه من خسته وغدره ، ولا تظنه يحبها بل هو يريد قتلها . فتدبر الامر بالحكمة وخاطبها بالحسنى ولا تطمع في اكراهها لئلا تسوقها الى حتفها فتندم حين لا ينفعنا الندم . فمن الحكمة أن نأخذها باللين والمطل ريثما تتغلب على عواطفها » .

فقال جبلة : « أراك على صواب ، ولكنني لا أستطيع التخلص من شر أتوقعه اذا رفضنا . على أني لم أفهم سبب رفضها ابن عمها ولا أعرف في غسان رجلا أقرب نسبا منه ولا أليق بمقامها . فما سبب هذا البغض ؟ » .

قالت : « السبب دناءته وخسته ، فقد عاشرته أعواما طوالا فلم تجد فيه شيئا من أنفة الرجال وكرم أخلاق بني غسان . ولما حدثتني بذلك . وكثيرا ما كنا نذكر سيئاته في حضورها فلا يسعنا بعد هذا اقناعها بنزاهته وكرم أخلاقه » .

فقال جبلة : « صحيح هذا يا سعدى ، ولكنك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمنا الحارث من المنافسة المستترة برداء القرابة تحت ظل المجاملة . ولا ريب عندي أن رفض طلبه يجرنا الى قتال ، ونحن في حال تدعو الى اجتماع الكلمة لما سمعناه من أخبار الحجاز » .

فقالت : « قد يقع هذا ولكنني أكرر ما قلته وهو أن اصرارنا على

تزويجها ثعلبة يقودنا الى ما تندم عليه ساعة لا ينفعنا الندم ، فهي لا تحبه ولا يمكن أن ترضاه . فهل يهون علينا أن نخسر هندا وهي ثمرة حياتنا ومناط آمالنا لنضعها بين يدي ذلك الجبان الخسيس وهو لا يحبها ؟ » . قالت ذلك والدموع تتناثر من عينيها .

قال : « أراك تؤكدين أنه لا يحبها فلماذا اذن يطلبها ؟ » .

قالت : « هذا ما سأقص عليك نبأه في فرصة أخرى ، أما الآن فسأدعو هندا اليك ، والتمس منك أن ترفق بعواطفها ما استطعت لأن العنف لا يجدينا نفعا » .

قالت ذلك وخرجت والمصباح بيدها حتى أتت حجرة هند ، فرأت الباب موصدا وآنست صوتا فأصاخت بسمعها فسمعت بكاء يتخلله شهيق فعلمت أن هندا تبكي ، فطرقت الباب ونادتها باسمها فأبطأت قليلا ثم فتحته فأدنت سعدى المصباح من وجه هند ونظرت اليها فاذا هي ذابلة الأجفان محمرة العينين كاسفة البال فانفطر قلبها ، ووضعت المصباح على الأرض وهمت بها وجعلت تقبلها ودموعها تتساقط حنوا وشفقة وقالت : « لا تبكي يا ابنتي ولا تحزني ، فلا يكون الا ما يسرك » .

فقالت : « كفاني يا أماه تعزية ، فقد سمعت كلام أبي بأذني » .

قالت : « وما الذي أسمعك كلامه وأنت هنا ؟ » .

قالت : « مررت بالباب فسمعته ينتهرك ويصر على قوله وما ذلك الا لشقائي . فاذا كان لا يزال على عزمه فأستودعك الله » . قالت ذلك وعادت الى البكاء .

فقبلتها سعدى وقالت : « أخطأت يا هند فان أباك يكاد يسلم معي برفض ثعلبة ، وهو انما ينتظر مشافهتك في شأنه ليسمع الجواب من فيك ، فهيا بنا اليه فانه ينتظرنا في حجرته » . وأرادت سعدى أن تدخل على زوجها بهند وهي باكية لعله يرق لها فيجاريها على

مرامها .

★ ★ ★

أرادت هند أن تنتظر قبل الذهاب الى أبيها ريثمـا تجف دموعها ، فلم تمهلها أمهـا . وسارتا حتى وصلتا الى الحجرة وجبلة متكـىء على فراشه وقد استبطأ امرأته وأحب البقاء متكئـا اظهـارا لمـا في نفسه من العتب على هند . أما هي فدخلت مطرقـة وقـد تكسرت أهدابهـا وذبلت أجفانها واحمرت عيناها وتوردت وجنتاها واسترسل شعرهـا على ظهرهـا . ومشت حتى اقتربت من سرير أمها وأسندت كتفها الى الحائط ذليلة كئيبة ولبثت مطرقة .

فلمـا رآها جبلة على تلـك الحـال حن لهـا ونسي غضبه ولكنه مـا زال مكبرا عملها فخاطبها قائلا : « ما رأيك يا هند ؟ » .

فظلت صامتة تتشاغل بأهداب ضفيرتهـا بين أنـاملها ، فعـاد يقول : « ما رأيك في ثعلبة ابن عمك ؟ » .

فلمـا سمعت اسمه ارتعدت فرائصها وعادت الى البكـاء ولكنها أمسكت نفسها عـن الشهيق فانحدرت دموعها على خديهـا . فلمـا شاهد جبلة دموعها شعر كأن قلبه يقطر دمـا شفقة عليهـا وقـال لها : « ما بـالك لا تجيبينني ، ونحن انمـا بعثنا اليك لنسمع الجواب من فيك . قولي ما رأيك في طلب ثعلبة ؟ » .

فلم تتمالك عن الشهيق ، وأرادت الخروج من الغرفة فـأمسكت سعدى يدها وهمت بارجاعها فألقت بنفسها الى الارض وأخذت في البكاء حتى كاد يغمى عليهـا .

فجعلت سعدى تخفف عنها وأومأت الى زوجهـا أن يكـف عن السؤال وجاءتها بماء رشتها به وسقتها منه قطرة حتى هدأ روعهـا ،

وجبلة صامت ينظر اليهـا وقلبه يكاد يتقطع حتى هـان عليه كل صعب فقال لهـا : « قد فهمـت يا هند أنك لا تحبين ثعلبة فهل تحبين أبـاك وعشيرتك ؟ » .

قالت وهي تشرق بدموعها : « نعم أحبك وأحبهـا وان كنت ترى في تسليمي لذلك الخائن راحة لك ولعشيرتك فاني راضية بـالموت فداء عنك وعنها ، وهذه روحي بين يديك فافعل بها مـا تشاء » .

قالت ذلك وترامت على أبيهـا فضمهـا الى صدره والدمـوع تتساقط من عينيه رغم ارادته وجعل يقبلهـا ويخفف عنهـا وهو يقول : « لا تجزعي يا هند اني على مـا تريدين فهوني عليـك واستجمعـي حواسك » قـال ذلك وأجلسها الى جانبه فجلست وهي تجمع شعرها وترسله على ظهرهـا . ولمـا رأت انعطـاف أبيها اليها تذكرت ما لا يزال في طريقها من العقبات بشأن حماد لعلمهـا ان أباها سينكر أمر حمـاد أكثر مما يرفض أمر ثعلبة ، فأرادت اغتنام فرصة عطفه عساها أن تنـال رضاه فعادت الى البكـاء .

فعجب لبكائها بعد مجاراته لها في رفض ثعلبة ، وكـان يظن ذلك كافيا لزوال أحزانها ، فلما رآها تبكي ظنهـا لم تفهم مراده . فقـال : « كفي عن البكـاء فقد أغفلنا ثعلبة وطلبه فهدئي روعـك » . فلـم تزدد الا بكـاء ، فأدركت أمها ما في نفسها فأومأت الى جبلـة أن يكف عن السؤال هنيهة ، ودنت من هند وجعلت تمسح دموعهـا بمنديلهـا وتقبلهـا ، ثم أمسكتها بيدهـا وخرجت بها الى غرفتهـا فلما خلت اليها سألتها عن مرادها فقالت : « دعيني يا أماه ، دعيني أبك على صباي فقد أدركت ما جرته على نفسي من البلاء » .

فعلمت أنها تشير الى أمر حماد وما تخافه من غضب أبيها اذا علم بحبهـا له فقالت : « أشكري الله يا هند على أننا قطعنا نصف الطريق » .

فقالت هند : « لم نقطع الا السهل منها وبقي الوعر يا أماه » .

قالت : « ان الذي نجانا من ثعلبة لا يبخل علينا بحماد ؛ طيبي نفسا وقري عينا » .

قالت : « كيف يطيب لي عيش ؟ وقد زهقت روحي قبل أن أقطع السهل الهين من الطريق فكيف وقد وصلنا الى العقبة التي لا أرجو اجتيازها . فقد رأيت ما أعظمه أبي من أمر ثعلبة وهو يعلم خسته . فمن يتجرأ على ذكر حماد أمامه وهو رجل غريب لا يعرف أصله ولا فصله . آه يا لتعاستي وسوء حظي ! » .

وكانت سعدى تعتقد مثل اعتقادها وربما خافت أكثر من خوفها ، ولكنها لما رأت حال ابنتها هان عليها ركوب المركب الخشن فجعلت تخفف عنها وتنشط آمالها وهند تبالغ في اظهار يأسها .

فقالت سعدى : « خففي عنك وانهضي الى فراشك ، وعلي تدبير ما تريدينه ، ولك علي ألا يصبح الصباح حتى يكون أبوك قد رضي بكل ما تريدين » .

فلما سمعت هند ذلك شعرت بانتعاش ، وأحست كأن قلبها انفتح وقد انفرجت الأزمة ، ولكنها استبعدت ذلك كثيرا فالتفتت الى أمها وتبسمت تبسم طفل نال أمرا كان يتطلبه باكيا وهو لا يصدق انه ناله . فلما رأتها سعدى في تلك الحال زادت انعطافا اليها وابتسمت لها والدموع ملء عينيها وقالت : « هوني عليك فقد قلت لك اني ضامنة لك ما تريدين ، الا يكفيك ذلك ؟ » .

قالت : « يكفيني يا أماه ، ولكنني أرى أبي صعب المراس فلا أظنه يرضى » .

قالت : « لا تستعظمي أمرا تريدينه ; والله قادر على كل شيء ، فاذهبي الى سريرك والله يفعل ما يشاء » .

سكن روع هند وعادت اليها آمـالها بعد أن ألقت حملها عـلى أمها • ثم نهضت ومشت الى الفراش وقد أنهكها التعب وخـارت قواها من هول ما قاسته تلك الليلة ، ولمـا رأت أمها تهم بالخروج استحلفتها أن تبذل جهدها في اقناع أبيها فأكدت أمهـا لها الوعد وخرجت حتى أتت غرفة زوجها فاذا هو في انتظارها ليستطلعها سبب ما شاهده من هند ، فلما دخلت ابتدرها بالسؤال قائلا : « أتظنين هنـدا تبقى على عزمها مـن رفض ثعلبة ؟ لقد رأيت اني جاريتها في أمر ربما آل الى حرب بيني وبين الحـارث ، ولكنني فعلت ذلك مدفوعا بشفقتي عـلى الفتاة وان أرجو أن أعود الى اقناعهـا في فرصـة أخرى • الا تساعدينني على ذلك ؟ » •

فابتسمت واستغربت قائلة : «أتظنني جاريت هندا في عملها هذا عبثا ؟ • ألم أقـل لك اني انما فعلت ذلك مرغمة اذ خفت على حياتها ، ولو علمت أن الاصرار ينفعنا شيئا ما سمعت منها قولا ولكنني رأيت ذلك لا يجدينا غير خسارة لا تعوض • أليست هند ثمرة حياتنا ومنـاط آمالنا وزهرة عمرنا وتعزيتنا في شيخوختنا ؟ ألم نفاخر بهـا ملوك العرب ونفضلها عـلى خيرة البنين ، ان فتـاة غسان لأشجع الفرسان في حومة الميدان فـاذا ركبت جوادهـا تطاولت اليهـا الاعناق وحـامت حولها القلوب • ولقد طالمـا وقفت في حومة الوغى واستحثت همم الرجـال وأثارت حميتهم • فلا يغرنك منهـا ذلهـا وانكسارها الآن ، فمثلها لا ينبغي تسليمها لرجل لا يساوي قدة من نعلها • وثعلبة كما تعرفه هو ذلك الجبان الغر الذي رأيناه يحقد كالفيل ويحتال كالثعلب ويغدر كالعقرب • وما أظنك نسيت يوم السباق ومـا كان من شأنه مع ذلـك الشاب الغريب الذي سبقه وعاد من حلبة السباق آخر مرة وفي يده قصبـة السبق مبرية بري القلـم » •

وكان جبلة في أثناء ذلك صامتا وقد أعجب بفصاحة سعدى واتساق

حديثها ، فلمـا ذكرت القصبة تذكر أنه رآها مبرية فقال : « نعم أذكر ذلـك » .

قالت : « أتدري سبب بريها ؟ انـك لو اطلعت على سر الامر لمـا وسعك الا أن تلعن الساعة التي ولد فيها ثعلبة في بني غسان ، ولوددت لو أن حمادا جاء مكانه لأنه أشبه بشهامتهم وكرم أخلاقهم » .

فسال جبلة الى استطلاع السبب فقال : « ومـا سبب بري تلك القصبة ؟ » . فسرت سعدى لاصغاء زوجها الى حديثها ، وقصت عليـه حكاية القصبة وبالغت فيمـا أظهره حمـاد من الشهـامة وكرم الاخلاق ومـا كـان من دنـاءة ثعلبة وخسته ، فلم تكد تفـرغ من حديثهـا حتى انقبض وجه جبلة لمـا جره ثعلبة من العار على الغسانيين وأحس بارتياح الى حماد . فقال : « تبا لثعلبة ورعيا لذلـك الشاب ، فيا ليته قتله ولم نسمع هذا الحديث » .

فاستبشرت سعدى وقالت : « أمـا وقد فتح الحديث وجرنـا الكلام الى هذا الحد فأسألك سؤالا بصدد مـا سألتنيه الليلة » .

قال : « وما ذلـك ؟ » .

قالت : « أتدري ما الذي حمل ثعلبة على خطبة هند بعدما علمته من نفوره منها ؟ » .

قال : « وما تعنين بنفوره ؟ » .

قالت : « ألم تكن هند ابنة عمه منذ ولدت ؟ » . قال : « بلى » .

قالت : « ألم يكن يجدر به أن يخطبها لنفسه منذ أعوام وقد يخطب أبناء العم من الطفولة ؟ » . قال : « بلى » .

قالت : « أتدري ما الذي أمسكه عن خطبتها حتى الآن ؟ » .

قال وقد بهره قولها وتطاول بعنقه لاستكمال حديثها : « لا أدري وماذا تظنين سبب ذلك ؟ » .

قالت : « السبب انه يحسب نفسه أرفع منها مقاما ، أو لعلـه كان يتوقع أن نعرضها عليه فاذا قبلها اذ ذاك فانما يقبلها كرما ومنة » .

قال جبلة وقد اشتد غضبه : « خسيء النذل وخسيء أبوه قبله ! » .

قالت : « بل خسيء كل من يقول قوله ، فقد علمت أن ثعلبة لم يكن عازما على خطبة هند لو لم يحدث ما حرك غيرته ودفعه الى الانتقـام ، واذا أذنت في أن أكشف لك الغطاء فعلت » .

قال وقد مال الى استطلاع السر : « نعم اني شديد الميل الى معرفة ذلـك فقولي » .

قالت : « ولكنني أستحلفك بحبك لهند ان تبقى على حبها وتشفق على صباها وتعذرها فيما رأيته أو تراه من حالها » .

قال : « لقد عذرناها من قبل فلا حاجة الى اليمين » .

قالت : « انما أستحلفك على أمر لم تعلمه بعد » .

فازداد شوقا وقال : « قولي لقد نفد صبري » .

قالت : « لقد علمت حسد ثعلبة لحماد على أثر فوز هـذا عليـه في السباق . وقد تعاظم حسده لمـا رأى هندا تلبسه تلك الدرع وهي انما فعلت ذلك بأمرك » . قال : « نعم » .

قالت : « وقد رأيتك وأنت رجل معجبا بشهامة ذلـك الشاب ، ولا يخفى عليك أن النساء أكثر اعجابا بشهامة الرجال ولا سيما من كـانت مثل هند في مقتبل العمر وريعان الشباب » . قالت ذلك وهي تراعي ما يبدو من جبلة ، وكانت تتوقع استغرابه » .

فحملق جبلة ونظر اليها والشرر يكاد يتطاير من عينيـه وقـال : « وماذا تعنـين ؟ » .

قالت وهي تتردد بين أن تصرح له وبين أن تبقى عـلى الكتمان : « أعني أنه لمـا رأى هندا معجبة بحماد ثـارت في قلبه نيران الغيرة والحسد

والانتقام و ٠٠٠٠ » ٠

فقطع عليها الكلام قائلا : « أظنك تعنين أكثر مما تقولين ؟ » ٠

فرأت سعدى أن تصرح بالحقيقة لترى ما يكون فقالت : « أعني أنه ظنها تحب حمادا فأراد خطبتها ليحرمها منه فينتقم منهما معا » ٠

فبهت جبلة وقد ارتاب في كلام سعدى بعد أن رأى ترددها ، ولكنه استزادها ايضاحا فقال : « هل كان ذلك ظنا منه فقط ؟ » ٠

قالت : « لا أدري » ٠

فقال : « أراك تكتمين شيئا آخر فافصحي عما في ضميرك » ٠

فسكتت وقد خافت التصريح ، ولكنه ألح عليها وهو في ريب من أمرها وقال : « افصحي » ٠ فقالت : « هب اني أكتم شيئا آخر فما الفائدة من الافصاح ؟ » ٠

فأدرك أن لديها سرا تخاف افشاءه فرارا من غضبه فقال وقد اشتد قلقه وحمي غضبه : « افصحي ، هل علمت يقينا أن هندا تحب ذلك الشاب ؟ » ٠

فأطرقت ولم تجب ولكنها أشارت بكتفيها وحاجبيها أنها لا تعلم ٠

فقال : « ما بالك لا تجيبين هل هند تحب ذلك الشاب ؟ » ٠

فلما رأت تقطب حاجبيه وحملقة عينيه خافت اشتداد غضبه فنهضت وأرادت تأجيل الحديث الى وقت آخر وقالت وهي تهم بالخروج : « لا أعلم وسأبحث ذلك ثم أخبرك » ٠

فأمسكها بيدها وأقعدها وقال لها : « يكفي مداجاة ، انك تعلمين ما هناك فقولي ولا حاجة الى التسويف بعد أن فهمت ما فهمته من خلال حديثك » ٠

فقالت : « فاذا كنت قد فهمت فلماذا تستعيدني ما قلته ؟ » ٠

قال : « اذن هي تحبه وترجو أن تتزوج به ؟ » ٠

قالت :« ربما كان ذلك » . وأعرضت عن جبلة متشاغلة باصلاح فراشها وأظهرت عدم الاكتراث .

فحمي غضبه وأمسكها بيدها وجذبها اليه بعنف وقال : « ما بالك تستخفين بغضبي كأنك لا ترين في الأمر ما يستحق الاهتمام . الا يهمك أن تقترن ابنتك برجل غريب لا نعرف أصله ولا فصلـه وقد يكـون من السوقـة ؟ » .

فنظرت اليه عاتبة وقالت بصوت منخفض : « وهـذا ما حملني على الكتمان ، لعلمي انك ستتلقى الخبر بمـا أعلمه من تعلقك بشرف الغسانيين وانكـارهم مثل ذلك على بنات ملوكهم ، عـلى أن حمادا ليس من السوقة بل هو من أمراء العراق بني لخم » .

فخجل لما كـان من خشونته معهـا والغضب يمنعه من الاعتذار ولكنه أمسكها بلطف وقال لها : « الا تنكرين أنت ذلك أيضا . وهبي انه أمير فبيننا وبين العراقيين عداوة لا تؤذن بالمصاهرة » .

قالت : « لا أخفي عليك اني استعظمت الامر عنـد سماعـه لأول وهلة ولكنني تلقيته بالحكمة والصبر لأرى حيلة في تدبيره ولو علمـت أنت حال هند كما علمتهـا أنا لفعلت مثل فعلي ، ولكن مـا الفائدة من الكلام وقد نسيت حنوك وشفقتك ؟ ، فافعل ما تشاء واذا مـاتت هند فاللوم عليك » . قالت ذلك وهي تنظر اليه والدموع ملء عينيها .

فلمـا شاهد ذلك منهما سكن غضبه وصبر نفسه ونظر اليها بطرف يكاد يدمع وقال : « وما الحيلة التي ترينها والحال كما قلت ؟ » .

قالت : « اذا أذنت أن تنظر الى الامر بعين الحكمة دبرت لـك حيلة نصرف بها هذه المشكلة على أهون سبيل والا فالأمر لك » .

فبهت ثم قال : « ما الرأي ؟ . قولي » .

فجلست الى جانبه وقالت : « أمـا الرأي فهو أن تتظاهر بالرضاء

عما أرادته هند ثم ندبر حيلة نتخلص بها من حماد لا يكون فيها ضغط » .

فقال : « وكيف ذلك ؟ »

قالت : « سأقول أنك لا تمانع في اقترانها بحماد اذا طلبها ثم أبين لها ترفع مثلها عن الاقتران برجل غريب لم يثبت لنا نسبه وهي لا تنكر ذلك . ثم أحبب اليها أن يعمل عملا نقترحه عليه يكون مدعاة فخر يغنيه عن النسب فاذا قبلت ــ ولا أظنها الا قابلة لعلمي بعزة نفسها ــ اقترحنا على حماد أمرا يقرب من المستحيل . فاذا استطاعه كان اقترانه بهند أمرا مقضيا من الله سبحانه وتعالى فلا مندوحة لنا عن القبول » .

فارتاح جبلة الى هذا الرأي وسألها عما تنوي اقتراحه فقالت : « سننظر فيه ونقره وعندما يؤون الاوان » .

فسر لتعقلها وأثنى على ما أظهرته من الروية والحكمة ، فقالت له عند ذلك : « دعني أذهب الى هند وأطمئنها لئلا تقضي الليلة ساهرة فيعود اليها توعكها » . قالت ذلك وخرجت فرأت هندا مقبلة عليها فنهضت لها وهي تنظر الى وجهها تتفاءل بما تقرأ عليه من آيات البشر . فرأتها تبتسم فاطمأن بالها واستطلعتها الخبر فطمأنتها وأكدت لها أن أباها لا يمنعها مما تريده فلم تصدقها حتى أقسمت بحبها لها . فانبسط وجه هند ولم تتمالك عن الابتسام وكان سرور والدتها أكثر من سرورها . ولكنها ما زالت تفكر في الحيلة ثم ودعت ابنتها وخرجت ولم تنم هند تلك الليلة من شدة الفرح .

- ١٤ -

جبلة والحارث

تركنا حمادا في انتظار خبر عن أبيه وسلمـــان يتردد الـــى بصرى وضواحيها يسأل عنه حتى يئسا من العثور عليه فقلق حماد لذلك ، كثيرا وخاف أن يكون قد مسه الضر وكان سلمان في مثل قلقه فعاد ذات يـــوم من بصرى فوصل الى خيمة حماد فرآه غارقا في بحار الهواجس فلما دخل ناداه حماد : « ما وراءك يا سلمـــان ؟ » .

قال : « ما زلت على ما فارقتني عليه ، ولا أراني أستطيع صبرا فأذن لي في المسير الى بيت المقدس أو عمان لأبحث عن سيدي » .

فقال حماد : « ألا ترى أن أسير معـــك ؟ » .

قال : « لا حاجة الى ذهابك فامكث ريثما أعود » .

فقال : « هل تذهب الى بيت المقدس أم عمان ؟ » .

قال : أرى أن أسير الى بيت المقدس أتتبع خطوات سيدي منها حتى أقف على خبره فضلا عما في الطريق الى عمان من الأخطار » .

قال : « سر في حراسة الله ولا تطل الغياب فـــاني في قلق » .

فودعه وخرج على جواده وقد لبس ثياب السفر وسار قـــاصدا الى بيت المقدس فبلغها بعد أيـــام ، وجال في طرقها حتى انتهـــى الى خان علم من قيافة صاحبه انه عربي ، فدخل والتمس مبيتـــا عنده فأعد لـــه غرفة نزل فيهـــا وأرسل جواده الى الأسطبل ، ثم بـــدل سلمـــان ثيابه وجـــاء الى صاحب الخان فجلس اليـــه وجعل يحـــادثه في شتى الشؤون حتى تطرق الى حكاية هرقل وما كـــان من مجيئه الى هنـــاك فقال له : « وهل رأيت القيصر يوم مجيئه ؟ » .

قال : « رأيته مارا بموكبه يوم وصوله ثم تراكمت علينا الأشغـــال

لتقاطر أهل القرى والبلاد على بيت المقدس » .

فقال : « وهل يأتيكم كثير من العرب أم كل زائريكم من الروم والسريان واليهود من أهل هذه البلاد » .

قال : « قلما ترد علينا قوافل العرب ، أما في هذا العام فقد جاءنا كثير منهم » .

فقال : « وما سبب ذلك ؟ » .

قال : لأن القيصر بعث الى أمير من أمراء الحجاز يقال له أبو سفيان فجاء برجاله وحاشيته وقافلته فنزلوا جميعا في هذا الخان ومكثوا مدة بيننا فانتفعت المدينة بقدومهم لما كانوا يبتاعونه من الطعام لهم والعلف لخيولهم ، ويظهر أنهم من أهل الرخاء خلافا لما تعودناه من فقر أهل الحجاز لجدب أرضهم » .

فقال سلمان : « كثيرا ما سمعت بأبي سفيان هذا وعهدي به أنه من أعظم أمراء مكة وأنه كثيرا ما يقدم برجاله الى الشام وضواحيها للاتجار » .

فقال : « ولكنه قلما يأتي بيت المقدس ، أما في هذا العام فقد جاء بأمر من القيصر » .

قال : « وما الذي دعا القيصر الى استقدامه ؟ ومن يكون أبو سفيان حتى يهتم قيصر الروم باستدعائه ؟ » .

فحكى له حكاية الكتاب الذي ورد على هرقل وما كان من أمره حتى انتهى الى سفره من بيت المقدس .

فأراد سلمان أن يستطلع خبر سيده فقال : « أظن العرب الذين يأتونكم كلهم أو أكثرهم من الحجاز ، ويندر أن يأتيكم أحد من أهل العراق » .

وكان صاحب الخان قد علم من لهجة سلمان أنه عراقي فقال :

« وكثيرا ما يأتينا تجار من العراق أيضا ولكن قدومهم يكون على الأكثر في أزمنة المواسم والأعياد عندما يكثر الواردون الى القبر المقدس لأن الناس يحجون الى أورشليم من جميع أقطار العالم فيأتي الباعة والتجار من سائر البلدان أيضا لعرض سلعهم ، وأهل العراق يحملون الينا مصنوعات الفرس كالسجاد ونحوه وشيئا من محصول العراق كالتمر وغيره » .

فقال : « هل جاءكم أحد منهم أثناء ذلك ؟ » .

قال :« رأيت كثيرين ولكن لم ينزل منهم أحد عندي سوى أمير جاءنا يوم سفر أبي سفيان وسار معه » .

فتوسم سلمان من ذلك خيرا فقال : « هل عرفت اسم ذلك الأمير » .

قال : « أظنني سمعتهم ينادونه عبد الله » .

فتحقق سلمان أنه سيده بعينه فقال : « هل عرفت شيئا عن هذا الأمير ؟ » .

فأطرق صاحب الخان هنيهة ثم قال : « لقد أذكرتني من شأن هذا الأمير ما يتقطر له القلب » .

فاقشعر بدن سلمان عند سماعه ذلك حتى ظهر الارتباك على وجهه وتطاول بعنقه نحوه وقال : « لقد شغلت بالي يا أخا العرب بما أشرت اليه فهل أصيب الأمير عبد الله بسوء ؟ » .

قال : « كلا ، ما قصدت الى هذا ولكنني علمت أنه أصيب بفقد ولد له أكلته السباع في مسبعة الزرقاء » .

فعجب سلمان والتفت الى صاحب الخان وقال : « أعترف لك يا سيدي ان أمر هذا الأمير يهمني كثيرا لأنه سيدي ، وقد جئت للبحث عنه فهل تتفضل بتفضيل حكايته وما تم له ومن أنبأه بمقتل

ابنـه ؟ » .

قـال : « لن أخفي عليك شيئا مما أعرفه ، فقـد جـاءنا هذا الامير يوم سفر أبي سفيان ، ولحظت أنه سار في ضيافته فلمـا خـرجت القافلة أرسلت معها بعض خدم الخان ليشيعوهـا لعلهـا تحتـاج الى ارشاد في طريقهـا ، وكـان مع القافلة جواد عثروا عليـه شاردا في بعـض السهول أثناء مجيئهم الى الشام . فلمـا همت القافلة بـالمسير قـدم أبو سفيان ذلك الجواد للأمير عبـد الله ليركبه فلمـا رآه عرف أنـه جواد ابن له كـان فارقه في بعض جهات الزرقـاء فالتبس عليه أمـر الجواد وفراره ، وحكى حكايته هذه لأبي سفيان ، فرافقه هذا مع بعض رجاله الى المكـان الذي رأوا الجواد فيه ، وبلغني أنهم عثروا على بقايا جواد تحت شجرة وأشياء أخرى استدلوا منها على ذهـاب الغـلام فريسة السباع . فبكى ذلـك الأمير بكـاء مرا وندب ابنه وبالغ أبو سفيان في تعزيته فلم يتعز » .

وكان سلمان في أثناء هذه الحكاية مصغيا وقلبه يخفق ، فلمـا وصل صاحب الخان الى هذا الحد أحس سلمـان بقشعريرة وقف لهـا شعر رأسه وقال للرجل : « وماذا تم له بعد ذلك ؟ » .

قال : « سمعت أنه لمـا تحقق موت ابنه لم يعد يحلو له الذهاب الى منزله في بصرى فسار مع القافلة الى الحجاز » .

فقال سلمان : « وهل تحققت أنه سار الى الحجاز ؟ » .

قال : « هذا ما سمعته ولا أدري اذا كـان قد رجع عن عـزمه بعـد ذلـك » .

قال سلمان وقد ظهرت البغتة على وجهه : « ان لحكايته هذه أهمية عظيمة عندي ، وأشكر الله لنزولي عليك لاسمعها منك ، فهـل لـك أن تزيدني ايضاحا اذا استطعت ؟ » .

فقال الرجل : « لقد رأيت من اهتمامك وظهور البغتة على وجهك ما حرك عندي الاهتمام بمصير هذا الامير ، فلندع المكاري الذي قص الخبر علي بعد عودته لعله يزيدنا ايضاحا » . قال ذلك ونادى المكاري وكان مشتغلا ببعض شؤون الخان ، فجاء فسأله عما يعلمه من تفاصيل حكاية الامير عبد الله .

وروى المكاري القصة كما قالها صاحب الخان مع بعض التفصيل ، حتى انتهى الى مسير القافلة بعد الرجوع من مسبعة الزرقاء فقال : « رأيت ذلك الامير عائدا على قدميه يحمل سيف ابنه وعباءته ، وكان قد عثر عليهما عند ضفة غدير هناك ، فاستأنس بهما واستنشق رائحة ابنه منهما ، وأما الجواد فكان مسوقا وراءه كئيبا كأنه علم بمصير صاحبه ، فلما وصلوا الى الطريق دعاه أبو سفيان للمسير معه الى الحجاز أو أن يوصله الى منزله في بصرى فذكر انه لا يريد العودة الى بصرى ، ثم تردد في الذهاب الى الحجاز ، ولكنه رافقه وساروا جميعا وعدنا نحن ولا نعلم ما تم له بعد ذلك » .

فقال سلمان : « ألم تسمعه يذكر عمان وعزمه على المسير اليها » .

قال : « لا أذكر أني سمعته يقول شيئا من هذا القبيل » .

فبهت سلمان برهة يفكر فيما سمعه وهو يعلم أن سيده لا يصبر بعدما سمع من ذهاب حماد فريسة للسباع ، وخاف أن يكون قد حمله ذلك على المهاجرة من الشام والمسير الى الحجاز مع أبي سفيان ، ولكنه رأى في ذلك عجلة لم يعهدها في عبد الله ، فلبث برهة يفكر ثم استأذن صاحب الخان في الذهاب الى غرفته ليتبصر في الأمر بعد أن شكره على ما قصه عليه .

فلما خلا الى نفسه أخذ يفكر في الامر وقد انقبضت نفسه خوفا مما قد يصيب سيده من عواقب اليأس وعظم عليه الرجوع الى حماد

بهذا الخبر السيء فضلا عن انه لا يفيده شيئا • فقضى بقية النهـار وطول الليل في مثل هذه الهواجس فلاح له بعد اعمال الفكرة أن يتبع خطـوات سيده بنفسـه فيسير الـى عمـان لعله يقف على ما يجلو له الحقيقة •

فلما أصبح سـار الى صاحب الخان واطلعه على عزمه واستأذنـه في أخـذ ذلك المكاري معه فأطاعه ، فركب سلمـان والمكاري في ركابـه وكلما مرا بسكان حكى له المكاري واقعـة حاله حتى تجاوزوا طـريـق المسبعة ووصلا الى النقطة التي عاد المكاري منها فقال سلمان : « ألا تسير معي الى عمان لعلنا نسمع هناك خبرا جديدا ؟ » •

قال : « اني في ركابك حيثما تريد ، ولكنني سمعت منذ ايـام أن بالقرب من عمان جماعة من قريش جاءوا لغزونا فلا نأمـن أن نقـع في أيديهـم غنيمـة باردة » •

فتذكر سلمان أنه سمع مثل ذلك قبل خروجه من بصرى أيضـا فتردد في الامر ولكن نفسه لم تطاوعه على الرجوع قبل الوصـول الى عمان فقر رأيه على الذهاب اليها من طريق مجهولة لا يطرقهـا الا القليل من الناس والمكاري يعرفها ، فسارا حتى انتهيـا الى عمـان فلم يجدا فيها أثرا ولا خبرا •

فعاد سلمان يائسا حزينا لا يدري كيف يقابل حمادا بهذا الخبر الابتر ، وعلى فرض أن سيده لو كان أطاع عواطفه وسار الى الحجـاز فلا يلبث أن يهدأ روعه ويعود الى البلقاء للبحث عن ابنه ولا أقـل من أن يرجع الى بصرى بعد أن عفى عنه فيتفقـد مـا ادخروه من المـال والمثمنات في منزلهم بغسام •

فقضى سلمان طول الطريق يفكر في ذلك وكثيرا ما حدثتـه نفسه أن يتأثر سيده الى الحجاز لو لم يعرض له الشك في مسيره اليـه وعزم أخيرا على الرجوع الى حماد والبحث معه في هذه الشؤون فـاذا تحقق

من ذهابه الى الحجاز سار للبحث عنه فيها .

فلما وصلا الى منعطف من الطريق يؤدي الى البلقاء رأسا أثنى سلمان على المكاري وأكرمه وودعه وسار قاصدا حماد .

★ ★ ★

لم يكد يتوارى سلمان عن حماد يوم خروجه الى بيت المقدس حتى أحس حماد بالوحشة لانفراده في تلك الخيمة بعيدا عن حبيبته قلقا على والده ، فجلس يفكر فيما مر به في ذلك العام من الأهوال وما رآه من حوادث الأيام ، وتذكر حاله قبل قدومه البلقاء يوم كان خلي البال لا يعرف الهم فعلم أن السبب في ذلك كله الحب فتذكر هندا وما ناله من رضا أمها فرقص قلبه طربا ونسي ما ينتابه من الشواغل ، لأن الحب مهما قيل فيه تعزية للمحبين ينسيهم الهموم ويخفف عنهم الاحزان .

فلم يكن لحماد من تعزية في غربته الا رضا حبيبته ، فاذا تراكمت عليه الأحزان ، تذكر وتصور قربها فانتعشت جوارحه وثابت اليه آماله فينجلي صدره وتنبسط نفسه .

فلبث في خيمته برهة يتردد بين اليأس والرجاء ، ينقبض صدره تارة وينبسط أخرى . حتى كان المساء فسمع خوار ثور بين الخيام فعلم أن مضيفه راجع من مرعاه فحسده لسذاجته وقلة شواغله ولبث يفكر في أمره وود لو أنه مثل حاله خلي البال قليل البلبال لا يهمه من دنياه الا ما يرجوه من غلة أرضه أو نتاج ماشيته . ولكنه تذكر أن ذلك الشيخ لم يعرف الحب ولا شعر بلذته فهو أشبه بالحيوان الأعجم منه بالانسان .

ثم سمع وقع خطوات بالقرب من الخيمة علم من خفتهـا أنها خطوات الشيخ لأنه كان لا يمشي الا حافيا . فتحفز لاستقبالـه فاذا به قد دخل الخيمة والمنجل لا يزال في يده وقد كسا لحيتـه وعمامته الغبار وانفتح قميصه عن صدره فبان الشعر متجعـدا كأنه نبـت الحقل يعانق بعضه بعضا . فلمـا رآه حماد وقف له وحيـاه اكراما لشيخوخته ، فألقى الشيخ المنجـل عند باب الخيمة ودخل وعلى وجهـه ملامـح البشر حتى كـاد يبتسم ، وكـان قد عاشره أيـاما لم ير ثغـره باسما قط . على أنه قلمـا رآه منقبضا أو مهتما . فلمـا رآه يبتسم أحس بارتياح وسرور ودعـاه الى جانبه وأخلى له مجلسا عـلى البساط فأبى الجلوس الا على الارض ، ثم جلس وهو يحـك احدى كفيه بالاخرى ليزيل ما لصق بهمـا من التراب فلمـا تفتت التراب عنهما جعل ينفض لحيته البيضاء لينزع عنها ما علق بها من الأتربة .

فقال له حماد : « كيف أنت اليوم أيهـا الشيخ ؟ أرجو أن تكون في خير وعـافية » .

فنزع الشيخ عمامته وتشاغل بنقرها لينفض غبارها ثم قـال : « نحمد الله على خيراته ، فقد سرني اليوم أن بقرتي ولـدت عجلا أبلق ولا يمضي عليه العام أو العامان حتى استخدمه في الحراثة فيغنيني عن تربية البنين وهمومهم » .

فعجب حمـاد لسذاجة البداوة وقلة هموم أهلها فأراد مداعبته فقال له : « أيكفيك من دنياك رعاية الماشية وتربية العجول والغسانيون متمتعون بالسلطة والسيادة ؟ » . وكـان حماد عالما بمـا يتقوله الأنباط على الغسانيين كما تقدم .

فضحك الشيخ مستهزئـا وقال : « لا يغرنك من دنيـاك يوم نعيم فانها لا تحسن يومـا حتى تسيء أيـاما . وهذا الحـارث الغساني قد

حكم واستبد وظن أن لن يقدر عليه أحد . ثم جـاء من ينزع عنه السيادة ويلحقه بأجداده أصحاب سيل العرم الذين جاءونـا فرارا من الفقـر بعد أن كانوا يقيسون بأرض تستقي من مستنقعات يجمعونهـا من مياه الأمطـار وراء سد من حجر ، فلمـا انهدم السد سال المـاء فـأغرق السهول ولم يعودوا يستطيعون بنـاء السد لضعفهم وقلة تدبـيرهم فأجدبت أرضهم ففروا الى هذه البلاد منذ قرون متطاولـة وقدر لهـم الملك عن غير استحقاق ، حتى جاءهم الآن من ينزع الملـك منهم ويكسر شوكتهم ويعلمهم ما لهم ومـا عليهم » .

فعلم حمـاد أن الشيخ يشير الى حكايـة سيل العرم في جهات اليمن وما كـان من تفرق بني قحطان بعده والغسانيون في جملتهم . ولكنـه لم يفقه ما أراده من قوله بقرب زوال ملكهم فقال لـه : « ومـا تعني بقرب زوال ملكهم ونحن لا نراهم يزدادون الا قوة ومنعة ؟ » .

قال : « ألم تسمـع بالعدنـانيين الذين قدموا من الحجـاز ؟ لقد جاءوا ليقتصوا من الغسانيين ويبيدوهم عن آخرهم » .

فقال : « وما أوجب القصاص ؟ وأي علاقة بينهمـا والحجاز على مسافة أيام من الشام والناس هناك في شاغل بأمر دينهم فقد ظهـر فيهم من يدعوهم الى دين الله ، وقد سمعت بـأنه أنشأ فيهـم دولة جديـدة دانت لهـا كل بـلاد العرب فـأهل الحجـاز في شاغل عـن هـذه البـلاد » .

فضحك الشيخ وقال : « هذا قضاء الله . وأمـا ما أوجب مجيء العدنانيين فعجرفة الحـارث الغساني وكبرياؤه . فقد أنبأنـي بعـض المـارين من هنا أن نبي قريش الذي ذكرته كتب الى الحـارث كتابـا يدعوه فيه الى دينه ، فبدلا من أن يقرأه الحـارث ويتأمله ويـرد الرسول ردا جميلا ، مزق الكتاب وأهان الرسول ، فشق ذلك على صاحب الرسالة

فأنفذ جندا لحرب الحارث وفتح بلاده » .

فاهتم حماد بهذا الخبر لعلمه أن الحرب اذا قامت عرقلت مساعيه وحالت بينه وبين ما يريد فضلا عما يخافه على هند من الخطر لأن جبلة لا بد له من نصرة ابن عمه الحارث . على أنه لم يكن يخاف انهزامهم لما كان يتوهمه من ضعف أهل الحجاز وقلة خيراتهم كما هو مشهور عن تلك البلاد منذ القدم ولكن خوفه على هند من عواقب الحرب أهمه كثيرا ، فلبث برهة يفكر في أمره ثم قال للشيخ : « وهل أنت واثق من مجيء هؤلاء الحجازيين ؟ » .

قال : « لا ريب عندي في ذلك » .

قال : « هل سمعت الخبر عن ثقة ؟ » .

قال : « سمعته من خبير وأهمني أمره كثيرا حتى تحققته لأني أفرح لفشل الغساسنة فقد قلت لك أنهم أعداؤنا » . وكان ذلك الشيخ النبطي يظن حمادا يفرح بسقوط دولة بني غسان لأنه من لخم ، ولم يدر أن قلبه في صرح الغدير .

فلبث حماد لا يدري ماذا يعمل ، وتذكر سلمان وأباه فتراكمت همومه فالتفت الى الشيخ فاذا هو قد ذبلت عيناه وغلب عليه النعاس شأن الذين يعملون عمله فتركه حماد واشتغل بهمومه .

ثم أفاق الشيخ مذعورا لصوت ثوريه وهم بالخروج من الخيمة وهو يقول : « لقد تقاتل الثوران » فخرج حماد في أثره وكان الليل قد سدل نقابه فسارا حتى اقتربا من مربط الثورين فاذا هما لا يقتتلان ولكنهما شاهدا بينهما جملا غريبا ، فتقدم الشيخ اليه وأمسكه بعنقه وأبعده عن ثوريه حتى دنا من نار موقدة يستضيء بها وحماد يراعيه بعينيه ، ولم يكد الشيخ يتأمل ذلك حتى ضحك وقال : « هذه ناقة من نوق أهل المدينة تخلفت عن جند الحجاز الذين قلت لك أنهم

جاءوا لحرب الغسانيين » .

فقال حمـاد : « وما الذي دلك على ذلك ؟ » .

قال : « دلني عليه شكل الرجل فانه خاص بأهل المدينة ، وكثيرا ما رأينا أمثال هذه النوق مارة بنا الى الشام وغيرها » .

فقال حماد : « يظهر أن العدنانيين قد أصبحوا على مقربة منا ؟ » .

فقال الشيخ : « لا أظنهم قريبين . فقد يكون بيننا وبينهم مسافة أيـام ، ولعل هذه الناقة قد تاهت منذ بضعة أيام » . قال ذلك وهو يعقلها ويأتي لهـا بالعلف .

فتركه حمـاد وعاد الى خيمته وقد عظم عليـه أن يذهب أملـه أدراج الريـاح لاشتغال جبلـة بالحرب فشعر بشدة حـاجته الـى سلمـان .

★ ★ ★

عـاد سلمان بعد أيام كاسف البال لخيبة مسعاه في العثور عـلى سيده عبد الله ، ولمـا استطلعه حماد كنه ما علمه قص عليه مـا سمعه ثم قال : « يلـوح لي أن سيدي رافق أبـا سفيان الى الحجاز ، اذ يظهر ممـا سمعته أنه تحقق خبر مقتلك فلم يبق لـه وطر في الحياة . ولعل أبا سفيان حبب اليه السفر ورغبه في المسير الى الكعبة فجاراه » .

فقال حماد : « مـا أظنه يفعل ذلـك قبل أن يـأتي الى بصرى ويستخرج ما خبأناه في غسام » .

فقال : « ومـا أدرانا أنه لم يأت اليها بعد أن استخرجناها ؛ أو لعله أرسل من يبحث عنها فلم يظفر بها . وعلى كل حال فهـو ليس في فلسطين ولا البلقـاء ولا عثرت عليه في عمـان . ويؤخذ من مجمل ما سمعته أنه سار الى الحجاز ، فهل تـأذن لي في الذهاب الى مكة للبحث عنه ؟ » .

قال : « لو كنـا على يقين من ذهابه اليها لسرت أنـا بنفسي ؛ ولكننا انـا نرجم بالغيب ، وزد على ذلك أننا في حـال تدعو الى القلـق من أمر الحرب المنتظرة بين الحجازيين والغسانيين ، وقد سمعتك تشير اليها في أثناء حديثك وكنت في ريب من أمرهـا حين سمعتهـا من شيخنا النبطي منذ أيـام » .

فقال سلمان : « أمـا مجيء هؤلاء الرجال فلا شك فيـه ، لأني رأيت معسكرهم بعيني بجوار عمـان ، وأمـا سيدي فالأرجح أنه سار الى الحجاز ، أو لعله أصيب بمـا عاقه عن المجيء الى بصرى ولا يلبث أن يأتي ، فاذا لم نره بعد أيـام علمنـا أنـه سار مع أبي سفيـان الى مكـة » .

فلم ير حماد بدا من الانتظار ، ولكنه عـاد الى التفكير في أمـره مع هند وما عسى أن يكون من شأنها بعد طول الانقطاع وخاف أن يتغلب الفتور على قلبها فيذهب سعيه هدرا .

فقال : « عليك يا سلمان أن تتردد على بصرى لعلـك تسمع شيئا عن أبي ، و لاتنس أن تتحسس من أمر هند وأبيهـا فقد علمت مـا داهم الغسانيين من أمر الحرب على حين غفلة ، وأخشى اذا حمي وطيسهـا أن تذهب آمالنا كلها أدراج الريـاح » .

فقال سلمـان والقلق ظاهر على وجهه : « ومـا أدراك انني غافل عن هذا الامر ؟ انه شغلي الشاغل ليلا ونهارا ، وكنت عـازمـا عـلى استئذانك في الذهـاب الى بصرى في صباح الغد فقد سمعت النـاس يتقولون أقوالا لم أصدقها » .

فبغت حماد وقال : « وماذا عسى أن يكون تقولهم وعمن يتقولون ؟ قل ما الذي سمعته ؟ »

قال : « لم أسمع شيئا يوجب قلقا لأني على يقين من حب هنـد

وثباتها في حبك »

فازداد حماد دهشة وقال : « هند ؟ • وما شأن هند ؟ وماذا يتقول الناس عنها ؟ قل يا سلمان » •

قال : « هدىء من روعك فاني لا أخفي عليك شيئا ، ولا سيما ان ما سمعته لا يوجب قلقا ولا يجر الى خوف » •

فقال حماد وقد نفد صبره : « قل ماذا يقولون ؟ » •

قال : « سمعت الناس يتحدثون في بصرى وضواحيها بأن ثعلبة طلب الاقتران بهند » •

فلما سمع حماد اسم ثعلبة مقرونا باسم هند اقشعر بدنه وقال : « وكيف طلب ذلك ومتى • ؟ »

قال : « سمعت أنه طلبها على يد أبيه الحارث ، وأن هذا خاطب جبلة فوعده خيرا » •

فصاح حماد : « وبماذا وعده ؟ » •

فقال سلمان وهو يبتسم : « مالي أراك قليل الصبر خفف عنك واصغ الى ما أقول فقد عهدتك صبورا حازما » •

قال : « اني صبور على كل شيء الا هند • قل ما كان وعده ؟ » •

قال : « وعده بأن يكلم الفتاة أو بالحري بأن يستشير أمها ، اد لا تجهل أن زواج البنات قلما يتوقف على ارادتهن » •

فقال حماد : « وماذا كانت النتيجة ؟ » •

قال : « لم أتحقق الخبر بعد ، فقد قال بعضهم : انه خاطبها فلم تقبل ، وقال آخرون انه لم يخاطبها بعد • ولكن لقيت في الطريق أمس صديقا لي من أهل بصرى صادقته على أثر هجوم ثعلبة على منزلنا يوم قبضوا على سيدي الأمير وأظنه أعلم الناس بحقيقة

الواقع ، فأنبأني بأن الحارث استبطأ جواب جبلة في شأن هند فسار اليه ثانية يستعجله الجواب على أثر قدوم هؤلاء الحجازيين لأنه يريد التعجيل بالزواج قبل نشوب الحرب » .

فخفق قلب حماد ووقف وقد امتقع لونه وقال : « ما هذه الاحاديث يا سلمان ؟ اني أراني في حلم ، أتظن آمالنا ومساعينا قد ذهبت عبثا ، وهل ترضى هند بابن عمها ثعلبة ؟ » . قال ذلك والدمع يكاد يتناثر من عينيه » .

فاتقدت الشهامة والغيرة في قلب سلمان وهم بحماد فضمه الى صدره وقال له : « خسيء النذل ان هندا أرفع من أن تدنس قلبها بحبته ، وأنت أعلم مني بأنفتها وعزة نفسها وكرهها لثعلبة ، ويلوح لي ان التباطؤ في جوابها ناتج عن تمنعها » .

فانتعش حماد لسماع هذا الكلام ولكنه بقي خائفا أن تؤخذ الفتاة قسرا فقال : « حاشا لقلب هند أن يحب ذلك الخائن ولكنني أخاف أن تحمل على قبوله مراعاة لما بين أبويهما من النسب وما يخشى من عواقب الرفض ، فقد يصعب على هند أن ترفض ، ما يريد أبواها » .

فقال سلمان : « لا يصعب عليها ذلك ووالدتها نصيرة لها ، فقد آنست من هذه المرأة يوم قابلتها وأنا في زي الراهب ما دلني على دهائها وقوة جنانها ، فهي اذا أرادت تحويل زوجها عن أمر فلا يصعب عليها » .

قال حماد : « ومن ينبئنا بذلك ونحن لم نر من حديثها ذلك اليوم ما يدل على اخلاصها لنا ، وهذا الى ان زوجها اذا رفض ثعلبة فقد لا يرضى بسواه » .

فأدرك سلمان وعورة المسالك ولكنه قال مستخفا : « دع ذلك

الي ، فاني ذاهب في صباح الغد لاستطلاع الخبر وتدبير الحيلة ، والله يفعل ما يشاء » •

فسكت حماد عن غير اقتناع ، وصبر ينتظر ما يأتي به القدر •

وباتوا ليلتهم ولم ينم حماد الا لما تراكم عليه من الهواجس • أما سلمان فقضى ليلته يفكر في سبيل يوصله الى المراد ، فنهض في الصباح التالي وفي نيته الشخوص الى صرح الغدير لاعتقاده ان الخبر اليقين عند هند ، فلبس ثياب الرهبان وركب جواده وسار حتى اذا أتى الصرح سأل عمن يقيم به فقيل له أن جبلة برحه منذ أيام بعد أن جاءه في زيارة • فتقدم الى باب الحديقة فاستقبله الخادم وسأله عن غرضه ، فادعى انه جاء في مهمة من رئيس دير بحيراء الى الاميرة سعدى • وطلب مقابلتها فسألوها فأذنت في دخوله • فلما خلت اليه عرفته ، وسألته عن حماد فأنبأها بحاله وانه جاء يستطلع ما تم من أمره ، فاستدعت هندا وكانت في حجرتها تفكر في حماد وهي لا تعلم مقره ، فلما سمعت بمجيء سلمان خفق قلبها واسرعت اليه وامارات البغتة تلوح على وجهها • فلما رآها سلمان قام لها وسلم عليها وطمأنها عن حماد وسألها عن صحتها فطمأنته ، وكان سلمان في أثناء الحديث يراقب حركات سعدى لعله يلحظ ما كان يخافه منها ،فآنس منها ما حقق آماله برضائها ، ولكنه ما زال قلقا لما عساه أن يكون من أمر ثعلبة وطلبه ، فجعلوا يتجاذبون أطراف الحديث وأكثره بين سلمان وسعدى فعلم سلمان ما كان من رفض جبلة طلب ثعلبة ورضائه بحماد ، فسر سرورا لا مزيد عليه حتى رقص قلبه من الفرح وود لو أن له أجنحة ليطير بها الى حماد يبشره بذلك •

ثم قال لسعدى : « وما هو موعدنا لمخاطبة سيدي الملك في هذا الامر ؟ » •

قالت : « نحن على موعد من مجيئه الينا بعد أيام ، فاذا جاء وتقدم

حماد يطلب هندا نال مبتغاه » • وكانت هند في أثناء ذلك مطرقة حياء لا تتكلم وقلبها يرقص طربا • فقال سلمان : « ومن ينبئنا بذلك اليوم ونحن بعيدان من هذا القصر ؟ » •

قالت: « نبعث معك من يعرف مقركما ، فاذا كان اليوم المعهود أرسلناه في طلبكما » •

قال : « حسنا » وهم بالخروج فوقفتا له فودعهما وخرج وهو لا يصدق أنه سمع ما سمعه ، ولكنه لم يعلم بما سيقوم في سبيل سيده من العقبات • ورافقه خادم انتدب لهذه المهمة على أن يكتمها •

ولا تسل عن فرح حماد بلقاء سلمان وما كان من سروره لما سمعه حتى تمثلت له السعادة عبدا رقيقا ونسي أباه وضياعه ، لا عن عقوق ولكن الحب تغلب عليه فوعد نفسه بالبحث عنه بعد أن يصير صهرا لملك غسان فيكون أقدر على ذلك •

★ ★ ★

ما كاد يتوارى جبلة عن صرح الغدير حتى انجلى له خطؤه وما كان من تهوره في مجاراة امرأته في شأن حماد ولم يعرف كيف يجيب الحارث ، وعظم عليه أن يرده خائبا بعد أن وعده لما في ذلك من ضعف الرأي • فقضى معظم الطريق يفكر في هذا فلاح له أخيرا أن يكتم حقيقة الامر ويجعل جوابه تأجيل الخطبة الى ما بعد انقضاء الحرب على نية أن يبعث حمادا في مهمة لا يعود منها واذا عاد فانما يعود خائبا فلا يستطيع طلبا ولا ينال وطرا •

أما ثعلبة فكان قد دبر ما دبره وهو على ثقة من رضا هند به ولو بالاكراه ، ثم علم بضياع عبد الله وترجح لديه مقتل حماد مما نقله اليه جواسيسه الذين أنفذهم في أثر عبد الله عند خروجه من المقدس ،

فخمدت غيرته على هند لأنه انما طلب الاقتران بها ليمنعها عن حماد ، فلما علم بمقتله ود الرجوع عن طلبه لتبقى منغصة العيش فتخسر الاثنين معا • فأخذ يترقب فرصة ليؤجل موعد الزواج ثم يسعى سعيه لينتقم من هند ، وكانت نفسه تحدثه اذا قبلته زوجا ، بأن يسوف ويماطل حتى تموت كمدا •

ولم يكن أبوه يعلم بحقيقة مراده ، فكان يستعجل جبلة في الزواج ارضاء لابنه ، فلما سمع بمجيء الحجازيين الى عمان سار بنفسه الى جبلة وألح عليه في اتمام القران قبل نشوب الحرب ، ثم تواترت الأخبار بقدوم العرب الى عمان وشخوصهم الى البلقاء ، وبلغ ذلك ثعلبة فجاء الى أبيه يستشيره في اعداد المعدات وتحصين الحصون على حدود البلقاء ، فجرهما الحديث الى هند والزواج ، فقال له أبوه : « لقد استعجلت جواب هند من أبيها ، ولا شك في قبولها » • وأوعز اليه أن يجعل الاحتفال بالزواج بسيطا الى ما بعد انتصارهم على العرب فيكون الفرح مزدوجا •

فصمت ثعلبة برهة كمن يفكر في أمر أهمه ثم قال : « ان حالتنا الحاضرة يا أبتاه لا تسمح لنا بالاحتفال كما قدمت ، فلا أرى أن نستعجل الزواج ، ولا بأس من تأجيله حتى تنقضي الحرب ! » • فعجب أبوه لجوابه بعد ما آنسه من الحاحه السابق ، ولكنه حمل منه على محمل الرغبة في الحرب فاستحسنه وقال له : « أراك تؤثر القتال ودفع العدو على نيل ما طالما كنت تتمناه وهي شهامة غسانية نذكرها لك » •

وكان الحارث يؤثر التأجيل أيضا ولكنه كان يلح على جبلة رغبة في ارضاء ابنه • على أنه خاف أن يكون في ذلك ما يسيء جبلة أو يكدر العلاقة بينهما فقال : « وبماذا نجيب عمك لو أجابنا بالقبول ؟ » •

قال : « نجيبه أننا في حال حرب لا تسمح بزواج » •

قال : « ولكننا كنا في مثل هذه الحال يوم جئته وألححت عليه طالبا الفتاة : وقد اعتذر الي بأمر الحرب فأجبته بأننا نود انهاء أمر الزواج قبل نشوبهـا ، فكيف نعود اليه بهذا العذر ؟ ألا ترى في ذلـك ما يحملـه على اساءة الظن ؟ » •

قال : « لا يهمنا هذا الامر أم سره فاننا نريد التأجيل » •

فعجب الحارث لطيش ابنه وتغافله عـن حقيقة العلاقة بينه وبـين عمـه فقـال : ألا تعلم يا ولدي أن مثل هذا قد يسوق الى حرب بيننا وبينه ، فاذا كنت غافلا عن ذلك فما أنا بغافل ، والمسألة دقيقة تحتاج الى نظر وحسن أسلوب » •

فلبث ثعلبة برهة يفكر وقد انتبه لحرج المقام ، وكانت الغيرة قد أعمته فقال : « ولكن الحال اليوم غيرها يوم استعجلت جبلة في أمـر الزواج ، فقد كان الاعداء اذ ذاك في عمـان ، وهم قد أقلعوا الآن من هناك وتحركوا نحو البلقاء ، فاجعل ذلك سببا للتأجيل » •

فرأى الحارث في كلام ثعلبة بعض العذر ، فاعتزم أن يلجأ اليـه في مخـاطبة جبلة •

وفيما هما في ذلك جاءهمـا رسول من جبلـة يستقـدم الحارث للمداولة في أمر الحرب ، فقال الحارث : « هاأنذا ذاهب الى البلقـاء لأعلم رأي جبلة في القتال المزمع ، واذا خاطبني في أمر هند عمدنـا الى التأجيل ، فقم أنت على تدبير الجند ، واكتب الى الامراء أن يجمـع كل منهم رجاله تحت رايته ويتهيأوا للقتال عند الحاجة ، واذا رأيت فيهم تقاعدا فاستحثهم واستنهض هممهم وادفع اليهـم ما يعوزهم من المـال ، واستشر في ذلـك البطريق رومانوس فانه أوعز الي أن أجمع عشائر غسان التابعين للوائنا ولا بد من أنه قد كتب الى جبلة بمثل ذلك أيضا ، فتأهب وان تكن حالنا مع الحجازيين لا تستدعي كبير اهتمام » •

فقال ثعلبة : « اني عامل على ما تريد ، ولكنني أرجو منك أن تتمم ما تكلمنـــا فيه من تأجيل الزواج » • فوعده بذلـــك وركب وحوله رجاله وحاشيته وسار قاصدا الى البلقاء •

★ ★ ★

تركنا جبلة في حيرة من أمر الزواج وتأجيله وهو في طريقــه من صرح الغدير الى البلقـــاء ، فلمـــا وصل الى البلقـــاء سمع بتحـــرك الحجازيين من عمان فقال في نفسه : « ان هذا عـــذر يساعدني عـــلى ما أريد ، فان زحف الاعداء الينا عذر كـــاف للاشتغال به عن كل شاغل » •

وفي صباح اليوم التالي ، كتب جبلـــة الى الحـــارث يستقدمـــه اليه لان البلقاء أقرب الى عمان من بصرى ، وألح عليه في المجيء وذكـــر في كتابه أنه يريد التحدث اليه في شأن القتال ، وفي نفسه تـــأجيل الزواج • فسار الحارث اليه ، فلمـــا التقيا سلمـــا وأسرعـــا الى الاختـــلاء فقال جبلة : « قد دعوتك يـــا ابن العم لبحث مـــا علينـــا الاخذ بـــه مـــن الوسائل لدفع أولئك القادمين ، فقد علمت أنهم تحركـــوا من عمـــان شمالا فهم لا ريب يقصدون هذه الديار ولا يلبثون أن يأتونا ، وقـــد بعثت العيون يرقبون حركاتهم فهيىء رجالك ، وقد أعددت رجـــالي » •

فقال الحارث : « لقد شاهدت العشائر في الطريق يستعـــدون للمسير اليكم ، وأوصيت ولدنا ثعلبة أن يكتب الى العشائر الاخـــرى لتجتمع بجوار بصرى ؛ فاذا اجتمعـــوا وعلمنـــا معسكر الاعـــداء حملنـــا عليهم معـــا ، ولا أظننا نلقى مشقة في دفعهم لقلتهـــم وفقرهم ، وقـــد علمت أنهم حفاة الاقدام لا يلبسون الا شسلات يلتحفون بهـــا كما يفعل سائر أهل الحجـــاز لا يكـــاد يمتاز أميرهم من صعلوكهم . ويلوح لـــي اننا

اذا رأينا منهم مـا أتعبنا أرضيناهم بمـال ندفعه اليهم ولا نظنهم جاءونا الا طمعا في ذلـك لعلمهم بخيرات الشام وغنى دولـة الروم » • قال ذلك ليقنع جبلة بأن مجيئهم ليس لسوء معاملته لحـامل كتابهم اليه ، فقال جبلة : « لا نرى أن نعرض عليهم شيئا من هذا الا بعـد أن نرى منهم مقاومة تذكر ، ولكنني لا أظنهم يقفون أمـام جندنـا يوما واحدا » •

ثم تذكر جبلة أمر ثعلبة وهند فقال : « قد ذكرت أن ولدنـا ثعلبة يهتم بمكاتبة العشائر فهل هو في بصرى الآن ؟ » •

قال : « نعم هو هناك ، وقد أسفت لهذه الحال التي ستحول بيننـا وبين الاحتفال بزواجه بابنتنا هند » •

فقال جبلة وقد سر بهذا العذر : « حقا أنهـا داعية للأسف : على اني لا أرى مانعا من تأجيل الزواج الى ما بعد الحرب ، فان فرحنـا اذ ذاك يكون مزدوجا » •

فابتسم الحارث فرحـا بمـا ناله من التأجيل عفوا فقـال لجبلة : « بورك فيك فقد كنت أميل الى ذلك واستحسنه وأخشى اذا ذكرته لك أن تظن سوءا فنشكر الله على توارد خاطرينا » •

فقال جبلة : « هذا هو الرأي الصواب ، وسأذهب الى صرح الغدير فأنبيء سعدى بمـا تم عليه القرار لئلا تكون مشتغلـة بالاستعـداد بعد أن استعجلت أمر الزواج اجابة لرغبتك ، فلا بد من ابلاغهـا خبر التأجيل بنفسي » • وقـد أراد الرجوع بنفسه الى صرح الغدير لتدبير المهمة التي يريد ارسال حماد فيها •

فقال الحارث : « افعل ما بدا لك وفقنا الله لمـا فيه الخير » • ثـم خرجـا ، وسأل جبلة الحارث عمن سار لتفقد حركـات الاعداء ، فقال هذا : « لقد عـاد رسولنا من هـذه المهمة الآن ، وهو ممن خالطوا

الحجازيين ، وسأبعث في طلبه » .

ثم أمر باستقدام ذلـك الرسول ، فجـاء وأنبأهما بأن الحجازيين قاموا من عمان وساروا يريدون مؤتة عند الكرك ، وينتظر أن يبلغوهـا قريبا ، فقال الحارث : « أتظنهم يصلون الينا ؟ » .

قال جبلة : « ربما فعلوا ذلك » . ثم تحول الى الرسول فقال له : « وهل عرفت عددهم وقواتهم ؟ » . قال : « أظنهم لا يتجاوزون ثلاثـة آلاف مقاتل ، وليس معهم من العدة والسلاح الا شيء قليل لا يقـاس بعدة رجالنا وأسلحتهم » .

فضحك الحارث مستهزئا وقال : « أبثلاثة آلاف فارس جاءوا من أقاصي الحجاز ليحاربوا الروم ، وجنودنا تتجاوز مائة الف ومعهـا الخيل والسلاح ؟! » .

فقال الرسول : « وقد علمت أنهم أدركوا ضعفهم وقلتهم فوقفوا هنيهة ريثما يأتيهم المدد من الحجاز » .

فقال الحارث : « أعلمت أنهم بعثوا يستقدمون المدد ؟ » .

قال الرسول : « كلا ولكنهم تداولوا في ذلـك ، والارجح أنهم لا يفعلون ، فقد سمعتهم وأنـا جالس بين جماعة منهم كـأني أحدهـم فقال قائل من بينهم : (كيف نهاجم بلادا لا يقل جندهـا عن مائة الف مقاتل ، وقد يبلغ المائتين فلنطلب المدد) . فقـام رجل من كبـارهم اسمه عبد الله بن رواحة فقال : (يا قوم والله ان الـذي تكرهون الذي خرجتم له . خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الذي أكرمنا الله تعـالى به ، فانما هي احدى الحسنيين : أما ظهور وأما شهادة) . فسمعت الناس يضجـون قائلين : (صدق والله ابن رواحة) . فـلا أظنهم بعد ذلـك يستمدون

أهل الحجـاز » .

فقال جبلة : « وهل سمعت شيئا من أهل القرى التي مروا بهـا فقد يكونون تعرضوا لهم وقطعوا أشجـارهم وآذوهم » .

قال : « لم أسمع منهم شكوى ، فعجبت لحـال هؤلاء الحجـازيين فانهم على فقرهم وما يظهر من ضنك أحـوالهم لم يؤذوا أحدا مـن أهل القرى الا الذين اعترضوهم . ولقد بت في ديـر بين عمان ومؤتة وسمعت حديث الرهبان في شأنهم فرأيتهم يثنون علـى حسن سلوكهم فقد مروا بهم ولم يكلفوهم أمرا غير ما احتاجوا اليه من ماء أو علف » .

فقال الحارث : « انهم يلتمسون ثقة الاهلين حتى لا يكونوا عـونا عليهـم في هذا القتـال » .

فقال الرسول : « لا أرى ذلك قصدهم ، فقد سمعت من رجل جالسته فاتخذني صديقا وقص علي قصصا عن النبي الذي قاموا بنصرته . ومـا قاله أنه لما خرج نبيهم لوداعهم خارج يثرب وسلم الألويـة اليهم أوصاهم قـائلا : (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكـم من المسلمين خيرا . اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكـم بالشام ، وستجدون فيها رجالا في الصوامع فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا شيخا فانيـا ولا تقطعـوا شجرا ولا تهدموا بناء) .. ». فأعجب الحارث وجبلة بهذه الاقوال ، وقال الاول : « أما وقد اقترب هؤلاء من البلقان فلنبعث الـى دمشق نستعجل جند الروم لنكون كتلـة واحدة نصد هؤلاء ونعيدهم مـن حيث أتوا » . فوافقه جبلة وأفكاره في هند وحمـاد ، وما صدق أن ذهب الحارث حتى ركب راجعا الى صرح الغدير بصحبة فارسان ، فوصل الى القصر على غير انتظار .

- ١٥ -

قرطا مارية

ما كاد جبلة يجتمع بسعدى حتى أطلعها على ما تـم بينه وبين الحارث ثم قال : « ألا تزالين على رأيك في أمـر ذلك الشاب أم تمكنت مـن تحويل هند عـن عزمها فرجعت الى صوابها » .

قالت : « قلت لك قبل الان ان مـن يحاول تحويل هند عـن حماد فانـه يحاول مستحيلا » .

فتنهد آسفا على قبوله رأيهـا وقال : « وأين حيلتك التي أعددتها للتخلص من هذه الورطـة ؟ » .

قالت : « أرى أن تطلب الى حماد شيئا صعب المنال يقدمه مهـرا لهنـد . فاذا لم يستطعه كان الجاني على نفسه وتخلصنا من لوم هنـد . وقد كلمتها في هذا فرأيت منها ميلا الى ذلك فهي تحب أن تعلو منزلـة حماد في عيون أهلها ، فاذا اقترحنا عليه عملا يعمله لكي يصبح أهـلا لهـا فانها تفتخر به كلما صعب الامر وكان خطيرا » .

فقـال : «هـل صرحت لها بما نقترحه في هذا الشأن ؟ » . قالت : « لا » .

فقال : « وهـل عقدت أنت رأيـك على شيء ؟ » .

قالت : «أظنني اهتديت الى اقتراح لا بأس بـه » .

قال : « ومـا هـو ؟ » .

قالت : « لا يخفى عليك ان مارية بنت ظالم ، أخت هند الهنود امرأة حجر آكل المرار الكندي ، هي جدة ملوك غسان كافة » .

قال : « نعم ، واعلم أنهـا صاحبة القرطين اللذين يضرب المثـل بهمـا » .

قالت : « اني أرمي الى هذين القرطين ، فلا يخفى عليك أن ملوك الارض قاطبة لم يحوزوا مثلهما . لأن فيهما درتين كبيض الحمام لم يـر الناس مثلهما ولا تقدر قيمتهما بمـال » .

قال : « نعـم » .

قالت : « أتدري أين القرطـان الآن ؟ » .

فبهت جبلة وقال : « حدثني أبي عن أبيه عمن قبلـه أن جدتنـا مارية أهدت قرطيها الى الكعبة في مكة وفاء بنـذر ، فربما كـانت وثنية ولولا ذلك لم تهد مثل هذه التحف الى الكعبة » .

فقالت : « مهما يكن من أمرهـا فان قرطيها لا يزالان في الكعبة » .

قال : « نعم اني أعلم ذلك » .

قالت : « فأرى ان نقترح على حماد الاتيان بهما مهرا تلبسهمـا يوم زفافها ... فمـا قولك ؟ » .

فأعجب جبلة بذكـاء سعدى ولطف حيلتهـا ، وتبسم وأبرقت أسرته ، ورأى باب الفرج قد فتح له فقال : « بورك فيك ونعم الرأي رأيك ، انه اقتراح لا يتأتى لبشر ان يأتي بمثله لأنـه بعيد المنال ، فـاذا فرضنا المستحيل واستطاع حماد المجيء بهمـا فانه يكون أهلا لهند فلا نمنعه منها ، فهل تظنين هندا توافقنا ؟ » .

قالت : « أظنها توافق والا فاننا نعذر اذا رفضنا حمادا » .

قال : « ها قد تقرر الأمر فخاطبيها واستدعي الشاب ونوبي عني في ابلاغه بذلـك ، فاني في شاغل عن هذه الشؤون بمـا نحن فيه من أمر الحرب المتوقعة » .

قالت : « حسنا » . وخرجت .

وكـانت هند أثناء ذلك تتمشى في الحديقة وقد علمت بمجيء أبيها وأنه انما جاء واختلى بأمها في شأنها فلبثت تخطر في الحديقـة وقلبهـا

يخطر في صدرها ، وأفكـارها تجول فيما عسى أن يقر عليه القرار ، فلمـا رأت أمها خارجة أسرعت اليها وهمت بسؤالها فأومأت اليهـا أن تصبر ريثمـا يرجع أبوها الى البلقـاء ، ثم أمرت سعدى الخدم بأن يعدوا الطعام ، وخرج جبلة الى الحديقة متظاهرا بالبحث عن هنـد ، فلمـا لقيها قبلهـا وهش لهـا ودلائل السرور بادية على وجهـه ، فتفاءلت خيرا ومشت معه وهو يسألها عن صحتها وحالهـا ويحادثهـا في شتى الشئون الا زواجها فانه لم يذكره ، أمـا هي فقد منعها الحياء عن ذكره •

ولما فرغ الطعام ودع امرأته وابنته وعاد الى البلقاء ولم يكد يخرج من الحديقة حتى أسرعت هند الى أمها تستطلعها الخبر •

فأجابتها سعدى وهي تبتسم قائلة : « أبشرك ببقـاء أبيك على عزمه ، فقد رد الحارث وابنه ، وقبل حمادا كما قلت لك ، ولكنـه يرى وأرى أنا أيضا أن نقترح عليه عملا يسد ما يتقوله الناس عن غمـوض أصله وفصله • فانه كما لا يخفى عليك بطل باسـل لا يرى الواشي سبيلا الى الطعن فيه الا من ناحية نسبه ، فاذا عمـل عملا فذا كان في ذلك مـا يسكت الناس عن التشكك في نسبه » •

وكانت هند قد سمعت مثل هذا من أمهـا من قبل فقالت : « ان ذلك يا أماه مما يوجب الفخر لنا جميعا ، وأن حمادا لا يتوقفه عـن عمل يستطيعه ، فهل قر رأيكما على شيء تقترحانه عليه » •

قالت : « لقد رأيت أن يكون في اقتراحنا ما يزين بـه رأسك فضلا عـن شرفـك » •

قالت : « ومـا هـو ؟ » •

قالت : « رأينا أن نطلب اليه أن يأتينا بقرطي ماريـة من الكعبة » • وحـكت لهـا حكايتهمـا •

فبهتت هند برهة وقد هالها ذلك الاقتراح ، ولكن أنفتها وثقتها

بحماد وبطولته هونتا عليها الامر فقالت : « لا أظن حمادا الا فاعلا ذلك باذن الله » .

قالت : « هلم ندعه الينا ونعرض عليه الامر » .

فلما سمعت كلام أمها رقص قلبها فرحا بلقياه وقالت : « استقدميه والاتكال على الله » . قالت ذلك وقد شغلها الفرح بقرب رؤيته عن تقدير تلك المهمة حق قدرها .

فنادت الخادم الذي رافق سلمان الى مقر حماد وأمرته أن يأتي به الى الصرح .

★ ★ ★

تركنا حمادا وسلمان يفكران في عبد الله وهما بين الرجاء واليأس من أمره : فقضى سلمان أياما يتردد على البلقاء وبصرى للبحث عنه فلم يقف له على خبر حتى ترجح لديه أنه سافر الى الحجاز .

وأما حماد فكان بين شاغلين عظيمين : هند من جهة وأبيه من جهة أخرى . وكلما رأى قادما ظنه رسولا من هند جاء يدعوه اليها أو منبئا ينبئه بخبر عن أبيه .

فلما كان اليوم الذي تقرر فيه استقدامه اتفق أنه أفاق في الصباح منشرح الصدر واسع الآمال . وكان قلما يصبح الا منقبضا كئيبا لما يتوالى عليه من المخاوف : تارة على أبيه وعلى حبيبته . حتى أثر ذلك في صحته فرق جسمه . على أنه كثيرا ما كان يخرج للصيد لرياضة النفس والجسم ولولا ذلك ما نجا من غائلة المرض .

فلما أصبح ذلك اليوم على ما تقدم عجب واستبشر ولبث يتوقع خبرا مفرحا وكان سلمان قد خرج من الخيمة لبعض المهام وهو على غير ما كان عليه سيده من الانشراح والاستبشار . ولكنه ما لبث أن

رأى فارسا قادمـا مسرعا نحوهم يقصد مضربهم ، فتفرس فيه عن بعد فعلم أنه من رجال صرح الغدير فتفاءل بقدومه وخف لملاقاته ، فلمـا دنـا منه عرفه ورآه يبتسم فعلم انه جاء ببشرى .

وقبل أن يصل الفارس الى سلمـان ترجل ومشى وزمام الفرس بيده ، ومشى سلمان حتى التقيا فتصافحا وتعانقا ، فـاستطلعه سلمـان الخبر فقال : جئت أدعو الأمير حمادا الى سيدتي الأميرة سعدى في صرح الغدير . لانهـا تريد أن تفضي اليه بأمر ذي بال » .

فقال سلمان : « وهل تعلم الأمر ؟ » . فابتسم الخـادم وقـال : « لا أدري ولا بد من أن تكون أعلم مني به . وأمـا أهل القصر عندنا فقد لاحظوا من بعض ما سمعوه سرا وأدركوه ضمنا ان مولاتنا هنـد ستخطب ، وكلنـا ننتظر ذلـك اليوم فانه سيكون يوما سعيدا لـم تر غسان أسعد منه ، لأن مولانـا جبلة كريم النفس سيخلع علينـا خلعـا فاخرة وينثر علينا الذهب نثرا » .

فتبسم سلمان وقال : « هل عرفتم خطيبها ؟ » .

قال : « نعم هو ابن عمها ثعلبة اذ ليس من أولاد عمها من هو أقرب منه اليها وقد طلبها ولكني علمت من بعض الخدم انها لا تحبه ولا تقبله » .

قال سلمـان : « وهل تستطيع رفض طلبه ؟ » .

قال : « لا أدري ، ويظهر أنها رفضته » . وكـان الخادم قد سمع بأمر حماد ورغبة هند فيه ، ولكنه تجاهل لئلا يقال انه باح بالسر وود أن يكون سلمان البادىء بالخبر . وأمـا سلمان فلم يعد يستطيع صبرا عـلى كتمان هذه الاخبار عن سيده ، ولكنه أراد معرفة ما دعا الى استقدام حمـاد فقال : « وهل سمعت أمرا حدث قريبا في القصر ؟ » .

قال : « لم أسمع شيئا ، ولكن سيدي الامير جبلة جاء أمس ومكث عندنا بضع ساعات قضاها في مسارة مع الاميرة زوجه ، ثم عـاد الى

البلقـاء ، وما كاد يذهب حتى دعتني سيدتي وأنفذتني اليكم » •

فأدرك سلمان أن مجيء جبلة لم يكن الا لأمر الخطبة ، وترجح عنده أنه رضي بحماد ولولا ذلك لما كان ما يدعو لاستقدام حماد عقب ذهابه فدخل على سيده فوجده متكئا على أثر عودته من صيد قريب وقلبه يطفح سرورا ودلائل الفرح ظاهرة على وجهه لسبب لا يعرفه أحد ، فحياه سلمان وهو يبتسم •

فقال له : « ما وراءك يا سلمان اني أراك مستبشرا » •

قال : « لعلها بشرى عظيمة يا سيدي » •

قال : « وما ذلـك ؟ » •

قال : « ان أهل صرح الغدير بعثوا يدعونك اليهم ، فهل تذهب أم لديك ما يعوقك ؟ » • قال ذلك وهو يضحك •

فجلس حماد وهو يظنه مازحا وقال : « لا أبـالي دعاني أهل الصرح أم لا ، فاني أراني سعيدا منذ فتحت عيني هذا الصباح » •

قال : « وما يضرك أن تتم سعادتك فان انشراح صدرك فاتحـة السعادة ، وهـذا خادم القصر قد جاءنـا فهل أدخله عليك لينبئـك بمهمتـه » •

فقال : « ليدخل » •

فدخل الفارس وهو لا يزال بلباس السفر ، فحيى حمـادا وأنبـأه بمهمته ، فقال حماد : « هل فارقتهم في خير ؟ » •

قال : « فارقتهم يدعون لسيدي الامير بالصحة والعافية ويرجون لقاءه قريبـا ليتم سرورهم برؤيته » • فاستبشر حماد بمـا وراء ذلك وقال : « أبلغهم سلامي وأننا سنصبحهم غدا ان شاء الله » •

فقبل الخادم يده وخرج ، فخرج سلمان لوداعه ودفع اليه عشرة دنانير وقال : « هذا ثمن عليق الفرس وسترى منا ما يشرح صدرك »

فسر الخادم بالهدية وبالوعد وود أن تتم خطبة هند لحماد لما ظهر من سخائه ورقة جانبه خلافا لثعلبة .

فلما سار الخادم عاد سلمان الى حماد فرآه مطرقا يفكر .

فقال : « ما بال سيدي يفكر : هل بغت لتلك الدعوة ؟ » .

فقال : « كلا يا سلسان فقد كنت أتوقع خبرا مفرحا منذ الصباح ، ولكنني أفكر في أبي ومكانه . فانه طالما تمنى أن يزوجني ويفرح بي وقد كان يجب أن يسير معنا في هذه الزيارة » .

فقال سلمان : « دع عنك الهواجس يا مولاي فقد رسخ في ذهني أن سيدي سار الى الحجاز ، فمتى آنجزنا أمرنا أذهب أنا وأظل أبحث عنه حتى آتي به باذن الله ، فهيا بنا الآن الى صرح الغدير » .

قال : « أرى أن نرحل قبل الفجر » . قال : « حسنا » .

لبثت هند تعد الساعات والدقائق منذ عاد الرسول اليها مبشرا بقدوم حماد . ولم تنم ليلتها من شدة الفرح ، فلما أصبحت ذهبت الى أمها وسألتها عن المكان الذي سيجتمعون فيه فقالت : « قد أمرت الخدم أن يعدوا غرفة الضيافة ، والا يدخلوا اليها أحدا في هذا اليوم . وأن يذبحوا الذبائح ويسدوا الاسطة » .

فلبست هند ثوبا سماويا جميلا . من صنع احدى خياطات دمشق ، ومشطت شعرها وضفرته . وجعلت تتشاغل ببعض المهام اخفاء لما ثار في قلبها من العوامل المتضاربة .

وأرسلت سعدى جماعة من أهل القصر لاستقبال حماد في الطريق ، فلما كان الضحى ودنا الوقت جعلت هند تطل من النوافذ تنظر الى ساحة الميدان التي جرى فيها السباق منذ بضعة أشهر ووراءها الآكام والغياض ، وكلما رأت غبارا أو آنست أشباحا ظنت حمادا قادما فيخفق قلبها وتتورد وجنتاها ، وعند الظهيرة رأت الغبار يتصاعد

من بعض جوانب الافق ثم بان تحته فرسان يسرعون وفي مقدمتهم فارس من أهل القصر تقدم الجماعة ليبشر بقدومهم ، فازداد خفقان قلبها . ثم شاهدت الفرسان يقتربون ويتقدمهم حبيبها حماد ملثما بالكوفية ، وكانت أمها واقفة بجانبها وقد لحظت ما هي فيه من الهيام فقالت لها : « امكثي هنا حتى أدعوك الى دار الضيافة » .

وخرجت سعدى الى الحديقة وقد ترجل حماد وبقية الفرسان ودخلوا الحديقة بعد أن تركوا جيادهم للخدم . وكان حماد ملتفا بعباءته وقد حول أطراف كوفيته عن وجهه وأرسلها على كتفيه فبانت ملامح وجهه . وتقدم سلمان بجانبه حتى اقتربا من سعدى ، فتقدم سلمان وقدمه لها ، فسلم عليها وهو يتوقع أن يرى هندا فلما لم يرها علم أن الحياء منعها من القدوم للقائه وأنها لا تلبث أن تأتي .

وسارت بهما سعدى الى غرفة الضيافة ، حيث جلسوا والخدم وقوف بين أيديهم فقالت : « هل يأذن الأمير في اعداد ما يلزم لتبديله ثياب السفر قبل تناول الطعام » . فأجاب بالشكر ، ونهض فغسل يديه ووجهه وجاءه سلمان برداء حريري وكوفية فلبسهما ، ثم جلس وعيناه شائعتان نحو الباب وكلما سمع حركة ظن هندا قادمة .

أما سلمان فانه ترك سعدى وحمادا في الغرفة وخرج يبحث عن هند ، وكان قد عرف غرفتها في المرة الماضية . فوجدها واقفة تتلهى بالنظر في أساورها وتديرها حول معصمها وأفكارها تائهة ، وقد علت وجهها امارات البغتة . فلما رآها تظاهر بالسعال ليلفت انتباهها . وكانت لعظم تأثرها مرهفة الحس ، فذعرت لما سمعت السعال ، ثم سلمت عليه ، فقال لها : « هل رضيت مولاتي عن راهب الدير جامع النذور ؟ » . فتبسمت ولم تجب .

فقال : « ها قد جئتك باللص الذي سرق الدرع : فهل تريدين

معاقبته ؟ ولكنني أرجو ألا تحكمي عليه بالسجن ! » .

فتذكرت زيارته اياها بثياب الرهبان ، فضحكت ولكنها بقيت صامتة تنظر الى معصمها ، فدنا منها وقال : « ما بالك لا تتكلمين يا مولاتي ؟ هل أذنبت لاني تركت صاحب الدرع وجئت وحدي ؟ » .

فلم تجب : ولكنه قرأ آيات السرور على وجهها فقال : « أراك تتظاهرين بأن مجيئه لا يهمك ، ولكنني أقرأ على وجهك آيات يكاد ينطق بها لسانك . اني ذاهب لادعوه اليك » .

فرفعت نظرها اليه كأنها تلومه على هذه المداعبة . أما هو فتحول عنها ضاحكا حتى دخل غرفة الضيافة فرأى سعدى وحمادا جالسين وليس هناك سواهما . فدنا من سعدى وقال : « ما بالي أرى هذه الغرفة قليلة النور كأنها بعيدة عن موقع أشعة الشمس » .

فقالت سعدى : « ألا ترى الاشعة داخلة من هذه النافذة ؟ » .

وأشارت الى احدى النوافذ .

فقال وهو يضحك : « لا أرى نورا قط ، ويظهر لي أن شمسكم تشرق من الجنوب » . وأشار الى غرفة هند ، فأدركت سعدى مراده فتبسمت وأطرق حماد خجلا . ولكنه ود لو يلح سلمان في استقدام هند . فقال سلمان : « أراكم تضحكون من كلامي ، وأراني أعلم منكم بمشرق شمس قصركم . ألا أذنت مولاتي في قدوم شمس هذا القصر بل شمس بني غسان الينا ؟ . فاني أرى الاسطلة قد مدت وكأني بكم تتهيأون للغداء ولكن الطعام حرام علينا قبل مجيء سيدتي هند فانها محور أنسنا ولا أظنك تنكرين علينا ذلك » .

فقالت سعدى : « أراك لجوجا يا سلمان ولا مأرب لك في الامر » .

فضحك سلمان وقال : « صدقت لا مأرب لي ، ولكنني أعبر عن عواطف اناس آخرين ! » . وأشار بطرف عينيه الى حماد ، فتبسم

حماد وقد توردت وجنتاه ونظر الى سلمان كأنه يؤنبه •

فالتفت اليه سلمان وقال : « يظهر انك لا تريد مقابلة فتاة غسان فاذا كان هذا مرادك فما كان أغنانا عن تكبد هذه المشاق وهجرنا الحيرة والعراق ؟ » •

فنظرت سعدى الى سلمان والرزانة والتعقل يتدفقان من وجهها وقالت : « لم ندع ولدنا حمادا الا ليرى هندا وتراه ، فانهما ولدانا ولا نجهل انهما يسران بأن يلتقيا ، فلا تكن عجولا • ان هندا لا تلبث أن تأتي وتتناول الطعام معنا » •

ثم وقفت وقالت : « ها أنذا ذاهبة لآتي بها » • وخرجت •

فلما خرجت التفت حماد الى سلمان وأراد معاتبته لما أبداه من الجرأة في خطاب الاميرة سعدى ، فقال هذا : « لولا ذلك لطال زمن الانتظار • فهل جئنا لنأكل ونشرب ؟ » •

ثم عاد حماد الى التفكير في هند وقرب مجيئها وما سيكون من أمرها ساعة اللقاء ، فما لبث أن سمع وقع أقدام علم من ازدواجها أن سعدى وهندا قادمتان ، فتحفز للقيام أما سلمان فوقف بالباب فرآهما قادمتين فتبسم ونظر الى حماد •

ثم وصلتا الى باب الحجرة فدخلت سعدى وهند تتبعها مطرقة •

★ ★ ★

وقف حماد ومشى لاستقبال هند ، ولم يجرؤ على مصافحتها ولا هي فعلت ، ولكن قلبيهما كانا يختلجان فرحا وكل منهما يتظاهر بالتجلد• فتشاغل هو باصلاح ردائه وارسال كوفيته الى كتفه ، وتشاغلت هي باصلاح قرطها في أذنها •

ثم أشارت اليها أمها أن تجلس على وسادة بالقرب منها فجلست ،

وجلس الجميع ولبثوا برهة لا يتكلمون ، وحمـــاد ينظر الى هند محاذرا • فرآهـــا قد تغيرت حالها عما كانت عليه يوم ديـــر بحيراء فذبـــل ورد وجنتيها وخف عضلها فزادها ذلك جمـــالا وهيبة • وكانت هي تختلس النظر اليه ولا تكاد تصدق ان أباها رضي به خطيبـــا لهـــا • ثم يعترضها أمـــر قرطـــي مارية فتوجس خيفـــة •

فبدأت سعدى الكلام قائلة : « ماذا تـــم في أمر أبيك ، هل التقيتم بـــه أو عرفتـــم مقره ؟ » •

فقال حماد : « لا يا مولاتـــي ؛ وقد شغل بالنا تأخره ، ولم ندع مكانا لم نسأل فيه عنه ؛ وكان العبء الاكبر في هذا السعي كله على هـــذا الرفيق (وأشار الى سلمان) فانه لم يأل جهدا في البحث والاستطلاع غير أننا لـــم نقف على خبر يقـــين » •

فقال سلمان : « ولكني أرجح ذهابـــه الى الحجاز لما سمعت من حكاية صاحب الخان » • وأخذ يقص عليهم ما سمعه من صاحب الخـــان في بيت المقدس وما كان من أمر أبـــي سفيان وجـــواد حمـــاد •

فسألته سعدى عن حكاية الاسد ، فأخذ يروي ما لقياه في مسبعـــة الزرقاء • وكانت هند مصغية الى الحديث بكل جوارحها ، فلمـــا بـــلغ الى صعودها الشجرة للنجاة من غائلة الاسد وأفاض في وصف مـــا كانا فيه من الخطر تلألأت الدموع في عينيها . فلما رأى حمـــاد منها ذلك أوشك أن يبكي لفرط ما آنس من رقـــة عواطفهـــا • ثم أتم سلمان حكايته حتى انتهى الى آخرها والجميع مصغون لا يفوه أحدهـــم بكلمة •

فلما فرغ من كلامه قالت سعدى : « يؤخـــذ من مجمل ما سمعناه ان أباك سافر الى الحجاز مع أبي سفيان ؛ فلو أنه كان باقيا في البلقـــاء لجاء للبحث عنكم بعد أن أمنه القيصر » • ثم تبسمت وسكتت كأن في نفسها شيئا تكتمه فبقي الجميع صامتين لعلها تقول شيئا • وفيما هم في

ذلك دخل بعض الخدم وسأل الاميرة سعدى : هل تأذن في مد السماط لأن وقت الغداء أزف ، فقالت : « هاتوا الطعام » • والتفتت الى حماد قائلة : « هلم بنا الى الغداء وسنتم حديثنا بعده » •

فمدت الاسمطة وجلسوا على المائدة وحماد يفكر فيما عسى أن يكون وراء تبسم سعدى ، فلما فرغوا من الطعام عادوا الى الاستراحة وجلسوا ينتظرون حديث سعدى الا هندا ، فانها لم تكن معهم لان أمها أشارت اليها أن تتخلف هنيهة ريثما يتحادثون في شأنها • فلما استتب بهم الجلوس قالت سعدى : « أظنكما تنتظران مني كلاما ظهر لكما من تبسمي الآن أني أكتمه » •

فقال حماد : « هو ذاك يا مولاتي فأتحفينا به » •

قالت : «لقد تبسمت لما اتفق من ذهاب أبيك الى الحجاز وما نحن عازمون أن نكلفك به » •

فعجب حماد لكلامها ولم يفقه مرادها فنظر اليها متسائلا وهو يقول : « اني رهن اشارتكم ، لكم الامر وعلي الطاعة » •

فقالت : « لا يخفى على ولدنا حماد أن ما عرفناه من شهامته وكرم أخلاقه يكفي لاقناعنا باستحقاقه هندا ، وأنه جدير بالحصول عليها دون ابن عمها • ولكننا معاشر العرب نحافظ على الانساب ونحترم القرابة ، ولعلكم علمتم أن الحارث بن أبي شمر قد طلب هندا لابنه ثعلبة ، وهو ابن عمها وأولى الناس بها . ولكننا آثرنا البقاء على ما أرادته هند ، ورضينا بحماد لما آنستنا فيه من كرم الاخلاق وعلو الهمة » •

فخجل حماد لهذا الاطناب واختلج قلبه فرحا لما توسمه من تحقق أمانيه فأطرق صامتا ، فقالت سعدى : « ولكن أباها رأى رأيا اذا وافق عليه حماد كان فيه دفع لتقول الناس وعتاب الاقارب وفخر لنا جميعا » •

قال حماد : « مري يا مولاتي اني رهين اشارتك » •

قالت : « رأينا أن تعمل عملا نقترحه عليك لا يعظم على باسل مثلك : فاذا فعلته قطعت ألسنة المعترضين وزدتنا اعجابا وفخرا » .

فثارت الحمية في نفس حماد فقال : « قولي يا سيدتي . اني فاعل ما تقولين ولا يثقل علي أمر ترضى به هند » .

قالت : « نقترح عليك أن تلبس هندا يوم زفافها قرطين فيهما لؤلؤتان كل لؤلؤة منهما قدر بيض الحمام » .

فقال : « لعلك تعنين قرطي مارية ؟ » .

قالت : « اياهما أعني ، هل تدري مكانهما ؟ » .

قال : « سمعت ان مارية جدتكم أهدتهما الى الكعبة منذ أجيال فهل هما باقيان هناك حتى الآن ؟ » .

قالت : « أظنهما لا يزالان هناك ، وفي الاتيان بهما من الكعبة بسالة واقتدار جديران بكم » .

فلما سمع سلمان ذلك اضطرب فؤاده خوفا على سيده ، لعلمه ان الكعبة أمنع من عقاب الجو ، وقد يستحيل الوصول اليها فقال : « هل تأذن سيدتي في كلمة أقولها ؟ » .

قالت : « تكلم » . فقال : « هل تريدين أن تلبس مولاتي هند قرطي مارية عينهما أو قرطين آخرين مثلهما ؟ » .

قالت : « لا نلتمس شيئا يقدر بالمال يا سلمان ، فاننا من نعم الله في سعة وبسطة عيش ، ولكننا نريد أن نفاخر أعمامنا بأننا لم نرض لهند الا رجلا جاء بقرطي مارية من جوف الكعبة . وهذا ما أضحكني لما سمعت حكاية الأمير عبد الله وذهابه الى الحجاز . فقلت في نفسي : ان الله قد أذن بذهاب حماد ليلتقي بأبيه هناك لأن مقام أبي سفيان في مكة حيث الكعبة أيضا » .

فالتفت حماد الى سعدى وملامح البسالة تتجلى في وجهه وقال :

« لقد طلبت أمرا ما أسهله في سبيل مرضاة هند ، ولسوف ترين منا فوق ذلك باذن الله » •

أما سلمان فاستعظم الطلب ولكنه لبث صامتا احتراما لمقام سيده • وكانت هند جالسة في حجرتها وهي تفكر فيما ستقوله أمها لحماد ، فلما تصورت الخطر المحدق بهذه المهمة ندمت لمجاراة أمها في ذلك ، وأدركت أن أمها دبرت ذلك الأمر حيلة للتخلص منه ، فعظم الامر عليها حتى بكت •

وفيما هي في ذلك دخلت الخادمة تدعوها الى أمها ، فمسحت دموعها وسارت والكآبة ظاهرة على وجهها ، فلما دخلت الغرفة ورآها حماد على تلك الحال أثر منظرها في نفسه وهاجت فيه حمية الرجال ، وقد أدرك أنها تبكي جزعا عليه فقال لها : « لا تجزعي يا هند ، انك ستلبسين قرطي مارية وتفاخرين بهما أهل الخافقين ! » •

فصمتت هند ولم تجب ، ولكن كلام حماد أثار فيها ساكن الغرام وهاج عواطفها فازدادت اعجابا بشهامته وحبه ، على أن خوفها عليه اعترض مجرى عواطفها فهبت الحرارة في جسمها كأنك كشفت الغطاء عن نار متقدة في فؤادها فانبعث لهيبها الى سائر أطراف البدن ، وتلألأت الدموع في عينيها فأطرقت وجعلت تتشاغل بأطراف أكمامها مخافة أن يظهر اضطرابها لحماد •

أما هو فلم يفته حديث قلبها ولا غفل عما تضارب في ذهنها من العوامل ، ولكنه أراد تشجيعها فالتفت الى أمها وقال : « طالما شاقني المسير الى الكعبة لمشاهدة ما أسمعه عنها من حج الناس اليها من أقطار العالم ، وكثيرا ما سمعت حديث أبي عن الاصنام القائمة فيها وما يقدمه العرب لها من الضحايا • وقد قرأت في بعض الكتب أنها قديمة البناء جدا ، وانها كانت منذ ذلك العهد يؤمها الناس من أطراف

الأرض . وقد بنيت في باديء الأمر لعبادة الله ، ثم جعلها بعض العرب مجمعا لاوثان حملوها اليها من أنحاء شتى من العالم الوثني وفي جملة ذلك صنم حملوه اليها من هذه البلاد (البلقاء) اسمه هبل ، وكان قبل أن حملوه اليها يسمى (هبعل) وهو لفظ عبراني معناه البعل أي الاله . يشبه في لغة الكلدان جيراننا بالعراق لفظ (بل) وقد حملوا اليها أصناما أخرى من مصر وأشور وغيرهما . فاجتمعت فيها مئات منها فأصبح ذلك البيت مجمعا للأصنام » .

فانتبه سلمان، وكان غارقا في تيه أفكاره خوفا على سيده . فلما وصل حماد الى حكايات أصنام الكعبة قال سلمان : « نعم ان الاصنام كثيرة في الكعبة ولكن كثيرين من عقلاء قريش لا يحترمونها . وقد سمعت كبيرا منهم يقول ذلك لسيدي الامير عبد الله في بعض سفراتنا الى مكة ، وكان مما قاله : ان كثيرين من عقلاء مكة وهم من قريش انما يزورون الكعبة لعبادة الله . وان الاعتقاد بالله قد اتصل اليهم بالتلقين من سيدنا ابراهيم . ولكن بعضهم ضل عن سواء السبيل بما زين لهم من عبادة الأوثان » .

فوجهت سعدى خطابها الى حماد وقالت : « يظهر أن أباك الامير قد سافر الى الحجاز قبل الآن » .

قال : « نعم يا مولاتي انه نزلها مرارا . ولذلك ظننا أنه سار اليها هذه المرة أيضا » .

فقالت : « ان ذلك مما يؤكد ذهابه اليها الآن فعسى أن تلتقوا به هناك » .

قال : « اني أرجو ذلك وأتمناه لتتم به سعادتي » . ثم فكر قليلا وقال : « متى تريدين مني يا مولاتي أن أبرح البلقاء ؟ » .

قالت : « متى شئت وخير البر عاجله » .

قال : « أرى أن نودع سيدي الملك جبلة قبل السفر فنلتمس

دعاءه بالتوفيق » .

قالت : « ذلك راجع اليك ، أمـا هو فقد فوض الي أن أبلغك رضاءه وما تم عليه الاتفاق ، فاذا شئت لقاءه فلا شك أنه يسر بلقياك » .

كل ذلك وهند مطرقة وعيناها تكادان تدمعان لو لـم يشغلهـا حديث الكعبة . فلمـا تحول الحديث الى أبيهـا استحسنت رأي حماد في زيارته على أمل أن يتحول عزم أبيها عن اقتراحه . فقالت : « حسنا تفعل بزيارة أبي قبل سفرك » .

فازداد حماد رغبة في ذلك فقال : « غدا نقبل على مجلس الملـك ان شاء الله فنسلم عليه ونودعه » . ثم التفت الى سلمـان وسأله : « الا تعرف الطريق ؟ » . فردت سعدى وقالت : « سنرسل رجـالا يسيرون في ركـابكم » .

وبقي سلمان منقبض النفس من أمر تلك المهمة لعلمه أنهـا شديدة الخطر لكنه سلم أمره الى الله . وقضوا بقية اليوم في صرح الغدير . ولكن هندا لم تهنأ بذلك الاجتمـاع لخوفها من الفراق العاجـل وقرب الخطر الشديد . على أنها شغلت بحديث حبيبهـا ولهت برؤيته عن كل المخاوف . فلم يكن أسعد عليها من ذلك اليـوم وودت لو أنه لا ينقضي ، ولا تسل عن حمـاد وسروره وقد سهل عليه المسير الى الكعبة أمله بلقاء أبيه هنـاك .

- ١٦ -

غزوة بدر الكبري

اصبحت هند في اليوم التالي كئيبة حزينة ، وأحست بلهفة وجزع

لم تشعر بهما قبلا • فكانت كلما نظرت الى حماد خيل اليهـا أن أحدا يحاول اختطافه منها فيضطرب قلبها وتسود الدنيا في عينيهـا ، فحدثتها نفسها لأول وهلة أن يتواطآ على رفض أمر القرطين ، ولكن الانفة وعزة النفس اعترضاها فصبرت متعلقة بالآمال •

فلما أشرقت الشمس كـانت الجياد قد أعدت لركوب حماد وسلمان الى البلقاء في صحبة بعض الفرسان من أهل القصر ، فنهض حمـاد لوداع هند وأمهـا وكانتا تنتظرانه في غرفة الضيافة ، فلمـا دخل في لباس السفر وقفت له هند وركبتاها ترتجفان فمد يده اليهـا فمدت يدهـا فأمسكها فأحس بهـا باردة كالثلج ، ونظر الى وجههـا فاذا بـه قد امتقع لونه ، فلمـا كلمهـا مودعـا تناثر الدمع من عينيهـا فجـأة وجذبت يدهـا من بين أنامله بلطف وأطرقت ولم تجب ، فعلم أنها انما فعلت ذلك خوفا عليه من هذا السفر الخطر •

فالتفت اليها مبتسما وقال : « ما بالي أرى هندا خائفة وعهـدي بها تنافس أشجع الشجعان ؟ وتسبق أمهر الفرسان ؟ » •

فنظرت اليه بطرف عينيها وتنهدت تنهدا عميقا ، ولبثت صامتـة ولسان حالهـا يقول : « ان مسابقة الفرسان شيء ومفارقة الاحبـاب شيء آخر » •

فأدرك حماد مرادها ولكنه خاف اذا طـال وقوفه أن يحرجـه الغرام فيخرجه عن وقاره ، فتحول لوداع سعدى ، ثم عـاد الى هنـد فودعها وتبسم لها ، فتبسمت مجاراة له ولكـن قلبها لم يفـرح ، فقال لهـا : « ادعي لنا بسلامة العودة فاذا عدنا كما أردنا كـان حمـاد أهلا لهند ، فـلا تخشى أن تذكره ، ولا تخجـل اذا ذكـره سواهـا • وأما اذا لم •••• » •

فقطعت هند كلامه على عجل وقالت وهي تتلجلج : « ستعود الينا

سالمـا باذن الله » • ثم غلب عليها الضعف فتناثرت الدموع من عينيها وهي تحاول اخفاء عواطفها أمام أمها •

أما سعدى فرأت من الحكمة الا تطيل الموقف فقالت لحمـاد : « سر يا ولدي في حراسة الله وهو ينيلك بغيتك على خير سبيل فتعود الينا سالمـا بعد أن تلتقي بأبيك » •

فأثنى على لطفهـا وودعها وقبل يدهـا وخرج الى الحديقة ، وكان سلمـان في انتظـارم فلما خرج مولاه وسعدى وهند تتبعانه تقدم اليهما وودعهما وهو على غير ما آنساه منه صباح أمس من انبساط أسرتـه ومجونه ، ثم أركب حمادا وركب هو وسائر الموكب وخرجوا قاصدين البلقـاء وهند وسعدى واقفتـان تنظران اليهم ، أمـا هند فلم يكـد حماد يدير عنان جواده حتى غلب عليها اليأس وشعرت بمـا دبـره أبواها للتخلص منـه ، فتحولت الى غرفتهـا وأخذت في البكـاء وجعلت تندب سوء حظها وحظ حمـاد ، فتبعتها أمهـا لتخفف عنهـا وتصبرهـا فقالت : « دعيني يا أمـاه لقد نفذ السهم وقضي الأمر ، ان حمـادا ذهب الى حيث لا يرجى رجوعه ، وقد كـان الاجدر بكم أن ترفضوه بدلا من ارساله في هذه المهمة » • قالت ذلك وهي تبكي •

فقالت سعدى : « خلي عنك الأوهـام ، ان حمادا شجـاع بـاسل وخادمه سلمان خبير قدير ، فلا يعسر عليهمـا أن يفوزا بالقرطين ، وفي ذلك فخر لك ولنا ومنجاة من أثقال ثعلبة وأبيه » •

فلمـا سمعت اسم ثعلبة تذكرت ما قاسته من مساعيه فهـان عليها مـا يقاسيه حمـاد في سبيل انقـاذها منـه فسكتـت والهـواجس تتقـاذفهـا •

أما حماد فما زال حتى أتى البلقاء وهو يظهر ارتياحه لمـا انتدب له ، وسلمان صامت لا يفوه بكلمة •

وكانت البشائر قد سبقتهما الى جبلة تنبئه بمجيء حماد ، والناس يحسبونه أميرا جاء لأمر ذي صلة بالحرب ، لأن الروم كانوا قد استنجدوا القبائل المجاورة لقتال الحجازيين .

أما جبلة فعلم أنه جاء لأجل خطبة هند ، فأذن في دخوله عليه في خلوة ، فلما التقيا هم حماد بتقبيل يدي جبلة ، فانحنى جبلة لتقبيله ثم جلس وجبلة يرحب به فقال حماد : « قد جئت يا عماه أشكرك على ما تكرمت به علي من الرضا . وألتمس دعاءك في ذهابي الى مكة فاني شاخص اليها على عجل » .

فقال جبلة : « رافقتك السلامة في المسير والاقامة ، وجعل الله مسيرك سعيدا ولا حرمك مما تريد ، ولكنني أوصيك يا ولدي بأن نبقي ما دار في شأن هند مكتوما حتى تعود فرارا من مشكلات قد تحول دون ما نحن ساعون فيه » .

فأدرك حماد مراده فوعده بالكتمان ثم قال : « معي خادم بل هو رفيق يود تقبيل يديك قبل السفر لأنه سيرافقني ويكون عونا لي ، فهل يأذن مولاي في مثوله بين يديه ؟ » . قال : « ليدخل » .

فخرج حماد ثم عاد وسلمان معه ، فتقدم سلمان الى جبلة وقبل يده ، ولبثوا هنيهة يتحدثون فيما لم يخرج عن الموضوع من تشجيع حماد وتحبيب الامر اليه . ثم نهض حماد وسلمان وودعا جبلة وخرجا يقصدان الى خيمتهما عند الشيخ النبطي وكل منهما في هاجس .

أما سلمان فلم يكن راضيا بما رآه وسمعه ، ولكنه رأى حمادا اضيا به مصمما على تنفيذه ، فلم يشأ تثبيط همته ، وعزم في سره على بذل جهده في عونه الى آخر نسمة من حياته .

★ ★ ★

وصل حماد وسلمان الى الخيمة في المساء ، وكان صاحبها النبطي قد استبطأهما لغيابهما يومين كاملين ، فلما عادا رحب بهما فنزلا وهما يفكران في السفر والاستعداد له وابتاع سلمان جملين لحمل الماء والثياب والزاد ، ثم سألا الشيخ النبطي عن رجل خبير بالطرق يرافقهما الى مكة بأجر يرضيه ، فسألهما عن سبب السفر فانتحلا سببا أقنعه فقال : « أدلكما على رجل من أهل يثرب التي جاء منها الحجازيون الذين سيخرجون هذه البلاد من أيدي بني غسان ، وقد جاءني بالامس في مهمة من أمير من أمراء ذلك الجيش فدللته على بعض الاماكن التي يتزودون منها ، وسمعته يقول انه لا يلبث أن يعود الى بلده فاذا رافقكما اليها كان لكما خير رفيق ، ومتى وصلتم الى يثرب سهل عليكم الذهاب الى مكة » .

فقال سلمان : « يبدو لي ان صاحبك هذا من أتباع صاحب الدعوة الاسلامية بالمدينة ؟ » .

فقال : « نعم هو مسلم ، وقد جاء مع الحملة الى عمان وسيعود في مهمة فهل استقدمه اليكم ؟ » .

قال سلمان : « استقدمه » . فخرج من الخيمة ونادى : « أبا سعيد » . فسمعوا صوتا يقول : « لبيك يا أخا العرب » . ثم عاد مضيفهما النبطي فناداه بقوله : « هلم الي » .

فجاء بدوي طويل القامة عريض الكتفين خفيف اللحية قارب الأربعين من العمر ، وكان عاري الرأس والقدمين ، ملتحفا شملة من نسيج أبيض تغطي بدنه فيلف بعضها حول عنقه ويترك منها زائدة ينشرها على رأسه اذا اشتد عليه الحر .وفي يده رمح ونبلة .

فلما رآه سلمان عرف من شكل ملابسه وملامح وجهه أنه حجازي من أهل المدينة ، فلما وصل أبو سعيد الى حماد بهره ما عليه من اللباس الفاخر من الخز والديباج والحرير فعلم أنه أمير

ولكنه ظنه من أمراء غسان فلم يهش له فابتدره النبطي قـائلا : « ان الأمير ليس من غسان كما ظننت ، بل هو من العراق فلا تنقبض نفسك لرؤيته » •

فقال أبو سعيد : « وماذا عليه أن يكون غسانيا ، فاننا تجـاورنا في منزلك فنحن أخوة » •

فقال حماد : « بورك فيك يا أخا العرب ممن أنت ؟ » •

قال : « من أهل يثرب » •

قال سلمان : « ان أهل يثرب أكثرهم من اليهود » •

قال : « نعم فيها كثير منهم فهل قدمتها قبل الآن » •

قال : « نعم جئتها منذ عشر سنوات » •

قال : « لقد تغيرت حالها باشراق نور الاسلام » •

فقال سلمان : « هل نبي الاسلام منكم أم من قريش في مكة ؟ » •

قال : « ليس منا ولكننا قمنا بنصرته وفتحنا له صدورنـا ومنازلنا فهو يقيم بمدينتنا وقد سمانا الأنصار » •

قال سلمان : « اذن أنت ذاهب الى المدينة ؟ » •

قال : « نعم والى أين أنتم ذاهبون ؟ » •

قال : « الى مكة فهل ترافقنا اليها ؟ » •

قال الرجل : « يا حبذا لو كان ذلك في الامكان » •

فقال سلمان : « هل يمنعك بعد المسافة ؟ أم أنت سائر في مهمة عاجلـة ؟ » •

قال : « اني ذاهب في مهمة عاجلة ، ولكن هذا لا يمنعني من السير الى مكة لو لم يكن أعداؤنا فيها بالمرصاد » •

فقال سلمان : « وأي الاعداء تعني ؟ » •

قال : « أعني أهل قريش أعمام نبينا فانهم لا يزالون يتربصـون

للفتك به ، وهو انما جـاء المدينة مهاجرا فنصرنـاه كما قدمت ، وقد تبعه اليها نفر من ذوي قرباه . أمـا الباقون فـلا يزالون في مكـة وقد تحالفوا على عدوانه وفي مقدمتهم أبو سفيان الامير التاجر الشهير » .

فقال سلمان في نفسه : « هذه مشكلة لم تكن في حسبانـنـا » . وتصور أن في الطريق بين المدينة ومكة خطرا لمـا بين أهل البلدين من العداوة ، فنظر الى المدني وقال : « هب أننا تركناك في المدينة فهل في طريقنا الى مكة خطر ؟ » .

قال : « لا خطر عليكم اذا سرتم في الطريق المعبد ولو كنتم من دعاة الاسلام مثلنا لكان عليكم خطر ، ولكنكم غربـاء سائرون في سبيلكم . ولعل الافضل أن تسيروا في قافلة لانكم تكونون في كثرة فلا خـوف عليكم باذن الله » . قال ذلك وصمت وأطرق كأنه يفكر في أمـر طـرأ عليـه .

فنظر سلمان الى حماد يستطلع رأيه بعد ما سمعاه من ذلك اليثربي فقال حماد : « أرى أن نرافق الرجل الى المدينة ثم ننظر ما يكون مـن أمرنا » . ثم التفتا الى الرجل فاذا هو مطرق ينكث الارض بابهـام رجله فابتدره سلمـان قائلا : « ما بال أخي قريش مطرقـا يفكر ، هل من رأي جديد جال في خاطره ؟ » .

قال : « لم يخطـر لي رأي جديد ، ولكنني تذكرت أمرا ذا بال أظنه يهمكم » .

فقال سلمان : « وما ذلك ؟ » .

قال : « تذكرت حديثا سمعته في معسكرنا بعمان فاذا صح اننـا سنقصد الى مكة قريبا فانكم تصلونها آمنين مطمئنين » .

فلم يدرك سلمان كنه كلامه فقال : « وماذا تعني بقصدكم الى مكة » .

قال : « ان نبينا سيحمل على مكة برجاله فيفتحها ويحطم أصنامها

فتصير في حيازتنا ، فاذا دخلتموها كنتم آمنين » .

فقال : « وهل أنت واثق من هذا الخبر ، وهل تسيرون اليها قريبا ؟ » .

قال : « اني واثق بصدق الرواية ، ولكنني لم أتحقق الموعد المضروب لغزوها . على أننا سنعلم جلية الامر متى وصلنا الى المدينة فهلم على الاستعداد » . قال ذلك وذهب .

فنظر سلمان الى حماد وقال له : « لم يسرني الخبر كثيرا لأن وصولنا الى الكعبة وبحثنا فيها عن القرطين قد يكون أسهل علينا قبل أن يفتحها القوم » .

فقال حماد : « لا أرى رأيك اذ ربما كان لنا بعد الفتح سبيل أسهل وطريق أقرب ، وسنرى ما يأتي به الغد فعليك الآن باعداد حاجات السفر من الجمال والمياه والزاد وعلى الله الاتكال » .

فقال سلمان : « أرى أن نركب جوادينا ونأخذ جملين لحمل الماء والزاد ، على أن يكونا ذخرا لنا لان الجمال أصبر على العطش من الخيل » .

★ ★ ★

وفي صباح اليوم التالي جاء سلمان بجملين وخادمين وحملوا ما خف وغلا وتركوا ما بقي من الثياب وغيرها عند الشيخ النبطي وساروا يطلبون الحجاز .

وما كاد ركب حماد يتوغل في الصحراء بعد مغادرة البلقاء حتى حس بالوحشة وتمثل له خطر المسير ، وتحقق صدق مخاوف سلمان ، ولكنه تجلد وألقى اتكاله على الله .

وبعد مسير بضعة أيام أشرفوا على جبال المدينة فقال اليثربي :

« ها قد صرنا على مقربة من يثرب ولا نلبث أن نشرف عليها » .

فقال سلمان :« اني أعرف المدينة وطرقها فقد أتيتها منذ أعوام » .

فقال اليثربي : « اذا أشرفت عليها فسترى فيها تغييرا طرأ عليها بعد نزول النبي فيها ، فقد بنيت فيها المنازل وكثرت البيوت وتعدد السكان لكثرة من هاجر اليها من أصحاب الرسول وغيرهم » .

وبعد هنيهة أشرفوا على المدينة فاذا هي في منبسط من الأرض تحيط بها البساتين والغياض . فقال اليثربي : « هذه يثرب فهل تنزلانها ريثما تصطحبان رفيقا الى مكة أو تريان رأيا آخر ؟ » .

قال حماد : « أرى النزول هنا لأشاهد المدينة وأهلها وأرى صاحبكم وأصحابه بعد ما ملأت أذني من أحاديث أوصافه وغزواته » .

فانحدروا حتى ساروا على مقربة من السور لا يستغشهما أحد اذ رأوا معهما أحد الانصار وظنوا أنهما جاءا يعرضان اسلامهما على النبي لكثرة من كان يفد على المدينة من القبائل في تلك الايام ، وأكثرهم يجيئون ليدخلوا في الاسلام .

فلما دنوا من السور قال سلمان : « أرى ان نضرب خيامنا هنا فنستريح بعض الوقت ، ثم نترك دوابنا ومضربنا في عهدة الخدم وندخل المدينة خفافا » .

فقال اليثربي : « أما أنا فلا بد من دخول المدينة الساعة لانجز مهمتي فعسى أن نلتقي هناك » . فقالا : « سر في حراسة الله » .

فلما خرج التفت سلمان الى حماد وقال : « أراك راغبا في دخول المدينة ؟ » : قال : « نعم » .

قال : « ولكني لا أرى ذلك » . قال : « ولماذا ؟ » .

قال : « لأننا لم نترك البلقاء ونتجشم الاسفار لنقيم بهذا المكان ، هذا الى أننا نتعرض للخطر اذا دخلنا المدينة » .

فقال : « وأي خطر علينا من ذلك ؟ » .

قال : « أخاف أن يرانا هنا أحد من عيون أبي سفيان فيحسبنا من المسلمين فيعرقل مساعينا » .

قال : « اذا رأينا أبا سفيان قلنا له : « ان عبد الله أبي ، وقد نرى أبي معه فنأمن الخطر » .

قـال : « لو كنا على يقين من وجود مولاي أبيك عنده لهـان علينا العسير » .

فلبث حماد برهة يفكر فتذكر أبـاه وخطيبته وحاله فرغب في اتمـام مهمته بالمسير الى مكة فقال : « أراك مصيبا فالاجدر بنا أن نسير الى مكة لنبحث عن القرطين فاذا ظفرنا بهما سهل علينا كل أمر آخر » .

وكـانت الشمس قد مالت الى الاصيل فـأرسلا خادما يبتاع زادا وعلفا فعاد عند الغروب ، فأكلا وأطعما الجملين والجوادين ، وباتوا تلك الليلة ، ثم أصبحوا في الغد فملأوا القرب وركبوا يريدون مكة . وكان سلمان لا يعرف الطريق اليها ولعله كان يعرفها ونسيها ، ولكنه كـان لا يزال يذكر طريقا تؤدي الى مكة عن طريق آبار بـدر غربي المـدينة ، فرأى أن يقصدوا الى تلك الآبار ليبيتوا عندها ثـم يملأوا قربهـم ويتجهوا الى مكة . أمـا حماد فلم يكن يعلم شيئا عن تلـك الطرق وكان اعتماده على سلمان في كل شيء . وساروا طول ذلـك النهـار سيرا بطيئا لعلمهم أن الآبـار غير بعيدة عنهم وأنهم بائتون هناك لا محـالة ، فلمـا كانت الظهيرة حطوا رحالهم للاستراحة فحلوا الاحمـال وجلسوا للطعـام ثم توسدوا العشب تحت شجرة كبيرة واشتغل الخـادمان برعاية الجملين .

وعند العصر استيقظ حماد وسلمان فلم يريا الجملين ولا راعيهما فبغت سلمان ونهض فنظر الى ما حوله فرأى كل شيء في مكـانه كمـا

فارقه ، فأخذ يتشوف لعله يرى الجملين والخـادمين ، فلم ير آثـار ولكنه رأى أثر خفاف الجملين على الرمال فهم بتتبعـه وقال لحمـاد : « تربص هنا ريثمـا أرى ما تم لهما » . فمكث حماد وسار سلمان حتى غاب عن النظر ، ثم مالت الشمس الى المغيب ولم يرجع سلمان ، فقلق حماد كثيرا وخاف أن يدركه الظلام وهو وحيد في تلك الارض .

وفيما هو ذلك رأى أشباحا تقترب ، فتفرسها فاذا هي ثلاثة من الابل ومعهما الخادمان وسلمان ، فعجب للجمل الزائد فلمـا وصلوا استطلعهم الخبر . فقال سلمان : « أرأيت هذه الناقة ؟ » .

فنظر حماد اليها فاذا هي مشقوفة الاذنين فعجب لحالهـا وقـال : « ما خبرها وما الذي جرى لها ؟ » .

قال : « هذه الناقة التي يسميها الحجازيون (البحيرة) فـان من عاداتهم التي أخذت تتلاشى بعد ظهور الاسلام ان الرجل منهم اذا ولدت ناقته خمسة أبطن وكان الاخير ذكرا بحر أذنها أي شقها وأطلق سراحها لا يمنعها من ماء ولا مرعى فكان خادمينا رأيا هـذه الناقة سائبة فأرادا أخذها فهم بها احدهما فنفرت منه فظن أنه اذا ركب أحد جملينا أدركها فتعقبها عليه فلم يدركها ، واستبطأه رفيقه فركب الجمل الآخر ولحق به حتى لحقت أنا بهما فرأيتهمـا قد عقلاها بعد جهد شديد فوبختهما على ما فعلا فوعدا بألا يعودا الى مثل ذلك مرة أخرى » .

★ ★ ★

عجب حماد لحكاية البحيرة ولكنه أسف لضياع الوقت حتى دنـا المغيب ولم يصلا الى الآبـار فقال : « أرى يا سلمان أن تترك هذه الناقة وشأنها لأننا لسنا في حاجة اليها ، وهيا بنا نكمل سيرنـا لكي ندرك الآبار ، فهل نحن بعيدون عنها ؟ » .

فقال سلمان : « أننا على مقربة منها فهلم اليها » . وركبوا جميعا وساروا يقطعون السهول والاودية حتى خيم الغسق وقد نفــد مــاؤهم ولمــا يصلوا الى الآبــار ، فقلق سلمان وخاف أن يكون قد ضل الطريق ، فساق جواده الى أكمة أطل منها على منخفض علم مما يحيط بــه مــن الجبال أنه المكــان المقصود ولكنه لم يستطع توكيد ذلــك لبعد المكان وظلامه ، فعاد الى حماد وأنبأه بما كان فاتفق رأيهمــا على أن يتركــا الخادمين والجملين هناك ويسيرا على الفرسين ليتفقدا المكان فاذا كــان هو بعينه شربــا وسقيا الفرسين لان الخيل لا تصبر على العطش ثم يناديان الخــادمين .

فهمزا الجوادين فسارا في أرض وعرة والجو هادئ لا يسمع فيه غير وقع الحوافر على تلك الصخور ، وكــان الظلام آخذا في الاشتداد ولكن القمر أرسل أشعة ضعيفة تبشر بقدومه قبل طلوعــه فلمــا وصلا الى قمة الجبال المحيطة بمكان الآبار أخــذا في الانحــدار وهمــا ينتظران طلوع القمر بفارغ الصبر ليساعدهما على تعيــين المكان ، فوصلا الى منبسط الوادي ونظرا الى ما حولهما فاذا همــا في واد مظلــم تحف به الجبال في أكثر جهاته لا يسمع فيه صوت ولا يهب فيــه نسيم ، وكــان القمر قد طلع لكن أشعته لم تكن قــد أنارت أسفل المكــان بعد ، فتحقق سلمان أنها آبــار بدر ، ثم استنار الوادي فتأمله سلمان فاذا هو بعينه ورأى الامــاكن التي كــانت تقام بهــا السوق كل عام ، وكــانت تجتمع اليها القبائل للبيع والشراء والاخذ والعطــاء ، ولكنــه آنس في المكــان وحشة وكــآبة كأنه هجر منذ أعوام ، ثم خطــر له أن الليل يريه ذلك فأخذ يبحث عن موقــع الآبــار وحماد في أثناء ذلك صــامت لا يبدي حراكــا .

وترجلا عن الفرسين وسارا يقودانهما وقد تهيبا وندمــا على تلك

المخاطرة ، وكـان سلمان أعظمهما ندما لانه ساق سيده الى الخطـر ، ولكنه تجلد وسار وحماد الى جانبه لا يتكلمان حتى وصلا الى حفـر متفرقة فاستترا وصاح سلمان : « هذه هي الآبار قد أدركناها » . وكانا قد أعـدا دلوا يستقيـان به فألقى سلمان الدلو فسمع صوتـه يصدم قعر البئر فأزعجه ذلك ، ثم ما لبث أن سمع حركة ورأى حيوانـا وثب من البئر وفر فتأمله فاذا هو يشبه الثعلب أو الكلب فازداد استغرابـه وبغت حماد وقال : « ما هذا يا سلمان أيخرج من الآبار ثعالب ؟ » .

قال : « لقد دهشت لهذا الاتفاق . ان المكـان هو هو بعينه وقد نزلت فيه منذ بضع سنوات وشربت من مائه ورأيت الناس يستقـون منه ، فلا أدري ماذا جرى له وتحدثني نفسي بأن أنزل الى هـذه البئر فاني أراها غير عميقة لعلي أستطلع من أمرها شيئـا . فنزل قدمـا ثم الثانية حتى أدرك القعر فأحس كأنه واقف على عظـام فمد يده وأمسك العظـام بيده فاذا هي مدفونة كلها أو بعضها بالتراب وأخرج شيئـا منها فتصاعدت منها روائح كريهة ولمس عظامـا طويلـة ومستديـرة وكروية على أشكـال شتى فاقشعر جسمه اذ وجدهـا عظام آدميـين فصعد مسرعا وقد هاله الموقف ، ولم يشأ أن يخبر حمـادا بذلك لئـلا يخاف ، وتاقت نفسه الى استجلاء حقيقة أمر هذه الجمـاجم والعظـام ولكنه كتم ذلك وأوعز الى حماد أن يعود ، فعاد حماد وهو ينتظـر أن يسمع شيئا جديدا فلم يفه سلمـان بكلمة ، وظلا سائريـن في ذلـك المنخفض وحمـاد ينتظر حديث سلمان وسلمان يفكر في غريب ما رآه والليل هادىء لا يسمع فيه الا صوت وقع الحوافر . فلمـا أبطأ سلمان في الحديث هم حماد بالسؤال عما رآه واذا بصوت جمل يهدر عن قرب ، فوقفا وأنصتا ليعرفا جهة الصوت فاذا هو جمل منحدر من أعلى الجبـل من الجهة التي جاءوا منها أولا ، فظناه أحد الخادمين قادما بخبر جديـد

فلبثا واقفين ينتظران ما يكون ، فاذا بالراكب في لباس غير لباس الخادم فتأملاه فاذا هو رفيقهما اليثربي ، فلما دنا منهما ناداهما فعرفا صوته وأجابه سلمان فتعارفوا .

فلما وصل اليثربي اليهما قال : « ما الذي جاء بكما الى هذا المكان ؟ » .

قال سلمان : « جئنا نلتمس الماء » .

قال : « أتلتمسون الماء في هذا المكان وقد أصبح مجمعا للرمم ومعرضا للجيف ؟ » .

قال سلمان : « قد كنت أعرفه مستقي فيه ماء عذب ، ولكني عجبت اذ رأيت الجماجم فيه ولمستها بيدي » .

فبغت حماد لذلك وقال : « أحقا ما تقول يا سلمان ؟ » .

قال : « نعم يا مولاي قد لمست الجماجم والسواعد والافخاذ بيدي وكتمت ذلك عنك لئلا تتهيب » .

قال حماد : « الآن عرفت سر سكوتك بعد نزولك الى قاع البئر » .
ثم التفت الى اليثربي وقال : « ما الذي حول هذا الماء الى رمم وعظام ؟ »

قال : « ان لذلك خبرا طويلا فسأقصه عليكما متى جلسنا ، فقد جئتكما بالماء ووضعته عند الخادمين وراء هذه الأكمة ، وقد تستغربان مجيئي اليكما في هذا الليل على غير موعد ، وأما السبب في ذلك فانني كنت في انتظاركما اليوم عند باب المدينة فلما استبطأتكما جئت أتفقدكما فلم أجدكما ، وعلمت من قرائن مختلفة انكما سرتما الى هذه الآبار ، ولما كنت عالما بجفافها حملت اليكما قربة ماء وسرت أقص أثركما حتى جئت اليكما على عجل كما تريان » . قال ذلك وأشار اليهما أن يتبعاه فركبا وسارا معه متهيبين المكان بعد ما علما من أمره ، حتى وصلوا الى

أعلى الوادي ورأوا الخادمين ، وكانا في انتظارهم ، فلما وصلوا ترجلوا جميعا وجلسوا فتناولوا الطعام وشربوا وسقوا الخيل والجمال ، وسلمان وحماد ينتظران سماع الخبر بفارغ الصبر .

فلما استتب بهم الجلوس قال حماد : « أراني في شوق وقلق لأعلم خبر هذه الآبار » .

فقال اليثربي : « ان خبرها غريب يطول شرحه ، فاذا أردتم قصصته عليكم الليلة ، وألا ففي الغد » .

فصاحا معا : « بل تقصه علينا الليلة ، فالليلة مقمرة وقد تاقت نفوسنا الى السمر » .

قال : « اني راغب في رواية القصة لانها تظهر كرامة نبينا وبها يفتخر المسلمون كما ستسمعون » .

ثم جلسوا وأخذ اليثربي يقص حكايته وحماد وسلمان منصتان والجمالان يتطاولان عن بعد يستمعان أيضا .

★ ★ ★

قال اليثربي : « اعلموا اني أقص عليكم خبر أعظم غزوة في الاسلام ، وقد شهدها رسول الله بنفسه منذ نحو خمس سنوات ، وكنت في المحاربين فرأيت وسمعت ما تشيب لهوله الاطفال » .

فقال سلمان : « ومن قاتلتم هناك ؟ » .

قال : « أهل من أقرباء الرسول » .

قال : « وكيف يكونون أقرباءه ولا يقومون لنصرته بل يعادونه ؟ »

قال : « ان لذلك خبرا طويلا لا أستطيع بسطه الليلة ، ولكنني أوجزه تمهيدا لذكر وقعة بدر التي نحن في صددها فأعيروني سمعكم » .

قال : « كلنا آذان تسمع » .

فقال : « لما قام نبينا يدعو الناس الى الاسلام لم يجبه الا نفر من قريش ، وظل أعمامه وأكثر ذوي قرباه على دين آبائهم ، وأكثرهم انما رغبوا عن هذا الدين القويم خوفا على تجارتهم أن تكسد ، لما في تأييد الاسلام من احتقار الاوثان وابطال عبادتها ، فينحط قدر الكعبة فيقل الحجاج اليها . ومعايش قريش وأهل مكة من التجارة ، ولا تجارة الا بالحجاج ، فضلا عما يتمتع به القريشيون من السيادة ببقاء أصنام الكعبة فانهم حجابها ولهم بذلك فخر وسؤدد . فلهذه الاسباب وغيرها أصرت قريش على مقاومة نبينا . ولكنه لم يحرم أنصارا شدوا أزره وصدقوا دعوته ، ومنهم جماعة من خيرة قريش وكبار رجالها . على أنهم لم يستطيعوا حمايته من الأذى فهاجر وهاجروا معه الى مدينتنا يثرب التي كنا بالقرب منها أمس ، فاستقبلناه مرحبين ونلنا بقربه الشرف العظيم .

« ويثرب واقعة في الطريق بين مكة والشام فمن أراد تجارة أو سفرا بينهما كان حتما عليه أن يمر بها ، فأخذ النبي من يوم نزوله المدينة يجمع أصحابه الذين هاجروا معه وهم المهاجرون ، والمدنيين الذين ناصروه وهم الانصار ، ويخرج بهم للغزو أو يرسلهم لذلك ، فكلما سمع بقافلة لقريش قادمة من الشام أو غيرها بتجارة أو أموال خرج برجاله لغزوها فاذا أصاب مالا وزعه على أصحابه » .

« ففي السنة الثانية للهجرة كانت وقعة بدر الكبرى ، وسببها ان أبا سفيان بن حرب رجل قريش وأكبر زعمائها كان قادما من الشام في ابل لقريش عليها أموال كثيرة ومعه ثلاثون رجلا أو أربعون من قريش ، وكلهم من أعداء الاسلام ، وفيهم عمرو بن العاص . وكانت آبار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام للاستقاء في طريقها الى مكة ، فلما علم رسول الله بمروره انتدبنا للخروج عليهم ، فعلم أبو

سفيان بذلك فأنفذ بعض رجاله الى مكة يستنفرون الناس الى الآبـار لحماية أموالهم ، فكان الرجل منهم اذا وصل الى مكة وقف على بعـيره وقد جدعه وحول رحاله وشق قميصه وهو يقول : (يا معشر قـريش ، اللطيمة اللطيمة ، ان أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أدري هل تدركونها ، الغوث الغوث) • فتجهز القرشيون سراعا لـم يتخلف من اشرافهم الا من عجز عن المسير ، فبلغ عدد السائرين ألف رجل ومائة فرس وسبعمائة بعـير ، وأمـا رجالنا فكان عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا وسبعين بعـيرا وفرسين • فسار رجالنا من المدينة يتقدمهم النبي حتى وصلنـا الى مكان اسمه الصفراء ، فبعث من يتجسس خبر أبي سفيان فقيل له انه بالقرب من بدر ، فتجمعنا في مجلس وجمع أصحابه المهاجرين معنا وشاورنا جميعا ، وكان قد استطلع قوة العدو وأطلعنا عليها وقـال للمهاجـرين : (ما تقولون هل نحاربهـم ؟) • فوافقوا جميعا بصـوت واحد وقلب واحد ، ثم سأل الأنصار فقلنا : (والذي بعثك بالحـق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك ، ومـا نكره أن تلقى العدو بنا غدا لعل الله يريك منا ما تقر به عينـك ، فسر بنـا عـلى بركة الله) • فلما سمع كلامهم أثنى عليهم وسار وسرنـا جميعـا ، وكان أبو سفيان قد نزع الى الخديعة أثناء تلك الفترة ، فسار من يمـين الآبار حتى تجـاوزها والعير معه ، فلقي رجـال قريش في مكـان يقـال له الجحفة ، فخاطب أشراف قريش قائلا : « هذه العير والاموال قـد نجت فارجعوا الى مكة • وكـان بين أولئك رجـل اسمه أبو جهل لعنة الله عليه فأبى الا أن يمر بالآبـار ، فساروا حتى دنوا من الوادي ، أمـا نحن فسرنا نطلب الآبـار ، فنزلنا عندها ومنعنا الأعـداء منها فتقدم زعيم الأنصار منا وهو سعد بن معاذ وقال : (يـا رسول الله نبني لـك عريشا من جريد فتكون فيه وتترك عندك ركائبك ثم نلقي عدونـا ،

فان أعزنا الله وأظهرنا عليهم كـان ذلك ممـا أحببناه ، وان كانت الاخرى جلست على ركـائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنـك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقي حربا ما تخلفوا عنك ، فيمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك) . فـأثنى الرسول عليه خيرا ، ثم بنينا له عريشا ، وبعد قليل رأينـا غبار قريش وظهـر رجالهم وفرسانهم وعليهم العدة والسلاح يتقدمهم أمراؤهم في أفخـر اللباس ، وكـانوا أهل بذخ وترف وقد أخذتهم الخيلاء والفخر ، فلما دنوا منا عسكروا أمامنا ، ثم أرسلوا رجلا منهم ليقدر عددنـا فجـال بفرسه قليلا وعاد فأنبأهم بقلة عددنـا ، فتشاوروا في الأمر طويـلا وفيهم من يشير بالرجوع ، وكـانوا بين أن يرجعوا أو يهاجموا لان المـاء في حوزتنـا فاذا لبثوا مكـانهم هلكوا عطشا فعظم عليهـم الرجـوع لكثرتهم وقلتنـا ، فأقروا الهجوم فخرج منهـم أفراد طلبـوا البراز فبارزناهم فقتلنا بضعة من كبارهم ، فهجم آخرون منهم وهجم بعض منـا والتحم الفريقان وكـان يوما عظيما خاف فيه المسلمون خوفا شديدا لمـا رأوا من قلتهم ، وقد سمعت رسول الله يقـول وقد رأى احتدام الحرب : (اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهـل الاسلام لا تعبد في الأرض ، أللهم انجز لي ما وعدتني) . قـال ذلـك وهو ينظر الى رجاله ويدعو لهم بالنصر ، وقد سمعت دعاءه بأذني لأني كنت في جمـاعة من الأنصار مع سعد بن معاذ واقفين ببـاب العريش نحرس رسول الله خوفا عليه من كرة العدو . ولقد رأيت ما كـان من فتك المسلمـين بالمشركين مما ينشرح له الصدر ولا سيما لمـا رأيت أبا جهل زعيم القرشيين مجندلا يختبط بدمه ، وكـان أشد الناس عداوة لنبي الله ، ورأيت غيره من أمرائهم مقتولين ، ومنهم حنظلة بن أبي سفيان ، وشيبة ، وعتبة ، وأمية ، وغيرهم ورأيت أشد المسلمين فتكـا في ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب

عم الرسول ، فقد رأيتـه يخترق الجماهير وفي صدره ريشة نعـامة يمتاز بهـا من غيره .

« ومن غريب ما شاهدته من بسالة المسلمين في ذلك اليوم وتفانيهم في نصرة الاسلام أن معاذ بن عمر بن الجموع كر على أبي جهـل وكـان محاطـا بزمرة من رجاله فاخترق الناس اليه فضربه ضربة أصـابت ساقه فهجم عكرمة بن أبي جهل على معاذ بضربة قطعت يده فطرحتهـا عـلى عاتقه ولكنهـا ظلت معلقة ، فما زال معاذ يقاتل كل ذلك اليوم ويـده تجر وراءه فكنت أنظر الى يده وأشعر كأن يدي في مثل ذلـك أمـا هو فلم يكن يبالي ، فلمـا آذته يده وعـاقته عن الحرب جعل رجله عليهـا وتمطى حتى انفصلت فتركها وعـاد الى الحرب . وكـان في المشركـين العباس بن عبد المطلب فانـه كان لا يزال مترددا بـين الاسلام وبـين ما كـان عليه أجداده . فلمـا حمل القرشيون على بدر حمل معهم مكرها فأسر فيمن أسر ولكن أسره لم يطل لأن النبي أمر باطلاق سراحه .

« ولم يمض الا القليل حتى رأينا المشركين لاذوا بالفرار فأسرنـا جماعة كبيرة منهم ، ولمـا انقضت الحرب أمر رسول الله أن يؤتـى بجثث القتلى الى القليب فجيء بها فتكومت كومـا وفيها جثث نخبـة أمراء قريش وهي التي رأيتم بقاياها في الآبـار الليلة ثم جمعت الغنـائم ففرقت فينا وحملت بشائر النصر الى المدينة وأخبار الويل الى مكـة ، وقد كانت هذه المعركة قاضية على مشركي قريش اذ قتل فيها جماعة من ألد أعداء الاسلام وأشدهم بطشا ومنهم أبو لهب عـم الرسول وكـان شيخـا كبيرا لم يحضر الحرب فلمـا بغته نكبة القرشيين اشتد الامر عليه فمات بعد تسعة أيـام ، وأصبح أبو سفيان زعيم القرشيين بعد هـذه المعركة وهو كثيرا مـا يسير الى الشام فلعلكم أن تكونوا رأيتموه هناك » .

فقال سلمان : « نعم رأيته غير مرة وهو أشهر من أن يذكر » .

فقال : « وسترونه قريبا عند وصولكم الى مكة فانه عاد اليها منذ أسابيع » .

فلما سمعا ذكر أبي سفيان ظنا أن يكون عبد الله معه ولكنهما كتما ذلك ، ثم قال اليثربي : « وأصبحت الآبار بعد تلك المعركة مهجورة وقد ألقوا الجثث فيها فانتنت . وبطل موسمها السنوي من ذلك الحين ، وهذه هي حكاية الآبار فاشكروا الله على أنكم لم تلقوا فيها وحشا ضاريا ، فلنبت الليلة هنا ولنعد في الغد الى المدينة نمكث يوما ، ثم تسيروا منها في قافلة الى مكة والا فاختاروا لأنفسكم » .

فأعجب حماد بشهامة ذلك الرجل وغيرته عليهم ورغبته في انقاذهم وقال : « اننا والله شاكرون لحسن صنيعك جزاك الله خيرا ، وقد يجدر بنا بعد هذا الصنيع أن نكون طوع بنانك نسير معك حيثما سرت ، ولكننا نرى سرعة المسير الى مكة لعلنا نلتقي فيها بأبي سفيان قبل خروجه منها » .

فقال اليثربي : « لعلكم تتجرون معه فان له تجارة واسعة مع أهل الشام ؟ » .

قال سلمان : « لا تجارة بيننا وبينه ، ولكننا نبحث عن صديق لنا سار معه من بيت المقدس » .

فقال اليثربي : « أنصح لكم نصيحة صديق مخلص لا يريد بكم غير الخير فهل تنتصحون ؟ » .

قال : « نعم ويكون لك الفضل علينا » .

قال : « أنصح لكم اذا لقيتم أحدا من المسلمين في المدينة أو غيرها ، وعرض ذكر أبي سفيان ألا تذكروا علاقة بينكم وبينه ، فان ذلك يوقع عليكم شبهة وربما يلحق بكم ضررا » .

فقال سلمان : « لقد أخلصت النصيحة وأردت بنا خيرا فشكرا لك

علي ذلك ، على أننا لم نقل اننا أصدقاؤه وانمـــا قلنا ان صديقنا سار برفقتـــه » •

فقال اليثربي : « مهما يكن من الامر فقد نبهتكم » •

قال حماد : « هذا ما نشكرك عليه شكرا جزيلا » •

وكـــان قد مضى معظم الليل وغلب النعاس عـــلى الجميع فنهضوا للرقاد فلما أصبحوا خيرهم اليثربي في الذهـــاب معه الى المدينة أو الذهاب الى مكـــة ، فاختاروا مكة على أن يمروا بالمدينة في عودتهم ، فودعهم وعاد الى المدينة وتركهم يستعدون للسفر الى مكـــة •

★ ★ ★

لمـــا خلا حماد الى نفسه ، تذكر حاله مع هند وما هو ذاهب فيه ، وكان أثناء حديث اليثربي عن أبي سفيان يهم بالاستفهام عن أبيـــه ويخاف العاقبة فيمتنع ، وأخـــيرا صبر ريثمـــا يصل الى مكـــة ويلتقي بـــأبي سفيان •

وفي صباح اليوم الثاني ركبوا وساروا لا يلوون على شيء ، فأمسى المساء وقد أدركوا بقعة من الأرض يكسوها المرعى ، وفي أحد جوانبها شجرة تحتها مـــاء عذب اعتاد المـــارة الجلوس اليها التمـــاسا للراحة من وعثاء السفر أثناء مسيرهم بين مكة والمدينة •

فجلسوا الى الشجرة وأوقدوا نارا يستضيئون بها أو يستخدمونها في معالجة طعامهم ، حتى اذا أكلوا جلسوا يتسامرون حتى يجيئهـــم النعاس ، فلمـــا انقضى الهزيع الأول من الليـــل اضطجعوا للرقـــاد ، وأمروا الخادمين بـــأن يتناوبا السهر خوفا من طارىء يفاجئهـــم ، ولم يكد يغمض لهم جفن حتى أفـــاق سلمـــان على صوت ضوضـــاء عن بعد فألصق أذنـــه بالأرض فتبين له أن كثيرين من الفرسان قـــادمون

من مكة مسرعين ، وعلم أنهم نازلـون عند تلك العـين لا محـالة ، فالتفت الى حمـاد فوجده نائما فتردد بين أن يوقظـه وبين أن يتركه نائمـا ، وفيما هو في ذلـك أفاق حماد من تلقاء نفسه فرأى سلمـان جالسا على فرشه فبغت وناداه واستطلعه الخبر .

فقـال : « كنت عـازما على ايقاظك لو لم تستيقظ من تلقـاء نفسك » .

قال حماد : « وما سبب ذلك ؟ » .

قال : « اني أسمع أصوات فرسان قادمين من مكـة فأخشى أن يكونوا ذاهبين في غزوة وربما أوقعوا بنا سوءا » .

فقال حماد : « وما الرأي اذن ؟ » .

قال : « الرأي أن نتفق على كـلام نقوله لهم يضمن لنا النجاة » .

فقال : « وما هو ؟ » .

قال : « يغلب علي الظن ان القادمين من أهل مكـة الذين لم يؤمنوا بالنبي الجديد ، وأنهم يريدون المدينة لقتال أو لاستطلاع فهم من أعداء المسلمين وعلينـا نحن أن نتجاهل أمر الاسلام ونتظـاهر بأننـا انمـا جئنا لزيارة الكعبة » .

فقال حماد : « ولكن ذلك لا أثر له في ديننا » .

قال : « ان الكعبة ليست سوى معبد يؤمـه النـاس من أقاصي الارض على اختلاف الملل والنحل ، فاذا قلنا اننا غربـاء قاصدون زيارتها فلا خوف علينـا » .

فقال حماد : « افعل ما بدا لك وكن أنت المتكلم عني » .

ولم يكادا يتمان الحديث حتى جاء الخادم ينبئهم أن الجمع قـد اقترب وأنهم يقصدون الى الماء فلبثوا تحت جنح الظـلام ينتظـرون وصولهم وقد زادوا نارهم وقودا استئناسا بالنور ، فلم يمض قليـل حتى

وصل الى الماء فارس ملثم ، فلما اقترب من النار نادى : « من القوم ؟ » .

فقال سلمان : «عـرب من لخم ، ومـن أنت ؟ » .

قال : « عرب من خزاعة وما الذي جاء بكم الى هنا ؟ » .

قال سلمان : « جئنا لزيارة البيت الحرام » .

قال : « هـل مررتم بالمدينة ؟ » .

قال : « مررنـا بها عن بعد ولـم ندخلها » .

وما أتم كلامه حتى وصل رفـاقه وفيهم الفارس والراجل ، فترجلوا جميعا ودنوا من الماء فتفرس فيهم سلمان يسبر عددهـم فاذا هم نـحو الأربعين يتقدمهم رجل بلباس فاخر لم يستطع تبينه لشدة الظلام ، وكـان الرجل يأمر القوم وينهاهم فعلم سلمان أنه رئيسهم ، وكان قد أمـرهـم أن ينصبوا خيمة بالقرب من تلك الشجرة فأخذوا في ذلك وسلمان ينظر اليهم ، ثـم لاح له أن يستطلع حقيقة حالهم من زعيمهم فدنـا منه وحياه فرد الفارس التحية والارتباك ظـاهر على وجهه ، ثم التفت الى سلمان وقـال : « أنبأني دليلنا أنكم مـن لخم فهل أنتم قادمون من العراق ؟ » .

قال : « نعـم يـا مـولاي » .

قال : « نحن نعلـم أن اللخميين مـن العراق من أهل النصرانية » .

قال : « نعـم نحـن كذلـك » .

قال : « وكيف تقول انكم جئتم لزيـارة البيت الحرام والنصارى يحجـون الى بيت المقدس ؟ » .

فبغت سلمان ولبث برهة صامتا لا يدري بماذا يجيب وظهر الارتباك علـى وجهه ولكنه تجلد وقال : « وهـل تقفل أبواب الكعبـة دون النصـارى اذا جاءوها زائرين ؟ » .

قـال : « لا فالناس يقدمون اليها من أقاصي الارض على اختلاف مللهم ونحلهم ، ولكن النصارى قلما يجيئونها ، هذا الـى أن الوقـت

ليس وقت الحـج فأصدقني الخبـر » •

قال سلمان : « ليس في حقيقة خبرنا ما نخشى بيانه ، ولكنني رأيتكم جمعـا كبيرا فارتبنـا في أمركم فاذا علمنا من أنتم أعلمنـاكـم بحقيقة أمـرنـا » •

وفيما همـا في ذلك جاء رجـل يقول : « ان الخيمـة نـصبت والمائدة أعدت » • فالتفت رئيس القوم الى سلمان وقال : « اذا شئت أن تضيفنا على الطعام أتممنا الحديث فاننا نحتاج بعد طول السفـر الى الـراحـة » •

فقال : « تترك اتمام الحديث الى صباح الغـد » •

قال : « حسنا » • وافترقا فسار سلمان الى سيده فاذا هـو لا يزال جالسا على فراشه ينتظر عودتـه بخبر القوم ، فلما رآه عائـدا استطلعه الخبر فأنبأه بما كان واستمهله الى الغد • فباتوا تلك الليلة على حذر ، ولما أقبل الصباح خرج سلمان الى مضرب القوم فاذا أكثرهم من الفرسان ، وتأمـل لباسهم وحالهم فاذا هم مـن أهل الحجاز ففكر في أمرهم ورأى أن يصطحب سيده وأن يسيرا معا الى مقابلة زعيم القوم فاصطحبه وسارا الى خيمته ، فلما بلغاها استأذنا في الدخول فاذن لهما ، فوجدا الرجـل جالسا على وسادة مقطب الوجـه كأنه يفكر في أمـر أهمه ، فلما وقـع نظره على سلمان وقف له ورحب بـه ، فبالغ سلمان في الاعتذار لما سببه لـه من المشقة بتلك الزيـارة ولكنه قدم سيده في الجلوس فأدرك صاحب الخيمة أنه سيده فرحب به وأجلسه بجانبـه ، ثم التفت الى سلمان وقال : « أرى ضيفنـا الجديد عراقيا أيضـا ؟ » •

قال سلمان : « نعـم يا سيدي انه أمير من أمراء العراق ، وأنـا خادم له فهل يتكرم مولاي بذكـر اسمه ؟ » •

قال : « أنـا عمر بن سالم الخزاعي من بني كعب » •

فقال سلمان : « لعلكم من أهل مكة ؟ » .

قال : « نعم نحن نقيم بمكة ، ولكننا سائرون الى المدينة » .

قال : « قد علمنا أن بينكم وبين أهل المدينة عداوة » .

قال : « صدقت ، ولكن بين أهل مكة جماعة كبيرة على دعوة أهل المدينة ، أي أنهم مسلمون ولكنهم مستضعفون لا يستطيعون التصريح خوفا من كبار قريش أن يصيبوهم بسوء ، على أنني سألتكم عن حقيقة أمركم فلم تجبني فهل أنتم سائرون الى مكة للحج حقا ؟ » .

قال سلمان : « أما وقد آنسنا فيك ما آنسناه من كرم الخلق وحسن الوفادة فاني أطلعك على جلية أمرنا لعلك تكون لنا عونا فيما نحن فيه » . قال : « وما ذلك ؟ » .

قال : « نحن يا مولاي كما قلت لك من أهل العراق ، وهذا الامير حماد سيدي ، وقد جئنا قاصدين مكة لنبحث عن الامير عبد الله أبي مولاي هذا فقد قيل لنا انه جاء الحجاز مع أبي سفيان منذ أشهر فهل تعلم عنه شيئا ؟ » .

قال : « أذكر أني شاهدت أبا سفيان بعد عودته من الشام هذا العام ، ولكني لا أعلم شيئا عن الامير عبد الله » .

فقال سلمان : « هل يخبرني سيدي عن سبب قدومه الى المدينة وهو من أهل مكة ، فاني أخاف أن يكون وراء مجيئكم ما يدعو الى حرب تقفل بها أبواب مكة دوننا » .

قال : « أما سبب مجيئنا المدينة فهو أننا من خزاعة كما أخبرتكم ، وقد كانت قبيلتنا في خصام مع قبيلة أخرى يقال لها بنو بكر ، فكان النزاع بيننا لا يفتر ، حتى ظهر الاسلام وكانت الغزوات فجاء المسلمون منذ عامين الى الحديبية بالقرب من مكة ومعهم نبيهم يريدون الاعتمار ، فخاف أهل مكة أن يكونوا عازمين على القتال ، فمنعوهم دخولها ، ثم

كانت خصومة انتهت بعهد أبرم بـين المسلمين وقريش يقضي بهدنـة وسلام ، فدخل بنو بـكر في عهد قريش ودخلنا في عهد المسلمين ، ثم رجع المسلمون واطمأنت قلوبنا فلما دخل هذا العام رأينا من بني بكر خروجا على العهد فتعرضوا لنا وقتلوا منا ، ورأينا من قريش سكوتا فاعتبرناه ممالأة لهم ، ونقضا للعهد الذي كان بينهم وبين المسلمـين . وكأنـي بالقرشيين ساعون الى حتفهم بظلفهم فقد كانت مكة آمنـة مطمئنـة فعرضوها لهجمات المسلمين ، لأننا لما استفحل الامر ورأينا القرشيـين ينصرون البكريين علينا جئنـا نريد المدينة لنبلغ الامر صاحـب الدعوة الاسـلاميـة » .

فقال سلمان : « وما ظنك به بعد ذلك ؟ » .

قال : « أظنه يحمل على مكة برجاله فيفتحها عنوة » .

فقال سلمان : « يظهر أنكم على دعوة صاحب الرسالة » .

قال : « لقد جرنا الحديث الى أمور طالما وددنـا كتمانها ، ولكننـا أصبحنا في حال لا نرى معها بدا من التصريح ، فاننا نرى صاحب هـذه الدعـوة صادقا في دعوته ولا نظنه الا غـالبا . ويدلنا على ذلك انتصاره في حـروبـه حيثمـا توجه » .

فعاد سلمان الى ما هم فيه من أمر القرطين والامير عبد الله ، فأخذ يفكر في وسيلة يستخدم بها تلك الفرصة فقال : « أما وقد آنسنا منك هذه الشهامة فهل ترى أن تهدينا الى سبيل يوصلنـا الى أبـي سفيان للبحث عن مولاي الامير عبد الله ؟ » .

ففكر عمر ساعة ثم قال : « لي عم شيخ يقيـم بالكعبة نهـاره كله ، وهو واسع الاطلاع نافذ الكلمة لدى أبـي سفيان ، فـاذا لقيتموه واستعنتم به في شأن هداكم الى سواء السبيل ، فاذا دخلتم مكـة وجئتم الكعبة فاسألوا عن حرب الخزاعي ، فـاذا لقيتموه رأيتم فيه شيخا طاعنا

في السن ، فقولوا له : ان ابن أخيك عمر بن سالم يقرئك السلام ، فاذا وصفتم له حالنا وما شرحته لكم من أمر خزاعة وبكر علم أنكم صادقون في قولكم ، فاسألوه مـا شئتم فانه خير مرشد لكم فيما تريدون » .

فنهض حماد عند ذلك وأثنى على عمر وودعـاه وانصرفا الـى خيمتهمـا .

وبعد قليل نهض الركب الخزاعي ويمموا المدينة وقد سر سلمـان لتلك المصادفة وأمل أن ينال بها خيرا .

★ ★ ★

ركب حمـاد وصحبه في ظهيرة ذلك اليوم يريدون مكة فوصلوا اليها بعد مسيرة يوم ، ورأوا أهلهـا في هرج ومرج لا حديث لهـم الا أمر خزاعة وبكر ، فساروا في طرقهـا لا يستغشهـم أحـد لكثـرة الواردين على الكعبة من الغربـاء . وأرادا المسير الى الكعبة في ذلك اليوم فقال سلمان : « هلم بنا الى خان ننزل بـه جمالنا وأثقالنـا ثم نذهب الى الكعبة أو أذهب أنـا وحدي أتحسس الأخبار » . فقصدا خانا بالقرب من الكعبة نزلاه ، وبدلا ثيابهما وتناولا طعامـا واستراحا بقيـة يومهما وسلمان يفكر في وسيلة تكفل لهمـا نجح مسعاهما .

فلمـا أصبحا في اليوم التالي قال سلمان : « امكث هنا يا مولاي ريثما أتدبر الامر بنفسي وآتيـك بالاخبار واذا أبطأت عليـك فـلا تقلـق » .

قال حماد : « سر في حراسة الله » .

فخرج سلمان وقد تزيى بزي أهل الحجاز لا يريد بـذلك تنكـرا ولكنه خاف أن تكون غرابة لباسه لافتة للأنظار ، فوصـل الـى المسجد الحرام ورأى في ساحته جماعة كبيرة عراة يطوفون ، وفيهم الـواقف

والجالس والراكع ، ورأى في بعض الجوانب جماعات جالسين يتحدثون ويتحاورون • فسار هنيهة فرأى في وسط الساحة بناء مربعا تجلله أستار من القباطي علم من طواف الناس حولها انها الكعبة ورأى فوقها أصناما هائلة ورأى بعض الناس يحلقون ويغتسلون حولها ، فأدهشه كل ذلك وقال في نفسه : « اذا لم يكن في قيام الاسلام غير هدم هذه الأنصاب وابطال عبادتها لكفى به فضلا » •

ثم تأمل بناء الكعبة وأخذ يفكر في أمر القرطين وكيف يكونان هناك واذا وجدا فأين يكون موضعهما فلم يزدد الا جهلا وما زادته تلك الزيارة الا يأسا •

ثم تحول نحو الجماهير لعله يرى الشيخ الخزاعي فطاف المكان يسأل عنه باسمه فقال له بعضهم : « انه خرج الى منزله بالأمس لتوعك أصابه » • فسأل عن منزله فقيل له أنه في مر الظهران بضواحي مكة » •

فخرج الى مر الظهران ، وفيما هو في طريقه اليها يسأل عن الطرق ويستفهم عن الرجل رأى أهل مكة في هرج يجتمعون جماعات ثم يتفرقون كأنهم في خوف من أمر ذي بال ، فعلم أنهم يتحدثون بشأن أهل المدينة • ومر بجماعة منهم كبيرة قد تحلقوا أمام منزل فخم ربطت حوله الخيول ، فعلم أنه بيت أمير كبير فسأل عن صاحبه فقيل له أنه منزل أبي سفيان ، فلما سمع اسمه شكر الله لوصوله اليه في تلك الساعة على غير انتظار ، وأخذ يتفرس في وجوه الناس لعله يرى سيده بينهم فلم يجده فسأل بعض الوقوف عنه فأخبره بعضهم انه فارقهم بقرب عمان وأنهم لم يروه من ذلك الحين • فأسف لذلك أسفا شديدا وأظلمت الدنيا في عينيه وتشاءم من تلك المصادفة ، ولكنه تجلد وسار في طريقه الى مر الظهران وهو غارق في أفكاره ، فوصل الى المكان بعد العصر فسأل عن منزل حرب فدلوه عليه فجاءه وهو لا يرجو أن يصيب منه خيرا •

فسأل عن الرجل فقيل له أنه مصاب بمرض شديد لا يستطيع أن يخاطب أحدا فعاد على عقبيه كاسف البال وقد أخذ منه اليأس مأخذا عظيما لا يدري كيف يلاقي حمادا .

فوصل الى الخان والليل قد سدل نقابه ، فرأى حمادا في انتظاره على مثل الجمر ، فتظاهر بالتجلد ولم يخبره بخبر أبيه ولكنه أنبأه بمرض حرب ووعده بأن يواصل السؤال عنه حتى يشفى من مرضه ، على أنه لم يكن يرجو شفاءه لشيخوخته وعجزه .

وقضى سلمان شهرا يتردد على بيت حرب يسأل عنه ويدعو له بالشفاء ، وعلم بعد ذلك أن الشيخ آخذ في التقدم نحو الشفاء فعادت اليه آماله ، ثم سار اليه ذات يوم وهو يرجو أن يقابله ويشكو اليه أمره . وفيما هو في الطريق رأى أهل مكة في قلق شديد ، فمر بمنزل أبي سفيان لعله يتنسم خبرا عن سيده فرأى المنزل قفرا فسأل عن السبب فقال مخبره : « ان أبا سفيان لما سمع بقدوم المسلمين الى مكة خرج اليهم وربما اعتنق دينهم لأنه خرج خائفا » .

فسأل سلمان عن جند المسلمين فعلم أنهم صاروا على مقربة من مكة .

فتفرس سلمان في أهل مكة فرأى علامات الفشل ظاهرة في وجوههم ، وسمع بعضهم يمتدح الاسلام وينقم على أبي سفيان ، وبعضهم يلوم القرشيين على عنادهم ونكثهم عهد بني خزاعة . فعلم أن الأمر عائد الى المسلمين لا محالة ، فخرج من مكة حتى جاء مر الظهران وأراد السؤال عن حرب فرأى الناس يهرعون والنساء يولولن وينادين بالويل والثبور ، فالتفت فرأى الغبار يتصاعد عن بعد فصعد على أكمة في ضواحي مكة ليرى ما يكون ، فرأى الغبار قد شف عن جند كثيف يتقدمه الفرسان بالرايات ووراء كل راية قبيلة من المسلمين ، وكان ذلك في شهر رمضان فعسكر الجند على مسافة من مكة ، وعاد سلمان الى

الخان خوفا على سيده من الفتح ، وفيما هو سائر في الطريق رأى كوكبة من الفرسان يتقدمهم أبو سفيان عائدا من رحلته يدعو الناس الى الاسلام بالتحذير والتهديد مع النصيحة فلم يسمع الا ازدراء واحتقارا وسمع رجاله ينادون : « من يدخل منزل أبي سفيان أو منزل العباس بن عبد المطلب فهو آمن من سيوف المسلمين ، ومن يدخل المسجد أو يدخل منزله ويغلق بابه فهو آمن » . فاطمأن بال سلمان .

فسار وهو يزحم الجماهير في الاسواق ، فرأى أفواجا من القرشيين يتأهبون للقاء المسلمين وفيهم الفارس والراجل ، فلم يكد يصل الى الخان حتى فرغ صبره . فدخل فرأى حمادا قد لبس ثيابه استعدادا للخروج فقال له : « ما بالك يا مولاي ؟ » .

قال : « قد استبطأتك ورأيت الناس في هرج فخرجت لأرى ما يكون » .

قال : « لا تعجل فقد علمت ما لم تعلم ، اجلس لأقص عليك الخبر ».

قال : « قل ما عندك » .

قال : «قد بلغك خبر الخزاعيين وما كان من نكث عهد قريش . وقد كنا نتوقع لذلك قدوم المسلمين لفتح مكة فتحقق ظننا لان المسلمين جاءوا وهم الآن في ضواحي مكة وأظنهم يهاجمون غدا . وقد علمت أن أبا سفيان سار الى المسلمين وأسلم وعاد يدعو الناس الى الاسلام بعد أن كان من ألد أعدائه . وسمعت رجاله ينادون بالامان لكل من يدخل منزله أو منزل العباس عم صاحب هذه الرسالة أو يدخل المسجد أو يغلق بابه ، فنحن اذا أغلقنا بابنا كنا في مأمن والا فهيا الى المسجد فانه خير ملجأ » .

قال حماد : « أرى أن نغلق بابنا ولكننا نكون مع ذلك في خطر فقد يعتدي علينا أحد عفوا فالمسير الى المسجد أولى فهل أنت واثق من

هجـــومهم غدا » .

قال : « لا أدري ولكنني سأخرج صباحا وآتيك بالخبر اليقين » .

- ١٧ -

فتح مكة

في صباح اليوم التالي بكر سلمـــان الى أكمة تشرف علــى جيش المسلمين ، فسار اليه يستطلع الخبر فلم يكد يبلغه حتى رآه قد اصطف ومشى يتقدمه الفرسان وأصحاب الرايات وفيهم قبائل أسلم وغفـــار وأشجع وسليم وغيرها ، فتأمل عددهم فاذا هو يزيد على عشرة آلاف وشاهــد في الوسط موكبا هائلا في وسطه راحلة عليها رجل معتجر بشقة حمراء وعلى رأسه عمامة سوداء حرقانية واضعا رأسه على رحله . ورأى على الرحل وراءه رجلا رديفا فعجب لذلك واشتاق لمعرفته ، فرأى رجلا قادما من جهة الجيش فسألــه عن هذا الموكب فقال له : « هو موكـــب رسول الله ، والراكب هو الرسول نفسه قد جعل رأسه الشريف على رحله وأردف أسامة بن زيد خادمه تواضعا » فعجب سلمان لذلك المشهد البهيج وقال في نفسه : « لا عجب اذا انتصر من كـــانت هذه خلاله » . ثم سأل الرجل عن عزمهم على الفتح . فقال : « انهم سائرون الى مكة من أعلاها في تلك الساعة ، وأن فرقة منهم سائرة بامارة خالد بن الوليد من أسفلها » . فهرول سلمان بأسرع من لمح البصر فرأى جموع القرشيين يتأهبون للدفـــاع وفيهم الفرسان والفشل يتجلى على وجوههم . وشاهد النساء ماشيات محلولات الشعر يستحثثن الرجال بالاناشيد وفي أيديهن

الخمر يضربن بها وجوه الخيل تحريضا وتوبيخا . فلم يزدد سلمـــان من تلك المناظر الا رهبة وخوفا وتحقق اذ ذاك أن المسلمين فاتحو مكة لا محالة ، فمـــا زال سائرا حتى أتى الخــان فقال : « هيا بنـــا يا مولاي الى المسجد فانه خير ملجأ لنا » .

فأغلقا الغرفة وهرولا حتى دخلا المسجد وجلسا في بعض جوانبـه فرأيـا الناس زرافات ووحدانـا وقد استولى عليهم الخوف .

وبعد ساعات قليلة ضج الناس في المسجد وهم يقولون : « لقــد أقبل رسول الله » . فتحقق سلمان أن الفتح قد تــم للمسلمين ، فوقف ومعه حماد بحيث يرى النبي وهو داخل المسجد فما لبث أن سمع الناس يكبرون ورأى النبي داخلا على قدميــه ووراءه رجــل من أصحـــابه آخذ بزمــام ناقته ، فطاف حول الكعبة سبعا وكـــان يأخذ الحجر الاسود بمحجفه في كل مرة والمسلمون يصيحون بالتكبير حتى زاد صياحهم فأشار اليهم أن اسكتوا .

وكـــان في المسجد ثلاثمائة وستون صنما لكـــل حي من أحيـــاء العرب صنم قد شدوا أقدامها بالرصاص ، فجـــاء النبي وفي يده قضيب فجعل يهوي على كل صنم منها فيهوي على وجهه أو قفاه وهـــو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

وكـــان حماد وسلمان ينظران الى ذلك ويعجبان ، ثم رأياه قد جـــاء الى صنم كبير في جانب الكعبة كانا قد عرفا أنه هبل الاكبر فكسره ، وكان في الكعبة صور شتى للانبياء وفيهـــا صورة ابراهيم واسماعيل وعيسى ومريم فأمر بماء فمسحت كلها .

ولمـــا تكسرت الاصنام وامحت الصور ، جلس النبي في ناحية من المسجد وعلى رأسه شيخ وقور علم بعد ذلك أنه أبو بكر الصديق ، ثم أمر ففتحت الكعبة فدخلها والناس ينظرون فصلى فيها ركعتين .

ثم وقف على باب الكعبة وقد وقف الناس صامتين كأن على رؤوسهم الطير فقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ؛ صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » . ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثيرا من الاحكام منها : ألا يقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ؛ والبينة على المدعي واليمين على من أنكر ، ولا تسافر المرأة ثلاثة أيام الا مع ذي رحم محرم ، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ، ولا يصام يوم الاضحى ويوم الفطر . ومضى فقال : « يا معشر قريش ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم وآدم من تراب ». ثم قال : « ماذا تقولون وماذا تظنون اني فاعل بكم ؟ » . قالوا : « خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت . فقال : « أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم . اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وقال أقوالا أخرى أدهشت حمادا وسلمان لما حوته من الحكمة والموعظة فنظر سلمان الى حماد وقال : « والله اني لأعجب لأناس قاوموا هذا النبي وهذه تعاليمه وأقواله ، ولا ريب عندي أ نسلطانه سيتسع حتى يغطي الارض ويمحو دولتي الروم والفرس » .

ثم التفت حماد فرأى القرشيين يعتنقون الاسلام وهم يصلون ويهنيء بعضهم بعضا وقد هدأت الاحوال وآب الناس الى السكينة وانطلقوا الى منازلهم وأشغالهم فخرج سلمان وحماد الى الخان .

فلما استتب بهما الجلوس التفت حماد الى سلمان وقال : « لقد شغلنا بهذه الاحوال عما جئنا من أجله ، وقد نظرت الى الكعبة فعظم علي أمر القرطين ولم أفهم أين موضعهما ، وكيف أستطيع الوصول اليهما بعد هذه الحروب ودخول مكة في حوزة المسلمين ؟ » .

فقال سلمان : « ألم أقل لك يا سيدي ان عمك سامحه الله قد

اقترح عليك أمرا مستحيلا ؟ ولكننا سنقابل الشيخ الخزاعي ونرى رأيه في الامر وليس بعد الجهد حيلة » .

فقال حماد : « وقد فاتنا استطلاع أمر أبي من أبي سفيان » .

فقال : « أعلم يا مولاي أن سيدي ليس مع أبي سفيان فقد علمت أنهم فارقوه عند عمان ولم يروه من ذلك الحين » .

فانقبضت نفس حماد لذلك الخبر وبهت مدة لا يتكلم ثم قال والدموع تكاد تترقرق في عينيه : « أرى يا سلمان أن الله قد أعد لنا أيام شقاء لا تنقضي ، وان نجم سعدي قد أفل يوم خروجنا من البلقاء » . قال ذلك وتساقطت الدموع من عينيه على الرغم منه .

فتجلد سلمان وقال له : « تشجع يا مولاي ولا تيأس فان الله لا يتركك ولا يهملك وأنت انسا تسعى فيما يؤول الى رفع منزلتك رغبة في ارضاء فتاة أنت تحبها وهي تحبك » .

فلما سمع كلمات سلمان تذكر هندا وحبها وما آنسه من ضعف الامل في الحصول عليها فلم يتمالك عن البكاء وسلمان ساكت لا يرى ما يعزيه به ، ثم قال له : « ان البكاء شأن النساء يا مولاي ، وعهدي بك حازم باسل لا تجزع للحوادث فاصبر ان الله مع الصابرين » .

قال : « أنا أعلم يا سلمان أن البكاء عار على الرجال ولكن الحب .. آه من الحب . آه من ثعلبة . آه من جبلة . وسكت » .

فأخذ سلمان يؤمله بما سيعرفانه من الشيخ الخزاعي ، فسكت .

وفي صباح اليوم التالي خرج سلمان الى مر الظهران يطلب الخزاعي فعلم أنه نقه من مرضه ، والتمس مقابلته فأدخلوه عليه فاذا هو شيخ هرم قد أحناه الكبر حتى ابيض شعر لحيته واسترسل على صدره وتجعد وجهه وغارت عيناه وغطاهما شعر الحاجبين . فحياه سلمان فرد التحية وأشار اليه أن يجلس الى جانبه ففعل .

فبدأ سلمان بالسؤال عن صحته واستطرد الى خبر الفتح ثم عرفه بنفسه وما جاء من أجله فرحب به وقال : « نرجو أن يظل كلامنا سرا لا يعرف به أحد سوانا » .

قال : « لقد وقعت على خزانة أسرار » .

قال : « نحن نعلم أن احدى ملكات غسان واسمها مارية أهدت الى الكعبة قرطين ثمينين منذ نحو قرنين فهل تعرف شيئا عن ذلك ؟ » .

ففكر الشيخ قليلا ثم قال : « نعم يا ولدي اني أعلم ذلك » .

قال سلمان : « فهل تعلم مكان هذين القرطين الآن ؟ » .

قال : « ان حكاية هذين القرطين أصبحت في خبر كان ، لأن الكعبة هدمت وبنيت مرارا بعد اهداء ذينك القرطين وآخر مرة هدمت فيها كانت منذ نحو أربعين سنة وبناها عبد المطلب جد نبينا صلى الله عليه وسلم الذي شاهدتم فتحه مكة أمس ، وهو الذي تولى رفع الحجر الاسود حينذاك ووضعه في مكانه قبل ظهور دعوته ببضع سنين فقد كانت القبائل مختلفة فيما بينها على من يحمل ذلك الحجر الشريف ويضعه في مكانه وحاولت كل قبيلة كسب ذلك الشرف فحكموا النبي فيما بينهم وهم لا يعلمون شيئا من كرامته ، فأشار بوضع الحجر في ملاءة واسعة وأشار الى كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطرافها فانحسم الخلاف . والخلاصة أن القرطين لا يعلم أحد بمكانهما والارجح أنهما بيعا الى أحد التجار المتجولين ودخول الكعبة لمثل هذا الغرض أمر مستحيل اليوم بعد دخولها في حوزة المسلمين »

فانقبضت نفس سلمان ولم يعد يستطيع البقاء هناك فنهض وودع الشيخ وخرج الى حماد . وكان هذا ينتظر عودته بفارغ الصبر فلما رآه استطلعه الخبر فأطلعه على حديث الشيخ وهو يكاد يبكي لشدة الاسف ، لكنه شفع حديثه بعبارات التعزية وأمله بوسيلة يتخذها

للتعويض عن هذين القرطين أمام هند ، على أن ذلـك لم يكن ليخفف شيئا من قلق حمـاد •

- ١٨ -

صبر جميل

تركنا حمادا وسلمان وقد غلب عليهما اليأس في مكة بعد أن تكبدا مشقة السفر اليها ولم يظفرا بشيء مما أملاه من الحصول على قرطي مارية المحفوظين في الكعبة ، كما يئسا من لقاء الأمير عبد الله أبي حماد •

وكان حماد كلما تصور فشله في مهمته اشتد به اليأس والحزن ، وعظم عليه أن يعود الى البلقاء في الشام صفر اليدين ، فحدثته نفسه بأن يعتزل الناس ويأوي الى دير يقضي فيه بقية حياته •

أما سلمان فأنه أدرك حال سيده حمـاد فثارت في نفسه عـاطفة الشهامة ، واعتزم أن يبذل أقصى جهده في تعزيته والترفيـه عنـه ، فخرج من الغرفة صباح يوم متظاهرا بحاجة في نفسه وترك حمادا وحـده ، فلما خلا هذا الى نفسه خرج من الغرفة وصعـد الى سطح الخـان وقد ضاق صدره وصغرت نفسه ، وكان السطح تظلله خيمـة من ورق الشجر فجلس على وسادة وأخذ ينظر الى مكـة وما يحيط بهـا ، فاذا هي أرض منبسطة في واد تحف به الجبال ، فلم تشغله تلك المناظر الا قليلا وعاد الى هواجسه فتذكر حبيبته وأباه ، وتصور ما تراكم عليـه من الهموم ممـا ألم به من الفشل وقد قطع البراري والقفار حتى جـاء للبحث عن قرطي مارية مهرا لخطيبته ومرضاة لوالديها فعلم من الشيخ الخزاعي أن العثور على القرطين مستحيل • وبعد أن كـان على أمل من لقاء أبيه مع أبي سفيان

في مكة يئس من لقائه ، فتصور نفسه مغلول اليدين مقصوص الجناحين واشتد به اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيه ، ثم تذكر أنه في غربة لا يجدر به الاستسلام لليأس فأمسك نفسه ، ولكن اليأس غلب عليه فانقبض صدره واشتد به الهيام فأخذ يناجي هندا قائلا :

ــ آه منك يا هند ، بل آه من هذا القلب الذي عصاني وأطاعك ونعم ما فعل فانك والله جديرة بحبه ، ولكن أباك ــ آه من أبيك ــ فانه انما أراد مستحيلا فطلب مهر العنقاء أقرب منه منالا ، وكأني به لا يرضاني له صهرا وعذره مقبول طالما كان نسبي مجهولا . ان القرطين لم يوجدا فأنت بعيدة المنال مني . آه يا هند !. أأعود اليك بصفقة المغبون ؟ واذا عدت كذلك فماذا يكون رأيك في ؟ لا ريب عندي أن أمر القرطين لا يهمك ، فأنت لا ترضين أن أشقى في سبيل البحث عنهما الا مجاراة لوالديك . ولكن كيف أعود اليك يا هند صفر اليدين وكيف أقابل جبلة وماذا أقول له ؟ . لا لا لا ... لن أعود الى البلقاء على هذه الحال وقد فقدت أبي في بلاد لا أعرف فيها أليفا . ومن يدريني أين هو ؟ وأين النذر ووفاء النذر ؟ يا ليته قص شعري قبل أن أفقده فقد وعدني أنه متى وفى النذر وقص الشعر يطلعني على أمور تهمني وقد يكون لها شأن بزواجي ، فأين أبي الآن ؟ آه أبتاه ! أين أنت ؟ ألا تزال على قيد الحياة ؟ من يعلمني أين مقرك فأطير اليك مسرعا . أما اذا يئست منك ومن هند فلا يعود لي في الحياة مأرب . فأما أن ألجأ الى دير أو صومعة أقضي بقية الحياة وحيدا لا أرى أنيسا أو أن ألقي نفسي في تهلكة .. ولكن لالا ؛ ان قتل النفس ضعف ومذلة ، وكيف أفعل ذلك ونفسي رهينة أمر هند ، وهند لا تريد قتلها ؟ .. اذن لأصبرن صبر الرجال وأعيد الكرة في البحث عن القرطين فاذا تيقنت فقدهما عمدت الى هند وبسطت لها أمري وأطلعتها على ضميري ، فاذا رأيتها تؤثر مرضاة والديها

وحفظ تقاليد عائلتها على رضاي قلت على الدنيا ومن فيها السلام ، والا فاني أرضى من الدنيا برضاهـا فنتعاقـد ونتراضى على أمر يكون لنا فيه منجاة من والديها .. وأما أبي .. آه أين أنت يا أبتاه ؟ ان ضياعك عرقل مساعي وغل يدي ، ولا ريب أنك لو شاركتني في هذا الامر لسهلت كل صعب وهديتني صراطـا مستقيما . ولكن الاقدار أبت الا معاندتي فصبرا جميلا .

مرت كل هذه الخيـالات في ذهن حمـاد وهو متكىء على الوسادة تارة يبكي وطورا يحرق أسنانه وآونة يضبر نفسه ، وكـان لم ينـم في الليل المـاضي الا قليلا فغلب عليه التعب والملل والضجر فجـاءه النعاس فأسلم له جفنيه .

★ ★ ★

مضى بعض النهـار وحماد نائم كاليقظـان فوق السطح وهو لم يذق طعاما ، حتى اذا كان العصر أفاق على صوت سلمـان خادمه ففتـح عينيه فرآه واقفـا عند رأسه يناديه وعلى وجهه أمارات البشر كـأنه كشف أمرا جديدا ، فانبسطت نفس حماد فهب من رقـاده وجلس وقال له : « ما وراءك يا سلمان ؟ » .

قال : « ما ورائي الا الخير » .

قال : « أرى على وجهك أمارات البشر ، فهل اهتديت الى طريق جديد يوصلنا الى ساحة الفرج ؟ » .

قال : « نعم يا سيدي أظنني توفقت الى شيء من هذا القبيل » .

قال : « قل ما هو ؟ » .

قال : « خرجت في هذا الصباح على بركة الله وقد اعتزمت الا أعود اليك الا ببشرى خير ، فسرت في أسواق مكـة وأنـا أتوسل الى الله أن

يلهمني رشدا وسدادا أو يهديني سبيلا أخفف بـه اليأس عن مولاي . فمررت ببعض البيوت فرأيت عند بابه بغلـة عليهـا سرج ثمين والى جانبها غـلام ، فحدثتني نفسي أن أسأله عن صاحب البغلة فقـال : (هو حسان بن ثابت شاعر الأنصـار) . فتذكرت اني أعرف هذا الاسم ، وكنت أسمع به عندما كنت في العراق ، وكثيرا ما كـان صاحبه يؤم الحـيرة فينظم القصائد في مدح الملك النعمان ، وكثيرا ما كان يفد على ملـوك بني غسان فيمتدح جبلة والحارث بن أبي شمر وغيرهما ، فقلت في نفسي : (أظنني أصبت ضالتي فالرجل يجالس أعظـم ملوك العرب وربما كـان له المام بأمر القرطين) . فسألت الغلام عن حسان فقال : (انه في البيت) . فاستأذنت في الدخول عليه فأذن ، ووجدته جالسا على وسادة في بعض زوايـا الغرفة فتأملته فاذا به قـد تبدلت حاله حالا أخرى فحنـاه الكبر وضعف بصره وشاب شعره واسترسلت لحيته ، فبادرت الى يده فقبلتها وحييته فرد التحية ورحب بي وأجلسني الى جانبه وسألني عن أمري ، فما زلت أدخل معه في حديث وأخرج من آخـر حتى توصلت الى أمر القرطين فسألته عما يعرفه من أمرهما ، ففكر قليلا ثم قال : (أظنني سمعت ذكرهما في بعض مجالس النعمان بن المنذر في الحيرة) . فقلت : (وكيف كـان ذلـك ؟) . فقال : (يغلب على ظني أن بعض تجار الفرس الذين يحملون الاقمشة الفارسية الى مكة عاد منها ذات عام ومعه قرطا مارية فعرضها على النعمان وأظنه اشتراهما منه ، فاذا صدق ظني كان القرطان الان في خزانة الملك النعمان في الحيرة) . فلما سمعت ذلك هرولت اليك مسرعا لنسير اليه ، فهـل تسير معي ؟ » .

قال : « نـعم لا بد من المسير انـي أرى في كـلام الشاعر بابـا للفرج ، هلـم بنـا » .

فنهض حماد وقد انبسطت نفسه وعادت اليه بعض الآمـال وان

لم يكن في الخبر ما يدعو الى الامل ، ولكن المرء اذا وقع في ضيق كان سريع التعلق بالامل ولو كان أوهى من خيط العنكبوت . وأحس حماد بفراغ معدته فتناول شيئا من التمر يسد به جوعه ، وخرج مع سلمان ماشيين حتى أتيا بيت حسان فاستأذنا ودخلا ، فتقدم أولا سلمان فسلم وذكر اسم حماد لحسان وأنه سيده ومن أمراء العراق . فتقدم حماد وهم بتقبيل يدي الشيخ فمنعه ولكنه رفع نظره اليه وتفرس فيه كأنه يراجع في ذاكرته صور أمراء الحيرة لعله يعرف حمادا فتشابه عليه أمره فسأله عن اسمه واسم عائلته .

فقال حماد : « اني حماد بن الامير عبد الله » .

فقال حسان : « لا أذكر رجلا بهذا الاسم في بلاط النعمان ، أو لعلي نسيته فقد قتل النعمان رحمه الله غدرا منذ أكثر من عشرين عاما وتفرق أصدقاؤه . على أنني انقطعت عن الحيرة قبل ذلك العهد فلم أعد أقدمها ولا رأيت أحدا من أمرائها . سقى الله تلك الربوع وأعاد سلطة المناذرة فقد كانوا زينة الدولة الفارسية وبيت قصيدها ولا سيما النعمان بن المنذر رحمه الله ، وجازى الباغين عليه شرا » .

فقال حماد : « وهل كنت تفد عليه كثيرا ؟ » .

قال : « لم يكن يمضي العام قبل أن أزوره مرارا فأركب ناقتي من المدينة حتى آتي البلقاء فأدخل على جبلة بن الايهم أو الحارث ابن أبي شمر الغسانيين ، ثم أقصد الى العراق فأدخل مجلس النعمان بن المنذر فيخلع علي الخلع ويأمر لي بالعطايا . وهكذا كان يفعل الغسانيون أيضا . ثم كان ما كان من أمر قتله فانقطعت عن العراق الى البلقاء حتى ظهر الاسلام وأسلم أهل المدينة فكنت ممن تشرف بالاسلام ولازمت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسير معه أو ألحق به حيثما أقام . وقد عاد الان بجيشه الى المدينة ولا ألبث أن أتبعه عاجلا » .

فقال سلمان : « ذكرت يا مولاي ان القرطين بيعا للملك النعمان فماذا تـم في شأنهما بعد موتـه ؟ » . قال : « لا أدري ربما كانا في جملة مـا استولى عليه قاتلوه من التحف ، فاذا صح الظن كان القرطـان في خزانة ملـوك الحيرة الآن » .

وكان حسان يخاطب سلمان وعيناه لا تتحولان عن وجـه حمـاد وهو يتفرسه ويلاحظ حركاته كأنه يعرف له شبها وحمـاد غافـل عن ذلك بما كان غارقا فيه من الهواجس بعد أن سمع مـن أمـر القرطين وصعوبة الحصول عليهما بعد وصولهما الى خزانة ملوك الحيرة ، ولكنـه عزم على البحث عنهما ما استطاع الى البحث سبيلا .

وبعد قليل هم حماد بالخروج فسأله حسان : « أين تقصدون ؟ » .

فقال سلمان : « الى منزلنا لنتهيأ للخروج في الغد » .

قال : « هل تريدون الذهـاب الى المدينة ؟ » .

قال : « ربما مررنا بها في طريقنا الى البلقاء » .

قال : « أرى أنكما غريبان قد يعسر عليكما المسير منفرديـن ، وقد آنست فيكما عنصرا كريما ، فهل تقبلان مرافقتي الـى المدينة تقيمـان بها ريثما تشخصان الى البلقاء وربما أرفقتكما بمن يوصلكما اليها » .

فنهض سلمان وأثنى على حسان ثناء طيبا وقال : « اننا نشكـر لفضل الشاعر شكرا جزيلا ، ولا نعد ذلك منه الا كرما ومنة عرف بهـا عرب الحجاز منذ القـدم » .

قال : « عفوا يا أخـا لخم ، اني لا أجود الا بسال المناذرة ، ولا أرتع الا في بحبوحة خيرهم ، ولا أنكر فضل العراق علي وعلى كل من نـزل ديارهم من الغرباء ، وذلك أمـر مشهور لا يجهله أحد فكيف بأهله ، فاذا شئتما المسير الى منزلكما الليلة فأعدا أمتعتكما ، واني مرسل معكمـا

من يحملها الينا فنبيت الليلة هنا ونصبح مسافرين ان شاء الله » .

★ ★ ★

بات حماد وسلمان ليلتهما في منزل حسان ، وأصبحوا جميعا يبغون المدينة وحسان يطرفهم أثناء الطريق بلطائف منظوماته في مدح ملوك الحيرة وملوك غسان ، وحماد يستزيده مما نظمه في جبلة بن الايهم ويطرب لكل بيت يسمعه . ولم يكن ذلك الا ليزيد أشجانه ويذكره بخطيبته ، ثم تذكر ثعلبة وأباه الحارث بن أبي شمر فقال لحسان : « وكيف رأيت الحارث بن أبي شمر ؟ » .

قال : « رأيته كريما محبا للشعراء ، ولكنه كان حاسدا لجبلة فكنت اذا مدحت جبلة في حضرته ظهر الحسد على وجهه مع ما كان يحاول اخفاءه من عواطفه » .

فتحقق حماد ان ثعلبة انما ورث ذلك الخلق عن أبيه ، وزاد عليه اللؤم والخساسة . ولما تذكر ذلك غلب عليه الانقباض وأوجس خيفة على هند من غدره أثناء غيابه ، وأدرك سلمان منه ذلك فأراد اخفاء الامر على حسان فقال : « وكيف رأيت جبلة ؟ » .

قال : « رأيته شهما عزيز النفس كريم الخلق ، كثيرا ما عرضت بحسد الحارث أمامه وهو لا يبالي ويلتمس له عذرا ويغالطني متجاهلا فكنت أزداد اعجابا به » .

فقال سلمان : « وأي الملكين أشد بطشا الان ؟ » .

قال : « ان جبلة أرفع مقاما وأعز جانبا ، ولكن بعض القادمين علينا من البلقاء أنبأنا بوفاة الحارث » .

فبغت سلمان وأفاق حماد من قلقه . فقال سلمان : « وهل تحققتم وفاته ؟ »

قال : « نعم فقد نقله الينا بعض الذين أرسلناهم لتجسس أحوال الروم بعد وقعة مؤتة » .

فالتفت سلمان الى حماد فرآه يبتسم ولكن البغتة ما زالت ظاهرة على وجهه ، فأشار اليه اشارة فهم حماد منها أنه يهنئه بانكسار شوكة ثعلبة ولكنه تحول الى حسان وقال له : « وما ظنك بمن يرث الامارة بعده ؟ » .

قال : « لا أظن أحدا من أهله أهلا لهذه الامارة ، والارجح أن تجتمع كلمة قبائل غسان تحت لواء جبلة بن الايهم » .

فانشرح صدر حماد ، ولكن أمر القرطين بقي حاجزا بينه وبين كل سرور .

وساروا حتى أتوا المدينة صباحا فوجدوا أهلها في فرح وعز لما نالوه من النصر بفتح مكة ، ورأوا الناس عكوفا على الصلاة . وما زالوا سائرين حتى أناخوا جمالهم أمام منزل حسان ، فهم الخدم بحمل الامتعة الى المنزل وأخذوا الجمال الى العلف ، ونزل سلمان وحماد وقد أعجبا بما آنساه من عكوف المسلمين على الصلاة وما رأوا من خشوعهم وتدينهم فضلا عما شاهدوه من بسالتهم في فتحهم مكة .

أما حسان فلم يكد يصل الى منزله حتى طلب الراحة من وعثاء السفر لشيخوخته وعجزه ، فدعا ضيفيه اليه فجلسا متأدبين فقال لهما : « تذكرت أمرا أظنه يهمكما كثيرا وقد فاتني ذكره لكما قبل الان » .

قال سلمان : « وماذا عسى أن يكون ؟ » .

قال : « ذكرت لكما وقعة مؤتة وأظنكما لم تفهما ما هي » .

قال سلمان : « كلا يا سيدي لم نفهم المراد » .

قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل جندا من المسلمين لحرب الغسانيين في العام الماضي فسار الجند وحاربهم في مكان يقال له

مؤتـة بالقرب من بصرى ، وستسمعون خبر هذه الوقعة الان ، ولكنني أردت أن أوجه التفاتكم الى رجل أسره جندنـا أثناء تلك الحملة وقـد حملوه الينا ، فلما رأيته معهم عرفت أنه أسر ظلما ، ولما سألته عن خبـره علمت أنه ليس من أهل البلقاء بل هو عراقي من أهل الحيرة ذكـر أنـه كان يراني أثناء وفودي على الملك النعمان منذ أكثر من عشرين عاما . وبما أنكم من أهل العراق فربمـا استأنستم بالرجل ، والوطن أحسن جامعة بـين الناس » . قال ذلك ونادى رجلا واقفا بالباب فحضر فقـال لـه ادع ضيفنا العـراقي .

قال : « لبيك » . وخرج ثم عاد يتبعه رجل كهل ملتف بعباءة مقطب الوجـه . وكان حماد وسلمان لا يزالان متخمرين بخمار السفر فحـالما وقع نظر سلمان على ذلك الرجل أحس بخفقان قلبه كأنه آنس فيه شبيها لسيده عبد الله ، ولكنه رأى في سحنته ملامح تخالف ما لعبد الله أهمها ان عبد الله كان طويل الشاربين مستدقهما مسترسل شعر اللحية مع خفة ، أما هذا فقصير الشاربين واللحية . على أن سلمان ما زال ينظر اليه ويتأمله حتى دنا منه فوقف له وهم بمصافحته فلم يكد يفوه بأول كلمة حتى تحقق سلمان أنه هو سيده بعينه فهم به وقبله وناداه باسمه .

وكان حماد في شاغل من هواجسه في هند والقرطين وأبيه ، فلـم ينتبه الا وسلمان ينادي بأعلى صوته : « مولاي الامير ؟! أهـلا بمولاي الامـير ! » . فالتفت حماد فاذا هو أمام أبيه عبد الله ، فنهض كما نهض سلمان وهم عبد الله بحماد فضمه وجعل يقبله ودموع الفرح تتساقط على وجهه وسلمان يقبل يد عبد الله ويهنئهما كليهما ، فانبسطت وجوه الجميع وزالت منها العبوسة ، وجلسوا وعبد الله بجانب حماد قابضـا على يده بـين يديه وحسان جالس الى جانبه وقد عجب لما رآه وسمعه ، فسألهـم عن أمرهم فحكى له عبد الله هذا الاتفاق الغريب . ثـم جلسوا يتحادثون

فقال سلمان : « لقد رأيت في وجه مولاي تغيرا كاد يحول بيني وبين معرفته فاني أعهد شعر وجهه طويلا مسترسلا فمالي أراه قصيرا ؟ » .

فضحك عبد الله وقال : « ان لهذا التغيير حديثا غريبا سأقصه عليك بعد أن أسمع حديثكم وما كان من أمر الاسد وضياع الفرس » .

- ١٩ -

وقعة مؤتة

قص سلمان حكايته مع حماد والاسد وكيف نجوا منه بتسلق الشجرة وما وقع بعد ذلك من حديث هند وأبيها وحب حماد لها ، ثم ما كان من خطبة حماد وما اقترحه عليه جبلة بن الأيهم مهرا لابنته وما لاقاه حماد في سبيل ذلك من الاسفار والاخطار حتى جاءا مكة وشهدا فتحها ، وكيف يئسا من وجود القرطين هناك حتى تجدد الامل بما علما من أنهما في خزانة النعمان بن المنذر في الحيرة .

وكان عبد الله في أثناء الحديث مصغيا صامتا وأمارات الاستغراب ظاهرة في وجهه كأنه سمع أمورا لم يكن يتوقع حدوثها ولا يرضاها ، ولكنه سكت وأخذ يقص عليهم حديثه فبدأ بوقوعه بالأسر في غسام ثم مسيره الى بيت المقدس ، ومقابلته هرقل أمبراطور الروم ، وما سمعه من حديث أبي سفيان ثم سفره معه ومشاهدته الفرس واستدلاله منه على فقد حماد ، وكيف رافقه أبو سفيان في مسبعة الزرقاء للتفتيش عن حماد وما شاهدوه من عظام الفرس الآخر وبعض الآثار ، حتى انتهى الى مسيره منفردا الى عمان ووقوعه أسيرا بين يدي الحجازيين الذين ساروا لمحاربة أهل الشام وما دار بينه وبين بعضهم عن سبب تلك الحملة

الى أن قال : « فلبثت أسيرا عندهم وأنا على مثل الجمر لأن أملي لم ينقطع من لقاء حماد ، على أني كنت في بعض الاحايين لا أرتاب في فقده وأحيانا أراجع ما شاهدته من الادلة على ذلك فلا أرى ما يقطع بوقوع القضاء ، فكان سجني في معسكر الحجازيين قيدا ثقيلا علي ، فبعد أن قضيت زمنا بجوار عمان علمت ذات يوم أن الروم قد جندوا جندا كبيرا يبلغ عدده نحو مائتي ألف وفيهم الروم والعرب من بني غسان ولخم وخذام وبهراء • فلما علم المسلمون بذلك خافوا الفشل لأن عددهم لا يزيد على ثلاثة آلاف ناهيك بما في جند الروم من العدة والسلاح • ثم أجتمع جند المسلمين في خيمة بن رواحة أحد أمرائهم وتشاوروا في الامر فقال أكثرهم : (نكتب الى رسول الله في المدينة نخبره الخبر ، فأما ان يمدنا بالرجال وأما ان يأمرنا بأمر فنمضي له) • فقام فيهم ابن رواحة وخطب خطابا أنهض هممهم فقال : (يا قوم والله ان التي تكرهون لهي التي خرجتم لها تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة • ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا انما هي احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة) • فقال الناس : (والله صدق ابن رواحة)• واشتدت عزائمهم وصمموا على الحرب ، وكنت أعجب لبسالتهم واقدامهم واتحاد كلمتهم وتفانيهم في سبيل نصرة دينهم •

« وبعد أيام سار الجند ، وسرت أنا فيهم مخفورا أرى كل حركاتهم وسكناتهم ، فما زلنا سائرين حتى دنونا من بلدة على مرحلتين من بيت المقدس يقال لها مؤتة ، وكان جند الروم قد عسكر هناك ، فالتفت الى ذلك الجند فاذا هو مالىء السهل هناك وفيهم الفرسان والمشاة ، ورأيت في وسط المشاة رجالا عليهم ملابس كثيرة الألوان تبهر النظر تتلألأ في ضوء الشمس ، فلم أكن أظن الحجازيين ينظرون الى ذلك الجند حتى يعودوا القهقرى وجلا ومهابة ، ولكن رأيت فيهم ثباتا

لم أر مثله في أسفاري كلها ، ومـا ذلك الا لوثوقهم بربهم وعدم مبالاتهم الموت في سبيل نصرة دينهم •

« وخلاصة القول ان المسلمين تقدموا تحت قيادة ثلاثـة من الامراء وساروا أمامهم مشاة على أقدامهم حتى التقـى الجيشان واتشبـت الحرب ، وكـان اللواء أولا بيد زيد بن حارثة فقاتل وهـو يعلم ضعف الجند ولكنه ظل مكافحـا حتى قتل طعنا بالرماح ، فتقـدم الامير الثاني وهو جعفر بن أبي طالب ، فقاتل وهو على فرس شقـراء فألجمهـا القتال وأحيط بها فنزل عنها جعفر وبقرهـا وقـاتل حتى قتل ، فـأخذ اللواء عبد الله بن رواحة وهو على فرسه ثم نزل عن فرسه وقـاتل حتى قتل فوقع الرعب في قلوب المسلمين وكادوا يفشلون لو لـم يقـم فيهم رجل لم أر مثله باسلا اسمه خالد بن الوليد وسمعت بعضهم يسميه سيف الله ، فجمع كلمـة الجند وهجـم هجمة واحدة فظـن الروم أن نجدة جاءت للمسلمين ، فاستولى الخوف على جند الروم وفشلوا وغنم المسلمون منهم شيئا كثيرا • ولكنهم لم يبقوا على الحرب فعـاد المسلمون يريـدون المدينة ، وكنت أنا في أثنـاء هذه الوقعة في حيرة شديـدة ولو كـانت الحياة عزيزة علي لفررت من المعسكر ساعة اشتغال المسلمين بالحـرب ولكنني وددت أن أصاب بنبلة أقتل بهـا فلم يقض الله بذلـك • فلمـا عاد المسلمون الى هنا عدت معهم أسيرا فأصابني في الطريق انحراف صحي فأصبحت وشعر لحيتي يتساقط وكذلـك شعر شاربي حتى لم يبق منه الا القليل ، والتقيت بشاعرنـا (وأشار الى حسان) فتعارفنا ودعـاني للاقـامة بداره فأقمت عنده كما ترون • وفي أثنـاء ذهاب الجند لفتح مكة زارني الحارث بن كلدة طبيب العرب فوصف لي دهنا من عشب فأخذ الشعر ينمو وأرجو أن يعود الى ما كـان عليه » •

فلمـا أتم عبد الله حديثه هنأ بعضهم بعضا ثم قـال حمـاد : « وأين

جوادي الآن ؟ » .

قال : « هو معي هنا فهل تريد أن تراه ؟ » .

قال : « نعم » . وخرجوا الى بستان بالقرب من المنـزل ، وكان الجواد مشدودا الى نخلة به فلما وقع نظره على صاحبه أخذ في الصهيل كأنه يرحب بقدومه . وتقدم حماد اليه فلمس جبهته وقبله بين عينيه ، ثم عادوا جميعا والفرح ملءقلوبهم الا حمادا فانه عاد الى تفكـيره في هند وأبيها والقرطين ، فلما وصلوا الى المنزل وجلسوا نظر عبد الله الى حماد وقال له : « ألا تزال مصمما على الاقتران بهند ؟ » .

قال : « نعـم يا أبتـاه ولا أظنني قادرا عـلى نسيانهـا بعد أن كان ما كـان » .

قال : « وهل نسيت نذرنـا لدير بحيراء ؟ لنقص شعـرك فيـه يوم الشعانـين ؟ » .

قال : « وما شأن هذا بمسألة الاقتران ؟ » .

قال : « ان له دخلا كبيرا فيها لأني سأقص عليك في ذلـك اليـوم أمورا ذات بال لها علاقة كبرى بأمر الزواج » .

فخاف حماد أن يكون هناك ما يحول بينه وبين هند فقـال : « وهل في السر ما يمنعني من هند ؟ » .

قال : « لا أقدر على التصريح بشيء من ذلك الآن ، ولـكن أحد الشعانين يكشف لك كل شيء » .

فقال : « ان يوم الشعانين بعيد فهل يسوغ لنا تقديم الموعد ؟ » .

قال : « كلا يا ولدي بل يجب علينا اتمام النذر كما هو » . فوقع حماد في حيرة وأوجس خيفة لئلا يكون في قصة يوم الشعانين ما يحول بينه وبين هند ، فود أن يطلع على حقيقة ذلك ليعلم كيف يتصرف ، وكان عازما على الحيرة للبحث عن القرطين ، وظن أن أبـاه سيكون أكبر

له على ذلك لكثرة أصدقـائه هناك فأصبح بعدما سمعه منه لا يستطيع مكاشفته بـالامـر اذ صرح بأنـه لا يخطو خطـوة في سبيل الاقتران قبل يوم الشعانين • فصمت برهة يفكر في الامر ، فخطر له أن يستطلع رأي سلمان على حدة لعله يكون عالما بشيء من ذلك السر •

فلـما كان المساء خلا الى سلمان وسأله عما يعلمه من أمر يـوم الشعانين ، فقال له : « ان سر ذلك اليوم مكتوم عن كل الناس ، وقـد قضيت مع سيدي أبيك أعواما منذ كنت طفلا حتى صرت شابـا وأنا أسمع أنه نذر قص شعرك في دير بحيراء عندما تبلغ هـذه السن وأنـه سيطلعك في ذلك اليوم على أمور تهمك كثيرا ويكون لهـا علاقة كبرى بمستقبل حياتـك • وأعترف لـك بأني بذلت قصـارى جهـدي في استطلاع شيء من ذلك السر فلم أوفق ، وتراني أكثر رغبة منك في معرفته فما لنا الا الانتظار الى يوم الشعانين » •

فقال : « وكيف أقضي هذه الأيـام ؟ وماذا يكون شأن هند ؟ هل يخفى عليك ما بيني وبين هند من المحبة ، وقد تركتهـا على موعـد من اللقـاء فمضت سنة منذ تركتها ولم أفعل شيئا مما تعهدت لها بـه ، ولم نقف للقرطين على أثر ولا أرى أن أعود اليها الا والقرطـان في يدي ، وكان الامل معقودا بالبحث عنهما في العراق ولا نستطيـع ذلـك الا بمساعدة أبي ، وقد سمعت قوله فكيف أقضي هذه المدة وأنـا بعيد عن هند ، أتظنها لا تزال على عهدي ؟ » •

قال سلمان : « أما ما عرفته من حبهـا لك وثباتها في حبك فلا يترك محلا للشك في بقائها على عهدك وانها لا يمكن أن تتحول عنك يمنة ولا يسرة • ولكنني أرى أن تكتب اليها كتابا أو تنفذ اليها رسولا تبثهـا ما عندك وتستمهلها في انفاذ المهمة التي أنت سائر بشأنها وتطلب منهـا جوابـا ، ومن جوابها تفهم ما يكنه ضميرها » •

فقال حماد : « وهل تظن ان أبي يبقى هنا الى يوم الشعانين ؟ » .

قال : « لا أظنه يميل الى البقاء لان أهل المدينة لا يفترون عن الاستعداد للحروب أما لغزو أو دفع مهاجم ولا وطر لنا في ذلك . فالغالب انه يفضل الذهاب الى بصرى يقيم فيها بقية هذا العام » .

قال : « فاذا كنا ذاهبين الى بصرى فليس ثم حاجة الى المخابرة لأني ألاقيها هناك واجتمع بوالديها وأروي لهما ما وقع فما عليك الا اقناع أبي بالذهاب الى البلقاء » .

قال : « حسنا ولكنك اذا أردت مقابلتها هناك فليكن ذلك على غير علم من أبيك » .

قال : « ننظر في ذلك » . ثم افترقا وأخذ سلمان في تحريض مولاه عبد الله على الخروج من المدينة والاقامة بقية ذلك العام بالبلقاء ولا سيما ان الحارث قد مات وخرج النفوذ من بين يدي ابنه ثعلبة ،

فوافقه عبد الله على ذلك ، وقضوا بضعة أيام في المدينة يشاهدون ما أحدثه المسلمون فيها من الابنية وأحسنها المسجد الجامع . على أنهم كانوا يشاهدون في كل يوم شيئا جديدا من الاعدادات الحربية للغزو أو غيره مما زادهم تهيبا لجند المسلمين وحسبوا لمستقبل دولتهم حسابا كبيرا .

ثم أخذوا في الاستعداد للمسير وودعوا حسانا ، فأرفقهم بدليل ، وساروا يقطعون البراري والقفار حتى أبصروا بصرى فتشاوروا في مكان ينزلون فيه فاتفق رأيهم على الاقامة بدير بحيراء فاتخذوا فيه غرفة أقاموا بها .

أما حماد فان عودته الى ذلك الدير أذكرته أمورا هاجت أشجانه فتذكر اجتماعه بهند هناك لأول مرة وما كان من مجيء ثعلبة بغتة الى آخر ما حدث له . ثم عزم على المسير الى جبلة للسلام عليه ثم الى صرح

الغدير لملاقاة هند وبثها ما في ضميره وما بلغت اليه مهمته وما يرجوه من العثور على القرطين في العراق ، ولكنه كان كلما تصور وقوفه أمامها موقف المعتذر أو المستمهل اشمأزت نفسه وعسر عليه ذلك الموقف .

- ٢٠ -

- في صرح الغدير

فلنترك حمادا ووالده وسلمان ولنعد الى صرح الغدير لنرى ماذا جرى لهند بعد سفر حماد ، وكانت قد ودعته يوم سفره وقلبها واجف عليه لعلمها أنه سار في تلك المهمة والخطر ظاهر فيها ، ولكن ثقتها بشجاعته وتعقله هونت عليها الامر لأول وهلة ثم اشتغلت عنه بالاضطرابات والمخاوف أثناء حرب مؤتة وحمدت الله لغيابه خوفا عليه أن يصاب بسوء اذا تعرض لسهام الحجازيين .

فلما انقضت الحرب وعادت البلقاء الى السكينة عادت هي الى الاضطراب واستبطأت حمادا لانها كانت تتوقع رسالة منه أو خبرا عنه ، فلما طال الامد ولم تسمع عنه شيئا انقبضت نفسها واستولت عليها المخاوف .

وكانت والدتها تراقب حركاتها وسكناتها وقد أدركت ما بها فأخذت تشاغلها بالآمال وتواسيها بالوعود وهي لا يهدأ لها بال ولا ترتاح الى حديث . على أنها كانت تعلل نفسها بالذهاب الى دير بحيراء أيام مرور قوافل الحجاز به لعلها تسمع من أحد حديثا يطمئنها . وصارت تستأنس بالحجازيين وترتاح الى كل قادم من الحجاز ولا سيما

الذين يقدمون من مكة ، ولكنها كانت كلما سمعت اسم الكعبة اختلج قلبها واضطربت جوارحها وهي مع ذلك لا يهدأ لها بال الا بالسؤال عنها والبحث عن أخبارها ، حتى التقت يوما بقافلة قادمة من مكة فسمعت الناس يتحدثون عن فتحها وما كان من دخول المسلمين اليها عنوة وقتل بعض أهلها ، فارتعدت فرائصها وتصورت حمادا في تلك المدينة عرضة لسيوف المسلمين ، فازداد بلبالها وودت لو أنها تطير الى الحجاز فترى ما تم لحبيبها .

ثم رأت أن ترددها الى الدير واستماع تلك الاحاديث لا يزيدها الا قلقا فانقطعت عنه وانزوت في صرح الغدير لا ترى أحدا ولا تسمع خبرا مخافة أن يكون فيما تسمعه نبأ يسوءها . ثم سمعت بموت الحارث بن أبي شمر فأحست بارتياح لعلمها أن موته يقلل من نفوذ ابنه لدى أبيها . على أن ذلك لم يزد شيئا من أسباب سعادتها فالهموم ما زالت تتراكم عليها وليس لديها من تشكو همها اليه غير والدتها ، لكنها كانت تخاف مخاطبتها في هذا الشأن لئلا تسمع منها ما يزيدها يأسا ففضلت الكتمان وهي مع ذلك لا تزداد الا نحولا وانقباضا وميلا الى الخلوة .

وكانت كلما خلت الى نفسها نظرت الى الأساور في يدها وجعلت تقلبها وتتنسم منها رائحة حماد ، فاذا اشتد بها الهيام بكت وتحرقت ونقمت على والديها لأنهما أبعدا حمادا عنها ، وخيل لها أنهما انما أرسلاه الى تلك الأصقاع للتخلص منه . وما زال هذا الفكر يتمكن منها حتى أصبح بمنزلة الاعتقاد وصارت تنفر من مجالسة والدتها وتسيء الظن بها فلم يزدها ذلك الا رغبة في الخلوة والانقطاع عن الناس .

وأما والدتها فقد كانت لنباهتها وحدة ذهنها لا تغفل عن خاطر يمر في ذهن ابنتها ، وكانت تعذرها على ذلك لانها شعرت هي أيضا بارتكابها

أمرا قبيحا بارسال حماد في مهمة خطرة الى هذا الحد . وقد زاد في ندمها خبر وفاة الحارث بن أبي شمر وضعف نفوذ ثعلبة مع كره هند له ، فتحققت عند ذلك أن هندا يستحيل عليها الاقتران به ، اذ أصبح بعد موت أبيه وضيع المنزلة ولم يعد جبلة يخشى بطشه لو رد طلبه .

فأصبحت سعدى بسبب ذلك شاعرة بخطأ فظيع ارتكبته ازاء ابنتها فحرمتها شهما يحبها وتحبه ، وصارت هي أكثر رغبة من هند في عود حماد ، وصممت على مساعدته اذا عاد ولو خائبا في الحصول عليها . على أنها لم تكن تستحسن مخاطبة هند في هذا الشأن لئلا نوطد آمالها ثم قد لا يعود حماد من الحجاز فيكون ذلك سببا في زيادة أحزانها فصبرت لترى ما يأتي به القدر ولكنها ما برحت تتنسم الاخبار لعلها تسمع جديدا .

أما جبلة فقد كان في البلقاء مشتغلا عن هذه الامور بما كان من الحرب في مؤتة ، فلما رجع المسلمون وتوفي الحارث زاد اشتغاله وعظم اهتمامه بضم قبائل العرب في الشام والبلقاء اليه ، لأن العرب المتنصرة هناك قبائل وبطون لكل منها راية وأمير ، وكانت في زمن الحارث منقسمة الى فئتين : احداهما تابعة للحارث والاخرى لجبلة ، فلما توفي الحارث اشتغل جبلة بضم بعض قبائل الحارث اليه ان لم يكن كلها ، ولم يطمع في ذلك الا لعلمه بضعف ثعلبة عن القيام بما قام به أبوه قبله ، ولاعتقاده أن أمراء القبائل أنفسهم يكرهون ثعلبة لدناءته وشراسة أخلاقه . فوقع بسبب ذلك تنافر بين جبلة وثعلبة ، وأحس هذا بضعفه وخاف العاقبة لكن سوء خلقه لم يهده الى سبيل يسترضي به عمه فأخذ يطعن فيه أمام الامراء يريد تحقيره في أعينهم فلم يحتقروا الا ثعلبة . وبلغ ذلك جبلة فازداد سعيه حتى أخرج كل العرب الغساسنة من حوزة

ثعلبة ولم يترك منهم الا شرذمة قليلة .

فازداد ثعلبة لؤما وسفاهة وأخذ يطعن في جبلة وابنته وسائر أهل بيته ، فندم جبلة لما وقع منه في حق حماد وأسف لانفاذه في تلك المهمة الخطرة ، ولم يزدد مع الزمان الا ندما ولكنه كتم ندمه ينتظر ما يجيء به القدر ، على أنه اعتزم في سره أن يكفر عما ارتكبه في حق حماد بأن يزوجه بابنته سواء أعاد بالقرطين أم لا ، لما في ذلك من النكاية بثعلبة .

★ ★ ★

وما زالت هذه حال هند حتى كاد ينقضي العام ولم تسمع عن حماد خبرا فترجح لديها أنه أما قتل أو فشل وشق عليه الرجوع خائبا فهاجر الى مكان بعيد ، أو لعله فتك بنفسه فرارا من أثقال الفشل وتخلصا من عذاب الحب . فتراكمت عليها الهموم ، وفي ذات يوم قضت هند نهارها في مثل هذه الهواجس ووالدتها تسارقها اللحظ وتغتنم فرصة لتخاطبها وهي تتجاهل وتبتعد ، فلما سدل الليل نقابه دخلت الى غرفتها وأوصدت الباب وراءها وجلست الى النافذة المطلة على الحديقة وألقت جنبها على وسادة وجعلت رأسها على كفها ، وكانت الليلة مقمرة والجو صافيا والبدر عند أول بزوغه من وراء التلال وقد أرسل أشعته على الاودية والجبال . فأخذت تتأمل فيما أحدثه من الظلال الطويلة على السهول والبساتين ، ونظرت الى حديقة القصر فرأت أشجارها متشامخة تناطح السحاب لكن ظلالها أطول منها كثيرا وقد وقعت تلك الظلال على ما هنالك من أغراس الريحان وغيره من أنواع العطريات فحجبتها عن البصر ولكنها لم تحجب رائحتها فتضوع القصر منها . وقد هدأت الطبيعة وأوت الطيور الى أوكارها

وسكنت الريـاح فلم تسمع الا خرير مـاء الغدير في وسط البستان ونقيق الضفادع • ونظرت الى ضفاف ذلك الغدير فرأت أشجـار الحور مرتبة صفوفا كأنها عذارى جئن للاستقاء فهالهن سكون الطبيعة فبهتن ووقفن على ضفاف الغدير صامتات •

ثم مالبث القمر أن ارتفع وظهر وجهه واضحا فاستقبلته هند وجعلت تتأمله فأحست بارتياح الى منظره ، فتذكرت ارتياحها الى رؤيـة حبيبها فاختلج قلبها فعادت الى الانقباض فأرسلت نظرها الى القمر لعلها تستريح ذلك الارتياح فامتنع عليها •

ولكنها ما لبثت أن تأملت وجه القمر حتى ترقرقت الدمـوع في عينيها وأخذت تخاطبه قائلة : « أمشرق أنت على منازل مكة وجبالها الآن ؟ وهل حبيبي هناك ينظر اليك ويستقبلك بوجهه ، ليته يفعـل فتلتقي طرفانا عندك فنجتمع على بعـد الدار » •

الى الطائر النسر انظري كـل ليلة ... فاني اليـه في العشيـة نـاظر
عسى يلتقي طرفي وطرفـك عنـده ... فتشكو اليـه مـا تكن الضمائر

« نعم اني أرى على وجهك صورة كأنهـا ظل وجهه فهل يرى هو مثل ذلك أيضا » •

ثم عادت الى البكـاء فأطلقت لعينيها عنـان الدموع ولم تتمالك عن الشهيق وهي تظن نفسها وحدها لا يسمعهـا أحدا • ولكنها ما لبثت أن سمعت قارعا يقرع الباب فعلمت ان أمها سمعت صوت بكائها فجـاءت لتعزيتها ، فودت هند البقاء في خلوتها فتظـاهرت بالنوم ولم تنهض لفتح الباب • فقرعته أمها ثانية وألحت عليهـا أن تفتحه فمسحت جفونهـا ونهضت ففتحت الباب ولم يكن في الغرفة نور غير ضوء القمر الداخل من النافذة • فدخلت سعدى وهمت بهند وضمتها وجعلت تقبلهـا وتنظر الى وجهها لتتحقق بكـاءها وهند صامتة مطرقة لا تبدي حراكـا فقالت

سعدى : « ما بالك يا هند . ما الذي يبكيك ؟ لماذا لا تشكين الي همك . ألست أمك ، ألا تعلمين اني أحبك ؟ » .

فلبثت هند صامتة ولكنها نظرت الى أمها بطرف عينها كالمعاتبة ولم تفه بكلمة ، ففهمت سعدى انها تعاتبها على ما ارتكبته في شأن حماد ولكنها أرادت مغالطتها فأخذتها بيدها الى السرير وأجلستها بجانبها وقالت : « ما بالك لا تجيبيني يا هند ، أتكتمين عني شيئا ؟ ألم أكن خزانة أسرارك . قولي ما يبكيك ؟ » .

فنظرت هند اليها ، وكان ضوء القمر واقعا على وجهها فرأت سعدى الدموع تتلألأ وهي ساقطة من عينيها فانفطر لها قلبها وهمت بها ثانية وضمتها وتناولت منديلها وجعلت تمسح لها الدموع ، فحولت هند وجهها نحو النافذة وتنهدت وهي تنظر الى القمر وضيائه على السهول والجبال .

فنهضت سعدى ووقفت بينها وبين النافذة وقالت لها : « قولي يا هند ما الذي يبكيك ، لقد قطعت نياط قلبي ولم يعد لي صبر على بكائك الا تعرفين قلب الأم ؟ » .

فوقفت هند ثم مشت نحو النافذة ولكن أمها اعترضت طريقها وأمسكت بيدها ثم وقفت وقفة من ينتظر جوابا ، فنظرت هند اليها شزرا وقالت : « نعم يا أماه اني أعرف قلب الأم ، ولكن الأم لا تعرف قلب ابنتها » .

فتحققت سعدى مرادها وقالت : « ومن قال لك يا هند اني لا أعرف قلبك ؟ » .

فقالت : « لو عرفت قلبي ما سببت له هذا الشقاء لأني أعرف حنوك » .

قالت : « كيف لا أعرف قلبك وقد كشفت لي غوامض أسراره » .

قالت : « اذن عرفت حاله ولم تشفقي عليــه، ، سامحــك الله وسامح أبي » • وشرقت بدموعها •

فابتدرتها سعدى باظهار الاستغراب وقالت : « كيف تقولين ذلــك يا هنــد ؟ كيف لم نشفق على قلبك وكل ما حصــل انما حصل بمصادقتك ورضاك لما فيه من الفخر لك » •

فهزت هند رأسها وهمت بالجواب ثم سكتت ، فأتمت أمهــا الكلام فقالت : « ومع ذلك فان الاحوال قد تغيرت بسوت الحارث واذلال ثعلبة ، فسواء أجــاء حماد بالقرطين أم لم يجــيء بهمــا فليس ثــم مــن يقف في سبيله » •

فلما سمعت هند اسم ثعلبة ارتعشت أطرافها وقالت : « آه يا أمــاه لقد قضى الامر • أين حماد الان ؟• آه أيــن هو ؟• لقد انقضى عام منذ سار الى مكة ولم نسمع عنه شيئا » • ثــم حولت وجههــا نحو النافذة وقالت وهي تبكي : « آه يا حمــاد آه !• سامح الله من كــان سببا في بعادك • ابكي يا اماه على هند ، ابكيها وارثيهــا ولا يتعب ضميرك أو تندمي على ما حدث لي وله على يدك ويد أبــي ، انما هي الاقدار قــد كتبت علينا هذا الشقاء ! » • ثــم قالت وقد غلب عليها الشهيق وعــلا صوتها : « آه يا حمــاد ! • حبيبي أيــن أنت الان ؟ وعــلى الارض أنت أم في السماء ؟ من لي بمن يخبرنــي بمكانــك لكي أطير اليك فاما أن أعيش بقربك أو أدفن تحت قدميك فقد كفانــي ما سببته لك مــن الشقاء وما جزاء عملي هذا غير الموت ! »•

قالت ذلك ورمت نفسها على السرير وأمها لا تزال ممسكة بيدهــا تحاول تلطيف ما بها • فلما ألقت نفسها خافت سعدى أن يغمــى عليهــا فبادرت الى الماء لترشها به وأمسكتها بيدها وجعلت تخاطبها وقلبها يتقطع ، ولولا اشتغالها بتعزيتها لكانت هي المغمى عليهــا لا محالة ولكن اشتغال

الانسان بمن يحبه ينسيه نفسه . فهمت بها وخاطبتها فتحققت أنهـا لـم يغم عليها فحاولت اجلاسها وجعلت تقبلها وهند مشتغلة بالبكاء والشهيق وبدهـا على وجههـا .

فرأت سعدى أن تتركها هنيهة ريثما يهدأ روعهـا ، فلبثت صامتة مطرقة تفكر في أمرهـا حتى اذا آنست منها سكينة وهدوءا ، جـاءت بكأس من الماء وقدمتها اليها لتشرب ، فشربت وهي مطرقـة خجـلا لمـا ظهر من عواطفها رغـم ارادتها . فابتدرتهـا أمها قائلة : « خففي عنك يا هند فانك مثال التعقل والرزانة » .

فظنت هند أنها توبخها فقالت : « كفاني توبيخـا فقد علمت أنـي أتيت أمرا يعاب عليه أمثالـي ولكن الكأس قد طفحت والامر نفذ » .

قالت سعدى : « لم ينفذ شيء بعـد يا هند ان حمادا نصيبـك ، وسواء أجاء بالقرطين أم لا فانه لك وأنت لـه » .

فتنهدت هند وقالت : « هذا اذا قـدر لنا أن نراه ولا أظنـه اذا فشل في مهمته الا ضاربا في بطن الارض حتى لا يعـود الينـا صفـر اليدين ! » .

قالت : « تدبري الامر بالصبر والحكمة واتكلي على الله انه قادر على كل شيء وهلم بنا تتضرع اليه أن يعيده سالما » .

فتأملت هند في حديث أمها فترجح عندهـا أنها تقول الصـدق ، وسرها ما سمعت عن الرضا باقتران حماد بهـا سواء أجاء بالقرطـين أم لا ، ولكنها أرادت أن تستطلع ما يكنه أبوهـا فقالت لأمها : « هبي أنك رضيت بذلك شفقة على صباي فهل يرضى أبي بـه ؟ » .

قالت : « ان أباك أكثر رغبة مني في هذا ولا سيمـا بعد أن وقـع ما وقع بينه وبين ثعلبة الخائن من النفور على أثر وفـاة الحارث فطيبي نفسا وقري عينـا واتكلي عـلى الله ولنطلب اليه تعـالى أن يحفظ لـك

خطيبك ويعيده اليك سالما معافى وننسى متاعبنا » .

فسكن روع هند وبعد هنيهة سارت الى فراشها وسلمت أمرها الى الله .

★ ★ ★

أصبحت هند في اليوم التالي وقد عاودها الاكتئاب ، فودت أنها لم تستيقظ أو أنها تظل نائمة فلا تفيق الا على صوت حماد ، فلبثت في الفراش تلتمس النوم وأخذت تتقلب فيه عبثا . فلما كان الضحى جاءت أمها تتفقدها ، فلما رأتها في الفراش انشغل بالها واستطلعت السبب فشكت لها تكاسلها عن القيام ، فجلست الى جانبها تحادثها بما يذهب عنها الهواجس وهند تسمع وأفكارها تائهة .

فلما كانت الظهيرة سمعتا صوتا خارج الصرح ينادي : « من نذر نذرا لنجران المبارك ؟ » . فخفق قلب هند لذلك الصوت وهبت من فراشها بغتة ، وبغتت أمها أيضا لانهما تنسمتا صوت سلمان ، وتذكرتا قدومه اليهما قبلا بشأن حماد ، فهرولتا الى النافذة فرأتا راهبا على مثلما رأتا سلمان قبلا فتحققتا أنه هو بعينه ، فخالت هند نفسها في منام لقدومه عليهما بغتة على غير انتظار ، فنادتاه فتحول ودخل ، فخرجت سعدى لاستقباله وظلت هند في الغرفة جالسة وركبتاها ترتجفان من التأثر ولم تستطع الوقوف الا بعد هنيهة وقد سمعت وقع أقدام الرجل مع أمها داخلين الى القصر فوقفت لاستقبالهما . فوصل الرجل الى باب غرفتها وحالما وقع نظرها عليه عرفته فعلتها البغتة ولم تعد تعلم كيف تكلمه ، فابتدرها هو بالسلام وتبسم وهم بتقبيل يديها فمنعته وصاحت : « ما وراءك يا سلمان ؟ » . وكانت والدتها قد أغلقت الباب . فقال : « ما ورائي الا الخير يا سيدتي ، كيف أنت ؟ » .

قالت : « نحن في خير وكيف حماد وأين هو ؟ » .

قال : « هو في خير ، وقد تركته في دير بحيراء ينتظر أمرك ويدعو لك » .

قالت : « هل هو في خير وعافية ؟ » .

قال : « نعم يا مولاتي أنه في خير وقد التقى بأبيه في المدينة » .

فخرت هند الى الأرض فقبلتها وقالت : « نحمد الله على سلامته » . قالت ذلك وقد انبسط وجهها وأبرقت أسرتها .

فقالت سعدى لسلمان : « أين حماد ، ولماذا لم يأت معك ؟ » .

قال : « انه بقي في الدير خجلا من مقابلتكم » .

قالت : « وما الذي يخجله ؟ اننا لا نريد منه شيئا غير سلامته » .

قال : « والقرطان ؟ » . قالت : « لا حاجة بنا اليهما فقد زال السبب الذي دعا الى طلبهما » .

قال : « ان أمر القرطين قد عاد علينا بالفشل فقطعنا الفيافي والقفار حتى أتينا الكعبة فلم نقف لهما على خبر » . وروى لهما حكاية سفرهما من يوم خروجهما من صرح الغدير الى أن التقيا بعبد الله في المدينة وما عزما عليه من البحث عن القرطين في العراق .

فقالت هند : « دعنا من الاقراط فقد أغنانا الله عنها » .

فعجب لذلك التغيير وأراد أن يعلم اذا كان جبلة على رأيهما فقال : « وهل سيدي الملك جبلة في خير ؟ » .

قالت سعدى : « نعم هو في خير ينتظر قدوم صهره حماد بفارغ الصبر » .

فلما سمع قولها (صهره) زاد اطمئنانا فقال : « وهل هو أيضا أغفل أمر القرطين ؟ » .

قالت : « انه لا يريد شيئا غير سلامة ولدنا حماد فادعه الينا

لنـــراه » .

قال : « انه يود ذلك من صميم قلبه » .

قالت : « فليأت في أقرب وقت ، ولكننـــا نود مجيئه وجبلة هنا ليفرح بعودته ، وليكن أبوه معه أيضا ليتم الفرح » .

ففرح سلمان بهذه الأخبار ، ولكن خاطرا مر بذهنـــه ، فأسكتـــه بغتة فسألته هند : « مـــا بالك يا سلمان ؟ ما الذي أسكتك ، هل هناك ما يمنع مجيء حماد ؟ » .

قال : « كلا يا مولاتي انه ينتظر هذا الاجتماع انتظـــار الظمآن للماء الزلال ، وهـــو انمـــا تحمل الاخطـــار ومشاق الاسفـــار طمعا في ذلك ولكنـــه .. » .

فبغتت هند وسعدى معا وقالتا : « ما الذي يدعو الى ترددك ، قل يا سلمـــان لقد شغلت بالنا ؟ » .

قال : « لا يخفى عليكما أن سيدي حمادا تشرف بخطبـــة سيدتي هند وأبوه لا يعلم ، ولمـــا علم بذلك يوم اجتماعنـــا في المدينة سر كثيرا ، ولكنه استمهـــل حمـــادا في اتمـــام هـــذا الامر ريثما يـــأتي يـــوم الشعانين » .

قالت سعدى : « وما علاقة يوم الشعانين بذلك ؟ » .

قال : « لا علاقة له به الا من حيث النذر ، فقد علمتم ان سيدي حمادا منذور منذ ولادته أن يقص شعره في دير بحيراء على أن يكـــون ذلك يوم الشعانين بعد بلوغه الحادية والعشرين من عمره . فلمـــا حل اليوم المعين منذ عامين حدث ما حدث مما تعلمـــانه ولم يتمكـــن مـــن الوفاء بالنذر ، فلمـــا عاد من هذا السفر ذكر له سيدي عبد الله أبـــوه أنه سيقص شعره في يوم الشعانين القادم أي بعد بضعة أشهر ، وطلب اليه الا يباشر عملا مهما قبل ذلك اليوم ، لأنـــه سيطلعه على أمور تهمه ،

ولكنني لا أظن لها علاقة بهذا الامر » •

فلما سمعت هند ذلك الكلام استعاذت بالله مما هو مخبأ لها في عالم الغيب ، وقالت في نفسها : « لعل أمامنا عراقيل أخرى غير التي انقضت » •

فقالت سعدى : « ولكن ذلك لا يمنع سيدك عن الحضور لتطمئن قلوبنا ويهدأ بالنا بلقاء بعضنا بعضا ، وقد أزيلت العقبات بموت الحارث وذهاب نفوذ ثعلبة » •

فقال سلمان : « نحمد الله على نعمه ولا أقدر أن أصف لكم مقدار سرور مولاي حماد بهذه الاخبار ، فعينوا المكان والزمان اللذين تريدان الاجتماع بهما لأخبر سيدي » •

قالت هند : « فليأت حماد أولا لنراه ، ثم نعين يوما يجتمع فيه الوالدان ، لأننا نخشى اذا انتظرنا اجتماعهما أن يطول الاجل فان أبي في البلقاء ولا يستطيع المجيء الا بعد بضعة أيام » • وأرادت هند بذلك أن تجتمع بحماد على انفراد فتستوضح أمر النذر وعلاقته بالاقتران •

فقال سلمان : « سأذهب لأدعوه وأظنه يكون هنا في صباح الغد ان شاء الله » •

فخرج وقد ندم على ما فرط منه في حديثه عن عبد الله ، وعلم أنه أخطأ فيما ذكره في شأن النذر وخاف أن يشق ذلك على حماد فعول على التخلص من هذه التبعة بالحيلة فأسرع حتى أتى الدير في مساء ذلك اليوم وكان قد سار في هذه المهمة ولم يخبر عبد الله لعلمه انه لا يريد ذلك •

فلما وصل الى الدير كان حماد في انتظاره فاستقبله وهو ينظر الى وجهه لعله يقرأ على ملامحه ما يبشره فرآه يبتسم ووجهه منبسط

فرحب به وسأله عن الخبر فقال : « أبشر يا مولاي ان الله قد محا كل شقاء كتب علينا ، وزالت كل الموانع التي كنا نخاف وقوعها بينك وبين هند » .

فقال : « وكيف هند ؟ هل هي مسرورة برجوعي ؟ وهل علمت اننا لم نعثر على القرطين ، وماذا قالت ؟ » .

فضحك سلمان وقال : « ان القرطين لم يعد لهما دخل في أمر اقترانكما ، فقد تغير وجه المسألة بموت الحارث بن أبي شمر » . وقص عليه الخبر الى أن قال : « واذا شئت الاقتران في صباح الغد تم ذلك لأن الفتاة وأبويها راضون بك ولا يريدون منك شيئا وأما هند فأنت تعلم قبلها » .

قال : « وهل طلبت مواجهتي ؟ » .

قال : « كيف لا ؟ وقد طلبت أيضا أن يكون مولاي أبوك معك ، على أن يكون الملك جبلة موجودا ليتم تعارفهما ، ولا شك ان اقترانك بهند فضلا عن أنه من أهم أسباب سعادتنا ، سيكسبنا نفوذا لدى ملك غسان » .

فقال : « ولكنك تعلم ان أبي لا يرضى الذهاب معي في هذا الشأن » .

قال : « أعلم ذلك وقد ذكرته أمام سيدتي هند » .

فبغت حماد وقال : « كيف ذكرته ؟ وماذا قلت ؟ » .

قال : « ذكرته بأسلوب لطيف فذكرت ان سيدي عبد الله سر كثيرا بخطبتكما ولكنه يود الوفاء بالنذر قبل عقد القران » .

قال حماد : « أخشى أن تكون هند قد فهمت شيئا يحملها على اساءة الظن » .

قال : « لا أظنها فهمت شيئا من ذلك ، وعلى كل فانك ذاهب اليها

في صباح الغد ، وقد أجلنا اجتماع الوالدين الى فرصة أخرى ، فاذا اجتمعنا فأفهمها الحكاية كما تريد » .

قال : « اذن نذهب الى صرح الغدير في صباح الغد ، هـل ترى أن نخبر أبي ؟ » .

قال : « أرى أن نخبره بأننا ذاهبون لطمأنة أهـل الصرح بعودتنا دون أن نتحدث في شأن الخطبة أو الاقتران » .

قال : « هذا هو الصواب » .

وفي مساء ذلك اليوم خاطب حمـاد أباه في أمر هند وقـال مظهرا سروره : « ان وفاة الحارث ربما سهلت أمر الاقتران بها ، وعدل أبواها عـن طلب القرطين » .

وظل أبوه ساكتا فقلق وعـاد يقول : « ألم تسر بذلك يا سيدي ؟ » .

فقال عبد الله : « اني مسرور لسرورك ، ولكنني لا أزال ألح عليك التزام التريث حتى يأتي يوم الشعانين ونفي بنذرنا » .

قال : « أعاهدك على ألا أباشر أمرا قبل ذلـك اليوم . ولكنني عازم على الذهاب الى الصرح صباح غد لمقابلة هند وأمها ، وأعتقـد أنهما تودان مشاهدتك » .

قال : « دع أمر ذهـابي الى ما بعد يوم الشعانين . ولا بـأس بأن تذهب أنت غدا على ألا تمضي أمرا كما أخبرتك » . قال : « حسنـا يا مـولاي » .

وفي صباح اليوم التالي ، ركب حماد وسلمـان جوادين وقصدا الى صرح الغدير .

وكـانت هند لم تنم ليلتها الا عند الفجر لعظم تأثرها بقدوم حماد ، ثم أفاقت والشمس قد طلعت فظنت أنهـا أبطأت في الفراش ، وخافت

أن يكون حماد قد جاء وهي نائمة ، فنهضت واغتسلت ولبست ثيابها ، ثم عادت الى غرفتها ، وجلست خلف نـافذة تشرف عـلى طريق بصرى وعيناها شائعتان نحو الافق لعلهـا ترى حمـادا قادمـا ، وكلمـا رأت شبحـا أو ظـلا أو سمعت صوت صهيل أو وقع أقـدام خفق قلبها لعظم تأثرهـا .

أما سعدى أمها فأوصت الخدم باعداد ما يلزم للضيافة من الذبـائح ونحوها ، ولما فرغت من ذلك فكرت في هند ومـا يكون من حالهـا عند ملاقـاتها حمادا بعد طول غيبته ، فخافت عليها شدة تـأثرهـا ، ورأت أن تسير اليها لتذهب ما بهـا من قلق الانتظار .

وسمعت هند وقع أقدام أمها فنهضت من مجلسها خلف النـافذة واستقبلتها باشة ، فابتدرتها سعدى قائلة : « مـا بالك منفـردة يـا هند ؟ أظنـك تتمنين عدول حمـاد عن المجـيء » . فضحكـت ولـم تجب .

فعادت أمها وقالت : « هيا بنا الى الحديقة تتنسم رائحة الازهار لأن بقاءك هنا ممل » . قالت ذلك وأمسكت بيدهـا ، ومشتـا حتـى نزلتا الى البستان وأوغلتـا بين الأشجار ، وهنـد تختلس النظـر الى الطريق من خلال الغصون لعلهـا ترى حبيبها قادمـا ، ولكـن أمهـا سارت بها في الحديقة حتى غابت الطريق عن نظرها ، فحدثهـا قلبهـا بالرجوع الى القصر لئلا يصل حماد في أثنـاء غيابها ، ولكنها لم تجرؤ على مصارحة أمها بذلك .

وفيما هما سائرتان سمعتا صوت صهيل عرفت هند أنـه صهيل جواد حماد ، فخفق قلبهـا وهمت بالرجوع ، وأدركت ذلـك أمهـا فتجاهلت وقالت لهـا : « دعينا هنـا فأنه لا يلبث أن يـأتي فنراه » .

وقد أرادت سعدى أن يكون الملتقى على انفراد مخافـة أن يحدث في

أثناء ذلك الاجتماع ما لا يستحسن اطلاع أهل القصر عليه .

★ ★ ★

سكتت هند ولكنها ما فتئت تنظر من خلال الأشجار نحو باب الحديقة تنتظر مجيء حماد بصبر شديد ، ولم تمض هنيهة حتى رأته قادما وعلى رأسه الكوفية والعقال وقد تقلد الحسام تحت عباءة حريرية مزركشة بالقصب ، فلما وقع نظرها عليه زاد خفقان قلبها واصفر وجهها ثم ما لبثت أن علته الحمرة . أما أمها فتقدمت حتى التقت بحماد وسلمت عليه ، فهم بتقبيل يدها احتراما فمنعته ، وكانت هند لا تزال واقفة قلبها يحدثها بالمسير نحوه ولكن الحشمة والحياء منعاها . فسارع هو نحوها ومد يده مسلما ووجهه يطفح سرورا وعيناه شاخصتان اليها تتقدان ذكاء وهياما .

فمدت يدها وهي تنظر الى الأرض خجلا ولكن الابتسام غلب عليها ، ولما أمسكت يده شعرت بقسوة انبثت في كل أعضائها ، ثم توردت وجنتاها وأبرقت أسرتها ، فقال حماد : « كيف أنت يا هند ؟ لقد أطلت الغيبة عنكم ، ومع ذلك عدت بخفي حنين » .

فغلب عليها الحياء ولكنها نظرت اليه بعينين براقتين تنبعث أشعة الهيام منهما وقالت : « لا حاجة بنا الى الخفين ولا القرطين ، وحسبنا عودتك سالما . فالحمد لله على ذلك » . قالت ذلك وهي تبتسم ودموع الفرح تتناثر من عينيها ، فأرادت اخفاء دموعها فتحولت نحو شجرة بالقرب منهما تحتها مقاعد من حجر معدة للجلوس ، وتبعها حماد وسعدى ساكتين ، على أن قلبي العاشقين كانا يتكلمان ويضحكان ، ولعلهما لو تركا على انفراد لانطلق لساناهما وتعاتبا وتغازلا ولكن وجود سعدى

حملهما على الاكتفاء بحديث القلبين .

ولما استقر بهم الجلوس قالت سعدى : « لقد أطلت الغياب فانشغل بالنا كثيرا ، ولما سمعنا حكاية سفركم من سلمان حمدنا الله على عودتك سالما بعد ما قاسيته من الخطر » .

قال : « لا يهمني ما لقيته من العناء ، واذا كنت لم أوفق في سفري فما كان ذلك الا لفقد القرطين من الكعبة في أثناء هدمها وبنائها . على أني اعتزمت مواصلة البحث عنهما في العراق وغيرهما حتى آتي بهما » .

فابتدرته هند قائلة : « لا حاجة بنا الى الافراط فان عندنا من فضل المولى ما يكفينا مؤونة هذه الأسفار » .

قال : «وماذا يقول الناس عني وقد عدت صفر اليدين ؟ أليس عارا على حماد أن يعجز عن أمر طلبته هند ؟ » . قال ذلك وعيناه تنظران الى هند ، فالتفتت اليه وقالت وهي تبتسم : « حسب حماد عندنا أنه جاهد في سبيل القرطين جهادا حسنا ولا يزال ساعيا في البحث عنهما » .

ثم قالت سعدى : « ان أمر القرطين يا ولدي لم يعد يهمنا مطلقا ، فمثلهما كثير عندنا والحمد لله ، وفي تاج جبلة لؤلؤتان مثل لؤلؤتي قرطي مارية تماما » .

فقال حماد : « اني لا أجهل نعم الله على ملوك غسان زادكم الله نعما ، ولكني أحب أن يكون لي ما أستحق به رضاء هند وقومها ، فلعل نسبي وحسبي لا يخولانني هذا الشرف » . قال ذلك وتبسم والتفت الى هند فاذا هي تبتسم وتنظر الى الارض .

فالتفتت سعدى وقالت : « ان النسب يا ولدي ليس وحده ما يرفع قدر صاحبه ، فالرجل بأصغريه لا ببرديه ، وان ما شهدناه من

شهامتك وكرم أخلاقك لجدير بأن يرفع منزلتك الى أوج الملوك وكم من ملك حطته دناءته الى مصاف الصعاليك وشاهدنا على ذلك قريب » .

قالت ذلك ونظرت الى هند كأنها تذكرها بدناءة ثعلبة والمقابلة بينه وبين حماد ، فأدرك حماد ذلك وأطرق خجلا ولكن قلبه رقص طربا لتخلصه من أمر القرطين ، وتمثل له ملاك السعادة طوع ارادته فأبرقت أسرته ، ثم تذكر يوم الشعانين وتأخير الاقتران بسببه فانقبضت نفسه . على أن اجتماعه بهند أنساه كل ما عداه . ثم استأنفت سعدى كلامها قائلة :

« أرى على ثيابك أثر الغبار ، فاذا شئت تبديلها والراحة من السفر فهلم بنا الى القصر » .

قال : « لست أشعر بتعب من السفر ، وتبديل الثياب أمر مستدرك واني لسعيد بالجلوس هنا بين الخضرة والماء . ولا أخفي على سيدتي أني لم أكن أرجو مثل هذا الاجتماع بعدما قاسيته من المشاق ، ولا أنسى يوما قضيته في مكة على سطح غرفتي » .

قالت هند : « وكيف كان ذلك ؟ » .

قال : « لقد ركبت متن الاسفار ، وقطعت البراري والقفار للبحث عن قرطي مارية وعن أبي ، فنزلت بلدا شهدت فيه حربا وخطرا ثم تحققت ذهاب بحثي عبثا ، فلما تراكمت كل هذه المصائب علي صعدت الى سطح غرفتي وقد ضاق صدري وتذكرت هندا وأبي وما أنا فيه من اليأس فأظلمت الدنيا وضاقت في وجهي » .

فقالت سعدى : « لقد سرنا العثور على أبيك ولعله في خير ، وشد ما يسرنا أن يزورنا فاني أحب تعريفه بالملك جبلة ليتم سرورنا ، فقد زالت كل الحواجز وتمهدت كل العقبات والحمد لله » .

فتذكر حماد مسألة النذر وحكاية يوم الشعانين فقال في نفسه : » لم تزل أمامنا عقبة لا ندري ما وراءها « . ولكنه أجاب سعدى قائلا :

« ان أبي يسر كثيرا بمقابلة الملك جبلة ، وهـذا شرف يتمنـاه لكنه الان في شاغل وسيغتنم أول فرصة لمقابلة مولاي الملك » .

★ ★ ★

وفيمـا هم في مثل هذه الاحـاديث آنسوا حركة وجلبة في القصر . ثم جاءهم خادم أنبأهم بقدوم رسول من الملك جبلـة مبشرا بـأنه في الطريق الى الصرح ، فبغت الجميع لقدومه على غير انتظـار ونهضوا عائدين الى القصر استعدادا لاستقباله .

ومشوا صامتين ، كل منهم يفكر في أمر ، وكـان حماد أكثر بغتة واهتمامـا لأنه سيقابل جبلة لأول مرة بعد عودته ، فخـاف أن يكون فشله في البحث عن القرطين سببا في فتور محبته .

أمـا هند فكانت تتوقع من أبيها حنوا على حماد بعد ما سمعته من أمها ، وأمـا سعدى فلم تستغرب قدومه لأنها كـانت قد أرسلت اليـه أمس تخبره بموعد زيارة حماد ، وترجو عودته لمقابلته . ولـم تخبـر هندا بـذلـك .

ومـا وصلوا الى القصر واستقر بهم المقام في قـاعة الجلوس حتى نودي في القصر بمجيء الملـك ، فخرج أهله لاستقباله . وخـرج حماد وهند وأمها الى الحديقة لهذا الغرض . وكـان الفرسان قـد وصلوا ، فترجل جبلة عن جواده ، ومشى بلبـاس السفر وفوقـه العبـاءة وقد تقلد الحسام . وكـان يلتفت ذات اليمين وذات الشمـال باحثا عن حماد ، فلمـا وقع نظره عليه أسرع نحوه مرحبا ، وصافحـه وقبله قبلة الأب لابنه والناس ينظرون . وكـانت هند تراقب حركـات أبيها فلمـا رأت منه ذلك رقص قلبهـا طربا وتناثرت دموع الفرح من عينيهـا ، وكذلك كـان شأن أمها . أمـا حماد فانه قبل يدي جبلة وقلبه يخفق فرحا لما

تحقق من رضاه عنه ثم قال له جبلة : « أهــلا بولدنــا العزيز حماد ، نحمد الله على عودتك سالمــا » .

فقال حماد وامارات الامتنان ظاهرة على وجهه : « الحمــد لله على كل حــال ، ولكنني أحمده لمــا أنعم به علي من رضا ملك غسان ، وانها لنعمة أعجز عن تقديرها وشكرها » .

ثم تحول جبلة نحو هند فقبلت يده وقبلها ، وحماد ينظر ، فتحركت فيه عاطفة الغيرة عليها حتى من أبيهــا ، ثم حيى سعدى . ومشى الجميع نحو القاعة وعينا حماد على هند كأنــه يريد أن يلتهمهــا بنظره .

وكــان سلمان واقفا مع أهل القصر في انتظار جبلة ، ولــم يشأ دخول الحديقة على حماد عند أول مجيئه مراعــاة لما قد يدور بين الحبيبين من عبارات العتاب مما لا يهون التفوه به أمــام أحد .

فلمــا دخل جبلة القاعة ومعه سعدى وهند وحماد ، سأل هذا عن سلمــان ، فدعي الى القاعة ولبث واقفا متأدبا فنهض حمــاد وأمسكــه بيده وقدمه الى الملك قائلا : « أقدم لكم يــا عماه رفيقــي وصديقــي سلمــان . فانه كــان معتمدي في أسفاري وهو محب مخلص للملك جبلة وكــل آل منزله » .

فرحب به جبلة وأمره بالجلوس فجلس ، ثم التفت جبلــة الى حماد وسأله عن أبيه فقال : « تركته في دير بحيراء عــلى أن يحظــى بمقابلة مولاي في فرصة أخرى » .

قال : « لقد سررت كثيرا باجتماعكما بعد طــول التشتت بسبب ذلك الغلام الغر (يريد ثعلبة) . وقد كنت في غفلة من أمــره الى مــا بعد وفاة أبيه ، وعلمت بمــا ارتكبه هذا الخائن في سبيل الفتك بــك على أثر مــا أظهرته من الشهامة وكرم الأخــلاق ، ويكفي أنــك عفوت عنه في حلبة السباق بعد ما عانيت من غدره وسوء قصده . وقــد نــال جزاء

خيانته وغدره • اذ كـان الناس يرمقونه ببعض الاحترام مراعـاة لمنصب أبيه ، فلمـا توفي الحارث نبذوه نبذ النواة وصـار مضغـة في الأفواه • ومن أثقل المصائب عليه أن يعلم بمجيئك ونيـل مرامك ولا أظنـه يسمع باقترانك حتى يقع ميتـا لشدة لؤمـه وحسده قبحه الله • وكـان جبلة يتكلم ولحيته تهتز وعيناه تتقدان غضبـا رغم محاولته اخفاء مـا في نفسه ، فلمـا أتم كـلامه تشاغل بتمشيط لحيته بأصابعه وبالالتفـات الى خيل مربوطة خارج القصر كـانت تتزاحم وتتضارب • وظل الحاضرون ساكتين تهيبـا من غضبه ، ولكن قلوبهم كادت تطفح سرورا بمـا قاله عن ثعلبة • ثم وجه جبلة خطـابه الى سعدى قائلا : « اسقينا شيئا نرطب به أجوافنا ونشربه نخب اجتماعنا فرحـا بقدوم صهرنـا سالما » •

فقالت : « ألا ترى أن نجلس الى المـائدة فنتناول الطعام والمدام معـا »

قال : « حسنا تفعلين » •

فصفقت فجـاء غلام • فقالت له : « هل تمت معدات الطعام ؟ » •

قال : « نعم يا مولاتي » •

فنهض جبلة ومشى فتبعه الجميع حتى دخلوا غرفـة مدت فيهـا الأسمطة وعليها آنية كلها من الذهب والفضة ، فجلسوا يأكلون ويشربون والفرح يغمرهم جميعا •

★ ★ ★

أشار جبلة الى حماد بعد انتهاء الطعام أن يتبعه ، فتبعـه حتى خرجا من القصر وسارا في بعض طرق الحديقة • فلمـا انفردا قـال جبلة : « اعلم يا حماد انك الآن بمنزلة ولدي ، وقد قسم الله أن تكون صهرا لي وهذا أمر أحسبه من حظ هند لأنك شهم شجـاع • وقـد تركت اليك

تعيين موعد الاقتران ولكنني أوجه التفاتك الى أن هندا وحيدتنا ويشق علينا فراقها ، ولهذا نحب بعد تمام الاقتران أن تقيم عندنا على الرحب والسعة أنت وأبوك ومن تريد من ذويك ، فان البلاد تحتاج الى من يتولاها وليس لي ولد ذكر فاذا أحسنت السياسة مع القبائل اجتمعوا بعدي تحت لوائك وكنت ملكا عليهم » .

فلم يعد حماد يدري كيف يشكر جبلة على هذا العطف الكريم ، ثم قال : « ان هذه النعم وهذه الشيم مما يقصر اللسان عن أداء الشكر عليها . وأسأل الله أن يجزيك عني خيرا . أما وقت الاقتران فلا يمكننا تحديده الان لدواع لا أخفيها عليك » .

قال : « وما هي ؟ » .

قال : « لعل مولاي رأى طول شعري لما لبست الدرع يوم السباق ؟ » .

قال : « نعم أذكر ذلك ، وما سبب طوله ؟ » .

قال : « ان أبي نذر عند مولدي الا يقص شعري الا في دير بحيراء بعد أن أبلغ الحادية والعشرين من عمري ، وقد حل هذا الموعد في يوم الشعانين منذ عام وبضعة أشهر ، فجئنا الى البلقاء استعدادا لذلك . ثم حدث ما كان من سعي ثعلبة ضدي والقبض على أبي ، فلم نجتمع الا في المدينة أخيرا . وقد رأى أبي أن ننتظر حتى يوم الشعانين القادم لنقص شعري في الدير . وأخبرني أن عنده سرا خاصا بي سيدلي به الي في ذلك اليوم ، وطلب مني الا أقطع في أمر من الامور المهمة الا بعد ذلك اليوم ، فما رأي مولاي ؟ » .

فعجب جبلة لذلك السر وقال : « لا أرى مانعا من تأجيل الاقتران الى ما بعد يوم الشعانين ، فنجعله في يوم عيد القيامة . ولكنني استغربت هذا السر ، ألا تعلم موضوعه ؟ » .

قال : « لا يا عماه ، لا أعرف عنه شيئا ولا يعلم به أحد سوى أبي . وقد أخبرني أنه لما وقع في الخطر وخاف الموت لم يأسف على شيء أكثر من أسفه على ضياع ذلك السر ! » .

قال جبلة : « فلننتظر يوم الشعانين وكل آت قريب » .

ثم تحولا نحو القصر ، وكانت هند وأمها جالستين في القاعة ، فدخل جبلة وحماد ، وقضوا بقية اليوم في الاحاديث المتنوعة .

فلما كان العصر التمس حماد السماح له بالعودة الى الدير لئلا يستبطئه أبوه ويقلق لتأخره ، فقال له جبلة : « افعل ما بدا لك ، وان صرح الغدير وجميع قصور البلقاء مفتوحة لاستقبالك متى أردت القدوم » . فهم حماد بيد جبلة فقبلها ، وكذلك فعل سلمان ، ثم ودعا هندا وسعدى وركبا وسارا وهند تشيعهما بنظرة خلسة حتى تواريا .

ولما وصل حماد الى الدير في مساء ذلك اليوم كان أبوه في انتظاره ، فحكى له حماد ما لقيه من الاكرام والاحتفاء وما دار بينه وبين جبلة مما لم يكن يرجوه . وكان حماد يتوقع أن يرى من أبيه بعد هذا الحديث اعجابا أو انبساطا فلم ير وجهه يزداد الا انقباضا ولم يجب بكلمة ، فلبث حماد ينتظر يوم الشعانين بفارغ الصبر .

- ٢١ -

كشف السر

كان عبد الله كلما دنا يوم الشعانين يزداد انقباضا ، فلما كان

اليوم السابق لهذا اليوم ، رأى أن الدير سيكون مزدحما فيه وهـو يريد الانفراد بحماد ليكشف له السر حسب وعده بعد قص شعره ، فذهب الى رئيس الدير وأطلعه على قصده ، فسأله هـذا : « وأي الغرف تريدون ؟ » .

قال : « نريد صومعة بحيراء فانها منفردة ولها كرامة وبركة » .

قال : « ولكن الناس يقدمون اليها في مثل هذا اليوم زائرين » .

قال : « يزورونها بعد خروجنا منها فربما مكثنا فيها ساعات قليلة من الصباح الى الظهر » . وكان عبد الله جليل الطلعة محترما فلم يسع رئيس الدير الا أن يجيب طلبه .

ثم قال عبد الله : « أعرف راهبا شيخا من تلامذة بحيراء الراهب صاحب هذا الدير كان يقيم بالصومعة فهل هو باق هنا ؟ » .

قال : « انه باق ولكنه يشكو شدة الضعف لشيخوخته فلا يخرج من غرفته الا نادرا » .

قال : « ألا تظنه يخرج في صباح الغد اذا توسلنا اليه أن يرافقنا الى الصومعة ويقص شعر غلامنا » .

قال : « لا أعلم ، وعندنا من الرهبان والقسس كثيرون يفعلون ذلك » .

قال : « صدقت ولكنني أفضل ذلك الراهب الشيخ لأنني أعرفه » .

قال : « هلم بنا اليه نسأله فعساه أن يرضى » .

وسارا الى غرفة من غرف الدير مغلقة الباب فقرعاه وانتظرا ريثما ينهض الشيخ لفتحه ، وبعد هنيهة فتح الباب وبان من ورائه شيخ هرم قد أبيض شعره واسترسل من رأسه ولحيته وحاجبيه وشاربيه حتى لا تكاد ترى من جلد وجهه الا بعض وجنتيه وقد تجعدتا وتغضن جبينه وبرز أنفه أعقف واحدودب ظهره حتى لا يستطيع النظر

اني واقف أمامه الا بجهد ، فتقدم الشيخ ويـده اليسرى على البـاب ، وفي يده اليمنى عصا يتوكأ عليها وقد قبض عليها بأنامل لم تترك الشيخوخة عليها لحما فلصق الجلد بالعظم حتى كان أعـرض مـا في الكف عقـد الامشاط عند اتصالها بالاصابع .

فلما فتح الباب رفع الشيخ نظره وحـدق في زائريه وكـان قـد عرف الرئيس من مجمل قيافته ولكنه لم يعرف رفيقه فنظر اليـه نظرة المتأمل من خلال شعر حاجبيه المسترسل ، وأخذ يرفع بيده المرتعشة شعر الحاجبين فابتدره عبد الله بالسلام وهـم بتقبيل يده فعرفـه الراهـب فقال : « أهلا بولدي الامير عبد الله ابـن الوطن العزيز تفضل يا ولـدي ادخـل » . فدخل ودخل الرئيس معه وجلس كل منهما على وسادة وهما لا يجسران على فتح الحديث احتراما لشيخوخة الراهب .

ثـم تكلم الرئيس فقال : « ان ولدكم الامـير عبـد الله يلتمس حضوركم الاحتفال بقص شعر ابنه وفاء لنذر نذره منـذ بضع وعشرين سنـة » .

فتأمـل الشيخ برهة ثـم رفع نظره الى عبد الله بغتة والنور ينبعث من حدقتيه كأن الزمن لم يؤثر على حدتهما وقال : « ما اسم غلامكم ؟» .

قـال : « حمـاد » .

قال : « نعم حماد ، أذكر أنـي رأيتـه في الصومعة منذ عـامين وأخبرني أنـه جـاء لقص شعره وكان يوم الشعانـين قريبا ألم تفـوا بالنذر بعد ؟ » .

قال : « لا يا مولاي ، لـم نستطع ذلـك لأسباب فرقت بيننـا أعواما فلما اجتمعنا جئنا لنفي بالنذر ، فهل تتفضل بأن يكون وفـاؤه علـى يدك » .

قال : « اني شيخ ضعيف لا أستطيع الوقـوف لتأديـة الفروض

اللازمة في أثناء الصلاة » .

قال : « يؤديها القسيس وتكون أنت معنا بعد الصلاة فننفرد أنا وأنت وحماد لكلام أقصه عليكما » .

قال : « حسنا يا ولدي ومتى يكون ذلك ؟ » .

قال : « غدا صباحا ان شاء الله » .

قال : « سنلتقي اذن صباح الغد في الصومعة » .

ثم نهض عبد الله فودع الراهب وعاد الى غرفته وجلس ينتظر عودة حماد .

وكان حماد يختلف الى صرح الغدير مرات في الاسبوع ليتمتع برؤية هند ، فيقضي النهار معها عند أمها ومعه سلمان . وقد شعر بأن ملاك السعادة يحرسه ولا سيما بعدما صرح له جبلة بما اعتزم اختصاصه به في مستقبل حياته . وأصبح لا هم له الا مجيء يوم الشعانين ليفي بالنذر ويقترن بهند . على أنه كان اذا جلس اليها ودار الحديث بينهما نسي النذر ومستقبله .

وكان قد سار الى صرح الغدير في صباح ذلك اليوم وسلمان معه ، ثم عادا في الأصيل ، فلما بلغا الدير وترجلا عن جواديهما ودخلا ، وجدا عبد الله في انتظارهما وقال لحماد : « ألا تعلم يا ولدي أن غدا يوم الشعانين ؟ » .

قال : « نعم يا أبتاه واني لعلى استعداد للوفاء بالنذر » .

قال : « جعله الله نذرا مقبولا . ولقد خاطبت الراهب الشيخ الذي كان يجلس في صومعة بحيراء ليكون معنا ، هل تذكره ؟ » .

قال : « نعم أذكره ، وقد جلست اليه مرة وقص علي خبر الراهب بحيراء أستاذه » .

قال : « لقد وعد بأن يقص شعرك ويسمع ما أتلوه عليك

بعد ذلـك » .

وكـان سلمان لا يزال واقفا بالقرب من الباب يصـلح كوفيتـه وعقاله ، فلمـا سمع ما قاله عبد الله تقـدم نحوه ونظر اليه قائلا : « الا تظن خادمك سلمان يستحق الاطلاع على هذا السر أيضا » .

قال : « بلـى انك أولى الناس بذلـك وستكون أنت أيضا معنا » .

وقضوا بقية اليـوم يستعدون ، وخـلا عبد الله في غرفتـه يعـد بعض الثيـاب .

وفي صباح اليوم التالي ساروا الى الصومعة مبكرين فرأوهـا قد أضيئت بالشموع . وهي كما قدمنا غرفة كل جدار مـن جدرانهـا الاربعة حجر واحد ، وكذلك سقفها وأرضها وبابهـا . وهذا هـو شأن أبنية حوران حتى الآن نظرا لكثرة صخورها وقلة خشبها .

ولمـا دخلوا الصومعة وجدوا بها الراهب الشيخ ومعـه قسيس آخر وشماس ، فلمـا اجتمعوا أخذوا في الصلاة فأحرقوا البخـور وحلوا شعر حمـاد حتى استرسل على كتفيه وظهـره وطـافوا به والقسيس يحملون الصلبان والمباخر يترنمون حتى تمـت الصلاة وقرأوا فصـلا من الكتاب المقدس . وكـان الراهب قد تعب فجلس على مقعده الحجري ليرتـاح فلما انقضت الصلاة أعطوه مقصا ، ودنـا حماد منه وشعره يجلله ، فمد الراهب يده وأمسك خصلة من شعره وبارك وقصها اشارة الى الوفاء بالنذر وبقي الشعر مسترسلا على أن يقصه عند عودته الى المنزل .

فلمـا انقضى الاحتفال أشار عبد الله الى الراهب أنه يريد الخلوة ، فأوعز هذا الى الحاضرين فخرجوا وبقي هو وحماد وعبد الله وسلمان ، وأطفئت الشموع ولم يبق من الانوار الا مصابيح الزيت معلقة أمـام الايقونات فأشار عبد الله الى سلمـان أن يغلق الباب فهم باغلاقه وهو لا يحسب نفسه قادرا على ذلك لضخامته فاذا هو طوع ارادتـه لأن لأهل

حوران صناعة دقيقة في تركيب تلك الابواب حتى تغلق بسهولة .

فلما أغلق الباب وضعف النور أحسوا بانقطاعهم عن عالم الاحياء ، وخيل لهم أنهم في عالم آخر . وخفق قلب حماد تطلعا لما سيسمعه من السر الذي وعد به . فنزع عبد الله جبته وهم بصرة كانت معه فحلها وأخرج منها رداء مزركشا يشبه الطيلسان كان قد ادخره واحتفظ به منذ أعوام ، فقبله ثم بسطه وجعله على كتفيه ونشر على الأرض أمام مجلس الراهب جلدا جثا عليه وجلس حماد وسلمان بين يديه والجميع سكوت يراعون حركات عبد الله وسكناته وينتظرون ما يبدو منه .

ولما استتب بهم الجلوس ، التفت عبد الله الى الراهب وقال : « اننا الآن في بيت الله ، وقد اجتمعنا فيه لعمل مقدس فلا يعلم بما سيدور بيننا الا الله وحده . وسأقص عليكم حكاية اؤتمنت عليها منذ بضع وعشرين سنة ، فأرجو أن تصغوا الي حتى آتي على آخرها ومتى فرغت منها ألتمس منكم كتمانها عن أهل الارض كافة ، فهل تعاهدونني على ذلك ؟ » .

قال الراهب : « ان سرك لن يتجاوز جدران هذه الصومعة » .

قال : « ألتمس من قدسكم أن تتلو علينا الصلاة الربانية قبل الشروع في الكلام ، فتلا الراهب « أبانا الذي في السموات ألخ » . ثم نظروا الى عبد الله فاذا به قد تأدب في قعوده وامتقع لونه فهابوا منظره . ثم نظر عبد الله الى حماد ووجه الخطاب اليه قائلا : « تعلم يا ولدي ان العرب يرجعون في أنسابهم الى أصلين كبيرين هما قحطان واسماعيل ، ومن نسل قحطان عمرت اليمن وما جاورها ، ومن نسل اسماعيل عمرت الحجاز وما جاورها ، ويسمى نسل اسماعيل الاسماعيلية أو العدنانية نسبة الى جد من أجدادهم بعد اسماعيل اسمه عدنان ، كما يسمى بنو قحطان القحطانية . وقد قامت منهم

دول ملكت الخافقين ، كالتبابعة المشهورين وغيرهم من دول حمير وسبأ •
ومن مملكة سبأ خرجت ملكة سبأ التي ذكرت التوراة انها زارت الملك سليمان وما زالت اليمن عامرة آهلة حتى حدث سيل العرم فتفرق أهلها أيدي سبأ ، أتعرف ما هو سيل العرم ؟ » •

فقال حماد : « لا يا أبتاه لا أعرفه » •

قال عبد الله : « اعلم يا ولدي أن اليمن وسائر جزيرة العرب أرض تقل فيها الانهر والينابيع ، وأهلها يعتمدون في ري مغارسهم على مياه المطر التي تجتمع في مجاري الاودية وتسيل كالأنهر ، ولما كان معظمها يجف في الشتاء فهم يجعلون في تلك الاودية سدودا من حجر تعترض مسير الماء فيجتمع ويرتفع حتى يسقي أعالي الارض •

« وكان من تلك السدود في اليمن سد كبير يقال له العرم بناه ملوك اليمن القدماء بحجارة ضخمة يسكونها بالقار وفيه خروق يصرفون منها الماء على مقدار ما يحتاجون اليه لسقي أرضهم • وكان للسد حفظة يقومون بتعهده وتوزيع مياهه فتقادم عهده حتى تصدع وخيف سقوطه • وعرب اليمن اذ ذاك بنو كهلان ابن سبأ من القحطانية • وكانت دولتهم قد ضعفت واختل نظامها وآلت الى السقوط فأهمل أمر السد وقلت المحافظة عليه فأخذ خطره يزداد فخاف الناس تهدمه بغتة فيسيل الماء عليهم ويغرقهم ويخرب منازلهم ، فأخذوا ينزحون أحياء وبطونا ، وبقيت منهم بقية أصبحوا ذات يوم وقد انفجر السد وطافت المياه فأغرقت بعضهم ونجا آخرون تفرقوا في البلاد وسمي ذلك السيل سيل العرم • وكان ذلك منذ ستمائة سنة أو أكثر » •

وكان السامعون مصغين لحديث عبد الله وهم لا يرون فيه ما يوجب المسارة ، فعجبوا لذلك ولكنهم صبروا أنفسهم ليروا ما يكون بعده ، فأدرك عبد الله ذلك فقال : « لقد أردت أن أبسط لكم أصل نسب ملوك

الحيرة المقيمين بالعـراق ثم أتطرق من ذلـك الى كشف السر فامهلـوني ولا تملـوا » .

فأبدوا جميعا أنهم مصغون بكل جوارحهم لحديثه ، فعـاد يقول :
« قلت لكم أن بني كهلان تفرقوا قبيل سيل العرم وبعده وكانوا أحيـاء عديدة أذكر منها ثلاثة هي : لخم ، والأزد ، وطيء . أمـا لخم فهم أجدادنا الذين أقاموا بالعراق ومنهم المناذرة ملوك الحيرة (قال ذلك وتنهد) . وأمـا الأزد فمنهم بنو غسان عرب هذه البلاد . أمـا طيء فأقاموا بنجد والحجاز في جبلي أجا وسلمى » .

فسر حمادا أن يكون بين اللخميين والغسانيين قرابة ولكنه مـا زال قلقا للوصول الى آخر الحديث ، وكذلك سلمان . أما الراهب فكـان أقلهمـا قلقـا واشتياقا كـأن الشيخوخة وكثـرة الاختبار عـوداه الاستخفاف بحوادث الزمـان فضلا عن أن ما قصـه عبد الله عليهـم الى ذلك الحين لم يكن بالشيء المجهول عنده . وواصـل عبد الله كلامـه فقال : « علمتم أن ملوك الحيرة لخميون يتصل نسبهم بكهـلان بن سبأ من عرب اليمن القحطانية . وقد نزل بنو لخم بالعراق . وأقـاموا حينا وهم على حالهم من البداوة . وأول من حكم العراق من العرب قـوم من حي دوس وهو بطن من الأزد أقرب نسبـا الى الغسانيين منهـم الينا . ولم يمض الا قليل حتى تغلب أجدادنـا عليهـم وملكوا العراق تحت رعـاية ملوك الفرس على مثال ما هم عليه الآن واتخـذوا مدينة الحيرة قـاعدة لملكهـم وسموا المناذرة جمع (المنـذر) وهو لقـب ملوك العراق كما تعلمون .

« ولا أطيل الكلام عليكم خوف الملل ، فأقـول باختصار : « انه توالى على عرش الحيرة بضعة عشر ملكـا أشهرهم امرؤ القيس بن عمرو ، وممـا يؤثر من فضله أن اللخميين لمـا قدموا من اليمن كـانوا على

عبادة الاوثان وخالطوا الرهبان وأهل النصرانية فتنصروا ، وأول من تنصر من ملوكهم امرؤ القيس هذا ، ثم ملك النعمان بن امرىء القيس ويقال له الأعور ، وهو الذي بنى القصرين المشهورين : (الخورنق والسدير) ومن غريب أمره أنه لما عظم ملكه وامتلأت يداه من خيرات الأرض مال الى الزهد وتنسك • وملك بعده المنذر ، ثم الأسود الذي حارب أصحابنا الغسانيين منذ مائة وخمسين عاما وأسر بعض ملوكهم وكان ذلك بسبب عداوة مستمرة فيما بيننا وبينهم • وتولى بعده ملوك كثيرون كالمنذر بن ماء السماء الذي كان معاصرا لكسرى أنو شروان ملك الفرس المشهور وله معه وقائع وحوادث يطول شرحها • فلنتركها وننتقل الى آخر ملوك الحيرة النعمان بن المنذر » •

فلما ذكر اسم النعمان ابتدره الراهب قائلا : « أظنك تعني أبا قابوس ؟ » •

قال : « نعم أنه كان يلقب بأبي قابوس » •

قال الراهب : « هذا الذي قتله كسرى برويز ، وبسبب قتله صارت وقعة ذي قار • وقد كنت شابا وشهدت هذه الحوادث ، وكنت أعرف الملك النعمان هذا رحمه الله ولي معه حديث طويل » •

فتنهد عبد الله وهو يعتدل في مجلسه ويصلح الرداء على كتفيه وقال : « قد وصلنا الى المراد من حديثي ، فأعيروني السمع لأقص عليكم ما أعلمه عن هذا الملك » • قال ذلك وشرق بدموعه حزنا ، ولولا ضعف النور لظهر الدمع متلألئا في عينيه ولكنه تجلد وعاد الى الحديث فقال : « ان الملك النعمان هذا لا أحتاج في وصفه الى تطويل ، ويكفي في وصفه أنه شهم شجاع صادق وقد أعاد النصرانية الى الملك بعد أن فسدت وأبدل أسلافه الوثنية بها • ولا تتضح لكم دخيلة حديثي الا اذا ذكرت لكم كيف تولى النعمان الحكم • فقد كان

أبوه المنذر ملكـا قبله وكان في بلاط كسرى على عهـده رجل عدناني اسمه عدي بن زيد يحسن العربية والفارسية ولـه منزلة كبرى ونفوذ لدى كسرى • وكـان مقام كسرى بالمدائـن ، ومقـام المنذر بالحيرة وكـان للمنذر اثنا عشر ولدا أحدهـم النعمـان هذا وقـد ربي في حجر عدي بن زيد ورضع في أهله • وكـان من أبناء المنذر أيضـا فتى اسمه الاسود ربـاه رجل من أهل الحيرة يقـال له ابن مرينا ممـن ينتسبون الى لخم • فلمـا مات المنذر خاطب كسرى عديـا فيمن يلـي الحيرة وقال له : (اني أرى أن أخرج الملـك من أيدي هؤلاء وأجعلـه في يدي واحد من خاصتي فهل بين أولاد المنذر من يصلح للملك ؟) • فقال عدي : (أنهم بضعة عشر رجلا كلهم أشداء ، فاذا أمر مولاي جئته بهم) • ثم بعث يستقدمهم وفي نفسه أن يسهل سبيل الملك للنعمـان لأنه ربي عنده ، فخلا اليه قبـل اجتماعهم وأسر اليه أشيـاء يقولها في حضرة كسرى ، ففعل وتولى الملك ، فشق ذلـك على ابن مرينا لأنه كان يرجو أن يكون الملك للأسود التمـاسا للنفوذ على يـده ، فأخذ يحرض الأسود على الانتقام من عدي بدعوى أنـه عدنـاني ، فوافقه هذا وراح ابن مرينا يتقرب من النعمان بالهدايـا والتحف ويشي بعدي عنـده بالتواطؤ مع بعض الحاضرين على الطعن فيه واتهـامه بـأنه يقـول بـأن النعمـان تحت أمره وأنه هو الذي ولاه الملـك • ومـا زالوا كذلـك حتى غضب عليه النعمـان فبعث اليه يدعوه الى زيـارته ، فلمـا جاء أمر بسجنه في مكان خـارج الحيرة لا يدخل عليه فيـه أحد ، فعلم عدي أنهـا وشاية فجعل يكتب الى النعمـان يستعطفه نظمـا ونثرا فلـم يجده ذلـك نفعـا ؛ فكتب كسرى الى النعمان في اطلاقه ، ولكن أعداء عدي ــ وأكثرهم من بني بقيلة وأصلهم من عرب غسان أهل هذه الديـار ــ حرضوا النعمان رحمه الله على الفتك بعدي قبل وصول كتاب كسرى اليـه ، وحسنوا

له ذلك بحيلة يطول شرحها ، وكان الرسول قد مر قبل وصوله الى الحيرة بسجن عدي وأخبره بكتاب كسرى ، ثم خرج من عنده الى النعمان • وفي أثناء ذلك أرسل النعمان الى عدي أناسا قتلوه • ثم كتب الى كسرى بعد أن جاءه كتابه بأن عديا مات • ولكن النعمان ما لبث أن عرف أنه ظلم عديا فندم ، ولما لقي ولدا من أولاد عدي اسمه زيد هم باكرامه ورفع شأنه تكفيرا عما فرط منه وأوصى به كسرى فجعله في منزلة أبيه عدي •

« على أن أهل الوشاية أطلعوا زيدا على قصة قتل أبيه ، فحقدها على النعمان وسعي ضده لدى كسرى ، وكان الأكاسرة يبعثون الى أيالاتهم في طلب نساء على أوصاف خاصة لكنهم لم يكونوا يلتمسون ذلك من أحياء العرب لعلمهم ببخلهم بكرائمهم • فقال زيد لكسرى مرة : (ان في الحيرة نساء جمعن كل أوصاف الجمال فاذا بعثت الى النعمان أرسل اليك منهن) • وكان زيد يعلم أن النعمان لن يرضى بذلك فيقع التنافر بينه وبين كسرى ، فأنفذ كسرى ، في ذلك رسولا ومعه زيد الى النعمان ، فعظم الامر على النعمان وقال لزيد : (أما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ كسرى به حاجته ؟ ان الذي طلب كسرى ليس عندي)• وسأل الرسول زيدا بالفارسية عن معنى المها والعين فأجابه بأنها البقر • فلما رجعا الى كسرى أخبره بما قال النعمان وأقنعاه بأنه أراد الحط من منزلته بقوله : (أليس في بقر الفرس ما يكفيه) •فغضب كسرى غضبا شديدا ولكنه كتم ذلك ، وشعر النعمان بغضبه فأخذ يستعد لما يتوقع حتى أتاه كتاب كسرى يستقدمه اليه فعلم أنه قد دعاه ليقتله ، فحمل سلاحه وأهله والتمس الفرار • وكنت أنا ممن لازم النعمان زمانا ، وكان يستأنس بي ويرتاح الى رفقتي فقال لي : (كيف أنت يا عبد الله ؟) قلت : (اني يا مولاي لاحق بك أينما توجهت) • فقال : (ان في ذلك خطرا عليك) •

قلت : (ما أنا بأحرص على نفسي مني على نفس مولاي النعمان) . فقال : (بورك فيك) . فصحبته من ذلك اليوم . وسرنا حتى أتينا قبيلة طي في أعالي نجد . وكان النعمان قد تزوج منهم فطلب أن يحموه بين الجبلين (أجا وسلمى) فقالوا : (لا يمكننا ذلك ولولا صهرك لقتلناك فانه لا حاجة بنا الى معاداة كسرى) . فتركناهم وسرنا الى قبائل أخرى فلم يقبلنا أحد منها خوفا من كسرى ، حتى لقينا رجلا من قبيلة بكر بن وائل اسمه هانيء بن مسعود ، وكان سيدا منيعا وللنعمان فضل عليه فقال له : (اني مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وولدي ما بقي من عشيرتي الأدنين رجل ، ولكنني لا أرى في ذلك نفعا لك لأنه مهلكي ومهلكك ، فاذا أذنت لي فاني مشير عليك بالذهاب الى كسرى مستعطفا ، وأحمل اليه الهدايا فاذا صفح عنك عدت ملكا والا فالموت خير لك من أن يتلاعب بك صعاليك العرب) .

« فاستحسن مولاي النعمان الرأي ولكنه قال : (ما أفعل بحرمي ؟) . فقال هانيء : (هن في ذمتي لا يخلص اليهن أحد الا بناتي) . فقبل النعمان ذلك وأنا خائف من عاقبة الامر ، وحدثتني نفسي بصده عن الذهاب فلم أجسر لأني شاهدت وجهه وكان أبرش أحمر كما تعلمون قد امتقع حتى صار كمن أصابه اليرقان ونهض وقد أهمه الامر كثيرا وجعل يخطر ذهابا وايابا ويفتل شاربيه الاشقرين كأنه خائف من الذهاب . ثم فكر قليلا وقال لهانيء : (أرى يا أخا بكر أن أرسل الى كسرى هدايا فان قبلها سرت اليه) . فقال هانيء : (نعم الرأي رأيت) . فأرسلها اليه فقبلها كسرى خداعا منه قبحه الله . فهم مولاي النعمان بالمسير فقلت : (اني سائر معك ووالله لا أفارقك لحظة) . فقال : (أرى أن تبقى عند نسائي فذلك خير من أن تذهب معي) . قلت : (اني فاعل ولكنني أرى النساء آمنات في حمى هانيء

بن مسعود ، فأذن بذهابي معك) • فأذن وكأن نفسي حدثتني بخطر قريب فسرنا حتى أتينا المدائن فلقينا زيد بن عدي فتشاءمت برؤيته وتحققت سوء قصده ، وكنت مصيبا في ذلك لأنه لم يكد يلقانا حتى قال للنعمان : (انج نعيم ان استطعت النجاة) • فقال النعمان : (فعلتها يا زيد فوالله ان عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربي قط ولألحقنك بأبيك) • فضحك زيد لعنه الله وتوعده ، فعلمنا أنها حيلة أعدها له ، وتحقق النعمان أن ساعته قد دنت وان القضاء واقع لا مفر منه • فلما وصلنا الى كسرى أمر فقيدوا النعسان وبعثوا به الى سجن في خانقين ، وكنت أتردد اليه في السجن خلسة وأنا أرجو الافراج عنه • أما هو فلم يكن يرجو نجاة » •

وسكت عبد الله قليلا ، ريثما هدأت نفسه بعد أن هاجت الذكرى شجونها ، وبقي الحاضرون مرهفين أسماعهم للوقوف على تتمة القصة ، فقال : « وسرت اليه ذات يوم صباحا فرأيته قد تغير حاله وامتقع لونه كأنه خائف من أمر قريب ، ولا أنسى منظره الرهيب في ذلك اليوم ، فوقفت أنتظر أمره فقال لي : (أرى أن أسر اليك أمرا فهل تعاهدني على حفظه ؟) • قلت : (كيف لا ؟) • فمد يده وأعطاني هذا الرداء المزركش (قال عبد الله ذلك ونزع الرداء عن كتفيه ووضعه أمامه) • فأخذته منه ، ثم أخرج من يده خاتما عليه اسمه ولقبه وهو هذا (ومد عبد الله يده وأخرج الخاتم من جيبه ووضعه على الرداء وقد تغيرت سحنته واختنق صوته وتخلله ارتعاش زاد الحضور تهيبا) • فلما تناولت الخاتم قال لي النعمان : (اعلم يا عبد الله اني في هذا السجن حتى ينقضي أجلي فيخرج ملك الحيرة من أيدي اللخميين لان زيد بن عدي هذا سيبذل جهده في اذلالهم خوفا ممن ينتقم لي ، ولا أعرف من أولادي من يرفع هذا العار عنا ، ولكن بين أهلي عند هانيء بن مسعود

زوجتي سمية وهي حامل ستلد قريبا ، فاذهب اليها بهذا الخاتم وهذا الرداء وقل لها ان هي وضعت غلاما أن تعهد اليك بتربيته حتى يشب شهما حرا ، واحذر أن تقص شعره أو تخبره عن نسبه قبل الحادية والعشرين من عمره ، فاذا بلغها فقص شعره في دير بحيراء وأخبره عن نسبه وألبسه هذا الرداء وهذا الخاتم ! » .

ولم يكد يتم عبد الله كلامه حتى استولت البغتة على الحاضرين ، وخيل الى حماد أنه في حلم ، وجسم لـه ذلك الوهم ضعف النور وهدوء المكان ، وكانوا لا يرددون أنفاسهم الا بحذر رغبة في تتبع حديث عبد الله . فلما وصل الى هذا الحد تحققوا أن حمادا هو ابن الملك النعمان فجعلوا ينظرون اليه . أما عبد الله فحالما بلغ الى قول النعمان له : (ألبسه هذا الرداء وهذا الخاتم) . وقف على قدميه وألقى الرداء على كتفي حماد وألبسه الخاتم ثم أنهضه بيده وأجلسه على المقعد الحجري وهم بتقبيل يده ، فخجل حماد وجذب يده منه فقال له عبد الله : « لا تخجل يا مولاي انك الآن سيدي ابن الملك النعمان » . فجلس حماد على المقعد وجلس عبد الله بين يديه ، وهم سلمان بيد حماد فقبلها وتأدب في مجلسه وهو يقول : « والله كنت أرى هيبة الملوك على وجهه منذ عرفته »

أما الراهب فانه على عجزه وقف ورفع يده فوق رأس حماد وباركه ودعا له بطول البقاء وقبل رأسه . كل ذلك وحماد يحسب نفسه في حلم ولكنه فرح كثيرا بما علمه من نسبه وود لو أن هندا حاضرة فتسمع ذلك فتفرح معه ، وخيل له أن سعده قد تم لأنه ملك وسيقترن بملكة ويرث ملك غسان . وفيما هو يفكر في ذلك نهض عبد الله وقال : « لم يتم حديثي بعد فهل تسمعونه الى آخره ؟ » .

قالوا : « نعم » .

فمد يده الى جيبه وأخرج اسطوانة من الفضة في حجم الاصبع .

وخاطب حمادا قائلا : « وقد أعطاني مولاي النعمان هذه الاسطوانة واستحلفني أن أسلمها اليك مختومة بعد اتمام الخبر فتفتحها في هذا الدير وتقرأ ما فيها وتعمل به » .

فمد حماد يده فتناول الاسطوانة وهم بفتحها فأمسكه عبد الله وقال : « لا تفعل قبل اتمام الحديث » . ثم مضى في حديثه فقال : « فلما أتم النعمان وصيته بكى وبكيت ، ولكنني كنت أحبس الدمع تشجيعا له . فقال : (اعلم يا عبد الله ان القضاء واقع قريبا فاحتفظ بهذا السر حتى يأتي وقته ، أما اذا أنا خرجت من هذا السجن وعشت فللمسألة وجه آخر) . وللأسف يا سيدي انه لم يخرج من ذلك السجن فوافاه القدر فتوفي بداء الطاعون » . قال ذلك وتنهد والدموع ملء عينيه ، فتنهد الجميع ثم قال : « أما أنا فسرت الى هانيء ولقيت والدتك سمية وكانت حاملا فأسررت اليها ما كان فأطاعت فانتظرت ريثما وضعت ولكنها وأأسفاه عليها لم تعش بعد الولادة الا قليلا فحملتك الى أهلي وأرضعتك بينهم حتى شببت على ما ترى » .

★ ★ ★

نظر عبد الله الى حماد في عطف واحترام وقال له : « لعلك تريد أن تعلم ما تم في أمر وديعة أبيك ، فاعلم يا مولاي أن كسرى علم بعد وفاة سيدي النعمان أن أهله وماله وسلاحه عند هانيء ، ومن ذلك أربعة آلاف شكة ، والشكة سلاح الفارس كله . فكتب كسرى الى هانيء بأن يبعث بالوديعة اليه ، فأبى ذلك محافظة على العهد ورعاية للذمام ، وكان لكسرى عامل على عين النمر وما والاها الى الحيرة اسمه اياس بن قبيصة الطائي ، فدعاه واستشاره في الغارة على بكر بن وائل فأشار عليه بأن يفعل ، فعقد كسرى لأياس بن

قبيصة على كتيبتي أبيك وهما : الشهباء والدوسر ، وأرسل معه جندا آخر بقيادة رجال من الفرس ، فكانت حملة تزعزع الجبال وفيها من الخيل والجمال والمؤونة والعدة ما لا يحصى . فلما سمع هانيء بن مسعود بها سار برجاله لملاقاتها فالتقوا في موضع يقال له (ذو قار) وكانت فيه وقعة عرفت بوقعة ذي قار بين الفرس والعرب اشتهر أمرها في الاقطار ، وكانت الغلبة فيها لهانيء ورجاله فانهم هزموا الفرس شر هزيمة وهي أعظم وقعة انتصف فيها العرب من العجم قبل الاسلام . وفر اياس الى كسرى فسأله عن الخبر فقال : (غلبنا رجال بكر بن وائل وجئنا اليك بنسائهم) ففرح كسرى وأمر له بكسوة ولكن أياسا خاف افتضاح أمره قريبا ، فاستأذن في الذهاب الى أهله فأذن له فانصرف الى عين النمر ، ثم جاء رجل من أهل الحيرة الى كسرى وحدثه بهزيمة أياس فلم يصدقه وأمر فنزعت كتفاه وظل يصدق أياسا ثم ولاه الحيرة كما تعلمون ، وقد وليها بعده رجل فارسي ، ثم وليها المنذر الغرور أحد اخوتك . وهي الآن في يد أياس بن قبيصة ولا تزال الوديعة عند هانيء » .

وكان حماد قد مل الانتظار تشوقا الى ما في تلك الاسطوانة ولكنه صبر حتى فرغ عبد الله من حديثه ونهض وقد أعياه التعب لشدة تأثره وذكرى مصائبه فتناول الاسطوانة من حماد ودفعها الى الراهب ملتمسا أن يباركها قبل الفتح ، فباركها ثم تناولها عبد الله وعالجها بمدية حتى انفتحت ، ودنا من مصباح منير بجانب أيقونة ونظر الى ما في الاسطوانة وكلهم يتطاولون وينظرون معه فاذا فيها لفافة من جلد ، فأخرجها ونشرها بين يديه فرأى عليها كتابة بالاحرف الاسطرنجيلية ، وهي كتابة أهل العراق الى ذلك الحين . فشخصت أبصارهم الى ما فيها فأخذ عبد الله يتلوها عليهم وهم يسمعون وهاك نصها :

« من النعمان نزيل دار البقاء الى ابنه المنذر المقيم بين الاحياء . أما بعد فهذا كتاب كتبته وأنا في عالم الوجود وأنت في دار الفناء وستقرؤه بعد رجوعي الى عالم الغيب وبروزك في عالم الاحياء . فاذا قرأته وقد وفيت نذرك وعرفت حقيقة نسبك فاعلم أن عظامي تناديك من ظلمة القبر وتستحلفك بشرف أجدادك المناذرة من آل لخم ألا تقرب امرأة ولا تشرب خمرا حتى تنتقم لأبيك من أكاسرة الفرس ، فاذا فعلت ذلك فانك مبارك أنت ونسلك . وان لم تفعل فان رفاتي ترتعش حنقا ونفسي تتألم وهي تنظر اليك من منافذ الآخرة تراقب حركاتك . وسيجمعني واياك موقف تتحاسب فيه والسلام » .

فلم يكد عبد الله يأتي على خاتمة الكتاب حتى ارتعدت فرائص حماد ، ورأى مساعيه كلها ذاهبة أدراج الرياح . على أن الحمية ثارت فيه وهاجت النخوة في رأسه وشعر بدافع يدفعه الى الاخذ بثأر أبيه من أكاسرة الفرس ، وقد استعظم الامر وهاله الاقدام عليه فوقف مبهوتا لا ينبس ببنت شفة .

وكان عبد الله ينتظر ما يبدو منه فلما رآه صامتا قال له : « هذا هو السر يا سيدي قد أطلعتك عليه فألقيت عن عاتقي حملا حملته عشرين عاما ونيفا ، وكنت أخاف أن أقضي نحبي قبل افشائه فانظر ماذا تفعل » .

فقال حماد : « لقد ألقيت عنك حملا أثقلتني به ، وأرجو أن أوفق للقيام بما عهد الي والله منجدي ونصيري » . قال ذلك وتحفز للخروج من الصومعة فأوقفه عبد الله والتمس من الراهب أن يختتم حديثهم بالصلاة ، فصلى وتضرع الى الله أن يساعدهم على كتمان الامر . ثم خرجوا وكأن على رؤوسهم الطير لهول ما سمعوه ورأوه . وحماد أكثرهم بغتة وانذهالا لانه أصبح لا يدري ماذا يعمل ، وهل يسير الى هند

نيطلعها على سره وليس في ذلك السر الا ما يوجب كدرهـا لانه حائـل بينها وبـين الاقتران الى أجل غير معين وان يكن في اطلاعهـا على حقيقة نسبه ما يسرها . أم يخاطب جبلة في الأمر لعلـه يشير عليه أو ينجـده . أم يؤم العراق فينزل المدائن ساعيا في الانتقام من كسرى . فلما فـكر في مسيره الى هناك تهيب لعلمه بما يحول بينه وبـين ذلك المرمى مـن العقبات فان الاكاسرة أهل بطش ومنعة . فسار الى الديـر وقضى ليله ساهرا لعظم تأثره وهـو يفكر في طريقة تهون عليه المشاكل .

- ٢٢ -

دولة الفرس

ما برح الفرس من قديم الزمان تحت سلطة مملكة آشور حـتى تولى الملك سردنفول في القـرن الثامن قبل الميلاد عرش هذه المملكـة فلم يحسن سياستها ، وشغل عنها بمجالسة النساء واللهـو على اختلاف أنواعه ، فأبغضته الرعية وودت التخلص منه ، فاتفق كبيران مـن قواده على اخراج الملك من يده وهمـا : ارباسيس قائد عسكر مادي ، وبيليزيس قائد جنـد بابل ، فاتحدوا على محاربته وحاصراه في نينوى ، فلمـا أيقن بالهلاك أحرق نفسه وقصره في سنة ٧٦٠ ق م . وهكذا انقضت مملكـة أشور الاولى وقامت مملكة مادي وفارس وملكها أرباسيس ، وتوالى الملوك من بعده وفيهم العادلون المدبرون والجهلاء الظالمـون ، ومن أشهرهم كورش العظيم صاحب الغزوات المشهورة ، فافتتح بابل ومـا بين النهرين وأرمينيا وسوريا وآسيا الصغرى وجانبا من بلاد العرب ، وتولى

بعده ابنه قمبيز ففتح مصر في عهد ملكهـا أماسيس • ثم خلفه داريوس وآخرون لـم يحسنوا السياسة فتقهقرت المملكة واختلت أحوالهـا • فلما ظهر الاسكندر الاكبر في القرن الرابع قبل الميلاد طمع في ملك فـارس ففتحها واستولى عليها ، ولكن عمر الاسكندر لم يطل فمات واقتسم قواده مملكته فكانت بلاد فـارس من نصيب سلوقس الذي لم يطل حكمه ، وغزاها البرطيون بقيادة أرساسيس الأول وظلت في حوزتهـم خمسمائة سنة • ثم أنف الفرس من رضوخهم للنير الاجنبي فثاروا سنة ٢٢٦ م بقيادة رجل منهم اسمه أزدشير ، فطـرد البرطيين وأسس دولة اشتهرت في التاريخ باسم الدولة الساسانية ، ومن ملوكهـا كسرى أنو شروان الملقب بالملك العادل وهو أعظمهم ، وصار لفظ كسرى لقبـا لكل من ملك بعده منهم •

وكان مقام الاكاسرة في المدائن • وهي مدينـة عظيمة على ضفاف الفرات فيها قصر عظيم طـار ذكره في الآفاق يسمى ايوان كسرى أو طاق كسرى •

وحكم كسرى أنو شروان ٤٨ سنة ثم خلفه ابنـه هرمـز ، وكانت أمه ابنة ملك التتر فاستوزر أستاذه الحكيم بزر جمهر فسارت الاحكام في أيامه على مثل ما كانت عليه في زمن أنو شروان ، فلمـا توفي بزرجمهر انغمس هرمز في الشهوات وأهمل شؤون المملكة ، فعصـاه الولاة وغزاه ملك التتر فأعانه عليهم قائد من قواده اسمه بهرام كـان آية في الدهـاء والذكـاء ، فطردهم من البلاد ثم تحول الى محاربة الرومانيين ولكـن بعض المقربين من هرمز وشوا اليه ببهرام ، فأظهر له هرمز بعض الاحتقار ممـا أحنقه عليه ، فجاهر بعصيانه وخلعه وولى بعـده ابنه كسرى برويز وكـان صبيا صغيرا ، فطمع بهرام في الملـك ، وفر برويز من وجهـه واستجار بملك الرومانيين في ذلك العهد الامبراطور موريس فـأنجده

ورد الملك اليه ، ففر بهرام الى بلاد التتر فأحسنوا وفادته ولكنه ما لبث أن توفي هناك مسموما .

واستبد كسرى برويز بالحكم وقد عقد النية على صداقة الامبراطور موريس الذي رد اليه الملك ، فبالغ في اكرام الرومانيين في بلاده فلما مات ذلك الامبراطور عاد الى مناوأة الروم فأثار عليهم حربا عوانا ، وغزا بلاد الشام ودخل بيت المقدس فعثر هناك على الصليب الذي يقال ان السيد المسيح صلب عليه وكان في صندوق من الذهب في حفرة ، فحمله الى المدائن . وكان برويز رغم ذلك خاملا مترفا منغمسا في الملاهي الى أقصى حد حتى قيل أنه تزوج ١٢ ألف امرأة واقتنى خمسين ألف جواد ، وهو الذي جاءه كتاب صاحب الشريعة الاسلامية يدعوه فيه الى الاسلام . فاحتقر الكتاب وأساء حامله .

ثم ما لبث برويز أن علم بعزم الامبراطور هرقل على اكتساح بلاده ، ولم يقو على دفعه فما زال هرقل هاجما وأهل القرى يفرون من أمامه حتى وصل الى المدائن وبرويز لاه بقصره ونسائه ، فلما أحس بقرب الخطر فر ، فنقم عليه ابنه شيرويه فقتله وحكم مكانه سنة ٦٢٩ م ولكنه لم يحكم طويلا فخلفه آخرون بالتعاقب حتى سنة ٦٣٠ م فتولت عرش الفرس فتاة من آل ساسان اسمها (بودان دخت) وهي ابنة كسرى برويز وفي أيامها هجم هرقل على المدائن واسترجع الصليب منها وحمله الى القسطنطينية ، وحكمت بعدها أختها (آزرميدخت) سنة ٦٣٢ م (١٠ هـ) واشتهرت بالجمال والتعقل وماتت مسمومة ، وملك بعدها ملكان لم يطل حكمهما ، وأخيرا أفضى الملك الى (يزدجرد شهريار) وفي أيامه فتح العرب بلاد فارس .

★ ★ ★

وكانت المدائن عاصمة الفرس ، ويسميها اليونـان كتيسيفون ، ويسميها الطبرى طيسبون • والغالب أن كتيسيفون قسم من المدائـن وكانت على عشرين ميلا من جنوب بغداد على الضفة الشرقية لدجلة ، يقابلهـا في الغرب بلدة اسمها (كوش) وبينهما جسر عظيم مبني مـن السفن • وكـان الى جوار ذلك المكـان أيضا آثـار مدينة يونانية اسمها (سلوقية) نسبة الى سلوقوس خليفة الاسكندر هنـاك • وقـد سميت هذه الاماكن كلهـا باسم المدائن (جمع مدينة) • وأصل بنـاء المدائن أنه كـان في مكانها حصن كبير يسمى حصن كتيسيفون كـان البرطيون (الفرثيون) ابـان سلطانهم على العراق يقيمون به أثنـاء الشتاء لصفاء الجو هناك • وكان الى جوار الحصن كمـا جرت العـادة في مثل هذه الحـال • وظلت المدائن مقام الاكـاسرة في زمن الشتـاء • وكـانت محاطة بسور منيع عليه الابراج والقلاع ، يزيـده مناعة أن مياه دجلة تحيط به من جهة ، والآجام والمستنقعات تحيط بـه من الجهة الاخرى • فأصبحت المدائن جزيرة في وسط المياه يستحيل وصول الاعداء اليها قبل أن تمزقهم نبال الفرس من الأسوار • وقد كـان بين دجلة والفرات جنوبي المدائن قناة موصلة بينهما اسمها (نهر ملكـا) ومعناها بالكلدانية نهر الملـك ، تسهل نقل السفن بين النهرين •

وكان على ساحل المدائن عند دجلة سلم ممتد بطول الضفـة يصعد عليه الناس من النهر الى المدينة بدرجات متينة مبنية من الحجر ، ويسمى هذا السلم باصطلاح أهل تلك البلاد « مسناة » •

وكـانت سفن الفرس ترسو عنـد المسناة فتبدو مئـات منهـا هنـاك حتى تخـال سواريها غابة من الاعمدة تنـاطح السحـاب والناس فيها جماعات يتزاحمون بين صاعد ونازل ، وشكل السفن يشبه شكلها في العراق الآن ، مبتورة المؤخرة كأنهـا قطعت بسكين قطعـا عموديـا

فصارت عريضة ملساء . وأما مقدمها فانه يصعد مستدقا رويدا رويدا حتى اذا انتهى الى أعلاه انحنى على شكل المنجل فتخال تلك السفن اذا تحاذت متلاصقة عند المسناة وقد أديرت مقاديمها نحو المدينة سيوفا عقفاء يحملها جند من الحرس يحمون بها المدائن .

ولو أطللت على المدائن من مرتفع في ذلك العهد لخيل لك أنها غوطة فيها البساتين والمغارس بينها القصور والمنازل مبنية من الآجر وقد قام في وسطها الايوان كأنه ملك عظيم الشأن يحف به الخدم والأعوان .

★ ★ ★

أما ايوان كسرى فهو قصر باذخ يسمونه أيضا الطاق ، جرى اسمه على ألسنة العرب وأقلامهم مجرى الأمثال لعظمته وفخامته حتى عدوه من المباني العجيبة . وقد بناه سابور ذو الأكتاف وهو سابور بن هرمز في القرن الرابع للميلاد ، لكنه يعرف باسم ايوان كسرى أنو شروان . وقضى سابور في بنائه عشرين سنة ونيفا ، وأقامه وسط المدائن على مقربة من دجلة بحيث لا يحول بين الايوان والنهر الا الحدائق والبساتين ، وهي تنتهي عند الضفة بالمسناة المتقدم ذكرها وتحيط من مختلف الانواع ، ويحيط بالحديقة سور مبنى من الآجر له أبواب عليها الحرس بقلانسهم وتروسهم ورماحهم ، وفوق الأبواب رسوم فارسية نقشت على طينها قبل حرقه كما كان يفعل الآشوريون . وعلى جانبي الباب الأكبر المطل على المدينة تمثالان كبيران يمثلان الثور الآشوري المجنح برأس انسان طويل اللحية متوج الرأس ، وفي زاوية من زوايا الحديقة بناء الأفيال وفيه بعض الفيلة المعدة لركوب الأكاسرة . وبين أبواب الحديقة والايوان طرقات مرصوفة بالحصى ألوانا على

تشكل الفسيفساء يتألف من ترتيبهـا بعضها بازاء بعض رسوم تمثل أسودا وآدميين وفرسانا ومركبات عليهـا الملوك والقواد يجدون في صيـد الأسود ، تشبه رسوم ملوك آشور أسلاف الفرس فيما بـين النهرين . وأكبر تلك الطرقات وأوسعها طريق ممتد من الباب الكبير الى باب الايوان يصطف الى جانبه الحرس عند دخول كسرى الى الايوان .

وأما بناء الايوان فيتألف من قاعة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون ، مبنية بالآجر والجص وسقفها عقد واحد ، تقوم على عمـد من الرخام المنقوش ، ويصعد الى أرض الايوان بدرجـات عند بابـه . وفي صدره عرش مرصع بالذهب والحجارة الكريمة يجلس عليـه كسرى ، تعلوه قبة مرصعة في داخلها مروحة من ريش النعـام ، والى جـانبي العرش مجالس أعوانه ومرازبته . وجدران الايوان وسقفه مزينة برسوم بديعة في جملتها صورة كسرى أنو شروان وغـيره من الأكـاسرة العظام ، وأبيات من شعر مكتوب بالحرف الكلداني الذي كـان يكتب به الفرس قبل الاسلام . وفي سقف الطـاق رسوم الافلاك والابراج والنجوم من ذهب منزلة في قبة زرقـاء .

وكـان للايوان شرفات مزخرفة بالنقوش تشرف عـلى الجهـات الاربع قـائمة على أعمدة يتألف من صفوفها رواق يحيط بالطـاق من جهاته الأربع ، طول الشرفة الواحدة خمسة عشر ذراعـا . وقـد أدخل في بناء الايوان من الذهب ما ربمـا زادت قيمته على مليون دينار .

وباب الطـاق كبير نقش على عتبته العليا رسم الشمس مذهبـة ، وعلى كل من جانبي الباب تمثال أسد كأنـه يمشي وعينـاه تتلألآن . والأسدان مصنوعـان من الرخام محليان بالذهب وفي موضع العينـين منهما زمردات زرقاء بديعة الشكل . وأما عتبته السفلى فمصنوعـة من الرخام المرمـر . ولا يخلو باب الايوان من عشرات من الحرس ، ولا

يخلو مجلس الاكـاسرة من مئات من العلماء بين كـاهن وساحر ومنجم ، ويسميهم الطبري الحزاة فضلا عن الحجاب والحراس والبوابين .

هذه كانت حال الايوان عند ظهور الاسلام في القرن السابع للميلاد .

- ٢٣ -

ناسك حوران

تركنا حمادا في دير بحيراء غارقا في لجج الأفكـار تتقاذفه العوامل بين المسير الى العراق والمسير الى البلقـاء وكلا الامرين شاق ، وكلمـا تصور مسيره الى مدائن كسرى هـاله موقفه موقف الخصم أمـام ملك الفرس وعظم عليه الانتقام منـه وهو فرد وذاك سلطـان ينصره الجند والأعوان . ولم يكن ذلك ليهوله أو يكبر عليه لولا أمـر هند وتأجيل الاقتران . ولقد كان ميالا كل الميل لاطلاع هند على ما كشف لـه مـن نسبه مع ما جد من أمر التأجيل ليرى ما يبدو منها ومن أبيها ، ولكنه آثر الانتظار حتى يجد الى ذلك سبيلا لائقا . فلمـا تكاثرت عليه المشاغل وضاق صدره خرج من غرفته دون علم عبد الله أو سلمان بخروجه ، وسار يلتمس مكانا يخلـو فيه لعله يوفق الى رأي يخفف قلقه . وكانت الشمس قد مالت الى الأصيل فلاحت لـه أكمة على بضعة أميال منه فركب وسار نحوهـا ، وفيما هو في الطريق غاب وجدانه بما اجتذب انتباهه مـن الشواغل فسار الجواد حثيثا وحماد لا يعلم ، فلم ينتبـه الا وهو في سفـح جبل فالتفت الى الوراء فاذا ببصرى والدير قد غابا عن بصره ، ونظر الى الشمس فرآهـا مائلة نحو المغيب فوقف يفكر فيما يفعل وهل يعـود

الى بصرى أم يجلس هناك هنيهة ، فنظر الى ما حولـه فرأى نفسه في واد بين جبلين أجردين كسائر جبال حوران ، فترجل وقـاد جواده صعـدا يلتمس قمة أحد الجبلين لعله يشرف منهـا على بصرى فيعرف جهتهـا • وفيما هو صاعد حانت منـه التفاتة الى الجبل المقـابل فرأى كهفا نحتته يد الطبيعة في سفح ذلـك الجبل ولاح له شبح يتلصص بين الصخور هيئته بين الآدمية والوحشية لطول شعره وعريه • فوقف حمـاد ينظر الى ما يبدو منه فما لبث أن رآه يهرول نحو الكهف حتى دخله وتوارى •

فمال حماد الى استطلاع حقيقة ذلـك الشبح وتحول نحو الكهف يقود الفرس وهو لا يسمع في ذلك المكـان صوتا غير صوت وقع أقدامه وقرقعة حوافر جواده تدوي في أنحاء ذلـك الوادي ويتخلل الدوي طقطقة حجارة تتدحرج من مواقع حوافر الفرس ممتزجة بصوت صهيله • فنزل الوادي ثم هم بالصعود حتى اذا صار على مقربة من الكهف رأى صخرا يتدحرج نـازلا نحوه فتحول من طريقه وعلم أنه انما دحرج من الكهف عليه عمدا فلم يبال ، بل ازداد ميلا الى معرفة ذلـك الشبح فمـا زال صاعدا حتى دنا من الكهف فاذا بصخر آخر يتدحرج فنادى بـأعلى صوتـه : « لا ترمنا بالحجارة فلسنا براجعين مـن هذا المكان قبل الوصول اليه » • فردد الوادي صدى كلامه أضعافا فتهيب من موقفه وزاده تهيبـا قرب غروب الشمس واختلاط الظلال حتى كادت تتحول الى ظلام • فشعر اذ ذاك بأنه أساء التصرف بمجيئه الى ذلك المكان الوعر مع مـا فيه مـن الوحشة ، ولكنه تجلد وتفقد حسامه وخنجره • ثـم مـا لبث أن وصل الى باب الكهف فظهرت له مغارة لا يرى آخـرها لعمقها ولا يستطيـع الدخول اليها والفرس معه فوقف وحدق ببصره الى الداخل لعله يـرى أحـدا فلم يقع نظره على شيء فصاح قائلا : « من يقيم بهذا الكهـف فليخرج الينا لأننا غير متحولـين عنه قبل أن نراه ولا خوف عليه » • قال

ذلك وهو يكاد يرتعش رهبة لسكون الطبيعة سكونا لا يتخلله تغريد طائر ولا نقنقة ضفدع ولا خرير ماء ولا هبوب هواء ولا صوت آخر حي أو جامد غير صهيل الفرس ووقع حوافره . فهم حماد بشد الجواد الى صخر والدخول الى المغارة بنفسه . وفيما هو يهم بذلك ظهر له شبح خارج من ظلمة ذلك الكهف لا يسمع لأقدامه وقع فثبت حماد قدمه وتحفز للدفاع اذا اقتضت الحال . فلم يكد يفعل حتى وصل ذلك الشبح اليه فاذا هو رجل عار يكسوه شعر رأسه المسترسل الى قدميه وقد علاه الشيب ، على أن الكبر لم يغير شيئا من اعتدال قامة الرجل ورشاقة حركته وحدة بصره وان يكن جلد وجهه قد تجعد وشعر حاجبيه وشاربيه قد طال وشعر صدره أصبح لغضه وبياضه كأنه زبد الصابون . وطالت أظافر يديه ورجليه .

فلم يكد نظر حماد يقع عليه حتى هاب منظره ، ولو لم ير في يده صليبا كبيرا لخيل له أنه من مردة الجان ولكنه أدرك لأول وهلة أن الرجل ناسك من نساك تلك الايام انقطع عن العالم وأوى الى الكهوف التماسا للعبادة . وكان قد سمع بكرامة هؤلاء النساك وصدق نظرهم في عواقب الامور ، فلاح له أن يخاطبه فيما هو فيه ويستشيره في أمره لعله يخفف شيئا من قلقه . فتقدم نحوه باحترام وهم بتقبيل الصليب في يده ، فأدناه من فيه فقبله ثم خاطب الناسك قائلا : « لعلك ناسك مقيم بهذا المكان ؟ » . فأجابه الناسك بحني الرأس أن « نعم » . فقال : « هل تأذن لي في أن أبثك بعض ما في ضميري على سبيل الاعتراف لتشير علي بما يوحي به اليك الروح القدس ؟ » .

فأجاب الناسك بالاشارة أنه لا يستطيع التكلم الان لأن من شروط نسكه أن يصمت اسبوعا وينطق أسبوعا ، وأن آخر أسبوع الصمت ينتهي الليلة فاذا جاء في الغد خاطبه . وكان التنسك شائعا

في تلك الايام ، والنساك أنواع منهم من ينذر الصمت طول الحياة أو بعضها ، ومنهم من ينذر العرى أو الجوع أو السهر أياما ، ومنهم من ينذر العيش على عشب الارض وهؤلاء فئة كبيرة كانت بين النهرين سموا « النساك الرعاة » فيقيمون بالمغاور والكهوف المظلمة •

وكان ناسك حوران هذا قد نذر الصمت أسبوعا فسر حماد بتأجيل المقابلة خوفا من البقاء هناك تلك الليلة ثم لا يعرف طريقه في عودته لشدة الظلام • فقال : « الا آتي اليك معي بطعام أو نحوه من بصرى ؟ » • فأفهمه الناسك بالاشارة أنه من النساك الرعاة الذين يعيشون على عشب الأرض •

فقال له : « ولكنني أرى الأرض هنا مجدبة لا عشب فيها » •

فأشار الناسك بيده الى مكان وراء ذلك الجبل فيه مرعى •

فقال حماد : « وأين الطريق الى دير بحيراء ؟ » • فدله على طريق سهل غير الذي جاء منه ، فودعه وقبل الصليب وعاد وجواده وراءه حتى وصل الى الطريق فركب وسار قاصدا الدير ، فلما بلغه وجد عبد الله وسلمان ينتظرانه في الغرفة وقد قلقا لغيابه ، وقال له عبد الله : « لقد شغلت بالنا بغيابك » •

فلم يشأ حماد اطلاعهما على ما اتفق له في ذلك اليوم رغبة منه في كتمانه ريثما يسمع كلام الناسك فيطلعهما على الحكاية كلها ، وبقي ساكتا • فقال عبد الله : « ما الذي حملك على الركوب منفردا ؟ »• فكبر عليه الاقرار بقلقه وتهيبه من الامر فقال : « خرجت للترويح عن النفس » •

فأدرك عبد الله حاله ، ولم يشأ أن يثبط عزيمته ولا أن يزيد قلقه خوفا عليه من اليأس فقال له : « أرى سيدي في اهتمام وقلق وما في الأمر ما يدعو الى ذلك » •

فظل حماد صامتا مفكرا ، فأدرك سلمان أن في نفس حماد كلاما لعله لا يريد التصريح به على مسمع منه فتظاهر برغبته في ترك الغرفة لأمر يهمه ، فلما خرج قال عبد الله لحماد : « ما بال سيدي لا يبوح بسره ؟ ألست شريكك في أمرك ؟ » .

قال : « بلى أنت بمنزلة أبي ، ولا أخفي عليك شيئا ، فاني في قلق وارتباك وأراني في حاجة الى من يفرج كربتي برأي أو مشورة ومسألتنا على ما تعلم من الدقة والخطر » .

فقال عبد الله : « هلم بنا الى الراهب الشيخ الذي شاركناه في سرنا لعله يشير علينا بما يفرج كربتنا » . فوافق على ذلك وخرجا حتى أتيا غرفة الراهب فدخلا عليه ، وكان متكئا فجلس ورحب بهما فجلسا ثم قال عبد الله : « انك يا مولاي شريكنا في سرنا وعالم بما في ضميرنا فهلا أشرت علينا بما يخفف عنا ؟ » .

فقال الراهب : « ان المسألة غاية في الدقة والمشقة ، وقد أدركت ذلك منذ سمعت القصة ولا أدري بماذا أشير » . قال ذلك وسكت برهة يفكر ثم هب من مجلسه بغتة وقال : « أرى أن تذهبا الى ناسك حوران فانه يقيم بكهف على مقربة من هذا المكان ، فعساه يشير عليكما بما فيه خيركما » .

فبغت حماد عند سماعه اسم الناسك وقال : « هل تظنه قادرا على ذلك ؟ » .

قال : « نعم يا سيدي أنه أوتي علما وكرامة فلا تخلو مشورته من فائدة » .

فقال عبد الله لحماد : « هل عرفته قبل الآن ؟ » .

فقال : « أعترف لك بأني وصلت اليه اليوم اتفاقا وخاطبته فأجابني باشارة يديه انه لا يستطيع التكلم الا في صباح الغد لأنه ممن

نذروا السكوت أسبوعا والتكلم أسبوعا » •

فقال عبد الله : « فلنذهب اليه غدا ان شاء الله ، فهل ترافقنا يا حضرة الاب المحترم الى مغارته ؟ » •

قال الراهب : « يا حبذا لو استطعت المسير اليه معكما ، ولكنني شيخ لا أقوى على المشي ولا الركوب والطريق وعر ، فسيرا اليه يحرسكما الله ودعوني هنا أصلي وأتضرع اليه تعالى أن يسهل سبيلكما » • فودعاه وخرجا •

★ ★ ★

في صباح اليوم التالي قال حماد لعبد الله : « ألا نصطحب سلمان في مسيرنا الى الناسك ؟ » •

قال عبد الله : « لا أرى ما يمنع ذلك وسلمان كما تعلم أكثر غيرة علينا من غيرة أحدنا على الآخر • ولا أخالنا نستغني عنه فيما نحن فيه ، ولا يليق بنا وقد صحبناه أعواما خدمنا بها خدمات جمة أن نخفي عليه أمرا نجريه » •

قال حماد : « ذلك ما أراه » • وبعثا اليه فصحبهما ، وخرجوا في الصباح على جيادهم وحماد دليلهم حتى اقتربوا من الجبل وأطلوا على الكهف فقال حماد : « هذا هو الكهف وكأني أرى الناسك في انتظارنا عند بابه » •

فنظر عبد الله الى الكهف فوقع بصره على الناسك وتهيب منظره ، ثم صعدوا فلما دنوا من الكهف تحفز الناسك لملاقاتهم وكانوا قد ترجلوا ومشوا نحوه فقال : « أهلا بكم ومرحبا » • وأخذ يتفرس فيهم واحدا واحدا بعينين براقتين تحت حاجبين بارزين •

فقال حماد : « مرحبا بك أيها المتعبد التقي ، لقد جئناك اليوم حسب

وعدك ، وهذا أبي (وأشار الى عبد الله) وهذا صديقي (وأشار الى سلمـــان) •• » • وتقدموا جميعا وعبد الله ينظر الى وجـــه النـــاسك كأنه يعرف وجها مثله ، وكـــان الناسك مشغولا باعداد أحجـــار يجلسون عليها وهو يخطر أمامهم عاريا وشعره مسترسل عليـــه يجلـــل بعضـــه فغلب عليهم الحياء فلم يستطيعوا النظر اليه الا خلسة •

فلمـــا أعد الحجارة تقدموا اليه وقبلوا يده فباركهم وجلسوا • أما هو فجثا على التراب جثو المستريح وجمع شعر رأسه ولحيتـــه في حجره وأخذ يرحب بهم ويعتذر لعدم امكانه القيام بحق ضيافتهم •

فقال عبد الله : « لقد جئناك نلتمس بركة لا ترحابا ، فقد بلغنا أنك من رجال الله المختارين ، فنظرة منك تغنينا عن أثاث القصور » • قـــال ذلك وهو ينعم النظر فيه لعله يذكر الوجه الذي يشبهه •

فقال الناسك : « اني أحقر عباد الله وأشكر لكم حسن ظنكـــم بي وما تكبدتموه من المشقة في زيارتي ، فأبسطوا ما في أنفسكم لعلـــي أستطيع بمشيئة الله أن أخدمكم لمجده تعالى » •

فقال عبد الله : « اننا من طـــائفة النصارى الذين يعتقدون بكرامة النساك عباد الله ونعتقد أنهم ينطقون بوحي منه تعـــالى ، وقد جئنـــا لنطلعك على سر لم يطلع عليه أحد سوانا وراهب مقيم بدير بحيراء • والسر ذو خطر يستلزم اصغاء وكتمانا ، ونحن معاشر النصارى نعلم خطورة سر الاعتراف وما فيه ممـــا يدعو الى الثقة التامة بأمثالكـــم » •

فقال الناسك : « قل يا ولدي ولا تخف » •

فالتفت عبد الله يمينا وشمالا كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وقال : « يظهر لي أنك من أهل العراق » •

قال الناسك : « لقد أصبت المرمى • وما الذي دلك على ذلك ؟ » •

قال دلني عليه ملامح وجهك ونوع تعبدك فقد قيـــل لي انك من

النساك الرعاة وهم كثيرون في العراق » .

قال : « نعم يا ولدي اني كما قلت » .

قال : « هل تعرف الملك النعمان بن المنذر ؟ » .

فلم يكد عبد الله ينطق باسم النعمان حتى ظهرت البغتة على وجه الناسك وأبرقت عيناه وقال وهو يشرئب بعنقه ويحدق بعينيه : « نعم أعرفه » .

فعجب عبد الله لتلك المظاهر ولكنه تجاهل وقال : « تعرفه معرفة جيدة أم تسمع باسمه وأخباره ! » .

فقال الناسك ويده في لحيته يمشطها بأصابعه : « بل أعرفه كما تعرف ولدك هذا » . قال ذلك بصوت مختنق حتى خيل لهم أنه يبكي .

فقال عبد الله : « أراك يا سيدي قد اهتممت لحكايتنا من أول كلمة قلناها » .

فقال الناسك ويده الى عينيه يمسح بها دموعه وقال : « ان ذكرى الملك النعمان تهيج أشجاني وتفتت كبدي ، فهل يهمكم من أمره ما أهمني ؟ أم جاء ذكره على لسانكم عرضا » .

قال : « بل هو محور حكايتنا ومرجع سرنا رحمه الله » .

وكان حماد وسلمان شاخصين يعجبان لما يبدو من الناسك ، وعبد الله يزداد استئناسا بطلعته ولكنه لم يدرك ما الذي يدعوه الى ذلك .

فقال الناسك : « قل ما عندك عن النعمان ، اني أرتاح لذكره ولكنني أتأسف لتذكري عاقبة أمره » .

فأشار عبد الله الى حماد وقال للناسك : « اذا كان النعمان يهمك الى هذا الحد ، فانظر الى هذا الشاب وقل لنا هل تعرفه ؟ » .

فمسح الناسك عينيه ونظر الى حماد وجعل يتفرس فيه ولم يكد

يتأمله حتى صاح بأعلى صوته : « انه ابن النعمان لا شك في ذلك » .
وهم به وضمه وأخذ يقبله .

فخفقت قلوبهم وبكوا جميعا والناسك يضم حمادا الى صدره يقبله ويبكـــي .

فازداد عبد الله استغرابا للأمر وقال للناسك : « لقد أذهلتنا بما بدا منك ، فكيف تقول انه ابن النعمان وقد كـان أبرش أحمر وهذا أسمر أدعـــج » .

قال : « ان ملامح النعمـــان قد تمثلت فيه وهو الرجل الذي رغبت عن العالم وانقطعت الى هذه الجبال من أجله » .

فبهتوا لهذا القول ولم يفهموا مغزاه ، فـأراد عبد الله أن يستطلع حقيقة الخبر فقال : « وهل تعرف الذي يكلمك ؟ » .

فنظر الى عبد الله نظر المتأمل وقال : « لعلك صديق الملك النعمان وشريكه في مصابه (شمعون الحيرى) . » . وكـــان هذا هو الاسم الذي عرف به عبد الله اذ ذاك .

فذهلوا جميعا ولا سيما عبد الله فأعـــاد نظره الى الناسك وازداد استئناسا به ولكنه لم يذكر كيف عرفه فقال : « أمـــا وقد علمنا انـــك شريكنا في الامر فأخبرنا من أنت وفرج كربتنا » .

فصعد الناسك الزفرات وقال : « أما أنـــا فاني القس الذي ارتـــد النعمان الى النصرانية على يده بعد أن كان أسلافه قد نبذوهـــا وعادوا الى الوثنية أو المجوسية ديانـــة الفرس » .

فانتبـــه عبد الله من غفلته كأنـــه أفاق من رقاد وقال : « لعلك القس يعقـــوب ؟ » .

قال : « نعم ، وقد كنت مقيما بديـــر هند الكبرى المنسوب الى هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار وهو في ظاهـــر الحيرة ، وكانت

هند هذه كما تعلمون قد ترهبت فيه فسمي باسمها ؛ ولكنني كنت أختلف الى النعمان كثيرا ويطلعني على أسراره حتى كان ما كان من أمر سجنه في خانقين ، فبرحت الحيرة وسرت الى هناك وجعلت أتردد اليه في السجن . ألا تذكر أنك كنت تراني هناك ؟ » .

قال : « أذكر ذلك جيدا وما زلت منذ رأيتك الان وأنا أفكر فيه » . ثم هم عبد الله به وتعانقا وهما يبكيان ، أما الناسك فتحول نحو حماد وضمه وجعل يقبله ويبكي ويقول : « أحمد الله على أني رأيتك قبل موتي » .

ولبثوا برهة صامتين وكل يبكي ويمسح دموعه بكمه الا الناسك فقد كان يمسحها ببطن كفه .

ثم قال عبد الله : « أقصص علينا بقية الخبر يا حضرة القس المحترم » .

قال : « كنت أتردد اليه في السجن أصلي له وأباركه وأدعو له ، وكان كلما اجتمعت به يقول والاهتمام ظاهر على وجهه : « لدي سر سأطلعك عليه في فرصة أخرى » . وكنت أتوقع سماع ذلك السر في كل زيارة وهو يسوفه ، وكنت كلما سرت اليه رأيتك وأعجبت بغيرتك عليه . فسألته عنك يوما فذكر لي أنك مستودع أسراره وانه يثق فيك وثوقا تاما . وما زلت أختلف اليه حتى أصيب بمرض ظنوه الطاعون ولا أظنه اياه . فزرته ولم تكن أنت ساعتئذ هناك فقال لي : (أراني لن أنقه من مرضي هذا ، ولعل القضاء سيعاجلني وأخاف ألا أملك فرصة أخاطبك بها) . فقلت : (قل يا سيدي ولعل الله شافيك باذنه) . ثم بكى وبكيت » .

قال الناسك ذلك وخنقته العبرات والجميع سكوت يصغون اليه ويتطاولون بأعناقهم ويحدقون بأبصارهم في شفتيه وهما ترجفان من

شدة التأثر ، فسكت الناسك هنيهة ريثما استرجع قواه ثم قال : « فأمسكني النعمان رحمه الله بيدي وأدناني منه وأسر الي أمرا خطيرا ذكر أنه أسره اليك ولا أدري هل يجوز لي التلفظ به وهو سر الاعتراف » .

فقال عبد الله : « لقد قلت ألي عارف به فلم يعد من قبيل سر الاعتراف وقد أطلعت ابنه ورفيقنا هذا عليه » .

فقال الناسك : « أما والحال على ما تقول فأخبركم أنه أدناني منه وهو جالس على فراشه في ذلك السجن وقال : (اني سأقضي نحبي هنا ظلما من قوم لا يعرفون الله ولا يشفقون على انسان ، وسأترك أهلي وأولادي دون أن أراهم وأودعهم ، واني عالم أن سلطان الحيرة سيخرج من بني لخم بعد موتي ، فأسررت الى شمعون أن يربي ولدا لي لم يولد بعد وأن يكتم نسبه عنه حتى يبلغ العشرين من عمره فيقص شعره في دير بحيراء ثم يطلعه على حقيقة نسبه .. وتركت لولدي هذا وصية حرضته فيها على أن ينتقم لي من دولة الفرس) . فلما سمعت كلامه اقشعر بدني واستعذت بالله من ذلك كله وقلت : (يا سيدي الملك ، أراك تستعجل الاجل وليس ما يدعو الى قربه ، وأما الانتقام فاتركه الى الله سبحانه وتعالى وهو الديان العظيم) . فأجابني والدموع تخنقه : (لقد قضي الأمر يا أبتاه ولا أرى الرجوع عنه والله يقضي بما يشاء) . قال النعمان ذلك واختلج صوته وارتعدت فرائصه ثم غاب صوابه . وفيما نحن في ذلك جاء السجان يشدد النكير على من يدخل الى النعمان فخرجت ولم أعد أراه ، ثم ما لبثت أن سمعت بانتقاله الى دار البقاء (قال الناسك ذلك وتنهد) وعلمت واحسرتاه عليه انه لم يمت بخانقين بل نقلوه الى ساباط فمات فيها فلما سمعت ذلك كرهت الدنيا وتحققت فناءها وازددت زهدا فيها : فالتجأت الى النسك واخترت أكثره زهدا وهو هذا

الذي أنـا فيه ، أعيش على نبات الأرض وأمكث عاريا كما ترون • وكنت مقيما بالعراق مع رفـاق كثيرين من الرهبان وذكر النعمان لم يبرح مـن ذهني يوما واحدا وصورته نصب عيني وهو على ذلك الفراش في خانقين وما زلت أردد كلمـاته الأخيرة ، فأحببت الاطلاع على مـا فعلته أنـت من هذا القبيل فلم أعرف مقامك ، ولما مضت بضع عشرة سنة مـن وفاته ولم أرك ولا عرفت مقرك قلت : (لعلـه يقيم بالبلقاء قـرب دير بحيراء لأجل وفاء النذر عند حلول الميعاد) • فجئت وأقمت بهـذا الكهف وفي نفسي شيء أريد أن أطلعك عليه فلم أسمع عنكم خبرا ولا أنـا أستطيع البحث لانقطاعي عن الناس فضلا عن أني لم أكن أعرف اسمك الجديد فكنت أتوقع أن أسمع خبرا عن شمعون الحيري فلم أسمع هذا الاسم قط » •

قال عبد الله : « وما الذي في نفسك وتريد أن تطلعني عليه ؟ » •

قال : « هو خبر يتعلق بوصية النعمان لك ولابنه ، فأحك لـي ما تم في أمر النذر هل وفيته وأطلعت هذا الملك على حقيقة نسبه ؟ » •

قال عبد الله : « نعم يا مولاي لقـد وفينـا النذر بعد ميعاده » • وحكى له القصة من أولها الى آخرها حتى أتى على سبب مجيئهـم اليه فقال : « وقد جئنا اليك لعظم ما قـام في نفس مولانا الملك من الاهتمام بأمر الانتقـام ، لعلك تشير علينا بمـا يخفف ما بنا • أو تهدينـا سبيلا مستقيمـا » •

فقال الناسك : « لقد وقعتم علـى خبير ، وان في بقيـة قصتي مـا يفرج عنكم كل كرب ان شاء الله » •

فاستبشر عبد الله وحمـاد وسلمان بانفراج الازمة ، وسروا لقدومهم على هذا الناسك ، فقال عبد الله : « أخبرنا ببقية قصتك بورك فيك » •

قال : « كنت لفرط اهتمامي بأمر الملك النعمان ووصيته لا أبـرح

أفكر في هذا الأمر نهارا وأحلم به ليـلا ، حتى استيقظت ذات صبـاح والناس يتحدثون بأمر كسرى برويز قاتل النعمان وان ابنه شيرويـه تآمر عليه وسجنه فقلت في نفسي : (هذه عـاقبة القوم الظالمين) . ثم ما لبثت أن سمعت بأنه قتله فاعتبرت بحكمة الله سبحـانه وتعالى وشعرت براحة ، فبت تلك الليلة أتأمل في عـاقبة الظالمين وقول القائل (وأنذر القاتل بالقتل) . فرأيت في منامي كـأن الملك النعمان قادم الي بلبـاس ناصع البياض ووجه منير باسم ، فخشعت لرؤيته على هذه الصورة ثم سمعته يقول : (لا تعجب يا يعقوب لمقتل برويز المجوسي فقد أعد الله له مـا هو أعظم من ذلك ليعتبر القـوم الظالمون) .

« فقلت وقد بهرني نور وجهه فأطرقت : (وماذا عسى أن يكون أعظم من الموت قتلا بسيف البنين ؟) . فقال لي : (سوف ترى وكل آت قريب) . فرفعت نظري لأراه فغـاب عن بصري ، واستيقظت من منامي مذعورا . ولم تمض بضع سنوات حتى وقع في سلالة برويز ما لم نسمع بمثله في غابر الازمان أتدرون ما هو ؟ » .

قال عبد الله : « وماذا تعني ؟ » .

قال : « كان لبرويز هذا ثمانية عشر ولدا كلهم ذو أدب وشجاعة ومروءة ، ومنهم شيرويه الذي تولى الملك بعده ، فوشى رجل اسمـه فيروز باخوة شيرويه اليه فأمر بقتلهم جميعا ، فقتلـوا صبرا في ساحة الايوان وهو ينظر اليهم ، ولكـن شيرويه لم يهـدأ له بـال بعد عمله هذا فان اختيه بوران وآزرميدخت وبختاه توبيخـا شديـدا فبكى بكاء مرا ورمى بالتاج عن رأسه ، ولم يزل بقية أيـامه مهمومـا دنفا ، ولاقى المصائب الكبرى وفي جملتها طاعون فشا في بلاده فأبـاد أكثر أهل بيته ، وأخيرا مات هو كئيبا حزينا ، فهل هناك ما هو أشد وطـأة من هـذا الانتقام ؟ . وزارني ملاك النعمـان بعد هذه الحوادث وهو يضحـك

وأمارات البشر ظاهرة على وجهه فهممت بالوقوف للقائه فشعرت بنفسي ثقيلا لا أستطيع النهوض فابتدرني هو قائلا : (لقد انتقم لي الله من برويز المجوسي فطابت نفسي ، وأرى وصيتي لولدي حملا ثقيلا على عاتقه ، فقد شعرت بضعف بني الانسان واقتنعت بما أشرت علي به وأنا في سجن خانقين) . قال ذلك وتوارى عن بصري وأنا راقد لا أستطيع حراكا ، ثم استيقظت وصورة النعمان أمام عيني ويكاد النور ينبثق من وجهه » .

فلما بلغ الناسك الى هذا الحد من حكايته شعر كل من السامعين بانفراج الازمة ، وأحس حماد كأن حملا ثقيلا نزل عن ظهره .

أما سلمان فكان الى ذلك الحين صامتا لم يفه بكلمة ، فلما فرغ الناسك من كلامه وقف سلمان وهم بيد الناسك فقبلها وقال : « لقد أتيتنا فرجا من عند الله ولكن قلوبنا لا تشتفي الا بعمل نعمله على قهر أولئك الكفرة الغاشمين » .

فنظر الناسك اليه وتبسم تبسما قلما تعوده وقال : « تلك أعمال الله يا ولدي وستسمع بذهاب دولة الفرس قريبا فلا يبقى ثم من تنتقمون منه » .

فلم يفهموا مغزى كلامه فقال عبد الله : « هل تعني شيئا محدودا أوحي به اليك فانكم معشر النساك ذوو كرامة ؟ » .

قال الناسك : « أشير الى أمر لا يحتاج الى وحي أو كرامة بل هو ظاهر يفهمه كل عاقل . ألا ترى حال الفرس واختلال شؤونهم واضطراب أحوالهم حتى توالى على عرش ملكهم خمسة ملوك في خمس سنين ، وكل يعمل على الاستئثار بالسلطة وابادة الآخرين ، وأضعفهم رأيا يزدجرد الذي يتولى الملك الآن ، فلا بد من زوال دولة الفرس على يده . الا يدلكم شيخوخة دولتهم وهرمها على قرب انقضاء أجلها ؟ ان للدول

آجالا كآجال الناس ، وهي تمر بأدوار تنتهي بالموت • ودولة الفرس قد بلغت شيخوختها ولا تلبث أن تنقضي وكذلك دولة الروم الحاكمة على هذه البلاد » •

قال عبد الله : « ولكن لا تنقضي دولة الا على يد دولة أخرى تقوم مقامها ، فمن سيخلف هاتين الدولتين ؟ » • قال : « أمـا سمعتم برؤيا الراهب بحيراء الذي كان يقيم بديره هنا ؟ » •

فتذكر حماد ما سمعه من الراهب الشيخ في تلك الصومعة يـوم جاءها لمـلاقاة هند هناك فقال : « سمعتها من الراهب الشيخ ، فقد حكى لي مرة أن بحيراء رأى في منامه فتى جميل المنظر مولده برج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل ، وعلم منه انه هو الذي سيهدي أبنـاء جلدته بني اسماعيل الى معرفة الله ، فيقوي به أمرهم ويشد أزرهم وتجتمع كلمتهم فيذللون أبناء عمهم بني اسحق ويتسلطون عليهم مدة توافق ما أشار اليه دانيال في نبوته وأنه يخرج من أولئك العرب اثنتا عشرة دولة ، أليس ذلك ما تعنيه ؟ » •

قال الناسك : « هذا ما عنيته وأزيد عليه ان الرجل المنتظـر قد ظهر في جزيرة العرب ودعـا الناس فيهـا الى عبادة الله ونبذ الأوثـان ، وقد فتح مكة وكسر أصنام الكعبة وانتشر سلطانه في الحجاز واليمن ، وسيفتح الشام والعراق ويخلف الفرس والروم في سلطانهما » •

فقال حماد : « لقد شاهدنا قوته وسلطانه بأعيننا يوم فتح مكة ، وكـان يوما مشهودا ، ويظهر من رغبته في سبيل الله وتفـاني أنصاره وأصحابه في نصرته أن دولتـه ستغلب الـدول كلهـا ان عـاجلا أو آجـلا » •

قال : « فليس ثمة اذن ما يدعو الى تكبد الخطر للانتقـام من أكـاسرة الفرس ، وقد رأيتم أن قاتل حبيبنا النعمان قتل هو وأولاده

شر قتلة ، وسيقضي العرب على دولتهم ان شاء الله » .

فوقع كلام الناسك على قلب حماد بردا وسلاما ، فارتاح باله من أمر الانتقام المعجل وانصرف فكره الى هند وشعر بميل شديد الى رؤيتها وخاف أن تسيء الظن به اذا طال غيابه بعد يوم الشعانين وهم في اليوم الثاني منه ، فتظاهر بميله الى الانصراف ، وأدرك عبد الله ذلك فقال للناسك : « أتأذن لنا في الذهاب على أن نغتنم الفرص لزيارتك حينا بعد حين ، وهل تطلب منا أمرا نقضيه لك ؟ »

قال : « لا أريد من هذا العالم شيئا ، فقد رأيتم زهدي فيه ، ولم يكن في نفسي شيء غير رؤية ابن حبيبي النعمان لأقص عليه ما اؤتمنت عليه مما خاطبني به أبوه في الحلم ، فأحمد الله على نيل بغيتي فاذا مت الآن فاني أموت قرير العين ناعم البال » .

فقال عبد الله : « أطال الله بقاءك ، ونرجو أن نراك مرارا » . قال ذلك ونهض فنهضوا جميعا وودعوا الناسك وانصرفوا على جيادهم وكأن على رؤوسهم الطير .

أما حماد فان ذهنه ما برح مشغولا بأمر هند ، ورغب في اطلاعها على حقيقة نسبه ، فلما وصلوا الى الدير مروا بغرفة الراهب الشيخ فدخلوها ليطلعوا على ما دار بينهم وبين الناسك ، فلما أنبأوه بما علموه من أمره أطرق يفكر ثم قال : « لقد خيل الي منذ رأيت هذا الناسك انه لم يغادر خصب العراق ويقيم بهذه الجبال المجدبة الا لدافع دفعه الى ذلك ، وقد صدق ظني ويسرني أنه أطلعكم على ما خفف قلقكم وهون عليكم فما أنتم في حاجة الى الانتقام من كسرى وقد كفاكم الله مؤونة ذلك . أما ما قاله عن قوة المسلمين وعظم دولتهم حتى يخشى على الروم والفرس منها فقد أيدته الحوادث الجارية ، فان هؤلاء الحجازيين لم يكادوا يقومون بدعوتهم حتى ملأوا جزيرة العرب فتحا

وقتالا فدانت لهم قبائل اليمن وعمان واليمامة ونجد ، وقد شهد حماد وسلمان فتح مكة ورأيا بطش هؤلاء العرب وقوة جامعتهم ، كما شهد كل من رأى حروبهم في مؤتة هنا بأنهم كافحوا كفاح الأسود وصبروا على الحرب صبر الرجال ، ولكنها أول مرة لاقوا فيها جند الروم ولم يكونوا في عدة كافية فلم يفوزوا ، والظاهر أن وقعة مؤتة كانت أمثولة علمتهم كيف تؤكل الكتف حتى اذا رأوا في جندهم الكفاءة أعادوا الكرة ليس على الشام فقط بل على العراق أيضا » .

فقال عبد الله : « وهل علمت أنهم حملوا على العراق ؟ » .

قال : « نعم انهم حملوا عليه حملة اذا لم يكن فوزهم فيها تاما فلا أقل من أن يؤذوا الفرس ويضيقوا عليهم » .

فقال حماد : « وكيف عرفت ذلك يا مولاي ؟ » .

قال : « أخبرني بذلك تاجر من أهل مكة تعودنا لقاءه هنا كل عام أو عامين ولي معه صداقة ودالة ، فقد مر بي من بضعة أيام وأطلعني على حوادث تلك الدولة بعد فتح مكة حتى الساعة فاذا هي مما يدل على أن دولتي الروم والفرس زائلتان ، اذ أخبرني ذلك التاجر ان أولئك الحجازيين بعد أن فتحوا مكة عادوا الى المدينة وأنفذوا جندا منهم الى من بقوا في جزيرة العرب على غير الاسلام فغزوا غزوات عدة فازوا فيها كلها . ومن أكبر قوادهم رجل اسمه خالد بن الوليد أتى بالمعجزات في حروبه حتى سماه النبي (سيف الله) . ومنهم أيضا علي بن أبي طالب ابن عم النبي وهو بطل مجرب . وكذلك رجل شيخ من كبار مشيريهم اسمه عبد الله بن أبي قحافة ويلقب بالصديق وكنيته أبو بكر وهو حمو النبي والد امرأته عائشة . ومنهم رجل آخر يندر مثاله في العالم في شدة البطش وصدق الغيرة على الحق اسمه عمر بن الخطاب ، وآخر اسمه عمرو بن العاص ، وغير هؤلاء جماعة كبيرة . فتمكن بذلك من

اذلال قبائل العرب حتى انه لم يعد يحتاج في اذلالهم الى ارسال الرجال بل كانوا يفدون عليه وفودا يلتمسون الدخول في دينه عن رضا وطيبة خاطر . وقد جند جيشا بقيادة رجل اسمه أسامة بن زيد وأمره أن يسير الى فتح الشام ، وفيما هو في ذلك وافاه القدر فتوفي قبل مسير الجند ولكنه خلف أبطالا قاموا بنصرة دينه فتولى الخلافة بعده حموه أبو بكر المتقدم ذكره وهو شيخ جليل القدر ، وأخبرني التاجر المكي أن المسلمين لما مات النبي اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعده لأنهم قسمان : قسم يقال لهم الأنصار ، وقسم يقال لهم المهاجرون » .

فقال حماد : « وما معنى هذه الاحزاب هل هي مذاهب دينية كالتي عندنا ؟ » .

قال : « لا يا ولدي ان المهاجرين هم الذين هاجروا مع النبي من مكة الى المدينة يوم شدد أهله النكير عليه هناك فتبعه من قريش أكثرهم غيرة عليه فسموا المهاجرين ، وأما الأنصار فهم أهل المدينة الذين قاموا بنصرته لما جاءهم مهاجرا فحاربوا معه فسموا الأنصار . وقد اختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يخلف النبي وكادت تقوم بينهم فتنة . وقال لي التاجر المكي أن الفضل في فض هذه المشكلة لأحد المهاجرين وهو عمر بن الخطاب الذي ذكرته لكم الآن ، فهو الذي توسط في الامر وبايع أبا بكر فبايعه الناس احتراما له أو خوفا منه فصارت الخلافة في المهاجرين وهم من قريش قبيلة النبي » .

قال عبد الله : « فخليفة المسلمين الآن أبو بكر الصديق هذا ؟ » .

قال : « نعم ، وقد حدث عقب وفاة النبي أن تغيرت قلوب بعض أهل جزيرة العرب ممن اعتنقوا الاسلام في حياته ، فارتد كثيرون منهم الى ما كانوا عليه من النصرانية أو اليهودية أو غيرهما ، وخاف المسلمون عاقبة ذلك فاجتمعوا وأوعزوا الى أبي بكر أن يعدل عن

ارسال الجند الى الشام لاحتياجهم اليهم في قمع المرتدين فأبى الا انفاذ ما أمر به النبي ، فأرسل أسامة وجنده الى الشام . ومما حكاه لي التاجر المكي حكاية وقعت لأبي بكر هذا يستغربها كل من عاشر حكامنا من الروم أو الفرس » .

فقال عبد الله : « وما هي ؟ » . قال : « أخبرني التاجر أن أبا بكر رافق ذلك الجند في خروجهم من المدينة ، وكان أسامة راكبا وأبو بكر ماشيا ، فخجل أسامة من ذلك لأنه شاب وأبو بكر شيخ فضلا عن كونه رئيسه ، وأراد أن يترجل ويركب أبو بكر ، فأبى الا أن يشيعهم ماشيا . ويدل ذلك على رغبة حكامهم في الخدمة لا الرئاسة . ومما أوصاهم به قبل عودته قوله : (لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا و لاشيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا) . هل سمعتم مثل ذلك من رؤسائنا ؟ لا أنكر عليكم ان النصرانية تأمرنا بمثل ذلك ولكن حكامنا نبذوا الذين نبذ النواة وسيعود ذلك عليهم وبالا » . قال الراهب ذلك وقد أخذت الحدة منه مأخذا عظيما حتى ارتجف صوته وارتعشت لحيته ثم سكت .

وكان عبد الله وحماد وسلمان متطاولين بأعناقهم يسمعون حديث الراهب وقد زادهم تأثرا ما أنسوه من اهتمامه فقال عبد الله : « ان مثل هؤلاء لا بد من أن يغلبوا العالم ويفتحوا الامصار ، فعساهم أن يبدأوا بالعراق وينقذونا من دولة الفرس الظالمة » .

فقال الراهب وقد تنفس الصعداء : « انك تتمنى أمرا قد وقع فعلا ، فان جيش أسامة هذا لم تطل غيبته لعلمه ان الخليفة في حاجة اليه لقتال أهل الردة . فعاد بجنده وانضم الى المسلمين في حروب أهل الردة . وكان بعض الناس قد ادعوا النبوة ، منهم رجل في اليمن اسمه

الاسود العنسي التف حوله حزب كبير ، ورجـل آخر في نجد اسمه طليحة الاسدي من بني أسد • وآخر في اليمامـة اسمه مسيلمة ، وآخر اسمه ذو التـاج لقيط بن مالـك وغيرهم كثيرون من المتنبئين ودعـاة الاحكـام حتى لم تبق قبيلة من قبائل اليمن وحضرموت وعمـان والبحرين اليمامة ومهرة الا نبذت طـاعة المسلمـين وارتدت عن الاسلام فخاف المسلمون الفشل ولكن أبـا بكر تصرف بحكمة ودراية وساعده في ذلك قواده المحنكون ولا سيما خالد بن الوليد فانه عمل أعمالا غريبة ، وكذلك عمرو بن العاص وغيرهما ، فقضوا في الكفـاح سنة كاملة حتى دانت قبائل العرب واجتمعت كلمتهم واستقـام أمرهم » •

فقال حماد : « يا حبذا لو يسير خالد الذي ذكرته الى العراق » •

فضحك الراهب ضحكة يتخللها عبوس وقال : « لقـد أصبت يا ولدي • وهذا هو مـا حدث فقد سار خالد الى العراق لفتـح الحـيرة وقتال الفرس » •

فهب سلمان للحال وقال لحماد : « الا يأذن لي مولاي في المسير الى الحيرة • اني لا يهدأ لي بال ان لم أبل يدي بدم الفرس فعساي أن أشهد بعض المواقع أو أخدم المسلمين خدمة تساعدهم على انقاذنا مـن أولئك القوم المجوس » •

فقال حماد : « اني أولى منك بذلك ولقد كنت عازما عـلى التماسه لو لم تلتمسه أنت » •

قال سلمان : « أما أنت فقد طال غيابك عن أمير غسان وابنته فسر اليهما وعساي أن أعود اليكم قريبا بخبر النصر » •

فانتبه حماد لأمره مع هند فاغتنم وجوده عند الـراهب فرصـة لاستفتائه في أمر الاقتران بعد حكـاية الوصية ، ولكنه استحى فخـاطب عبد الله على انفراد قائلا : « أتظن أنه يجوز لنا المخاطبة في أمر الاقتران

أم نحن لا نزال مقيدين بالوصية ؟ » .

قال عبد الله : « دعني أسأل الراهب ونأخذ رأيه فما يشير بـه نفعله » . وتحول نحو الراهب فسأله فقال الراهب : « يظهـر من خطاب الناسك لكم أنه يحلكم من ذلك القيد ، وفي العدول عن الانتقـام فضيلة مسيحية كما تعلمون لأن دياتنا توصينا بمحبة عدونا ومباركة لاعنينا وتحظر علينا الانتقام » .

فسر حماد لهذه الفتوى وسكت ، حتى اذا خرجوا من عند الراهب تفرد بعبد الله وقال له : « الا ترى أن نذهب غدا الى البلقاء لنقـابل جبلة فقد فرغنا من النذر وآن لكما الاجتماع ولا سيما بعد أن ظهر ما ظهر من أمر النسب » .

فقال عبد الله : « أرى يا مولاي أن تبقي أمر نسبك مكتومـا كما كـان لنرى ماذا يحدث من حوادث الزمان » .

فأجفل حماد وقال : « ولماذا نكتمه وهـو شرف يتسابق اليه الناس ، وبخاصة أن غموض نسبي كان عقبة في سبيل زواجي بهنـد ؟ » .

ففكر عبد الله هنيهة ثـم قال : « أرى مع ذلك ، ألا تذكره ، وعلى كل حال فالامر راجع اليك » .

فسكت حمـاد ، وكانا قد وصلا الى باب الغرفة وسلمان يتبعهما وقد أدرك أنهما يتكلمان في شأن هند فتقهقر قليلا ، فلمـا وصلا الـى الغرفة التفت حمـاد ونـادى سلمان فأسرع وهـو يقول : « أتقدم اليك يـا مولاي أن تأذن لي في الذهاب الى الحيرة غدا صباحـا ، وان يكـن يعز علي ألا أشهد الاحتفال باقترانك ، ولكنني لا ألبث أن أعـود اليكم بمـا يسركـم ان شاء الله ، وأرجو أن تذكرونـي في حفلة الزواج كما سأذكركم في ساحـة الحرب » .

فقال عبد الله لحمـاد : « دعـه يذهب يا سيدي لعله يأتينا بخـير

فقد اتهينا من المشاكل والاسرار ولا ظننا نحتاج اليه في شيء ، وقد تقرر اقترانك بهند ورضي أبوها ووفينا النذر » •

فقال حماد : « اذهب يا سلمان في حراسة الله ولا تقطع عنا أخبارك » •

فقضى سلمان ليلته تلك يستعد للمسير الى العراق ، وفي الصباح ودع حمادا وعبد الله وسار الى الناسك يلتمس بركته ودعاءه قبل المسير •

فلما خلا حماد الى عبد الله قال له : « ألا نسير الى جبلة أو الى صرح الغدير ؟ أم هناك سر يمنع ذهابنا ؟ » •

قال : « لقد آن الوقت ، واني لم أؤخر اقتران سيدي عبثا فقد كان ثمة ما يدعو الى ذلك » •

قال : « اني لا أنسى جميلا صنعته معي ، ولكنني أعترف لك بأن اطلاعي على نسبي قد قلل أسباب سعادتي ، فأحسبني كنت أسعد حالا يوم كنت حماد ابن الامير عبد الله أما وأنا المنذر بن النعمان فأراني تعيسا يتيما مظلوما » •

قال عبد الله : « كنت أتوقع ذلك منك ، ولكنني لم أر بدا من أن أؤدي اليك أمانة مقدسة عهد الي في أدائها » •

قال : « لم أقل انك أخطأت باطلاعي على حقيقة نسبي فقد فعلت الواجب ، على انني كلما تصورت هندا ومعيشتي معها سلوت الدنيا ومتاعبها » •

قال عبد الله : « ولا تنس أنك ستكون عما قليل ملك غسان ، والغساسنة لا يقلون سطوة وبطشا عن ملوك الحيرة فضلا عن علاقتهم بدولة الروم المسيحية التي هي خير من دولة الفرس المجوسية التي كان أجدادك على صلة بها » •

فانبسط وجه حماد لذلك فقال : « أنذهب معا الى صرح الغدير ؟ » . قال : « لو علمت أن جبلة هناك لذهبت معك ، لأن من اللياقة أن تتعارف قبل ذهابي الى الصرح » .

فقال : « اذن أذهب أنا فألتمس لك موعدا نجتمع فيه بجبلة وتتم الاقتران ؟ » .

قال : « حسنا تفعل » . فأخذ حماد يعد جواده للركوب .

★ ★ ★

كانت هند حين أتى يوم الشعانين قد ملت الانتظار ، وكانت تتوقع أن ترى حمادا في مساء ذلك اليوم أو في صباح غده فمضى اليوم والغد وهي تعد الساعات والدقائق وتحسب لتأخره غير حساب ، فلما كان اليوم الثالث أفاقت من رقادها قلقة البال فنهضت وسارت الى والدتها والتمست منها أن ترافقها الى دير بحيراء أو تأذن لها في الذهاب اليه وحدها .

فقالت سعدى : « لا أرى هذا ولا ذاك ، فلو رأى حماد المجيء الينا لجاء ، وربما كان في سر أبيه ما يمنعه من المجيء » .

قالت : « ما تعنين يا أماه ؟ » .

قالت : « لا أعني شيئا ولكنني لم يعجبني أمر أبيه هذا ، فقد صاهرنا ولده على غموض نسبه وأكرمناه والتمسنا لقياه فلم يأت ، وها قد انقضى موعده منذ يوم الشعانين » .

فانقبضت نفس هند لذلك وقالت : « لا تلومي الغائب قبل حضوره فربما منعه عن زيارتنا مرض أو شاغل ذو بال ، أما ما أشرت اليه من تدلل الامير عبد الله أو كبريائه فليس ثم ما يسوغ الاقتناع بصحته » .

وسكتتا هنيهة مطرقتين ثم قالت سعدى : « يجب علينا أن نبحث

عنه لنعرف سبب غيابه ، فلننتظر هذا اليوم أيضا فاذا لم يأت أنفذنا اليه رسولا » .

فخرجت هند وهي تفكر في أمر حماد ، فلبست ثوبها وخرجت الى الحديقة تتلهى بمشاهدة أزهار الربيع وعيناها شائعتان بين الاشجار ، وهب عليها النسيم فتعاظم حفيف الاوراق وعلت أصوات الطيور مغردة ، وهند تود انقطاع النسيم وخرس الاطيار مخافة أن تحول تلك الضوضاء بينها وبين وقع أقدام حماد اذا جاءها ماشيا بين الاشجار ، أو تخفي صوت جواده اذا صهل عند وصوله الى الصرح . وفيما هي جالسة على حجر هناك تفكر في ذلك وتحدق بعينيها وتصيخ بسمعها وقد صارت الشمس في الهاجرة ، رأت فارسا قادما عن بعد عرفت من جواده وظاهر لباسه أنه حماد ، فهرولت الى أمها وأنبأتها بقدومه ، فدخلتا الى قاعة الجلوس حتى جاءهما مخبر بقدومه فخرجت سعدى للقائه ورحبت به فقبل يدها ودخلا الصرح . وكانت هند عند الباب فسلم عليها ودخلوا جميعا الى قاعة الجلوس ، وقد آنست هند في وجه حماد تغيرا بعد قص الشعر ولكنها عجبت لمجيئه وحده وأرادت الاستفهام عن السبب فمنعها الحياء على أن أمها ابتدرته بالسؤال عن أبيه .

فقال : « انه كان عازما على المجيء معي ، ولكنه رأى من اللياقة أن يقابل ملك غسان قبلا ، ولو كان سيدي العم هنا لأنفذنا الى أبي رسولا فجاء معه » .

فقالت : « جعل الله نذركم مقبولا : هل سمعت الحكاية التي وعدت بسماعها بعد قص شعرك ؟ » .

قال : « نعم سمعتها » . وحدثته نفسه أن يبوح بها فتذكر تحذير عبد الله فأمسك ، ولكنه رأى في سكوته عنها ما يريب .

أما سعدى فلم تزد على هذا السؤال تأدبا ، فلما لم يجبها غيرت

الحديث وسألته : « ألا يحسن الخروج الى الحديقة ؟ » • وكـان هو يود ذلـك لعله يخلو الى هند » •

وخرج حماد وهند من باب خاص صغير في القصر الى الحديقـة ، وتخلفت سعدى ريثما توصي قيمة القصر باعداد مائدة الغداء •

فمشى حماد وهند في طرقات الحديقة حتى انحدرا الى ضفة الغدير وماؤه يجري على حصباء تتلألأ كأنها الدر ، وقد فاحت روائح الأزهـار وغلبت عليها رائحة اللوز وزهر البرتقـال ، وعلت ضوضـاء الأطيار وحفيف الأشجـار •

أما هند فما صدقت أنها خلت بحماد حتى قطرت اليه شزرا وهي تبتسم وعيناها مشرقتان تتلألآن وقالت : « ما الذي دعـاك الى التعجيل بزيارتنـا ، أما كـان الأدل على شوقك أن تبقي زيارتـك الى عيـد الفصح ؟ » •

فأدرك مرادها فأحب أن يعبث بها فقال : « تركنا يـوم الفصح لمخاطبة أبيك في شأن الاكليـل ، أم ترين تأجيل ذلـك الى الاحـد الجديـد ؟ » •

فخجلت وأطرقت وقد توردت وجنتاها فازداد اشراق وجهها وقالت : « لو عرفت أنك تجيبني بمثل ذلك ما أقدمت على سؤالك » •

قال وقد أعجبه خجلها وازداد هيامه بهـا : « لم أكن أظن ذكـر الاقتران يسوؤك ونحن انمـا نسعى جهدنا في الحصول عليه » • قـال ذلك ونظر اليها كـأنه ينتظر جوابها • أمـا هي فحولت وجهها عنـه وخطرت نحو شجرة من البرتقال متظاهرة بقطف زهرة منها تشمهـا ، فتبعها حمـاد وهو يقول : « ما بالك تهربين مني يـا هند ؟ اذا كنت تريدين التخلص من قربي ، فقولي كمـا قال غيرك أن نسبي غامض فلا أستحق بنت ملك غسان » •

فلم تجبه على هذا السؤال ، وكـان يتوقع أن يجرهما الحديث الى حكاية السر فيخبرها بحقيقة نسبه ويرى ما يبدر منها . وخـاف أن تأتي أمها فيقطع الحديث ، فدار نحوهـا حتى قابلهـا وجها لوجه وأمسك يدها فأحس كلاهما بقشعريرة الحب فقـال حماد : « لم لم تسأليني عن حكـاية السر ؟ » .

فقالت له وهي ممسكة يده تنظر اليها : « ان حكـاية السر عزيزة لديك لا نستحق سماعها ! » .

فأدرك أنها تعاتبه لسكوته عن الاجابة عن سؤال أمهـا فقال : « كل عزيز يهون لأجلكم يا حبيبتي » . قال ذلك ومد يده الى جيبه فأخرج خاتما دفعه اليها وقال : « هذا هو سرنا فانظري اليه » .

فتناولت الخاتم وتأملته فاذا هو مكتوب بحرف لا تعرفه فقالت : « انه لا يزال سرا اذ لا أستطيع قراءته » . فقال : « أنـا أقرؤه لـك . لقد نقش عليه اسم النعمان بن المنذر » .

فلم تفهم المراد فقالت : « وما معنى ذلك ؟.» .

قال : « معناه أن نسبي الذي كـان غامضا عنك وعني كـان شيئا في هذا الخاتم » .

فأنعمت فكرها في مغزى كلامه فأدركت أنه ينتسب الى النعمـان ولكنها استبعدت ذلك فقالت : « لعلك تنتسب الى الملك النعمان ؟ » .

قال : « هو أبي ! » . وجعل ينظر الى ما يبدو منها فرآها قد علتها البغتة وظهر الاعجاب والسرور جليين على وجهها . ولكن الانفة والرزانة منعتاها من اظهار البغتة فقالت : « ومن أنبأك بهذا النسب ؟ وكيف خفي عليك الى الآن ؟ » .

قال : « لذلك حديث طويل سأقصه عليك في غير هذا المكـان ، واذا كان الخاتم لا يكفيك فانظري الى هذا الرداء » . وكشف عبـاءته عن

برد النعمان وكـــان تحت أثوابه ، فنظرت اليه • فلمـــا تحققت نسبه عظم في عينيها ولكن الاستغراب غلب عليها وهي تحسب نفسها في حلم •

ثم سمعا وقع أقدام من ناحية القصر فنظرا واذا بأمهـــا قادمة ، فأسرع حماد الى الخاتم فخبأه وطلب الى هند كتمان الحديث حتى حين فوافقت على أنها كانت تود لو تطلع والدتها على ذلك الخبر •

أما سعدى فانها جاءت مسرعة وفي وجهها خبر ، فنظرا اليها فقالت : « لقد أطلت الغياب لاشتغالي برسول قدم من عند الملـــك جبلة ومعـــه هذا الكتاب » • ودفعت الكتاب الى هند ففضته فاذا هو من أبيهـــا يقول فيه : « هـــل عرفتم شيئا عن ولدنا حماد ؟ وهل وفى نذره ؟ انـــي أحب أن أراه قبل سفري الى الامبراطور فقد أنفذ الي رسله للذهـــاب اليه لمهمة سأقصها عليكم عند الاجتماع » •

فقالت سعدى : « اكتبي اليه انه جاء وقد وفى النذر » •

فقال حماد : « أرى أن أسير الى أبي وأجيء به ليتشرف بمقابلة الملك جبلة أيضـــا » •

قالت : « حسنا تفعل » • فعادوا الى القصر وكتبوا الى جبلة بذلك على أن يكون مجيئه في الغد » •

وكانت المـــائدة قد أعدت فتناولوا الطعام ، ثم ركب حمـــاد عائدا الى دير بحيراء •

ظلت هند تفكر فيما سمعته من حماد عن نسبه ، وأدركت أمهـــا فيها تغيرا ظاهرا يدل على شيء في نفسها تكتمـــه ، فلمـــا كـــان المساء وذهبت هند الى فراشها ذهبت اليها سعدى وأخذت تجاذبها أطـــراف الحديث حتى باحت لهـــا بالسر ، فلم تكن سعدى أقل استغرابا من هند وحسنت لهـــا أن تطلعا أباها على ذلك •

فلمـــا جاء جبلة في ضحى الغد أنبأته بالخبر ، وكانت تتوقع منه

ارتياحا واستحسانا ولكنها رأت انقباضا ، فندمت هند على تصريحها بالسر وخافت أن يترتب على ذلك ما يسوؤها . وكان خوفها في محله لأن جبلة ما لبث منذ سمع ذلك الخبر منقبض النفس غارقا في بحار التأمل لعلمه أن حمادا اذا تزوج هندا سيكون وريثه في الملك اذ ليس له ذكور يرثونه ، فاذا كان حماد من عامة الناس بقي الملك باسم الغساسنة ولكنه رأى بعد ما علمه من انتسابه الى المناذرة ان الملك سيخرج من يد الغساسنة الى المناذرة فيكون قد سعى الى زوال ملكه . فارتبك في أمره فلم يعد يعلم ماذا يعمل ، وود لو أنه زوج هندا لثعلبة ابقاء للحكم في غسان . لكنه كتم ذلك كله وتظاهر باستغراب ما سمعه .

أما هند فكانت تراعي أباها وتراقب حركاته وتنظر الى ما يبدو منه وقد انقبضت نفسها وأسفت أسفا شديدا لما فرط منها .

وفيما هم في ذلك سمعوا قرقعة اللجم وصهيل الخيل عند باب الحديقة ، فأطلوا واذا بحماد وفارس آخر عرفوا أنه أبوه ، فخرجوا لاستقبالهما فلما وقع نظر حماد على جبلة هم بتقبيل يده فمنعه وتعانقا ، وتقدم عبد الله الى جبلة فصافحه وتعارفا . ودخلوا جميعا الى قاعة الجلوس وأخذوا في الاحاديث المتنوعة الا حديث النذر فانه لم يدر بينهم أبدا .

ثم قالت سعدى لجبلة : « ذكرت لنا في كتابك ان الامبراطور هرقل أنفذ رسولا يدعوك اليه ، فما سبب ذلك ؟ » .

قال : « هناك اضطراب في جو السياسة أوجب التأهب للحرب عاجلا » .

فبغت الجميع ، واستعاذ حماد بالله وخاف أن يحول ذلك بينه وبين هند الى أجل بعيد فقال : « وما ذلك الاضطراب يا عماه ؟ » .

قال : « لقد أنبأنا الجواسيس ان الحجازيين الذين جاءونا منذ

بضع سنين قد استفحل أمرهم واتسع سلطانهم ، وقد تــوفي نبيهم وخلفه أحد أصحـــابه فجند جندا كبيرا أنفذه لقتالنا ولا يلبث أن يصل الينا قريبا • فبعثت الى هرقل بذلك فأرسل يستقدمني اليه في حمص للمباحثة في شأن التجنيد ، وقد قيل لنا أن حملتهم هذه المرة ستكون أصعب مراسا من الماضية وقد جاءوا فرقا يقودهم أعاظم القواد » •

فقال عبد الله : « سمعنا بانفاذ ذلــك الجند الى العراق لحرب الفرس وليس للشام » •

قال : « ذلك جند آخر بعثوه الى العراق في العام الغابر ، أمـــا الآن فانهم عازمون على المجيء الينا » •

فقال حماد : « هل يرى سيدي العم أن غيبته ستطول هناك ؟ » •

قال : « لا أدري ولكنني أحسب الامر يقتضي وقتا طويلا » •

فقال : « اذن نسير في خدمتك » •

قال : « لا أرى حاجة الى ذلك ، والاولى أن تبقيا في بصرى ريثما أعود أو أبعث اليكما • أما سعدى وهند وسائر أهل هــذا القصر فيسيرون معي خوفا عليهم من غائلة العدو وهم في هذا الخلاء » •

فلما سمعت هند ذلك خفق قلبهـــا وكادت الدموع تتناثر مـــن عينيها وقد أدركت أن أباها يضمر السوء لحماد » •

أما حماد فلم يكن أقل وجلا وهو لا يعلم مـــا في نفس جبلة ، وظنه لم يعلم بحقيقة نسبه أو حدث ما يوجب نفوره ، ولكنـــه استعظم فراق هند بعد أن كـــاد يظفر بها عـــلى أثر مـــا قاساه مـــن المشقة والبـــلاء في سبيلهـــا •

أما عبد الله فأدرك أن في الأمر شيئا جديدا أوجب هذا التباعد ، ولولا ذلك لم يكن ثمة ما يمنع مسيرهم معه حيثما سار ، فخـــامره شك في كتمان حماد فنظـــر اليه بطرف خفي ، ففهم حمـــاد مـــراده فانتبه

الى أنه أخطأ باطلاع هند على ذلك السر .

وشاركتهم في ذلك الاحساس سعدى لأنها أعلم الناس بأخلاق زوجها فقالت له : « ألا ترى أن نسير جميعا معا ، وما الفائدة من بقاء حماد هنا ؟ » .

قال : « بل أرى بقاءه هنا ، وسأخبرك بما يمنع ذهابه معنا » . قال ذلك وفي كلامه غنة الجفاء فسكتت وسكت الجميع .

ثم آن الغداء فتغدوا والسكوت سائد عليهم جميعا ، فلما نهضوا أمر جبلة بأن تعد الركائب لمسير زوجته وابنته معه في ذلك اليوم ، فشق ذلك على عبد الله ونفر من جبلة لما اتفق له معه في المقابلة الاولى . وعول على تحويل عزم حماد عن هند كأنه لم يدر بما في قلبه من لواعج الغرام ، وفاته أن الحب يتعاظم كلما ازدادت في سبيله العقبات .

فاستشار عبد الله حمادا في الانصراف فأجابه اليه رغما عنه ، ووقفا فتقدم حماد الى جبلة وودعه وهو يكاد يشرق بدموعه ، وودعه عبد الله . وسار حماد الى سعدى وهند يودعهما ، وكانتا قد خلتا وهند تبكي وتنتحب وأمها تخفف عنها وتلتمس الاعذار لما ظهر من جفاء جبلة . فلما سمعت وقع أقدام حماد خرجت هي فودعته واعتذرت عن هند بأنها تشكو من صداع ألم بها حتى أبكاها .

فأدرك حماد أنها شعرت بمثل شعوره ، وترجح لديه أنها باحت بالسر ولم يلم الا نفسه . فقال والدمع يتلألأ في عينيه : « أريد أن أرى هندا قبل ذهابي وان تكن باكية » . وكانت هند قد استعدت للقائه فمسحت دموعها وحاولت اخفاء ما بها وخرجت اليه وهي تتجلد ومدت اليه يدها فتجلد هو أيضا وودعها مبتسما وتحت ابتسامه غيظ يكاد

يميزه ، ثم ودع سعدى وخرج فلقي عبد الله في الحديقة ينتظر قدومه فركبا وحماد يلتفت وراءه يودع القصر وأهلـه وهو غارق في لجـج الهواجس .

وكان حماد صامتا يراجع في ذهنه حوادث ذينـك اليومين ويتحرق نـدما لما باح به من أمـر نسبه ، وشعر بخطئـه نحو عبد الله لأنـه لم يطعه في كتمانه فظل صامتا يتردد بـين الخجل والفشل .

أما عبد الله فلم يبق عنـده شك في تغـير جبلة وفساد مـا بنوه وضياع ما أملوه ، ولكنه لم يذكر ذلك لحماد رفقا بعواطفه وهـول على أن يثنيه عن عزمـه فيما بعد .

فلما دنوا من الدير قال عبد الله : « أترى يا سيدي أن نقيـم بالدير أم نـذهب الى بصرى ؟ » .

قال : « لك الامر ، ولكنني أرى بـصرى أفضل لنا بعد ما سمعناه مـن حمـلة العرب الحجازيين » .

قال : « الامر اليـك » . ودخلا الدير فباتا ليلتهما فيـه على أهبة الانتقال الى بصرى ، ولم ينم حماد الا قليلا لكثرة ما تراكـم عليه من الهـواجس .

فلما أصبحا أخذا يستعدان للركوب ، فذهب عبد الله لوداع الراهب وظـل حـماد وحده يشتغل ببعض المهام وفيما هو ينظـر الـى خارج الغـرفة رأى امرأة تنظر اليه فعرف انها الجـارية التي رافقت هنـدا الى الصومعة يوم التقى بها في المرة الاولى هناك فبغت لرؤيتهـا وهرول اليهـا .

فقالت لـه : « أتعرف بائع الحلي ؟ » .

فقـال : « نعـم ، اني أنـا هـو » .

فدفعت اليه منديلا كان في يدها وتحولت راجعة .

فقلب المنديل بين يديه فاذا هو رسالة قد كتب فيها : « لا يضعف عزمك ما رأيته أمس من أبي واصبر ان الله مع الصابرين » • فعلم أنها رسالة من هند فأبرقت أسرته وانفرجت كربته وطوى المنديل وخبأه ، ولكنه ود لو يعلم أين هي فيسير اليها ويقيم بقربها يتنسم أخبارها ، فتذكر أن أباها سائر الى حمص لمقابلة هرقل فقال في نفسه : « لا أظنه يحمل أهله معه الى هناك فربما خلفهم في البلقاء » • وكان يفكر في ذلك وهو يتظاهر بالاستعداد للمسير فجاء عبد الله فركبا وسارا الى بصرى وأقاما بمنزل عال قرب السور • فتذكر عبد الله يوم ثعلبة وموقفهأمام رومانوس (روماس) حاكم بصرى وما كان من أمر الخاتم ، ولكن ثعلبة ضعف أمره وخرج من بصرى فأقام في بعض القبائل الغسانية ، ورومانوس ما زال حاكما هناك • وكان حماد قلقا على هند لا يهدأ له بال ، ومما زاد الحالة ثقلا عليه لومه نفسه لبوحه بنسبه ، وقد عرف قيمة نصائح عبد الله وتحقق أن الاختبار والمعاشرة يكسبان المرء علما وحكمة لا يدركهما بالذكاء وحده ، ومال الى استشارة عبد الله في ذهابه الى البلقاء ، وشعر بحاجته الى سلمان لانه كان يغنيه عن تجشم تلك المشاق بنفسه ، ثم أجفل بغتة وخاف اذا استشار عبد الله أن يشير عليه بترك هند وهو لا يستطيع ذلك ولا تسهل عليه مقاومته بعد أن اختبر صدق نصائحه فسكت وسلم الامر لله •

أما عبد الله فكان يتجاهل كل ما يظهر على حماد من القلق • ويدعوه حينا بعد آخر الى الخروج للصيد كما كانا يفعلان أول مجيئهما تلك الديار ، وكان حماد يسير معه لعله يوغل في البرية فيقف على قادم أو غاد فيطلع منه على خبر هند • ولم يكن عبد الله يفاتحه في أمرها الا عرضا في أثناء كلامه عن قوات الروم ونحو ذلك ، فاذا آنس من الحديث اقترابا من الموضوع تباعد عنه وهو يتوقع أن يفتر ميل

حمـاد من تلقاء نفسه . وكان حماد أكثر رغبـة عن الخوض في ذلـك الموضوع لئلا يسمع نهيا أو نصحا يبعده عن هند .

فقضيا أشهرا على تلك الحال ، وهما لا يسمعان الا باستمـداد الروم لدفع المسلمين ، وأن جند المسلمين وصلوا الى ضواحي الشام ، وأقـام بعضهم باليرموك . وكان حماد كلما سمع خبرا من هذا القبيل ازداد قلقـا حتى لم يعـد يصبر على البقاء في بصرى ومال الى الخروج منها الى البلقاء لعله يعرف شيئا عـن هند . وعبد الله يشغله تارة بالصيد وطورا بزيارة رومانوس صاحب بصرى ، وكان رومانوس قد عرف منزلـة عبد الله على أثر ما كان بينهما مـن أمر تسيير عبد الله الى هرقل ومـا ناله من العفو . فكـان يجتمع برومانوس وحمـاد معه ، ويخرجـان أحيانا لزيارة الراهب الشيخ ودعوته الى زيارتهما . أما الناسك فسارا اليه مرة فلم يجداه .

- ٢٤ -

فتح الحيرة

خـرج حماد وعبد الله الى ضواحي بصرى في ذات يوم للصيد كعادتهما ، فقـال حمـاد : « أرى الصيد قليلا في هذه الجهة لوعورتهـا وقلـة المرعى فيها . ألا ترى أن نسير الى البلقـاء لعلنا نعثر على صيد كثير ؟ » .

فقـال عبد الله : « ان الصيد يكثر أحيانا ويقل أحيانا . أمـا اذا شئت الذهاب الى البلقاء فالامر لك » .

قال : « أرى في الانتقال خـيرا » .

وفيما همـا يتحادثان رأيا سربا من الغزلان قادما من عرض البـر لم يريا مثله قبلا فبغتا وقال حماد : « مـا هـذه الغزلان ؟ انى أراهـا تطلبنا وذلك لم يتفق لي منذ طلبت الصيد » .

فقال عبد الله : « ان مثل كثرتها هذه تدل على أمر خطير » .

قال : « ماذا عسى أن يكون ذلك ؟ » .

قال : « لا يجتمع هذا العدد منها ويسير في جهة واحدة الا فرارا من جند الروم ، فلعل جند العرب قادم الى بصرى » . قال ذلك وصعدا الى ربوة أشرفا منها على سهول بعيدة فرأيا غبارا يتصاعد عن بعد فقال عبد الله « لقد صدق ظني » .

فقال حماد : « أظنهم جنود المسلمين قادمين لحصار بصرى ، فياليتنا خرجنا منها قبل الآن » .

قال عبد الله : « اذا لم يكن لنا بد من ملجأ في هذه الديار خوفا من المسلمين فان بصرى أحسن المدن وأمنع الحصون ، واسمها يدل عليها فان لفظها في الكلدانية معناه الحصن المنيع . ألم تر سورها من الحجر الصلد الذي لا تقطعه المعاول ولا تهدمه المجانيق ؟ وقد رأيت أبوابها فان منها يخرج اثنا عشر ألف فارس مرة واحدة عند الاقتضاء ، فالمسلمون اذا فتحوا بصرى هان عليهم فتح سواها . وتربصنا داخل اسوارها خير لنا من الخروج الى البلقاء أو غيرها . زد على ذلك أن أهل بصرى أشداء وهم أكثر الناس حرصا على دينهم وأشدهم دفاعا عن مدينتهم فانها أعظم مراكز التجارة بين الشرق والغرب لتوسطها بين الحجاز والعراق والشام ومصر » .

فبغت حماد وعظم عليه الامر ، وعلم أن أمر هند لا بد من تأجيله طوعا أو كرها ، وهب أنه عزم على البلقاء أو دمشق فان جبلة وقبائل غسان وجنود الروم أصبحوا في شاغل يشغلهم عن كل شيء ، ولكنه أراد أن يتحقق قوة جند الروم ليرى قدرتهم على الدفاع فقال وهو يدير رأس جواده نحو بصرى وعبد الله يتبعه : « وما هي قوات الروم في الشام ؟ وكم مدينة مثل بصرى عندهم ؟ » .

قال عبد الله : « اعلم يا سيدي أن ولاية سوريا أو ولاية الشام

تقسم الى خمسة عشر قسما أحـدها بصرى ، وقوات الروم كبيرة وعدتهم كثيرة ، ولكنهم شغلوا عن دينهم بدنيـاهم وأستولى عليهم الانقسام » •

ومـا زالا في مثل هذا الحديث حتى بلغا المدينة فرأيـا أهلهـا في هرج والجند في حركة يستعدون للدفـاع ، فدخـلا الاسواق فرأيـا الناس مجتمعـين يتساءلون عن الجند القادم وامارات الاستخفاف ظـاهـرة على وجـوههم •

فقال عبد الله : « هلـم بنا الى منزلنا فانه عال يشرف على الاسواق ومـا وراءهـا » •

فسارا وقـال حمـاد : « ما قولك في رومانوس حـاكم بصرى هـل هو خائف أم مستخف ؟ » •

فقال عبد الله لا أظنه خائفا وعنده مثل هـذه الحصون وهذه القلاع فضلا عن العدة والرجال ولكنني أظن الولاية ستخرج من يده الى وال آخـر جـاء منذ أيـام اسمه تراجان (ديرجـان) وهو بطل محنك وقد سمعت الناس يتحدثون بنفور بينهما وليس هـذا وقت التنافر » •

ولمـا وصلا الى المنزل أطلا من بعض نوافذه فاذا بالغبـار قد بان عن جند كثيف تتقدمه الاعلام والفرسان •

ولم يكد يظهر جند العرب حتى تسابق الناس الى الاسوار ينظرون اليهم وهم يهزأون بهم وبألبستهم وسذاجة معداتهم • وبعد قليل جاء رومانوس فوقف في بعض الأبراج ونظر الى جند العرب وقـال لمن حوله من الضباط : « لا نرى أن نغلق أبواب بصرى أمـام هذا الجند الضعيف ولكننا نخرج اليهم فنحاربهم في هذا السهل ونردهم عـلى أعقابهم » • وأمر بالجند أن يعسكروا خارج الأسوار مقابل معسكر العرب •

فلما رأى عبد الله هذا التهور خـاف العاقبة لمـا يعلمه من بطش العرب وصبرهم على القتال ، وكانت له عـلى رومانوس دالة كما تقدم

فلما علم بعزمه على الخروج بالجند حدثته نفسه بأن ينصح له ألا يفعل ، فسار اليه وحماد معه وقد علم أنه توجه الى دار حكومته ، فلمـا وصلا الى الدار وجداها غاصة بالجماهير من رجال الحكومة وكلهم راضون عن رأي رومانوس ، ولم ير عبد الله تراجان بينهم ، فلمـا رأى اجماعهم على ذلك علم أنهم لن يصغوا الى كلامه فرأى أن يخاطب تراجـان في الامر فسأل عنه فقيل له : « انه في منزله » . فسارا اليه وكـان عبد الله قد عرفه واجتمع به مرارا ، فاستأذن في دخولهما عليه فـأذن لهمـا ، ووجداه مقطب الوجه ولكنه رحب بعبد الله وبعـد أن جلس هـذا وبجـانبه حماد قال تراجان بالعربية وكـان يعرفها : « هل تعرفون هؤلاء الحجازيـين ؟ » .

قال عبد الله : « لقد عرفناهم وحضرنا حروبهم غير مرة » .

فقال : « وكيف رأيتموهم ؟ » .

قال : « رأيناهم أشداء صبورين لا يعبأون بالعدة ولا بالكثرة » .

قال : « أترون الخروج اليهم خطأ » .

قال عبد الله : « نعم يا مولاي ، وهذا ما جئنـا به اليك ، فكيف تخرجون اليهم فتعرضون جندكم لنبالهم وسيوفهم وقد كان لكم غنى عن ذلك بهذه الحصون المنيعة » .

فتنهد تراجـان وقال : « هكذا أراد رومانوس ولقد نصحت له فلم ينتصح ، وكأنه به يلقي بجند الروم الى التهلكة » .

فقال عبد الله : « أليس من سبيل الى اقناعه ؟ » .

قال : « كلا لأنه عنيد معتد بنفسه ، وسيكون فشله عظيما ، واذا فشل فانما يكون دمه على رأسه » . قال ذلك وهو يلاعب صليبا من الذهب معلقا في عنقه .

فآيس عبد الله في كلام تراجان لهجة الشماتة ، فسكت وودعه وخرج

وحماد معه ، فلما خرجا قال حماد : « ما ترى في أمر هؤلاء ؟ اني أخاف أن تعود العائدة على هذه المدينة فيصيبنا ما يصيب أهلها » .

قال : « وما العمل يا سيدي أنخرج الى المسلمين ؟ » .

قال حماد : « كلا ان خروجنا خيانة » .

قال : « أرى أن نتربص لنرى ما يكون من حربهم » .

وسارا حتى أتيا المنزل ، وكان الليل قد سدل نقابه فأطلا على معسكر العرب فاذا بهم قد نصبوا الخيام وأوقدوا الوقود ونصبوا الاعلام .

فقال حماد : « من هو يا ترى أمير هذه الحملة لعله خالد بن الوليد ؟ » .

قال : « ان خالدا في العراق على ما علمت ولكن الأمراء غيره كثيرون » .

وباتا ليلتهما والجند يستعد للخروج ، وفي الصباح أفاقا على دق الأجراس ايذانا بخروج الجند ، وكان فيهم اثنا عشر ألف فارس ، والقسس أمامهم بالصلبان والمباخر . فسار عبد الله وحماد الى الأسواق فرأيا الناس يسرعون الى الكنائس يقيمون الصلاة باليونانية ويدعون لجندهم بالنصر . وكانت خدمة الصلاة في سائر كنائس المشرق اذ ذاك باليونانية وأما لغة رجال الحكومة وأعيان المملكة فكانت اللاتينية ولغة الشعب اللغة الوطنية أو اليونانية ، وصعد الكهنة على الاسوار بالصلبان والشموع ورشوا الجند بمياه المعمودية وأخذوا يرنمون وينشدون الأناشيد المسيحية وفيهم الرجال والنساء والأولاد يدعون بصوت واحد بالنصر لجند الروم .

أما جند العرب فكان قائده شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي ، وجهه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف فارس لفتح بصرى . وكان

أبو عبيدة قائدا عاما لجنود المسلمين في الشام ولاه القيادة العامة الخليفة أبو بكر الصديق .

فوقعت بين الجيشين وقـائع عدة ظهر فيها الرومانيون واختل أمر المسلمين حتى كادوا يعمدون الى الفرار وعبد الله يراقب حركـاتهم وحماد الى جانبه ، واذا بغبار يتصاعد من جهة الافق وبـان من تحته جند عرفوا من نوع نظامه وشكل أعلامه انه جند المسلمين ، فعلمـا أنها نجدة جاءتهم ولم يلبثا أن رأيا في مقدمة ذلك الجند رجـلا ضخما عريض اللحية طويل القامة تخفق فوق رأسه راية سوداء هو خالد ابن الوليد ، فاشتد أزر المسلمين وأعادوا الكرة فتقهقر الروم حتى دخلوا الاسوار وأقفلوا أبواب المدينة ، فلقي تراجـان رومانوس راجعا فذكره بنصيحته فغضب رومانوس لشماتته بـه .

فلمـا علم عبد الله بما تمكن من النفور بين القائدين خاف سوء العـاقبة .

وفي صباح اليوم التالي برز خالد يطلب النزال فنزل اليـه رومانوس والناس ينظرون اليهما وما يؤول اليه نزالهما وبعد براز طويل عـاد كل منهمـا الى معسكره .

فدخل رومانوس بصرى وعلى وجهه ما يدل على تغير في مقاصده وقد فترت همته عن الدفاع فلحظ ذلـك فيه الذين يعرفون أخلاقـه ، وأما عبد الله فاجتمع بحماد وقال : « اني خائف من هـذا الرومي فوالله لا يلبث أن يسلم المدينة لأني رأيت من مطاولته في النزال مـا يوقـع الشبهة فيـه » .

فقال حماد : « ولقد سمعت من بعض أصدقاء تراجان اليوم أنه جادل رومانوس ووبخه وشمت به لمـا آل اليه خروجـه فشق ذلـك عـلى رومانوس وتوعده وقال له : (اذا كنت أفرس مني فنازلهم) . فأجـابه

تراجـان وشتمه وعلا الخصـام بينهما وتحزب رجال الروم بعضهـم لرومانوس وبعضهم لتراجـان وتوعدوا رومـانوس بالقتـل واتهمـوه بالخيانة وقالوا له : (لا نرضاك حاكمـا علينا وقد ولينا تراجان) . فسكت ولم يجبهم وعلامات الغدر ظاهرة على وجهه ثم قـال : (فلينزل هو لنرى بطشه) .. » فلمـا أصبحوا نزل تراجان على جواده بعدته وسلاحـه وطلب المبارزة ، فخرج اليه فارس عرف من لباسه وهيئته انه خـالد بن الوليد فطـال النزال بينهما والجيشان ينظران وكـأن على رؤوسهم الطير ، فمضى معظم النهـار ولم ينل أحدهمـا الآخر بشر فرجـع كل منهما الى معسكره وأسرع الناس للقـاء تراجـان وسؤاله عمـا لقي من عدوه ، وكـان أول من لاقـاه رومانوس وقد نظـر اليـه مستهزئا ضاحكـا كأنه ينتقم منه لشماتته به قبلا ، فانتهره وعـيره بـأنه مخلوع فقال رومانوس : (سنرى من هو المخلوع منا) . وتركه ومضى .

وكان عبد الله وحماد ينظران الى ما دار بينهما فلما رأيا من رومانوس ما رأياه وسمعا تهديده خافا فقال عبد الله : « لقد زاد خوفي الآن من مقاصد هذا الرومي فلا أظنه الا فاعلا شرا » .

فقال حماد : « وما شأننا في ذلك ؟ » .

قال عبد الله : « انما يعنينا من الأمر المحافظة على حياتنا مخـافة أن يدخل العرب المدينة فيصيبنا منهم سوء ولا ناقة لنـا في الدفـاع ولا جمل . ألا تظننا كنا آمن على حياتنا لو أقمنا بدير بحيراء » .

قال حماد : « وكيف نكون آمن هناك والدير لا حصن فيه ولا جند ونحن الآن في أمنع مدن الشام » .

قال : « لم أقل أن الدير أحصن من بصرى ، ولكنني علمت أن خليفة هؤلاء المسلمين لمـا خرج لوداعهم يوم تسييرهم الى الشام أوصـاهم بالرهبان والأديار خيرا فهم لا يسيئون راهبـا ولا يخربون ديرا » .

فقال حماد : « لو ذكرت ذلـك لفضلت البقاء في الدير ، ولكن السهم قد نفذ ونحن الآن في بصرى وهي فيما تراه من الحصار فما الرأي ؟ » .

ففكر عبد الله قليلا ثم قال : « ان سر المسألة يا سيدي عند رومانوس هذا ، فلو استطعنا استطلاع شيء منه لعلمنا طريق النجاة فـأرى أن أسير اليه الليلة لعلي أتنسم خبرا » .

قال : « حسنا تفعل » .

★ ★ ★

قضى حماد وعبد الله بقية يومهما في المنزل ، وبعد العشاء سار عبد الله الى دار رومانوس وبقي حماد وحده ، ولم يمض الا القليل حتى عـاد عبد الله وعلى وجهه ملامح البغتة ، فقال حماد : « ما وراءك ؟ » .

قال : « لا أظن الأمر الا عظيما ، فاني سألت عن رومانوس في منزله فقيل لي : (انه نائم) . فلم أصدق أنه ينام الآن فخرجت أستطلـع خبره من بعض الحرس فعلمت أنه خرج الى حيث لا يعلم أحد ، ويخيـل الي أنه سار ليدبر مكيدة يسلم بها المدينة و ... » .

فقطع حماد عليه الكلام قائلا : « أجل أظنه سيفعل ذلك لأن هـذا القصد كان ظاهرا على وجهه فما الحيلة ؟ » .

قال : « لا حيلة لنا يـا سيدي الا التربص الى الصبـاح فاذا تحققنا عزمه على ذلك دبرنا حيلة ننجو بها بأنفسنا » . وباتا تلك الليلة على مثل الجمـر .

وفيما هما نائمان بعد نصف الليل سمعا طارقا يطرق الباب ، فهبـا من رقادهما مذعورين يسألان من الطارق ؟ فسمعـا صوتا يقـول : افتحا اني أنا خادمكما سلمان ! » .

فهرول عبد الله للحال ففتح الباب والبيت مظلم فاذا برجل عليه لباس أهل الحجاز وفي يده مصباح ، فبغتا لمنظره ولكنه قال : « اني عبدكما سلمان ، لا تخافا » . ورفع العمامة عن رأسه فعرفاه وصاح به حماد : « أين كنت يا سلمان وما الخبر ؟ » .

قال : « جئت من معسكر خالد ، ولا يلبث هو ورجاله أن يستولوا على الاسوار فجئت لأعلمكما بالأمر لتكونا على بصيرة ، وهذا علم من أعلام المسلمين أنصباه على باب منزلكما لتأمنا سيوفهم اذا دخلوا المدينة »

فقال عبد الله : « بورك فيك أيها الصديق الأمين » . فدخلوا جميعا وأوصدوا الباب وسأله حماد أن يقص عليهما الخبر فجلس وهو يلهث من التعب والبغتة وقال : « أخبركما بالاختصار أن رومانوس صاحب بصرى خرج الى معسكرنا في هذا المساء من مكان في السور خرقه غلمانه فاعتنق الاسلام وقال لخالد بن الوليد : (أرسل معي من تعتمد عليه لتسليم المدينة) . فأرسل معه عبد الرحمن بن أبي بكر ومائة من المسلمين ، فجئت أنا معهم وأدخلنا من خرق السور ، وأخذ الامير عبد الرحمن ورجاله الى قصره ليسلحهم ويسير بهم لقتل تراجان مناظره في الحكم ، وكنت لما جئت مع جيش خالد كما سأخبركم سألت الراهب الشيخ عنكما فأخبرني بأنكما مقيمان ببصرى ودلني على هذا المنزل ، فهرولت اليه لأعلمكما بجلية الخبر وأتيت بهذا العلم أنصبه فوق الباب حماية لكما . وبعد قليل تسمعان تكبير المسلمين على أسوار المدينة من كل جهاتها وهي علامة بينهم وبين الجند خارجا فيهجم الجميع وتكون مذبحة هائلة » .

فأثنيا على همته فترامى على يد حماد فقبلها وقال : « لقد وددت لو كنتما معي في معسكر هؤلاء الحجازيين لتروا ما رأيناه من شجاعتهم وصبرهم واتحاد كلمتهم ، على أن خالدا وجنده لو لم يصلوا الى بصرى

الآن لذهب جند شرحبيل أيدي سبا وارتدوا عن المدينة خاسرين فقد كانوا في شدة وضنك لقلتهم وكثرة الروم » •

فقال عبد الله : « وهل خالد وحده من القواد العظام » •

قال سلمان : « فيهم كثيرون ، منهم عبد الرحمن ابن خليفتهم أبي بكر وهو الذي جاء معنا يتسلم المدينة • ولقد رأيت من حروبهم وبطشهم في العراق ما سأقصه عليكما ان شاء الله » •

فهم حماد أن يسأله عما فعله خالد في العراق فسمعوا الضوضاء والضجيج وبين الأصوات صوت التكبير •

فقال سلمان : « ان المسلمين الآن على الأسوار وعما قليل يفتح جنود رومانوس أبواب المدينة فيدخلها المسلمون فالبثا هنا لنرى ما يكون » • فما لبثوا أن سمعوا ضجيج الناس وبكاء النساء والأطفال فتحركت الشفقة في قلوبهم وثارت الحمية في رؤوسهم ولكنهم لا يستطيعون الخروج خوفا على حياتهم • فما طلع النهار الا وقد فتح المسلمون بصرى وأعملوا فيها السيف ثم سكتت الغوغاء بعد قتل تراجان وتسليم أهل بصرى •

ففتح سلمان الباب وخرجوا الى شرفة من شرفات المنزل تطل على الشارع فرأوا جثث بعض القتلى هناك بين ميت ومحتضر ، وقد تلطخت الأثواب بالدماء والمسلمون قد توغلوا في المدينة وامتلكوها ولكنهم لم يقربوا منزل عبد الله لوجود العلم على بابه •

وفيما هم في الغرفة ينتظرون ما تنتهي اليه حال بصرى وقد اطمأن بالهم ، سأل سلمان حمادا عما تم من أمر هند فأخبره بجلية الخبر وكيف شغلتهم الحرب عن الاقتران ، وعبد الله يسمع ويتجاهل ، حتى انتهى الى عودهم من صرح الغدير بخفي حنين ، وحاول حماد اذ ذاك أن يبين لسلمان أن عمه جبلة أصاب بذلك وأنه لا يزال على حبه واعتباره

وعبد الله لا يجيب ولا يعترض .

أما سلمان فتكدر لهذا التغيير وقال : « وما هو موعد الاقتران يا مولاي ؟ » .

قال حماد : « لما تنتهي الحرب ويرجع جبلة وأهله الى البلقاء » .

قال سلمان : « أظنهم هناك ، فقد أنبأنا جواسيس العرب بأن جبلة صار برجاله الى اليرموك لنصرة جند الروم في حرب المسلمين ، ولا يلبث جند خالد بعد قليل أن يذهب الى هناك لنصرة المسلمين فاذا كان جبلة في اليرموك فما أظنه يترك أهل منزله في البلقاء وهي عرضة لغزوات العرب ، وأظنه يرسلهم الى دمشق ، ومع ذلك فاني أرى أن أسير مع خالد حتى آتي اليرموك وأبحث عن جبلة وأعود اليكم بالخبر أو لعلي أعود اليك برسالة من هند » .

قال ذلك وتبسم كأنه يريد أن يعبث بحماد ، فأجابه حماد بمثل ابتسامه وهو ينظر الى ما يبدو من عبد الله ، فاذا به في شاغل عنهما ينظر من نافذة الغرفة الى الشارع والاهتمام ظاهر على وجهه ، وسمعا قرقعة اللجم وضوضاء الناس فالتفتا الى ما هو ناظر اليه فوقع نظرهما على راية سوداء تحتها جند العرب في وسطهم بعض الفرسان وفي مقدمتهم فارس كبير الجثة عريض اللحية طويل القامة بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل كبير العمامة واسع العينين كثيف الحاجبين على وجهه أثر الجدري ، وقد ركب على جواد أشهب خفيف العضل يتنقل بمشيته كالعروس ويكاد الشرر يتطاير من حدقتيه ، ووراءه فرسان حولهم الأعلام وهم فرحون بما نالوه من النصر . فالتفت سلمان الى عبد الله قائلا : « أعرفت من هو هذا الفارس يا سيدي ؟ » .

قال عبد الله : « قد عرفته منذ كان في وقعة مؤتة وكنت أنا أسيرا عندهم ، أليس هو خالد بن الوليد ؟ » .

قال : « بلى أنه هــو بعينه ، أنظر الى هذه القامة وتلك الطلعة ، ان خالدا يا مولاي من معجزات خلق الله ، لم أر ولــم أسمع بمثل شجاعته وشدة بطشه ، فلا غرو اذا سموه سيف الله • ولقد رأيت منــه أعمــالا تعجز الابطال في حروبه بالعراق ، وسمعت من أخباره ما تشيب لهــوله الاطفــال ، فقد كان قبل اسلامه هــو المقــدم علــى خيــل قريش في الجاهلية ، فأسلم في السنة الثامنة للهجرة مع عمــرو بن العاص ولــم يزل منذ أسلم يوليه الرسول أعنة الخيل في مقدمتها ، وقد علمت أن في عمامته خصلة من شعر النبي يتبرك بهــا • وقد شهد وقعة مؤتــة بالبلقــاء وعلى أثر ما أظهره من البسالة هناك سماه الرسول سيف الله ، ثم كــان عونــا عظيما للمسلمين في كل حــروبهم حتى تولى أبــو بكر فأنفذه الى فتح العراق كما علمتــم » •

فقال عبد الله : « وما هذه الراية السوداء ؟ » •

قال سلمان : « هــذه راية ذات شأن عظيم عندهــم ويقال لهــا العقــاب » •

فقال حماد : « لم تخبرنا بمــا فعله المسلمون في العراق هل فتحوا المدائن ودخلــوا عــاصمة الفرس ؟ » •

فقال سلمان : « لــو بقوا هناك لفعلوا ذلك ، ولكــن خليفتهــم استقدمهم لنجدة الشام ، ولولا قــدوم خالد الى بصرى لمــا استطــاع شرحبيل فتحهــا فقد وصلنا اليهم وهم في شدة وجهــد وضيق » •

فقال حمــاد : « أخبرنا يــا سلمان عما فتحه خالد من العراق وكيف رأيــت حــال الفرس ؟ » •

قال : «أما خالد فانه من أعظم القــواد وخيرتهــم ، وقد لقيتــه في الحيرة يوم فتحهــا وكان قبل ذلك قد استولى على بلاد كثيرة بــلا حــرب لأن العراقيين قــد ملــوا حكومة الفرس وظلمهــم وعتوهــم

واحتقروهم لاختلال أمورهم ، فأول مكان وصل اليه خالد بلاد بانقيا وباروسما والليس فصالحه أهلها على عشرة آلاف دينار سوى حوزة كسرى ، وهي فريضة كان يقتضيها الفرس عن كل رأس أربعة دراهم . ثم ساروا الى الحيرة وعليها اياس بن قبيصة كما تعلمون فانه تولاها بعد ما قضى الله من أمر مولانا رحمه الله » .

قال ذلك وتنهد ، فتنهد حماد وعبد الله وهما صامتان يسمعان حديث الحيرة ، فقال سلمان : « لم يكد خالد يصل الى الحيرة حتى خرج اليه اياس وسائر أشراف حكومته كأنهم كانوا منه على موعد ، فاستقبلهم كما يستقبل الغالب المغلوب ودعاهم الى الاسلام أو الجزية أو الحرب ، فاختاروا البقاء على النصرانية ودفع الجزية ، فبلغت جزيتهم تسعين ألف درهم . وقد أخبرني بعض رجال خالد ممن يقرأون له القرآن أنها أول جزية أخذها المسلمون من الفرس . ثم تحولوا عن الحيرة وحاربوا الفرس في مواضع عدة فازوا في أكثرها ومنها وقعة الثني ووقعة الولجة ووقعة الليس وكل ذلك قبل وصولي » .

« وكنت لما ودعتكم قد سافرت الى الحيرة فبلغتها والناس يتحدثون بما تم من صلحها ، وأهلها بين راض بالصلح وناقم على اياس . وسمعت الفرس منهم يتذمرون وكاتبوا بذلك كسرى ابرويز وكان يتولى عرش الاكاسرة اذ ذاك وشكوا ما كان من ضعف ابن قبيصة ، فأنفذ جندا بقيادة رجل من مرازبته اسمه الازاذبه لمحاربة العرب ، فوصل الجند وأنا في الحيرة وكان خالد قد برحها الى بلاد أخرى يلتمس الفتح ثم سمع ازاذبه بقدومه فخرج اليه وعسكر عند الغريين وخرجت أنا معهم ، وعلم أن خالدا ورجاله قادمون بالسفن بالفرات فأرسل ابنه ليقطع الماء عنهم فوقفت السفن على اليبس فتركها خالد وخرج برجاله على الخيل حتى قتل ابن الازاذبه وتقدم نحو الحيرة .

« ومن غريب الاتفاق أننا بينما نحن في الغريين وصل ساعي البريد من المدائن يحمل كتابا الى المرزبان فلم يكد يفتحه ويقرأ مـا به حتى تغير لونه واستولى عليه الجزع ، فخاف كل من رآه ، ولم نعلم ما دعاه الى ذلك الا في اليوم التالي اذ شاع في المعسكر أن كسرى أبرويز قد مات ، فوقع الاضطراب في الجند وانشغل الازاذبه واضطرب ، ثم جاءه الخبر بمقتل ابنه وتقدم العرب نحوه ، فتقهقر نحو الحيرة وعسكر العرب عند الغريين .

« أما أنـا فلمـا رأيت اختلال أمر الفرس قلت في نفسي : (قـد آن الوقت الذي فيه أستطيع القيام بالمهمة التي جئت لأجلهـا) . فخرجت من الحيرة في ليلة ليلاء حتى أتيت معسكر العرب فالتمست الأمـان وأن أرى الأمير خالدا ، فأخذوني اليه فطلبت الخلوة به وقلت له : (أعلم أيها الأمير أن حال الفرس في اختلال لموت مليكهم وانقسامهم فيمـا بينهم ، فقد صالحك ابن قبيصة وهو على صلحك مع سائر العرب ، وأمـا الفرس فهم في شاغل عن الحرب بارتباك داخليتهم) . وأطلعته على خفايا كنت عالمـا بها فسر بي كثيرا وأثنى علي ، فقلت في نفسي : (هذه فرصـة اغتنمها لحفظ ما لمولاي هناك من الأموال والعقار) . وكنت قد تفقدت المزارع فرأيت الجميع في انتظار عبد الله فطيبت خاطرهم وذكرت لهـم اني انما أتيت الحيرة لتفقد حالهم وأوصيتهم بالعناية باستغلال الارض ، فلما آنست من خالد ارتياحا الى خدمتي التمست منه حماية تلـك المزارع فوعدني . وقبل هجومهم على الحيرة أخذت علمـا مثل الذي نصبته هنـا ، وبعد قليل هجم المسلمون على المدينة ففتحوهـا فظللت في معية خالد حيثما ذهب .

« ويسرني أن أخبركم بأن سقوط الحيرة كـاد يقضي على دولة الفرس كلها ، لان الدهاقين وهم ولاة الفرس كـانوا ينتظرون ما يكون من حرب الحيرة فلما علموا بسقوطها وهنت عزائمهم فجـاءوا وصالحوه

وسلموا اليه ، فأخذ الجزية منهم وكتب الى أهل فارس يدعوهم الى الاسلام ويهددهم بالقتال ، فلم يكن يمر يوم لا نرى الناس قادمين زرافات ووحدانا ولا سيما عرب العراق وهم النصارى ، وبعد قليل سار خالد وأنا معه ففتح الانبار ، ثم عين النمر ، وغيرهما . وقد لاحظت منه أنه لم يتجرأ على المسير الى المدائن قبل الاستعداد الكافي .

« وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من الخليفة أبي بكر يأمره بالذهاب الى الشام لنصرة جند العرب على فتحها ، فجئت معه حتى أتينا بصرى وهي محاصرة وأنا لا أعلم مقركما فخطر لي أن أسأل راهبنا الشيخ فأخبرني بمقامكما هنا فتربصت حتى تم الفتح وجئتكما » .

وكان عبد الله وحماد صامتين يصغيان لما يقصه عليهما سلمان ، فلما انتهى الى هذا الحد قال حماد : « وما ظنك بتتمة فتح العراق فان خالدا لم يفتح منها شيئا كثيرا والمدائن لا تزال على ما هي والفرس لا يزالون حاكمين » .

قال : « رويدك يا سيدي ان العرب لا يلبثون أن يعيدوا الكرة ، وأظنها تكون القاضية وخالد لم يأت بصرى الا مددا لجند الشام فطب نفسا ان الله سيتم انتقامه من أولئك الطغام » .

فقال عبد الله : « وما العمل الآن ؟ » .

قال سلمان : « أرى يا سيدي أن أبقى أنا مع خالد كما كنت فأسير معه الى اليرموك ، فقد سمعت أن العرب معسكرون هناك يتوقعون قتالا شديدا وسيسير لنجدتهم » .

فقال حماد : « وأين اليرموك ؟ » .

قال : « هي على مقربة منا غربا على نهر يقال له نهر اليرموك يصب في نهر الاردن وقد عسكر العرب عند مائه » .

فتنهد حماد وفي نفسه شيء يكتمه ، فأدرك سلمان أنه يفكر

في هند وجبلة فقال : « ولا بد من أن يكون جبلة مع جند الـروم فاذا جـاء اليرموك فلا أعدم وسيلة أستطيع بها مقر هنـد فأبعث اليكـم بخبرهـا » •

فقال حماد : « ألا ترى أن نسير جميعا مع خالد ؟ » •

فقال سلمان : « لا أرى حاجة الى ذلك بعد أن أوعز اليـك جبلة بالاقامة هنا ريثما يبعث اليكم ، فلعله يفعل ذلك وأنتم بعيدون عنهـا فتفوت الفرصة ، وأما اذا سرت أنا وبقيتما أنتما هنا فنكون قد أمسكنا الحبل من الطرفين » •

أما عبد الله فظل صامتا وحماد ينظر اليه فأدرك أنـه غير راض عن كلام سلمان فقال له : « ما رأيك يا عماه ؟ » •

فقال عبد الله : « الرأي رأيك يا سيدي ، ولكنني أرى جبلة وأهل منزله لا يهمهم شيء من أمرنا أقمنا في بصرى أم رحلنـا عنهـا ، يدلك على ذلك سكوتهم عنا وقد أصاب بصرى ما أصابها من الحرب ولولا ذلك لبعثوا يفتقدوننا » •

فقال حماد : « لا تظنهم علموا بما آلت اليه حالتنا ، وهب أنهم علموا فكيف يستطيعون الوصول الينا والمدينة محاطة بالعدو » •

فلمـا رأى عبـد الله حمادا يدافع عـن جبلة قـال : « لعل لهم عذرا » • وسكت •

ثم خرج سلمان الى معسكر خالد ليرى ما تم عليه الأمر ، فـرأى العرب قد ولوا أرمانوس بصرى ، وأخذوا يستعدون للسير ، فعاد فأخبر عبد الله وحمـادا بذلـك وهم بوداعهما فقـال له حمـاد : « لا حـاجة بي الى أن أوصيك بانفاذ خبر جبلة الينا على عجل واطلاعنا على مـا تم لأهل بيته » •

قال : « سمعا وطـاعة وسيأتيك الخبر سريعا » • ثم ودعهما وخرج •

ولم يكن سلمان أقل من حماد قلقا على هند ، وقد شارك عبد الله في ارتيابه من جبلة فعول على استطلاع كنه الأمر وانقاذ ذاك الى سيده •

- ٢٥ -

واقعة اليرموك

وفي اليوم التالي سار خالد وشرحبيل وجنودهما الى اليرموك • وقد تكامل فيها من المسلمين ٣٦٠٠٠ ألفا منهم تسعة آلاف بقيادة خالد فيهم ألف من الصحابة بينهم مائة ممن شهدوا وقعة بدر الكبرى ، ومن قوادهم : أبو عبيدة الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل ، وأبو سفيان بن حرب • وكان كل منهم قبل قدوم خالد يحارب الروم بمن معه من الجنود وفق ما يراه • فلما ولي أبو بكر خالدا القيادة العامة على جند الشام كافة ، كان هناك من يحسبون أبا عبيدة بن الجراح أولى منه بتلك القيادة ، فوقع بين جند المسلمين اختلاف في هذا الشأن ، ورأى خالد جمع كلمتهم وقد أدرك ما في نفوس بعضهم ، فوقف فيهم خطيبا بعد أن جمع الأمراء حوله وقال : « ان هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأرضوا الله بعملكم ، فان هذا يوم له ما بعده • ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغي • وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما تؤمرون به بالذي ترون انه رأي من واليكم ومحبته » •

قالوا : « هات فما الرأي ؟ » . قال : « ان أبا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذي كان يكون لما جمعكم ، ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من امدادهم . ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه ان دان من الأمراء ولا يزيده عليه ان دانوا له . ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . هلموا فان هؤلاء قد تهيأوا ، وان هذا يوم له ما بعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الامارة ، فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا ، والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعوني أتأمر اليوم » . فأمروه وهم يرون ان الامر لا يطول .

وأعجب سلمان بجرأة خالد وصدق عزمه ، وأخذ منذ وصوله يحاول الخروج الى معسكر الروم ليرى جبلة أو يسمع خبرا عن هند ، فصعد الى ربوة على ضفة ذلك النهر ونظر الى معسكر الروم فرآه قد ملأ الفضاء وفيه الرايات والصلبان ، فأمعن نظره فيه فرأى معسكر الغسانيين منفصلا الى جانب ، وشاهد راية جبلة وفسطاطه في وسطه ؛ فحدثته نفسه بأن يسير اليه ولكنه خاف أن يستغشه المسلمون ، فرأى أن يعرض عليهم ذهابه للتجسس على عدوهم واعتزم مخاطبة خالد في ذلك فسار الى فسطاطه وفيه الامراء قد اجتمعوا للمفاوضة في أمر الحرب فهاب الدخول وصبر حتى ارفض الاجتماع وبقي خالد وحده فالتمس الدخول عليه ، فأذن له ، فدخل وقبل يده فقال له خالد : « ما خبرك ؟ » . قال : « هل يأذن لي مولاي في كلمة لعل فيها نفعا ؟ » . قال : « قل » .

قال : « هل بعثتم من يستطلع أخبار الاعداء ويسبر قواتهم ومواقعهم

وعدد جندهم ؟ » .

قال : « لقد فعلنا ولكنني أرى أنك أجدر بذلك » .

قال : « اني عبد مطيع ، فاذا رأيت أن أسير في هذا الامر فعلت » .

قال : « سر على بركة الله » .

فقبل يده وخرج فتزيى بزي الغسانيين وسار حتى اختلط بالغسانيين فالتقى بأناس عرفهم في البلقاء ، وقد ظنوا أنه كان معهم من قبل ، فاستطلعهم خبر هند فعلم أنها مع أمها في دمشق ، ثم استخبر عن قوات الروم فعلم أنهم في كثرة وفيهم عشرون راية بعضها لأهل الدولة وبعضها للنجدات من الأرمن والسريان والمصريين ، وأن جملة الجند ٢٤٠ ألفا ما عدا العرب المتنصرة من الغساسنة وغيرهم فوقعت في نفسه من ذلك رهبة وخاف انتصار الروم ، وتردد في الرجوع الى خالد ولكنه قال في نفسه : « أذهب الآن الى المسلمين فاذا رأيت فيهم تضعضعا فررت الى الغساسنة » .

فلما سدل الليل نقابه عاد الى معسكر المسلمين وأطلع خالدا على حال الروم فقال خالد : « لا تهمنا كثرتهم فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » .

فقال سلمان : « ليست القوة في الكثرة يا مولاي ولكنها في الاتحاد ، فقد علمت أن هؤلاء الجند منقسمون فيما بينهم لاختلاف أغراضهم ومشاربهم » . ثم ودعه وخرج وهو يفكر في طريقة يوصل بها خبر هند الى حماد .

فلما أصبح سمع التكبير والأذان في معسكر المسلمين ، ثم رآهم قد أخذوا يتأهبون للقتال فوقف يتأمل في نظامهم فرأى خالدا وقد وقف وسط الأمراء وأمر أن تنظم الجيوش كراديس ، فقسم الجند ٣٦ كردوسا وجعل قلب الجند كراديس وأقام عليه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة

كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس وعليهـا يزيد بن أبي سفيان ، وجعل على كـل كردوس رجلا من الشجعان . وفيما خالد يعبيء الجند على هذه الصورة سمع بعضهم يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فقال خالد : « بل قل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، انمـا تكثر الجنود بالنصر وتقـل بالخذلان فوالله لوددت أن الأشقر (يعني فرسه) بريء وأنهم أضعفوا في العدد » وكان الأشقر قد حفي في مسيره . ثم أمر أن يبدأوا القتـال فحاذر سلمان أن تصيبه نبلة ، فتنحى وهو خائف أن تعود العائدة على المسلمين لقلتهم وكثرة الروم ، ووقف في منعطف يؤدي الى جند الغساسنة فرأى على مقربة منه رجـالا من جند المسلمين وقوفـا ، فتأملهم فرأى بينهم أبا سفيان وكان قد عرفه في بعض أسفـاره مـع سيده عبـد الله الى الحجاز ، فتذكر ما كـان من حديثه في بيت المقدس ويـوم اعتناقه الاسلام عند فتح مكة فاستغرب وقوفه هناك والحرب متنشبة ، فدنـا منه وأبو سفيان لا يراه فسمعه يخاطب رفقاءه فيقول : « يا مشيخة قريش ومهاجري الفتح (الذين هاجروا يوم فتح مكة وأسلموا) لا يهمنا من هذه الحرب الا الانحياز الى الغالب ، فاذا غلبت الروم كنا معهم واذا انتصر المسلمون فاننا معهم » . فعجب سلمان لكلامه وعلم أنه انمـا أسلم خوفا على حياته لا رغبة في الاسلام ولكنه ظل في ريب من هذا الأمر ، فأصاخ بسمعه لمـا يقوله بعد ذلك فرآه اذا تقهقر العرب وتقدم الروم قال : « ايه يا بني الأصفر ! » . ولـم يكد أبو سفيان يتم كلامه حتى صرخ متأوها ، فنظر فاذا بنبلة أصابت احدى عينيه ففقأتها ، فقال سلمان في نفسه : « لقد نال هذا الرجل جزاءه » . وخاف سلمان البقاء هناك لئلا يصاب بنبلة فسار الى ناحية أخرى والحرب قد حمي وطيسها فرأى بريدا قادما من جهة البلقاء فعرف صاحبه ، وكـان قد رآه في الحجاز فعلم أنه بريد قـادم

من المدينة بخبر جديد • وكـان صاحب البريد مسرعا وعـلى وجهه امارات البغتة فناداه فوقف فقـال سلمان : « هل تريد الأمير خالدا ؟ » • قال : « نعم أين هو ؟ » • قال : « في المعمـعة ولكنني أوصلـك الى فسطاطه » • ثم انطلقا وعينا صاحب البريد على الجند وحركـاته ، فلما رأى جند العرب ظافرا لم يتمالك أن قال : « لم يقدر لأبي بكر أن يسمع بخبر هذا النصر قبل موته ! » •

فقال سلمان : « وهل مات أبو بكر ؟ » •

قال : « نعم مات ، وقد جئت بخبره » •

فقال : « ومن تولى بعده ؟ » •

قال : « تولى عمر بن الخطاب وهو رجل ذو بطش وقوة وحزم » •

فبغت سلمان لذلك الخبر وقـال : « ألا تظن وفاته تؤثر في مجرى الاحـوال ؟ » •

قال : « كلا ، ولكن عمر يفضل أبا عبيدة على خالد ، وقـد أنفذني بعزل خالد عن قيادة هذا الجند وتولية أبي عبيدة ، على أنني لا أرى أن أبلغهم الخبر قبل انقضاء الوقعة لئلا يفشلوا أو يختلفوا فيما بينهم » •

فقال سلمان : « حسنا تفعل ، ولكن ما الذي حمل الخليفـة عمر على نقل القيادة الى أبي عبيدة ، لعله أشجع من خالد ؟ » •

قال : « كلا ولكن أبا عبيدة رجل كريم الأخلاق لين سهل حليـم رؤوف ، وهو أقدم في الاسلام من خالد ، والقيادة تحتاج الى حكمـة وتأن أكثر من حاجتها الى الشجاعة » •

قال سلمان : « نعم ولكنني علمت أن النبي سمى خالدا (سيف الله) أليس هو أحق بالقيادة ؟ » •

قال : « ان النبي سمى أبا عبيدة (أمين الأمة) • وكـان يحب صحبته والالتصاق به • والحق يقال ان كليهمـا عظيم ، ولكن للخليفة رأيـا

في ذلك فانه ساخط على خالد بسبب حكاية وقعت منه في أيام أبي بكر » .

فقال سلمان : « هلم بنا نجلس في مأمن ريثما تنقضي الحرب لأنهم اذا رأوك لا ينفكون عن سؤالك حتى تخبرهم بموت أبي بكر وعزل خالد » .

فاستحسن صاحب البريد الرأي وعرج مع سلمان الى شجرة تواريا وراء جذعها ، ثم قال صاحب البريد : « لما أحس الخليفة أبو بكر بدنو الأجل وأسفاه عليه دعا كاتبه عثمان بن عفان وأملى عليه كتابا قال فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن قحافة الى المسلمين : أما بعد ...) . ثم أغمي عليه وكان عثمان وسائر الصحابة لا يرون أحق بالخلافة من عمر بن الخطاب لاشتهاره بالعدل والحزم ، فأتم الوصاية عثمان من عند نفسه فكتب : (أما بعد فقد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا) . ثم أفاق أبو بكر من غشيته فقال لعثمان : (اقرأ) . فقرأ ما كتبه ، فكبر أبو بكر وقال : (أراك خفت أن يختلف الناس ان مت في غشيتي هذه ؟) . قال : (نعم) . قال : (جزاك الله خيرا عن الاسلام وأهله) . ثم قرأوا هذا العهد على الناس . ولما قبض أبو بكر بايعوا عمر وهو الآن خليفة رسول الله ، وقد سموه أمير المؤمنين تخلصا من تكرار لفظ خليفة لمن يتولى الخلافة بعده .

وفيما هما في الحديث وأعينهما شائعة نحو المعركة رأيا جند الروم قد تقهقروا وعبر العرب خندقهم واستولوا على أسلابهم وفر الروم ومن معهم من العرب المتنصرة وغيرهم وتم النصر للمسلمين ، ولم يمض الا القليل حتى عاد المسلمون بالغنائم من الأثاث والحلى والأسلحة وغيرها . فمشى سلمان وصاحبه نحو فسطاط خالد فرأياه عائدا وحوله الأمراء على غير نظام لما دار بينهم من أحاديث النصر .

فحالما وقع نظر خالد على صاحب البريد عرفه ، وأشار اليه أن يتبعه الى الفسطاط ففعل وأنبأه بموت أبي بكر وخلافة عمر وعزله وولاية أبي عبيدة ، فأوصاه خالد بكتمان الخبر عن كل انسان .

أما سلمان فانه عاد الى مشاغله بأمر هند ، وشق عليه انهزام جبلة وخاف أن يكون قد قتل ، ثم علم ببقائه حيا فمال للذهاب الى حماد ليطلعه على ما علمه عن هند ، ولكنه أراد استطلاع نية المسلمين ووجهة مسيرهم قبل ذهابه فقضى أياما يبحث عن ذلك فعلم أنهم عازمون على دمشق ، فخاف على هند لعلمه أنها فيها وود لو يعلم أين أبوها وما هو عازم عليه بعد شخوص العرب الى الشام ، فعول على استطلاع ذلك من جبلة ، فخرج من معسكر العرب يبحث عن جهة مسيره ، فعلم أنه سار في جملة منهزمي الروم الى حمص والامبراطور هرقل فيها ، فقصد اليها .

★ ★ ★

تركنا حمادا وعبد الله في بصرى ينتظران عودة سلمان بخبر وقعة اليرموك ومقام هند . وكان حماد شديد القلق على هند وقد حدثته نفسه بشر أصابها أو بفشل يتهدده على أثر ما قاساه في سبيل الحصول عليها من الأسفار والأخطار . وخيل له أنها خرجت من يده وذهبت مساعيه كلها أدراج الرياح ، فعظم عليه الامر وآنس من نفسه ميلا الى المسير اليها واستطلاع ما في نفسها ولكنه لم يكن يعرف مقرها فلبث ينتظر رجوع سلمان بالخبر اليقين .

وكان يتلهى بالخروج للصيد ونحوه وهو لا يهدأ له بال ، وأدرك عبد الله فيه ذلك لكنه تجاهل منتظرا أن ينفر حماد من هند ويعدل عنها

من تلقاء نفسه . وقد فاته قول القائل :

واذا تألفت القلوب على الهوى   فالناس تضرب في حديد بارد

فكان يصاحبه الى الصيد ويكثر من محادثته في شؤون مختلفة الا مسألة هند فانه لم يكن يفتحها قط . ولم تمض أيام حتى سمعا بانهزام الروم في اليرموك فصارا يتوقعان رجوع سلمان .

وفي صباح ذات يوم نهض حماد وأخذ يتأهب الخروج الى الصيد ، وفيما هو يفتش بين أثوابه عثر بالدرع التي ألبسته اياها هند يوم السباق ، فلم يكد ينظر اليها حتى اختلج قلبه لما قد تذكره من حوادث الحب فعظم عليه احتباسه في بصرى لا يعلم مقر حبيبته مع ما ظهر له من التي زادت الامر اشكالا . فوقف برهة ينظر الى الدرع ويقلبها بين يديه وهو غارق في بحار الهواجس حتى غلب عليه اليأس وكادت الدموع تتناثر من عينيه . وكان عبد الله غافلا أو متغافلا عن ذلك وقد خرج لقضاء حاجة له وترك حمادا في الغرفة وحده .

وبعد قليل سمع حماد صهيل جواد غير جواده وغير جواد عبد الله ، فانتبه بغتة وأطل من النافذة فاذا براكب ترجل ودنا من الباب وكأنه في ريب من أمر أهله ، فأمعن حماد نظره فيه فلم يعرفه ، فنزل للقائه بالباب فسأله الرجل : « أليس هذا منزل الامير عبد الله العراقي ؟ » .

قال حماد : « نعم هو بعينه » .

قال : « وأين ابنه الامير حماد ؟ » .

قال : « هو أنا . ماذا تريد ؟ » .

قال : « ان بعض الناس في حاجة اليك ينتظرونك في دير بحيراء » .

فلما سمع حماد ذكر الدير خفق قلبه واستبشر فقال للرسول : « اني سائر الى هناك على عجل » .

فودعه الرجل وركب عائدا من حيث أتى ، وأسرع حماد فارتدى

لباسه قبل أن يأتي عبد الله ، ولكنه لم يكد يخرج ويركب حتى لقيه عبد الله واستغرب ركوبه قبله ، فاعتذر بأنه يود الخروج لزيارة الدير وحده ، فأذعن له وهو في ريب من الامر •

فهمز حماد جواده ولم يقف الا أمام باب الدير فرأى هناك جوادا عرف أنه من جياد أهل صرح الغدير ، فاستبشر ودخل الدير يتطاول بعنقه ويحدق بعينيه ، فرأى امرأة عرف لأول وهلة أنها من خادمات هند وهي التي حملت اليه الرسالة الاولى قبل ذهابه الى بصرى • فلما رأته حيته وهمت بتقبيل يده فرد السلام ولسان حاله يسألها عن هند ، فمشت أمامه الى غرفة دخلاها ثم مدت يدها الى أثوابها وأخرجت منديلا دفعته اليه وهي تقول : « ان سيدتي هندا تسلم عليك وقد أرسلت اليك هذا المنديل » • فقلب المنديل بين يديه فاذا فيه كتابة كتبت بالدم بالاحرف النبطية ، وفيها تقول : « لم نكد نفرح بنجاتنا من ذلك الثعلب حتى عاد الى مصاحبة أبي ، والى مطلبه الاول ، وأنت تعلم أن الموت أهون علي من ذلك ، فأدركني قبل فوات الفرصة فاني مقيمة بدمشق ولعل حامل كتابي أن يزيدك ايضاحا » • فلم يفرغ من قراءة هذه الكلمات حتى ارتعدت فرائصه والتفت الى المرأة يستطلعها الخبر فقالت : « ان مولاتي هندا مقيمة بدمشق في منزل قرب كنيسة مريم ، وقد أرسلتني بهذا الكتاب وأوصتني بأن أسلمه اليك في هذا الدير » •

قال : « قد قرأت الكتاب ولكنني لم أفهم حقيقة المراد فهل ثعلبة الان في دمشق ؟ »

قالت : « كلا بل هو مع سيدي جبلة في جند الروم بحمص » •

قال : « وما الذي جمعه بالملك جبلة وقد كانا متخاصمين ؟ » •

قالت : « نعم كانا متخاصمين ولكنهما تصافيا بعد انكسار جنودهما

في وقعـة اليرموك » .

فقال حمـاد : « كذلك يتصافى العدوان اذا أصيبا بسوء معا . وماذا جـرى بعد ذلـك ؟ » .

قالت : « كنا مقيمـين بدمشق مع سيدتي هند وأمها وبقية الحاشية ، فورد كتاب من مولاي جبلـة الى سيدتي الاميرة سعـدى ينبئها بقرب قدومه مـع ثعلبة الى الشام لعقد قرانـه علـى هنـد في أثناء مهادنـة العرب ، فلم يسع سيدتي بعـد تلاوة الكتاب الا أن تخبر هندا به ، ثم أرسلتني في هذه المهمة وأوصتني أن ألقي اليك الامر كما وقع لتتدبـر في انقاذها فانها تفضل الموت على الاقتران بـه » .

فلما سمع حماد ذلك الحديـث ثارت الحمية في رأسه واتقدت نيران الغـيرة في قلبه ، وود لو أن لـه أجنحة ليطير الى دمشق ولكنـه لبث برهة يفكر ثـم قال للمرأة : « وأين ثعلبـة الآن ؟ » .

قالت : « هو مع سيدي جبلة قرب حمص ، ولكنني أظنـه أقـلع قاصـدا دمشق » .

فازداد قلقا وأخـذ يخطر في الغرفـة ذهابا وايابـا ثـم قال لها : « ارجعي الى سيدتك وأخبريها اني قـادم اليها علـى عجـل وربمـا وصلت الـى دمشق قبلك » .

قالت : « وماذا يؤكـد لها أني لقيتك وقصصت عليك الخبر ، ألا تذكر لها علامـة تبـين لها ذلك ؟ » .

ففكر قليلا ثـم قال : « قـولي لهـا أن صاحب البرد والخـاتـم قادم اليك وهذا يكفـي » .

فودعته وركبت وركب الخادم ورجعـا . أما هو فوقف يفـكر في حـاله مع عبد الله ، وتردد بين أن يعود الى بصرى فيخبره بجليـة الخبر أو أن يسير تـوا الى دمشق ، فلبث برهة في حيرة حتى خـاف أن تفوته

الفرصة فذهب الى غرفة الراهب الشيخ فاذا هو متكىء ، فاقترب منه وحياه ، فرحب به وسأله عن أمره فقال : « لقد جئتك بوصية أرجو أن تبلغها الى الامير عبد الله » .

قال : « وما هي ؟ » . قال : « أن تذكر له اني سرت الى دمشق لأمر ذي بال ، فاذا استبطأ عودتي فليدركني هناك » .

قال : « سأفعل ذلك ان شاء الله » .

وودعه حماد وخرج على جواده قاصدا دمشق .

- ٢٦ -

حصار دمشق

كانت هند بعد سفرها من صرح الغدير ووداع حماد ، قد خافت أن تذهب آمالها أدراج الرياح لما آنسته من جفاء أبيها على أثر ما سمعه عن نسب حماد . فلم يكد يتوارى حماد عن عينيها حتى أحست بانخلاع قلبها فانزوت في غرفتها وعادت الى البكاء ، وكان أبوها في شاغل بأمر أهل القصر بالاستعداد للمسير في صباح الغد ، فجاءت سعدى الى غرفة هند وقد أدركت حالها وتوقعت بكاءها فأخذت تطيب قلبها وتواسيها بالوعود ، وهند لا تزداد الا بكاء ، فقالت لها سعدى : « لا يفيدنا البكاء ، وانما نحن في موقف حرج لا بد لنا فيه من الحكمة فاصبري وتبصري عسى أن تكون العاقبة خيرا » .

فتنهدت هند وقالت لها : « دعيني يا أماه ، لقد كفاني ما قاسيته

مـن أنواع الشقاء وما سمعته من الوعود ، فقد كان عذركم في رفضه جهلكم نسبه ، ثـم قبلتموه على غموض نسبه ، فما بالكم ترددتم وقد علمتم بشريف أصله ؟ أليس ذلك لسوء حظي وللشقاء الذي كتبه الله علي ؟ » . قالت ذلك وأوغلت في البكاء . فبكت سعدى لبكائها ، ولكنها تجلدت وطيبت خاطرها وقالت لها : « اسكتي لئلا يسمع أبوك صوت البكاء فيزيد الخرق اتساعا ، أما أنا فاني ضامنة لك ما تريدين أن حمادا لك وأنت له فلا تجزعي » . وأخذت تخفف عنها حتى سكن روعها ومسحت آماقها ولبثت صامتة وقد ذبلت عيناها وتعكرتا وتكسرت أهدابهما ، وأخذت تراجع في ذاكرتها ما مر بها من الاهوال بسبب الحب ، وكيف كانت قبل ذلك السباق خالية الذهن ساذجة لا تعرف متاعب الهوى ، وكانت تتعزى بما ترجوه من لقيا الحبيب ولكنها تذكرت أنه خرج من الصرح منقبض النفس منكسر القلب فكتبت اليه ذلك الكتاب الى دير بحيراء تلتمس صبره .

وفي اليوم التالي سافر أهل الصرح جميعا الى البلقاء فأقاموا هناك الا جبلة فانه سار الى الامبراطور هرقل في حمص فأمره باعداد الرجال من غسان وغيرهم . وكان ثعلبة قد ضعف أمره وأهمله جبلة لما قام بينهما من الضغائن بعد وفاة الحارث ، ولكنه أصبح بعد ما عرفه من نسب حماد ميالا الى مصافاة ثعلبة يتزوج هندا فينجي ملكه من الخروج الى المناذرة . فلما أحتاج الى الرجال من غسان اضطر الى استقدام ثعلبة فكتب اليه فجاء برجاله وانضم الى رجال جبلة وهما على ظاهر الفتور ، ثم علم جبلة بقدوم المسلمين الى اليرموك وبصرى فخاف على أهله في البلقاء فاستقدمهم الى دمشق وأسكنهم بيتا مع نساء بعض أصدقائه من رجال الروم هناك بقرب كنيسة مريم . واشتغل هو بحرب اليرموك وغيرها ، فلما قضي على جنوده بالانهزام في وقعة اليرموك

شعر بزيادة الميل الى مصافاة ثعلبة . وذلك أمر طبيعي في الناس بل هو الناس بل هو جار في سائر أنواع الحيوان فاذا رأيت ديوكـا في منزلك تتخاصم وتتضارب وقد عسر عليك مصافاتها ، فأجمعها في قفص وأمنع الطعام والماء عنها فلا تلبث أن تراها قد اصطحبت وتصافت . كذلك الناس فانهم لا يزالون في خصام حتى يصيبهم سوء ويقعوا جميعا في مصيبة واحدة فتراهم قد تألفت قلوبهم !

فلما أصيب الغساسنة في اليرموك اجتمع جبلة وثعلبة للنظـر في أحوال الجند ، وكان ثعلبة قد ذاق مرارة الجفاء وصغرت نفسه فلمـا رأى من عمه مؤانسة وتقربا زاده رقة واستئناسا فاجتمـع قلباهما . وما لبثت المصافاة أن جرتهما الى حديث الاقتران فتعاتبـا وتشاكيـا لما مر من الجفاء بينهما فاعتذر كل منهما أعذارا انتحلها لنفسه ، وكـان ثعلبة أكثرهما سرورا بذلك لأنه أصبح بعد موت أبيه ضعيفا مرذولا . وقد علم أنه اذا تزوج هندا كـان الوارث الوحيد لريـاسة غسان جميعا . وكان قد درس أخلاق عمه جبلة وعرف ميول قلبه ، فتظـاهر بما ينطبق على نياته حتى حبب اليه مصاهرته ووعده بهند .

أما جبلة فانما حمله على مصاهرة ثعلبة استبقاء الحكومة في بـني غسان وانقاذها من المناذرة ، ولولا ذلك لمـا رأى في ثعلبة ما يقربـه منه أو يفضله على حماد .

فلما تحقق ثعلبة رضاء عمه عنه سأله عن يوم الاقتران فقال جبلة : « أرى أن يكون بعد انقضاء الحروب بيننا وبين المسلمين » .

فقال ثعلبة « ولكن تلك الفترة ليس لها حـد معروف ، وما أدرانا متى تنقضي . وكيف يرتاح بالنا وأهل البيت مقيمون بدمشق ونحن لا نستقر على حال . فاذا رأى عمي أن نستعجل الاقتران كـان ذلـك أقرب الى جمع الشمل » .

فأجابه جبلة الى مرامه ، وكانا بجوار حمص بعـد وقعة اليرموك ، فكتب جبلة الى سعدى ينبئها بنتيجة ما دار بينـه وبين ثعلبة وبين الوجه الذي حمله على اختياره دون حماد فقال : « اننا بزواج هند بثعلبة نستبقي الملك في الغساسنة ونخلصه من خطر الوقوع بين أيدي المناذرة » ، وأوصاها بالتأهب لعقد القران قريبا . ولم تتم سعدى قراءة الكتاب حتى تناثرت الدموع من عينيها لما تخشاه على هند اذا علمت بما نواه أبوها ، وأعادت تلاوة الكتاب بتمعن فأدركت سبب تغير زوجها على حماد وندمت على ما فرط منها من اطلاعه على حقيقة نسب حماد وشعرت بأنها هي السبب في كل هذه المتاعب ، فرأت أنها مطالبة شرعا بانقاذ ابنتها من مخالب ثعلبة ،فضلا عما في نفسها من الاحتقار له . فأخذت تفكر في طريقة تصل بها الى ذلك ، والوقت ضيق لا يتسع للصبر والتؤدة ، وكانت هند تلاحظ فيها ارتباكا وتسألها عن السبب فتتجاهل . ومـا زالت سعدى في مثـل ذلك يومين كاملـين حتى خافت فوات الفرصة فرأت أخيرا أن تستقدم حمادا على عجل وهند لا تعلـم ، فاذا حضر شاورته في الامر . فكتبت الى حماد الكتاب الذي تقدم ذكره بحبر من الدم استحثاثا لـه على القدوم وبعثت الكتاب مع خادمة يعرفها حماد .

★ ★ ★

لم يكد حماد يغادر بصرى حتى أدرك صعوبة المسير الى الشام وحده وهو لم يطرق تلك البلاد الا قليلا . وأقرب الطرق بين هاتين المدينتين تمر في حوران واللجا ، وكلا الصقعين وعر خطر ، وهناك طرق أخرى تختلف بعدا ووعورة . فلم ير بدا من اصطحاب دليل من أهل هذه المنطقة . ثم سار معه شمالا يقطع الجبال والاودية والسهول

والغابات ، ولا ينام الا قليلا • ولكن الدليل تـاه مرة فأضاع يوما كاملا حتى اهتدى الى الطريق ، وبعد بضعة أيام أشرفـا صباحا على غـوطـة عظيمة هي بساتين واسعة الاطراف فيهـا الاغراس من المشمش والرمـان واللوز والبرتقال والخوخ والسفرجـل والكرم وسائر أصناف الفاكهة ، تجري بينها الانهار وتتناغى فوقها الاطيار • وظهرت لحماد وراء تلـك الغوطة أبنية توارت وراء الغبار ، فوقف ينظر الى ما حولـه وقـد تعب جواده ، فسأل دليله عن تلك الأبنية فقال : « انك يا مولاي في غوطة دمشق المشهورة بغياضها وبساتينها ومياهها ، وما تلك الابنية التي تتبدى لـك من وراء الغوطة الا دمشق الفيحاء مقر والي الروم » •

فقال حمـاد : « وما هذا الغبار الذي يكاد يحجب المدينة عنا ؟ » •

قال : « لا أدري مـا هو ، ولعله غبار الروم وقد خرجـوا للسباق ، أو هو غبار جنود المسلمين فقد علمت مـن بعض القادمـين من جهـات اليرموك أن المسلمـين لمـا غلبوا الروم هناك ساروا الى دمشق ولا يبعد أنهـم جاءوهـا وحاصروها »•

فاستعاذ حمـاد بالله وخـاف أن يكون كلام الدليل صوابا فيمتنع عليه الدخول الى المدينة وربما وقع في أيدي المسلمين أسيرا ولا يدري ما ينجيه منهم ، فتذكر سلمان لاحتياجه اليه في تلك الحال ونـدم لمجيئـه منفردا ، ولم ير لديه من يستشيره ويعتمد عليه غـير ذلك الدليل • وكان هذا شابا من عرب الغساسنة المقيمين ببصرى ، في العشرين من عمره ، يتكلم العربية واليونانية • فقال له حماد : « أتعرف دمشق وهل دخلتها قبل الآن ؟ » •

قال : « أعرفها جيدا وقد أقمت بها أياما ، وكثيرا ما جئنا مع أبي لوفاء النذور أو الصلاة في كنيسة ماري يوحنا المعمدان » •

فقال حماد : « وهل تعرف كنيسة مريم ؟ » •

قال : « نعم أعرفها فانها في شارع مستقيم طويل يقطع المدينة من طرفها الشرقي الى الطرف الغربي ، أي من الباب الشرقي الذي يستقبلنا عند أول وصولنا المدينة الى الباب المقابل له في الطرف الآخر منها في الغرب ، ويقال له باب الجابية .

فاستبشر حماد باصطحاب هذا الدليل ليستعين به على الوصول الى منزل هند ، وأخذ يتلطف في معاملته ويسترضيه بالاكرام والهدايا ، وبعد أن وقفا برهة ركب حماد وسار الدليل في ركابه وسارا في الغوطة والاشجار تظللهما . ولم يسيرا قليلا حتى غابت المدينة عنهما ، ثم أشرفا على مرتفع أطلا منه على سهل أمام دمشق فرأيا الخيام والاعلام والخيول والرجال قد ملأت ذلك الفضاء .

وأدرك حماد أنها أعلام المسلمين وخيامهم ، وتحقق ذلك مما شاهده وراءها من مرابض الجمال ومساكن النساء ، فأيقن بعرقلة مساعيه وأنه لن يستطيع الدخول الى دمشق ، وخاف المسير الى معسكر العرب لئلا يستغشوه فوقف حائرا لا يدري ما يعمل . وفيما هو يهم بالاستفهام من الدليل على سبيل يدخل به المدينة سمع قرقعة لجم ووقع حوافر خيول على الحصى في جدول جف ماؤه بين الاشجار ، فأوجس خيفة وحول عنان جواده نحو الصوت وتهيأ للدفاع ، وأمر الدليل فانحدر بين الأشجار يتشوف من خلالها ويصيخ بسمعه ، فلم يكد يقف هنيهة حتى سمع صوتا يناديه باسمه فخفق قلبه لاستئناسه بذلك الصوت فأجابه : « من أنت ؟ » . ثم أدرك انه صوت الأمير عبد الله لكنه استبعد أن يراه هناك وعهده به مقيم ببصرى ، ثم ما لبث أن رآه قادما على جواده ووراءه فارسان عربيان فتحقق أنه هو بعينه وأحس قلبه بانفراج الازمة واستغرب مجيئه ، فاذا بعبد الله قد ترجل وضم حمادا وقبله . فقال حماد : « ما الذي جاء بك يا أبتاه ؟ » .

قال : « جئت لحراستك يا مولاي ، وقد علمت من الراهب الشيخ انك شخصت الى الشام فأسرعت اليك لعلمي بمـا قد تلقـاه من العراقيل في سبيل الدخول اليها ، وقد صح ظني وشكرت الله لمجيئي لأني رأيت العزب محدقين بالمدينة وقد حاصروها حصارا شديدا ، ولولا سابق معرفتي بخالد بن الوليد لمـا تمكنت من خدمتك . وقد مضى علـي يومـان أطوف هذه البقاع ومعي هذان الفارسان تتوقـع وصولك لنسير بك الى خـالد وقد أمننا » .

فشكره حماد وأثنى على غيرته وسأله عن حـال المدينة فقال : « انها في حصار شديد لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد . وأنت مـا الذي جرك الى هذه المخاطرة ؟ » . فقص عليه حكايته وأطلعه على كتاب هنـد والخجل ظاهر على وجهه .

فحدثته نفسه أن يثني عزمه عن هند ، ولكنـه علم أنه لن يصـادف منه اصغاء ، فضلا عما قد يلجئه اليه من التستر في أعماله فشجعه وقـال له : « لا بأس عليك يـا ولدي فان ثعلبة لم يستطـع دخول المدينة ولن يستطيعه » .

فقال : « وما الذي أنبأك بهذا ؟ » .

قال : « لم ينبئني أحد ولكنني عرفت ان الغساسنة كلهم وفيهـم جبلة وثعلبة مقيمون بحمص خوفا من هجمات المسلمين ، وكـان هرقل قد أنفذهم مع جند الروم لنجدة دمشق فلم يستطيعوا دخولهـا فعادوا على الاعقاب » .

قال : « وما العمل الآن ؟ » .

قال : « هلم بنا الى معسكر خالد فانهم يتوقعون عودتنـا لنقيم بينهم ونكون في ذمتهم الا اذا أحببت الرجوع الى بصرى فـان ذلـك آمن لنا وأبقى » .

فصمت حماد ولسان حاله يقول : « كيف أعود عن دمشق وهند محصورة فيها ؟ » . فابتدره عبد الله قائلا : « لا بل أرى أن نقيم مع المسلمين لعلنا نستطيع أمرا ننقذ به هندا من الخطر » . فـأبرقت أسرة حماد لما آنسه من مجاراة عبد الله فقال : « نعم الرأي رأيك فهلم بنا » . وهموا بالمسير نحو دمشق فقال الدليل : « هل ترى حاجة الي بعد الآن يا سيدي ؟ » فقال حماد : « نعم أرى أن تبقى معنا لعلنا نحتاج اليك في شيء ونحن في مأمن ولك علينا خير المكافأة » . فأذعن وسار معهما .

وفيما هم سائرون بين الغياض خاطب حماد عبد الله بلسان أهل العراق فقال : « هل ترى جند العرب كثيرين حول دمشق ؟ » .

قال : « هم عديدون وقد تفرقوا فرقا بينهما فرقة خالد عند الباب الشرقي ، وفرقة أبي عبيدة عند باب الجابية في الغرب ، وفرقة عمرو بن العاص عند باب الفراديس ، وفرقة شرحبيل بن حسنة عند باب آخر ، وفرق أخرى عند الابواب الاخرى . وهناك فرقة يقودها جبار عنيد يقال له ضرار بن الأزور تطوف حول الأسوار . ويخيل لي أن الروم لا يستطيعون الصبر على الحصار » .

وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على معسكر العرب عند الباب الشرقي . فرأوا الخيول والجمال ترعى في البساتين ومعها العبيد والخدم ، ورأوا النساء في أخبيتهن يتحدثن بأمر الجهاد وهن مشتاقات اليه اشتياق الابطال الى ساحة القتال .

فلما وصلوا الى المعسكر أتوا فسطاط خالد فدخله عبد الله وحماد بلا معارض ، وكان خالد جالسا في صدر المكان فرحب بهما ودعاهما للجلوس ، فنظر حماد الى من في الفسطاط فرأى رومانوس صاحب بصرى الى جانب خالد وقد أعتم بالعمامة وتزمل بالرداء العربي وغادر القلنسوة والقباء ، وكان خالد قد استقدمه معه ليترجم بينه وبين الروم ، فتهيب

حماد من مجلس خالد ومن أحدق به من الأمراء وفيهم جماعة كبيرة لم يعرفهم ولكنه رأى الشجاعة والاقدام تلوحان على وجوههم .

فتقدم عبد الله الى خالد فعرفه بحماد ، فأثنى خالد عليه وقال : « ان غلامك سيزداد زينة بالاسلام » . فسكت عبد الله ولم يجب .

أما حماد فلم يكن همه الا هند وحالها في دمشق ، ولو لم يطمئنه عبد الله ببعد ثعلبة عنها لما صبر على البقاء هناك ، لكنه ما فتىء يفكر في حيلة يدخل بها المدينة ليرى هندا ويطمئنها ويسعى في انقاذها .

وبعد قليل استأذن عبد الله خالدا في الخروج الى خيمة أعدت له ، فخرج وخرج حماد معه حتى أتيا الخيمة فقال حماد : « ما الرأي الآن ؟ اني أرى هندا في خطر ونحن في مأمن فلا بد من حيلة ندخل بها المدينة » .

قال : « تمهل يا سيدي لعلنا نوفق الى ذلك في الغد » . وباتا تلك الليلة وأفاقا في الصباح على أصوات الاذان والصلاة فقال عبد الله : « لا أرانا نستطيع شيئا طالما كنا في هذا المعسكر ، هلم بنا الى معسكر أبي عبيدة عند باب الجابية لعلنا نسمع خبرا » . فمشيا كأنهما من الجند وتركا الدليل في الخيمة ، حتى أتيا معسكر أبي عبيدة فدعاهما الى خيمته ، وكان عبد الله قد عرفه وسمع بسهولة أخلاقه وطول أناته ورغبته عن سفك الدماء . فبعد السلام والترحاب قال عبد الله : « ألا يرى مولاي مخابرة هؤلاء الروم في أمر الصلح عسى أن يسلموا ويكفوكم مؤونة الحرب » .

قال أبو عبيدة : « اني أرغب الناس في ذلك ، ولكن خالدا يطرب لمقارعة السيوف ومصادمة النبال » .

فقال عبد الله : « وما ضر لو انفذت اليهم أحدا يستطلع رأيهم وأنت رئيس هذا الجند والمتصرف فيهم ؟ » .

فقال : « لا أرى بأسا في ذلك الا أنهم يحسبوننا خائفين » .

قال : « أرسلوا من يستطلع رأيهم اذ قد يكونون راغبين في الصلح وهم يحسبونكم لا ترضون به ، فاذا سار اليهم أحد فليكن كلامه من عند نفسه » .

قال : « ومن لنا بمن يعرف لسانهم ؟ » .

قال : « لا أظننا نعدم وسيلة » . وكان حماد قد تعلم شيئا من اليونانية في أثناء اقامته ببصرى ، وهم عبد الله بأن يشير بارسال حماد ولكنه جزع عليه فلبث صامتا فابتدره حماد قائلا : « اني أقدم نفسي لهذه المهمة » .

فقال أبو عبيدة : « على أن تسير اليهم خفية ، فاذا فزت في مهستك انحجبت الدماء على يدك والا فاننا باقون على حالنا من الحرب . وأعلم أن قائد جند الروم هناك رجل اسمه توما وهو صهر الامبراطور هرقل فسر اليه واستطلع رأيه من قبلك في التسليم » .

فسر حماد بمهمته ، وخرج من فسطاط أبي عبيدة وعبد الله معه ، فناداهما أبو عبيدة فعادا فقال لحماد : « اذا سرت أنت بقي أبوك عندنا رهنا فان النفس امارة بالسوء » . فرضيا وخرج حماد وحده وبقي عبد الله هناك وقد ندم لما جره على حماد وعلى نفسه من الخطر وضاق صدره وخاف العاقبة .

أما حماد فانه حمل علما أبيض وركب جوادا وأسرع نحو المدينة فلم يتبين الاسوار حتى رأى جماهير الناس عليها وفيهم القسوس بصلبانهم والجند بأعلامهم ، ورأى بعضهم يهم بأن يرميه بالنبال ، فأشار اليهم عن بعد أنه انما جاء مسالما فكفوا عن أذاه ، حتى اذا دنا من الباب هاله عظمه فقد كان مؤلفا من ثلاثة أبواب صفا واحدا المتوسط منها كبير ذو قنطرة واسعة والى جانبيه بابان صغيران ، وفي أعلى الباب

صورة النسر الروماني تحته كتابة باليونانية ، وفوق النسر جدار فيه مرامي النبال والناس يتزاحمون فوقها تتلألأ ألبستهم بألوانها الحمراء والزرقاء مما يدل على البذخ والترف ، وفوق رؤوسهم الخوذ من الفولاذ . فناداهم بلسانهم ذاكرا أنه يريد الوصول الى رئيسهم .

★ ★ ★

نزل بعض الجنود ففتحوا لحماد آحد البابين الصغيرين ، فدخل بجواده وسلاحه ، وقد أحدق به الرجال ، فتهيب الموقف لكنه تجلد وطلب أن يرى البطريق توما ، فقالوا : « انه في قصره بالقرب من كنيسة ماري يوحنا » . فترجل ومشى بين الحراس في شارع عريض قد استطال على استقامة واحدة يبتدىء بالباب الأوسط ولا يكاد يرى آخره. وأرضه مرصوفة بالحجارة الصوانية الضخمة ، والى كل من جانبيه رصيف عريض أوله عند أحد البابين الصغيرين ، وعلى الرصيف أساطين فخمة من الرخام متراصة على طول الطريق . ولم يكن حماد قد دخل الشام قبل ذلك الحين فرأى فيها من العظمة ودلائل المدينة ما لم ير مثله في بصرى .

فما زال سائرا وحوله الحراس وأهل المدينة يطلون من الشرفات والنوافذ ينظرون اليه ويتحدثون بأمره وهو يلتفت يمنة ويسرة لعله يرى هندا بينهم وكلما وقع نظره على أنثى ظنها هي ، وكان يخترق الصفوف بلحظة لعله يرى قبة أو كنيسة على أمل أن تكون كنيسة مريم حيث تقيم هند ، حتى مر بكنيسة علم من بعض حديث القوم انها الكنيسة التي ينشدها ، فخفق قلبه وشاعت عيناه وهو يلتفت الى ما حولها من النوافذ فرأى جموعا من الناس ولكنه لم ير هندا بينهم ، فسار والناس

حوله يتحادثون بلسانهم وقـد علت الضوضاء يتخللها قرقعة حوافر الخيل على البـلاط .

وبعد أن ساروا حينا ، انعطفوا الى شارع آخـر فآخر حتى وصلوا الى باب كبير يحف به الخدم والاعوان فوقفوا عنده ، فعلم أنه القصر ، ثم ذهب بعض الحراس لينبئوا البطريق بقدوم الرسول ، فأمر بادخالـه عليه ، فجردوه من سلاحه فدخل وركبتاه ترتعشان لهول ما يتوقعه فدخلوا به الى صحن الدار فأعجبه ما رآه في أرضهـا من النقوش الجميلة وفيها صور وقائع وهيئات آدميين وحيوانات بالفسيفساء بألوان بديعـة متراصة قطعا صغيرة بصناعة فائقة . وفي وسط الدار بركة مـن الرخام يتدفـق الماء منها . ثم دخلوا به في قاعة مفروشة بالرياش الثمين مما يبهر النظـر وعلى جدرانها وسقفها صور بعض القديسين ، وصورة الامبراطور هرقل بتاجه وصولجانه ، وصور أخرى دينية . ورأى على النوافذ أستارا مـن الديباج والحرير المزركش بالقصب ، والارض مكسوة بالسجاد والطنافس عليها رسوم الاسود والفهود والخيول في أبـدع ما يكون . فدعوه الى الجلوس هناك ريثما يخرج اليه البطريق ، فجلس يتوقع قدومه وهو يهون على نفسه ويتجلد حتى سمع وقع أقدام كثيرة ورأى أهل القصر في هرج وتزاحم ، فعلم أن الرجـل قادم ، رآه وقد دخـل القاعة فاذا هو طويـل القامة عظيم الهامة كثير الهيبة ، وطيلسانه يكـاد يجر وراءه ، وسيفـه الى جنبه ، وهو في رداء قصير الى ركبتيه كثير الالوان مزركش بالذهب . وعلى رأسه قلنسوة أشبه بالتاج مرصعة بالحجارة الكريمـة . فحـالما رآه حمـاد وقف اجلالا له وتقدم نحوه متأدبا . فنظر توما اليه بعينين حادتين يكاد النور ينبثق منهما ، فهاب حماد منظره لكنه تظاهـر بالتجلد ، وحياه تحية الملوك وصبر حتى جلس وأمر له بالجلوس ، فجلس يفكـر فيما يبدأ به الحديث .

فابتدره البطريق قائلا : « لعلك من هؤلاء العرب المغتربين ؟ » .

قال : « كلا يا مولاي اني غريب الديار وقد وقعت بين أيديهم بالاتفاق » .

قال : « لقد لاح لي ذلك من شكل لباسك فاني أراك حسن البزة وهؤلاء على ما أعلم حفاة عراة ولم يسقهم الينا الا قرب آجالهم . هل أنت على دينهم الجديد ؟ » .

قال : « كلا يا مولاي اني على دين النصرانية » . قال ذلك وأخرج من بين أثوابه صليبا من الذهب معلقا بسلسلة في عنقه .

قال : « لعلك من الغساسنة ؟ » .

فتحير حماد في الجواب مخافة أن يكون في تصريحه بالصدق ما يوغر صدر البطريق عليه فقال : « اني غريب الديار ولكنني مقيم ببصرى الآن » .

فقال : « ومن أي البلاد أنت ؟ » .

فتذكر حماد الصلح الذي أبرم بين الفرس والروم على أثر الحروب الاخيرة فقال : « اني من أهل العراق ولما تم الصلح بين ملكنا وجلالة الامبراطور هرقل قدمت الى البلقاء » .

فقال توما : « وما الذي جاء بك الينا ؟ » . قال ذلك ودلائل الاهتمام ظاهرة على وجهه .

فهاب حماد منظره ولكنه تذكر انه ملك ابن ملك فعادت اليه أنفة الملوك فقال : « اذا أذن مولاي في خلوة بسطت له رأيي » . وكان في مجلس البطريق بعض الحاشية فأشار اليهم فخرجوا وجلس البطريق الى جانبه . فقال حماد : « أقسم لمولاي بحرمة الصليب والمعمودية اني انما جئت اليه أنوي له ولدولة الروم خيرا » .

قال : « لقد صدقت قل ما في نفسك » .

قال : « اني رأيت معسكر هؤلاء العرب وخبرت صبرهم في ساحة القتال وتفانيهم في سبيل الجهاد ، فخفت أن يطول الحصار فيصيب هذه المدينة شر . وقد عرفت قائد جند العرب انه اكبر وهو رجل ميال الى السلم رغاب في حجب الدماء فقلت في نفسي : (لعلي اذا توسطت في أمر الصلح بينكما أن أفعل خيرا) . فاحتلت في دخول المدينة لأعرض هذا الأمر عليك » .

فلم يكد حماد يتم حديثه حتى بدت ظواهر الغضب على وجه توما ، فقطب حاجبيه وتململ في مقعده ونظر الى حماد بعينين براقتين يكاد الشرر يتطاير منهما وقال : « وحرمة الصليب وصاحب هذه الكنيسة (وأشار الى كنيسة مار يوحنا بالقرب من القصر) ورأس الامبراطور هرقل ، لو لم تسبق الى اقناعي بنصرانيتك لارتبت في حقيقة مقاصدك . كيف تدعونا الى صلح قوم ساقهم الفقر الينا وغرهم الجهل في منازلتنا ؟ أتخالهم يحسبوننا مثل حامية بصرى التي خانت ملكها وسلمت اليهم ؟ ألم تكن لهم عبرة برجوعهم عن أسوار هذه المدينة خاسرين منذ بضعة أسابيع » . ثم نهض وهو يقول : « اني سأعلمهم كيف حرب الروم منذ اليوم » . قال ذلك ويده على قبضة حسامه وهو يخطر في الغرفة غضبا .

فكبر ذلك الانتهار على حماد ، وجرت دماء الملوك في عروقه ، وحدثته نفسه أن يغلظ له القول ولكنه كظم وقال : « ان الصلح لا يحط من قدر رجال الحرب ، ولا أخال مولاي يحسبني أجهل بطش الروم وشدة بأسهم ، ولكنني رأيت في الصلح حجبا للدماء فاذا كنتم ترون الحرب فأنتم أصحاب الامر » .

وكان البطريق لا يزال واقفا فلما سمع مقالة حماد جلس الى مقعد آخر ويده لا تزال على قبضة حسامه وقال : « لولا علمي بحسن نيتك لما أبقيت عليك ، ولكنك مع ذلك ستبقى في حاشيتي حتى ترى عاقبة

الغرور ، وترى حال هؤلاء العرب في حربنا » .

فاستعاذ حماد بالله من ذلك ، وكـان في حسابه ان يطلق سراحه فيفتش عن هند فندم على مجيئه وظـل صامتا . ثم سمع البطريـق ينادي أحد رجاله فلما حضر أوصاه بأن يحتفظ به ويستبقيه في حاشيته ريثما يأتيه منه أمر آخر . قال ذلك وخرج مسرعا غاضبا وسيفه يقرقع على البلاط وراءه ، وطيلسانه يكـاد يتطاير عن كتفيه . وبقي حماد وحارسه في القاعة هنيهة ثم أشار اليه الحـارس أن يخرج فخرج واختلط بالحـاشية كأنه منهم ، ولكن لا يؤذن له بالخروج من القصر الا معهم . ولم يسعه الا أن يصبر منتظرا ما يأتي به القدر .

وفي مساء ذلك اليوم سمع أهل القصر يتحدثون بعزم تومـا على الصلاة في كنيسة ماري يوحنا صباح الغد ، وكـان يوم أحد ، وأنه دعا رجال حكومته وأعيان المدينة للاجتماع فيها فأمل حماد أن يتنسم خبرا عن هند هناك .

★ ★ ★

وفي صباح اليوم التالي ، سمع حماد دق النواقيس في سائر كنائس المدينة ، ثم رأى أهل القصر يتهيأون للذهاب الى الكنيسة فسأل حارسه : « ألا أذهب معكم ؟ » . فقال : « ان الصـلاة لا تمنع عن طالبها . تعال معنـا » .

وبعد قليل خرج توما في أحسن ما يكون من اللباس ، فمشى وحوله الاعيان والوجهاء ورجال الدولة في أفخر الالبسة من الحرير المزركش على أجمل ألوانه وأزهاها .

وكانت الكنيسة على مقربة من القصر فوصلوا اليها بعد دقـائق .

وتأمل فيها حماد فاذا هي محاطة بسور عظيم الارتفاع يوقــع في النفس رهبة فدخلوا منه الى باب الكنيسة الجنوبي وهو كبير مرتفع الأعتاب ، فدخلوا منه الى صحن الكنيسة وهو فسيح مبلط بالرخــام الملــون طوله نحو مائتي خطوة وعرضه مائة وخمسون • وتحيط به الأروقــة وفيهــا الأعمدة الهائلة من الرخام الابيض النقي أو الجرانيت الملون بأحسن مــا يكون من الدقة ، وتعلوهــا تيجــان جميلة الصنعة على النمط الروماني أكثرها محلى بالذهب • حتى اذا أشرف حماد عــلى الهيكل حيث تقــام الصلاة بهره ما على جدرانه من الصور البديعــة بالالوان الطبيعية وفيها الذهب فضلا عن النقوش الجميلة من الفسيفساء البلورية بالالوان البديعة • وكان حماد أينما يلتفت تتمثل له عظمة الروم في ابان مجــدهم ، فبهت لأنه لم يشاهد مثل هذه الكنيسة قط ، وأدرك حــارسه ذلك منه فقال لــه : « ما لــك ذاهلا ؟ » • قال : « اني لم أر مثــل هذه الكنيسة في الشرق بانطاكية ، من هو الذي بناها من الملوك ؟ » •

قال : « انه بناء أقدم من النصرانية عهدا ، فقد كان هيكلا وثنيــا من أيام الآراميين الذين ورد ذكرهم في التوراة ، بني لعبادة اله من آلهتهــم اسمه رامون ، وكــان له مذبح جميل أمر آحاز ملك يهوذا أن يبني مثله في هيكل سليمان بأورشليم • فلمــا استولت دولتنا الرومانية عــلى الشام قبل النصرانية اتخذوه معبدا لأوثانهم ، حتى اذا تنصر قياصرتنا جعلــه القيصر أرخاديوس كنيسة باسم يوحنا المعمدان • وكــان بعضه قد تخرب فرممه ونقش فيه صور القديسين • ومن جملة مــا نقشوه آيــات من الكتاب المقدس كثير منها على الجدران والسقف ، وأظنك قرأت ما هــو منقوش على الباب عند دخولنا فقد كتبت عليه باليونانية (ملكــوتك أيها المسيح ملكوت أبدي وسلطــانك يمتد مدى الأدوار) •• » •

ولم يكد ينتهي الرجل من حكايته حتى انتظم عقد الصــلاة ، وقام

الأساقفة بمباخرهم وصلبانهم وعلت أصوات الترتيل والترنيم والجدران تردد الصدى حتى صمت الآذان وخشع الناس • ونظر حماد الى الجماهير فرآهم وقوفا وقد ولوا وجوههم نحو المشرق وفي مقدمتهم توما جالسا على كرسي من العاج المرصع بالفسيفساء ، فوقة قبة من العاج بديعة النقش • ولما انقضت الصلاة حول توما وجهه نحو الجماهير وبيده صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة ، وأمامه منضدة عالية فوقها كتاب مغشى بالذهب عرف حماد أنه الانجيل الشريف ، والتفت توما وقد تغير منظره وهو يهيىء كلاما يقوله فأصغى الناس ففتح الانجيل ووضع يده اليسرى عليه وفي يده اليمنى الصليب يشير به وهو يتكلم وقال ما معناه : « اعلموا يا معشر النصارى ، ان عمي ومولاي جلالة الامبراطور هرقل قد كتب الينا يستحثنا على دفع هؤلاء الأعراب عن أسوار دمشق واخراجهم من بلاد الشام ، فقد ألقوا الفتن فيها ، وما هم بالحقيقة الا قوم جياع عراة ، ساقهم فقر بلادهم وجدب أرضهم الى التماس غزو الشام وطمعا في غياضها وخيراتها • وقد أطمعهم فيها ما لاقوه من ضعف حامية بصرى وقائدها رومانوس اللعين الذي قاده الانتقام الى التسليم • أما أنتم فانكم رجال أشداء قائمون على الولاء ، ولهذا لن يهمكم من أمر هؤلاء شيء • ولا أحرضكم الا على الاتحاد ونبذ الاختلافات المذهبية فقد آن لنا أن نفقه حالنا ونعتبر بما صار اليه الناس قبلنا ، وما هؤلاء العرب بشيء يذكر اذا نحن اتحدنا والا فان العاقبة وخيمة ، فاذا رأيتم الخروج اليهم خرجنا وأذقناهم مر العذاب » •

فقال رجل واقف بالقرب منه : « ما لنا وللخروج اليهم ونحن آمنون في أسوارنا ؟ فلنهملهم حتى يملوا الاقامة فينقلبوا على أعقابهم » •

فتأمل حماد في حال ذلك الجمع وفيهم خير رجال الدولة ، فرأى التردد والخمول مستوليين عليهم ، وكان يحسب كلام توما يثير فيهم

حمية فاذا هو لم يسمع منهم الا تستة . ولم ير الا تقاعدا ، وقد فقدوا الحمية بما انغمسوا فيه من الترف والبذخ والرخاء وفسدت أخلاقهم وساءت آدابهم • فقابل ذلك بما آنسه في جند العرب من الأنفة وعزة النفس والنشاط ووحدة الكلمة ، فتمثلت له عاقبة الامر جليا ، وأيقن أن الدائرة ستدور على الروم اذا هم لم يصالحوا العرب فلبث ينتظر ما يأتي به القدر •

وعادوا من الكنيسة وهم يتحدثون بما سمعوه ، وحماد منشغل بهند • وقد حاول الخروج منفردا الى كنيسة مريم فلم يستطع لأن حارسه لم يكن يفارقه لحظة ، وخاف اذا خرج خلسة أن يعد خروجه ذنبا يستوجب عليه القتل ، فصبر على مضض •

وفي صباح الغد خرج توما ومعه رجاله الا الحارس فانه بقي في القصر وحماد معه ، وآنس في خروجهم حركة غير اعتيادية فاستطلع الخبر فقال الحارس : « البطريق سار الى الأسوار يرمي العرب منها بالنبال » • ولم يأت المساء حتى عاد الروم وفيهم توما ويده على عينه وقد جاءه الأطباء ، فسأل حماد عن حاله فعلم أنه أصيب بنبلة من نبال العرب فقأت عينه ، وأنه تشاءم من ذلك كثيرا فقال حماد في نفسه : « عسى أن يرجع الى صوابه ويرغب في الصلح » •

★ ★ ★

ومضت بضعة أسابيع والحرب سجال بين الفريقين ، وكان الروم ينتظرون أن تصل اليهم نجدة من هرقل ، فلم تصل • وفي ذات صباح جلس في بعض غرف القصر يائسا أسيفا ، فجاءه رسول يدعوه الى توما ، فسار اليه وقلبه يخفق مخافة أن يكون هناك خطر على حياته •

فلما دخل عليه رآه جالسا على سريره مقطب الوجه ، فحياه ، ورد توما التحية محتفلا ، ودعاه الى الجلوس بجانبه ، ثم أخذ يبش له في رقةلم يعهدها فيه . وبعد حين أشار توما فخرج كل من في الغرفة ولم يبق غيرهما ، ثم قال لحماد : « دعني أقص عليك خبرا أقلقني وهو حلم رأته امرأتي في منامها ليلة أمس وهي حامل ، أما الحلم فانها رأت الدماء تتدفق عن أسوار دمشق والاسواق مزدحمة بالقتلى ، فأفاقت من نومها مرتعبة وقصت علي الحلم وهي ترتعد ، وتوسلت الي أن أقبل الصلح مع هؤلاء العرب حجبا للدماء . ولقد ساءني اقتراحها لاني راغب في الحرب الى آخر نسمة من الحياة ، ولكنها ابنة الامبراطور صاحب الامر والنهي ، فضلا عن منزلتها عندي وهي حامل . وأذكر أنك أخبرتني بأن أبا عبيدة قائد فرقة باب الجابية يؤثر السلم . فهل تظن أنه يحفظ عهده اذا تم الصلح ؟ » .

فاستبشر حماد بذلك وانفرجت كربته وقال : « لا ريب عندي في حفظه العهد اذا عاهد » .

قال : « أتذهب اليه وتستطلع رأيه في ذلك سرا وتعود بالخبر ؟ » .

قال : « أفعل ذلك مأمورا طائعا ، فأذن بمن يرشدني الى الطريق ويخرج بي من الباب وأنا أسير الى الرجل وأخاطبه » .

قال : « قد أذنا لك في ذلك ، ولكنني أشترط في أمر الصلح شرطا لا بد منه » .

قال : « وما هو ؟ » .

قال : « أريد من هؤلاء العرب اذا دخلوا المدينة أن يحفظوا الأرواح ويحجبوا الدماء وأن يتركوا لنا كنائسنا ولا ينقصوا علينا منها كنيسة » .

فقال حماد : « لا أظنهم يخالفوننا في ذلك ، وعلى كل فاني أسير

اليهم الآن وأعـود اليك بالجواب » . وكان حماد يكلم توما وهـو يعجب لتنازله الى هذا الحل . على أن خيال هند مـا زال نصب عينيه فخطر لـه أن يغتنم تلك الفرصة للاستعانة به على تسهيل زواجـه بهـا وقال في نفسه : « لا أخالني أرى رجـلا أقدر على مساعدتي مـن صهر الامبراطور ، وهو الان في حاجة الي فاذا استعنته ووعـدني فقـولـه نافذ علـى جبلة وغيره » .

فتوسم توما في حمـاد توقفا وترددا فقال لـه : « ما بالك تتردد لعلك خفت الذهاب الى العرب ؟ » . قـال : « لا يا مولاي فاني أقتحـم المخاطر في سبيل تنفيذ أمـرك ، ولكن لي مأربـا يهمني ليس هذا محل الكلام عليه على أنني لا أرى بدا من استعانتك فيه وهـو من أسهـل الامور عليك ، فاجعل مساعدتي في اتمامـه مكافأة لي اذا فزت في عقـد الصلح علـى ما تريدون » .

فقال توما : « وماذا عسى أن يكون طلبك ؟ » .

قال : « أخاف اذا ذكرته أن تضحك مني وتظنني مشتغلا بعبـث الغلمان ، ولكن الأمر يا مولاي قد أقلقني ولا أرى بدا من استعانتك فيه فاعـذرني » .

قال : « قل ما هو ؟ » .

قال : « أتعرفون الأمير جبلة الغساني ؟ » .

قال : « أليس هو ملك الغساسنة حليفنا ؟ » .

قال : « بلى يا مولاي هـو بعينه » .

قال : « وما خبره ؟ » .

قال حماد : « اني خطبت ابنته هندا ، ولها ابن عم يقال لـه ثعلبة يسعى في الحصول عليها وقد رضيه لها أبوها ولكن الفتاة لا تريده . ونظرا لمـا أعهده من نفوذكم على جبلـة أرجو أن توعزوا اليه أن يعطيني

الفتـــاة » .

فتبسم توما وقد تذكر ابان شبابه وزمن عشقه فعذر حمــاد وطيب خاطره وقال له : « هذا أمر سهل ولك علينا قضاؤه » . فانبسطت نفس حماد ومال الى مشاهدة هند وتبشيرها بذلك الوعد ، وهم باستئــذان توما أن يمر بكنيسة مريم أثناء ذهابه فــاذا هو قد ابتدره قــائلا : « أرجو أن تسرع في مهمتك فتسير حالا الى أبي عبيدة ، فاذا عقد الصلح وهدأت الاحوال زففنا اليك هنــدا رضي والدها أم لم يرض » .

فشكر له حماد شكرا جزيلا ، وقد صمم على أن يحتــال للمرور خلسة بديار الحبيبة . ثم سمع توما ينادي اثنين من حاشيته فــأتيا فقال لهما : « أعدا مركبة من مركبات القصر ، واحملا فيهــا هذا الشاب العراقي الى باب الجابية حالا ، وافتحا له الباب ، وليركب جواده هناك وأما أنتما فانتظرا رجوعه فمتى عاد فارجعا به الى هنا » .

فقالا : « سمعا وطاعة » . وخرجوا جميعا وحماد آسف لمسيره في المركبة اذ لا يتأتى له الوقوف عند الكنيسة .

وبعد برهة أعدت المركبة فركبوها ، فجرت مسرعة وقد تعاظمت قرقعتها على بلاط الشوارع ولا سيما الشارع المستقيم ، حتـى اذا دنت من كنيسة مريم خفق قلب حماد وشاعت عيناه وهو يلتفت نحو النوافذ والشرفات لعله يرى هندا أو أحدا من أهلها فخــاب رجاؤه ، وتجاوزت المركبة الكنيسة وهو يصيخ بسمعه مخافة أن يناديه أحد وتحول قرقعة المركبة دون سماع النداء ولكنه ما لبث أن وصل الى باب الجابية فوقفت المركبة ، وكــان جواده هناك فركبه وخرج والعلـم معه حتى أتى معسكر أبي عبيدة فلم يستفشه أحد من العرب ، فسار توا الى خيمة عبد الله وهي في الطريق فرآه جالسا حزينا لانشغال باله ، فحالمــا وقع نظره عليه نهض مسرعا وضمه الى صدره ، وسأله عن سبب غيابه فقص عليه الخبر فحمد

الله على سلامته . ثم سأله حماد هل سمع شيئا عن سلمان فقال : « لا . لم أسمع عنه شيئا ، ولكنني أرسلت دليلنا الى بصرى لعله يراه هنـاك فيخبره بمقرنا ولم يعد الدليل بعد » فانشغل بال حماد ولبثا برهة يتحدثان في أمر جبلة وجنده فقال عبد الله : « أظننا اذا تم الصلح بين العرب والروم لا نعدم وسيلة للعثور على سلمان ، فهيا بنا الآن الى أبي عبيدة » . ثـم نهضا معا حتى أتيا فسطاطه ، فرحب بهما . وقص حماد ما اشترطه توما من أمر الكنائس والأموال فقال أبو عبيدة : « لقد قبلنا ذلك ، فليرسل من يعتمدهم من رجاله لعقد الشروط » .

فودعهم حماد وعاد الى دمشق وقد مضى معظم النهار فوصل الى القصر فرأى أهله في هرج وضجة فسأل عن السبب فقيل له أن امـرأة البطريق توما جاءها المخاض والبطريق عندها ينتظر ساعة الولادة . فقال : « ابعثوا اليه من ينبئه برجوعي » . فـأنبأوه فخرج اليه وامارات البغتة ظـاهرة على وجهه فقال : « ما خبرك ؟ » . فقال : « ان الامير أبا عبيدة قبل الصلح فأرسل من تعتمده لعقده » . فأمر مـائة من كبـار القصر أن يخرجوا في صباح الغد ومعهم حماد وقال لهم : « اني مشتغل بمـا تقاسيه ابنة الامبراطور من آلام المخـاض وعسى أن يـأتي الفرج قريبـا » .

- ٢٧ -

صلح بيت المقدس

كان الليل قد أسدل نقابه فباتوا تلك الليلة ثم أصبحوا وقـد تهيـأ

مائة منهم بالألبسة الرسمية وحملوا الأعلام والصلبان حتى أتــوا باب الجابيــة ، وكــان حمادا أكثر الناس رغبة في الصلح أمــلا في قــرب الوصول الى هند .

فلمــا وصلوا الى الباب كــان بعض العرب هناك وعليهم أبو هريرة قد قاموا ينتظرون وفد الروم ، فأنبأهم حماد بمــا أتوا من أجلــه ، ففتحوا الأبواب ودخل الوفد بأعلامهم وصلبانهم وقد تكسرت أشعة الشمس على خوذهم وقلانسهم وأرديتهم المختلفة الألوان وصلبانهم المرصــعة بالحجارة الكريمة مما يبهر الأبصار . ومشى أبو هريرة ورجاله في مقدمتهم حتى أتوا معسكر أبي عبيدة ، فلمــا أشرفوا على المضارب ، أوعز اليهم أبو هريرة أن ينزعوا الصلبان فنزعوها حتى وصلوا الى فسطاط أبي عبيدة فاستقبلهم بالحفاوة ، وعقد مجلسا أمضوا فيه الشروط وفي جملتها أن تترك الكنائس على حالها . وكان في دمشق كنائس عدة منها : كنيسة مريم ، وكنيسة يوحنا المعمدان المتقدم ذكرهما ، وكنيسة سوق الليل ، وكنيسة انذار . فكتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح والأمان ، ولــم يسم فيه اسمه ولا أثبت شهودا ، فتناولوا الكتاب ودعوه لصحبتهم ليدخلوا المدينة معا فقام أبو عبيدة ومعه ٣٥ من أعيان الصحابة وسار الجميع وفيهم عبد الله وحماد فلما بلغوا المدينة وقف أبو عبيدة وقد تذكر أمرا ، وذلك أنه لسلامة نيته رضي بالصلح وقبل دخول المدينة مع عدوه ولم يخامره ريب من غدر أو نحــوه ، ولكنه لمــا بلغ الأبواب ورأى الأسوار وفوقها الجند بالاسلحة تذكر أن عليه أن يحذر ويتحــوط ، فقال لمن معه من الــروم : « اننــا نطلب منكم الرهــائن قبل الدخول فيبقى منكــم أناس رهنا عندنا حتى اذا حدث غدر ذهبوا ضحية الغدر » . فتركوا بعضهم وسار الباقون حتى دخلوا الأبواب وأقبلوا على الشارع المستقيم وقد تزاحم فيه النــاس وفي مقدمتهم القساوسة والرهبان ، فلمــا دخل أبو عبيدة استقبلوه بالأناشيد

واعتذروا عن تخلف البطريق توما لانشغاله بأهل بيته ، ثم مشوا بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الأناجيل والمباخر وفيها البخور يتصاعد دخانه حتى حجب عنهم أواخر الشارع ، فساروا يهتفون شكرا لله على حجب الدماء ، والاعلام تخفق فوق رؤوسهم وبينها أعلام المسلمين والروم معا .

وكان الدمشقيون يطلون من النوافذ ومن فوق الأسطح والشرفات رجالا ونساء وأولادا ، وكلهم فرحون بنجاة أنفسهم وأموالهم لأن أهل البلد أكثر الناس نفورا من الحرب لأنها عائدة بالخسارة في أي حال .

وأما حماد فكان مشتغلا عن تلك الضوضاء يعلل نفسه بقرب اللقاء وعبد الله الى جانبه ، وكان الموكب سائرا ببطء فنفذ صبر حماد وهو يتشوف من خلال الأعلام والصلبان الى كنيسة مريم عن بعد وقد عزم على ترك الموكب ودخول الكنيسة خلسة ليرى هندا ويبشرها بانفراج الأزمة .

وفيما هو في ذلك تراءى له في آخر الشارع جموع قادمون نحو الموكب فرارا من أناس يطاردونهم ، فأمعن نظره فرأى مع المطاردين أعلاما اسلامية ورجالا من المسلمين في أيديهم السيوف والرماح وقد أمعنوا في الناس نهبا ورأى في مقدمة الأعلام علما أسود عرف أنه راية العقاب لخالد بن الوليد . ثم ما لبث أن رأى الفارين يتقدمون حتى التقوا بالموكب عند كنيسة مريم ثم دنا خالد فلما رآه أبو عبيدة عجب لأمره وناداه قائلا : « كف يا أبا سلمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحا وكفى الله المؤمنين القتال » .

فصاح فيه خالد : « وما الصلح لا أصلح الله بالهم ؟ وأين لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف وخضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذن

أولادهم » .

فقال أبو عبيدة : « اعلم يا خالد اني ما دخلتها الا بالصلح » .

فقال خالد : « كلا .. كلا .. أنا ما دخلتها الا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم ؟ » .

فقال أبو عبيدة : « اتق الله يا خالد ، والله قد صالحت القوم ونفذ السهم وكتبت لهم الكتاب » .

فاعترضه خالد وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس اليهما وأصحاب خالد لا يزالون يقتلون وينهبون . وكانوا قد دخلوا المدينة من الباب الشرقي وهم لا يعلمون بصلح أبي عبيدة ولكنهم اغتنموا فرصة اشتغال توما ورجاله بالقصر والولادة .

فقال أبو عبيدة : « واثكلاه حقرت والله ونقض عهدي » . وجعل يقسم على المسلمين الا يمدوا أيديهم لشيء في الطريق الذي جاء منه حتى يرى ما يتفق هو وخالد عليه ، فسكتوا عن النهب واجتمع رجال المسلمين هناك وتفاوضوا في الأمر فتم الرأي على قبول الصلح على أن يخرج توما وهربيس (وهو وال على نصف الشام من قبل توما) وبينما هم في الجدال جاء توما وهربيس وذكرا أبا عبيدة بالعهد وقالا : « اذا أبيتم صلحنا فاننا نخرج من المدينة ونكون في ذمتكم نحن وأهلنا وأموالنا » وبعد جدال طويل قبل خالد ذلك .

فأخذ توما يتأهب للخروج وكان حماد في جملة الوقوف يسمع ما دار من الحديث فلما علم بخروج توما على هذه الصورة ارتبك في أمره وعلم أنه لن يرجو منه نفعا ولكنه عزم على دخول الكنيسة ومقابلة هند فاستأذن عبد الله فقال : « هلم ندخل معا » .

وتركا الناس في تزاحمهم وعرجا نحو الكنيسة فاذا هي مقفلة ، فالتمسا مفتاحها فظن البواب أنهما يريدان بها أذى فذكرهما بالعهد فقالا :

« اننا لا نريد أمرا غير الزيارة ونحن مسيحيون مثلكـم » . ففتح لهما الباب ، فسأل حماد عن قيم الكنيسة فتقدم اليـه قسيس شيخ كان مختبئا في الهيكل وهو يخاف الفتك ، فلمـا رأى الرجلـين يرسمان علامـة الصليب اطمأن باله فسألهما عن مرادهما فتقدم اليه حماد وقبل يده وقال : « هل يقيم بهذه الكنيسة أحد من الغرباء » . قـال القسيس : « لم تجر العادة أن يقيم النـاس بالكنائس » .

قال : « انمـا أسأل هل يقيم أحد ببعض الغرف التـابعة للكنيسة » ؟

قال : « لا يا سيدي ولكن أهل ملك غسان وكلهم من النساء كـن مقيمات عندنا ومعهم الخـدم ، وقد خرجـوا جميعـا منـذ بضعـة أسابيع » .

فاضطرب قلب حمـاد وقال وقد ظهرت البغتة على وجهه : « والى أين خرجوا ؟ » .

قال : « لا أدري ، ولكن رجالا جاءوا من قبل الأمير جبلة أقـاموا هنا ساعات قليلة ثم خرجوا جميعا » . فوقف حماد هنيهة صامتـا وقد نسي موقفه وغلب عليه اليأس وجعل يفكر فيمـاذا عسى أن يكون سبب رجوعهم . فأعاد السؤال وأوضحه فلم يفهم شيئا آخر .

فقال : « وهل تذكر أنهـم خرجوا من هذا المكان قبل حصار المدينة أو بعـده » .

قال : « أظنهم خرجوا قبل الحصار » .

فبغت حماد وقد سقط في يده ، ونظر الى عبد الله كـأنه يستطلع رأيه فقال عبد الله : « أظن الملك جبلة أنفذ في طلبهم لمـا سمع بقرب الحصار فساروا اليـه » .

فتعاظم اليأس على حماد ، وفكر في الأمر يسيرا ، فلاح لـه أن هندا لا تخرج على هذه الصورة ما لم تترك له خبرا أو اشارة ، ولا سيما بعد

أن كتبت اليه تستعجل قدومه اليها فقال للقسيس : « الا ترشدنا الى المنزل الذي كان يقيم به أهل جبلة ؟ » .

قال القسيس : « سمعا وطاعة » . وخرج بهما من بعض أبواب الكنيسة الى زقاق ضيق مرصوف بحجارة عظيمة ، شأن أزقة دمشق على اختلاف عرضها . واستطرقوا من الزقاق الى منزل لا يظهر من بابه وسوره أنه يليق بسكنى الملوك ، على أنهم ما لبثوا أن دخلوا داره حتى تبينت لهم منزلتها من الاتقان والزخرفة ، ولكنهم لم يسمعوا غير خرير الماء في بركة تدلت فوقها أغصان الصفصاف وفاحت رائحة الأزهار لما أحيطت به جوانب المكان من أغراس الرياحين . فوقف حماد وهو يتوقع أن يرى أحدا أو يسمع صوتا فلم يؤانس غير السكوت ، فمشى الى باب رآه في صدر الدار وفتحه وصعد سلما هناك ومعه عبد الله فانتهيا الى رواق مشيا فيه ، وأطل حماد من نافذة مفتوحة تشرف على غرفة مقفلة الابواب فتطاول بعنقه لعله يستطلع ما فيها فرأى شبح امرأة منزوية في بعض جوانبها ، فناداها فصاحت وصوتها يرتجف قائلة : « ليس في هذا المكان أحد من الرجال فاذا كنتم تريدون النهب فأشفقوا على النساء » .

فاختلج قلب حماد لما سمع صوتها وخيل اليه أنه سمعه من قبل فقال لها : « لا تخافي يا خالة فما نحن من الأعداء ولا نريد بك شرا ، وانما نحن نسأل عن أهل ملك غسان » .

فلما سمعت المرأة صوت حماد دنت من النافذة وتفرست فيه ، فعرف أنها خادمة هند التي حملت اليه الكتاب في دير بحيراء ، وأما هي فحالما عرفته قالت : « لعلك سيدي حماد ، لقد كدت ألقى حتفي في انتظارك » .

فقال : « افتحي الباب ولا تخافي وأخبريني خبرك » .

ففتحت الباب وهمت بيده فقبلتهــا وقالت والبغتة لا تزال ظــاهرة على وجهها وقد امتقع لونها : « لقد خرج أهل الملك من دمشق منذ أسابيع وتــركوني هنا في انتظار قدومك لأطلعك على خبرهم ، فطــال غيابــك حتى يئست من لقائك ، ثم حوصرت المدينة ووقع ما وقع فيهــا من القتل والنهب . ولما سمعت وقع أقدامكم الآن حسبتكم من العرب الفاتحــين فخفت واختبأت في هذه الغرفة فنشكر الله على ما حصل » .

فقال حمــاد : « أخبريني يا خــالة أين سيدتك هند ؟ » .

قالت : « خرجت من دمشق مــع والدتها وسائر الخــدم بأمــر أبيهــا قبل الحصار » .

قال : « وأين هي الآن ؟ » .

قالت : « أظنهــا في بيت المقدس ، لأن سيدي الملك بعد أن أنفــذ اليها أن تتأهب للاقتران بالأمير ثعلبة ، عاد فكتب الى سيدتــي سعدى أن تأتي سريعا الى بيت المقدس لأنهــا أبعد عن الخطر من دمشق . والظــاهر أنه سمع بعزم العرب على حصارهــا . فشق ذلك على سيدتي وخافت أن تأتــي أنت ولا تعلم بمصيرها فاستبقتني هنا لأقص عليك الخبر » .

فنظر حماد الى عبد الله وقال : « ما الرأي أيها الامــير ؟ » .

فقال : « لا حيلة لنــا في الواقع يا مولاي ، فان مقامنــا بدمشق لا يجدينا نفعا ، وأرى أن نغتنم أول فرصة للخروج الى بيت المقدس » .

فالتفت حمــاد الى المرأة وقال لهــا : « وأنت ماذا تفعلين » .

قالت : « اذا بقيت حية سأذهب الى بيت المقدس » .

قال : « ان الحــرب قد انقضت وتم الصلح فلا بأس عليك ، ولكنني لا أظنك تستطيعين الذهاب وحدك » .

قالت : « انمــا أستطيع ذلك لأني امرأة ، فهؤلاء العــرب شديدوا المحافظة على الأعراض ، فاذا لقيني أحد منهم كان لي عــونا في ايصــالي

الـى حيث أريـد » •

فقال : « أوصيك اذا أتيت بيت المقدس وكانت هند لا تزال هنـاك أن تقرئيها مني السلام وتخبريها اني قادم اليها على عجـل ان شاء الله » •

قال ذلك وتحول مسرعـا وعبد الله معه ثم قال : « علينا بالاسراع الـى بيت المقدس » •

فقال عبد الله : « علينا قبل الذهاب أن نحمل أمتعتنا فانها في معسكر أبـي عبيـدة » •

قال : « لا بد لنا من الانتظـار ريثمـا تسكن الاحـوال فنودع أبـا عبيدة ونشكره على حسن وفادته وننصرف ، ولعله يرسل معنـا من يدفع عنـا خطـر الطريق » •

فخرجا من المنزل فلقيـا القسيس فودعاه ، وخرجا الـى الشارع وقد هدأت الاحـوال فسارا توا الى قصر الحاكـم ، فرأيا المسلمـين قد دخلوه ووضعوا أيديهم على ما فيه وأهل تومـا يحملون الاحمـال ويخرجون مهرولـين وفيهم النساء والرجـال فأسفا لما انتهت اليه حال هـؤلاء وتذكر حمـاد ألفة تومـا يوم لقيه في ذلـك القصر فاعتبـر وتـأمـل •

وقضيا بقية ذلك اليوم والناس في هـرج بـين مهاجر ومستسلـم ، ولـم يستطيعا مقابلة أبـي عبيـدة •

وفي اليوم التالي دخـلا عليه فاذا هو قـد ازداد رفعة بعز النصر ، وكان جالسا يملي على كاتبه رسالة الى الامـام عمـر بخبر الفتح ، فتنحيا حتى انتهى من املائها • ثم قابلاه فرحب بهمـا وبش لهمـا وخـاطب حمادا قائلا : « انك خدمت هذه المدينة خدمة تستوجب الثناء لأنك كنت الواسطة في حجب الدماء » •

فخجل حماد لذلك الاطراء وقال : « اني لم أفعل شيئـا استوجب

عليه ثناء ؛ وهذا الصلح انما كـان لرغبة الامير في السلام » • ثم هـم حماد بأن يذكر له عزمه على الخروج الى بيت المقدس ولكنه لـم يـر سبيلا الى ذاك فصست ، وأدرك عبد الله ذلـك فخاطب أبـا عبيدة قائلا : « لقد أتينا يـا مولاي نهنئك بالفتح الذي تم على يـدك و نستأذنـك في الانصراف » •

فقال أبو عبيدة : « والى أين تنصرفون ؟ » •

قال : « ان لنا في بيت المقدس أهلا نريد النزوح اليهم » •

ففكر أبو عبيدة قليلا ثم قال : « لم يأت زمن الانصراف بعد ، فالبثوا في ضيافتنا أياما نحسن ونادتكم بعدما عانيتم معنا في زمن الحرب ثم نبعث معكم برجال منا حتى تبلغوا مأمنكم » •

فلم يتجرأ عبد الله على مراجعة أبي عبيدة ، ولبث صامتـا عـلى نية العود الى الاستئذان في فرصة أخرى ، ولكنه استأذنه في الخروج الى المعسكر ليستولي على الأمتعة •

فقال أبو عبيدة : « ان أمتعتكم وخيولكم في مأمن مع أمتعتنا في المعسكر ، ونحن خارجون اليها لأننا لا نحب الاقامة بالقصور خوفـا من الانغماس في الترف » •

★ ★ ★

وفي صباح اليوم التالي ، خرج الجميع الى المعسكـر ، فاقتسموا الغنائم ونزل كل في خيمته • وكـان عبد الله يتوقع عـود الدليل مـن مهمته التي سار فيها الى بصرى فلما أبطأت عودته علم أنه رغب في الذهاب فرارا من غائلة الحصار فلبث هو وحماد في قلق على سلمان وهند ، وحاولا مخاطبة أبي عبيدة مرة ثانية في المسير الى بيت المقدس فلم يملكـا فرصة

لانشغاله في تسيير الجند لفتح سواحل الشام وغيرهـا من البلاد .

ومضت أيام وهما على ذلك حتى أصبحا ذات يوم وهمـا عـلى مثل الجمر في انتظار الخروج الى بيت المقدس يتوقعان حيلة يخرجـان بها ، فرأيا بعض الجند في هرج ومسارة فخرجا فـاذا همـا بهجـان قد دخل المعسكر وعليه غبار الأسفار ، فعرفا أنه رسول من الامـام عمر الى أبـي عبيدة ، ثم رأيـاه ترجل ودخل فسطـاطه فمكثـا ينتظـران ما جاء بـه .

وبعد هنيهة خرج الرسول ، وجاء بعض القائمين في خدمـة أبـي عبيدة والتمسوا من عبد الله وحماد الذهاب الى فسطـاط الأمير حـالا . فأوجسا خيفة لئـلا يكون في تلـك الدعوة ما يدعـو الى تـأجيـل سفرهمـا .

فلما دخلا رأيا أبا عبيدة في صدر الفسطاط والى جانبه خالـد بن الوليد وعمرو بـن العاص وغيرهمـا من الامـراء فحياهم فأمر لهمـا بالجلوس . ثم قال لهما : « لقد أنبأني أخي خالد بأنكمـا من أهل العراق ، ولم أكن أجهل ذلك ولكنني علمت منه أنكما من الامـراء هناك ، فلكمـا معرفة بدخائـل تلك البلاد . وقد شاهدنا من اخلاصكما في خدمتنا مـا دعانا الى تكليفكمـا أمرا تستوجبان عليه الاجـر والثواب » .

فازداد عبد الله خوفـا من تلك الدعوة ولكنه تظـاهر بالارتياح وقال : « اننا في خدمة الأمير وطوع ارادته » .

فقال : « لقد جاءنا رسول أمير المؤمنين الآن بدعوة الى نصرة اخواننا في العراق وأن ننفذ جندنـا ممن خبروا تلـك الأرض . فـأريد أن تسيرا مـع تلـك النجدة وفي ذهابكما خـير لكمـا وخدمـة لجنـد الجهـاد » .

فقال عبد الله : « ان أمر مولاي الأمير مطـاع ، ولكنني خرجـت

من العراق منذ أعوام ولا أدري ما طرأ عليها من التغيير والتبديل فأخشى ألا يكون في ذهابي فائدة لكم . وزد على ذلك أننا منشغلو البال البال على بعض أهلنا في بيت المقدس » .

وكان خالد مصغيا لما يبدو من عبد الله وكان يتوقع ذلك الجواب منه فقال له : « لقد سمعت من خادمك سلمان يوم صلح الحيرة أنك صاحب عقار وكلمة نافذة ، وقد حمينا لك مالك وأهلك في ذلك الصلح ، فكيف تعتذر عن الذهاب ؟ » . قال خالد ذلك وعلامات الغضب تكاد تظهر على وجهه ، فخاف عبد الله عاقبة اعتذاره فابتدره قائلا : « اني لا أعتذر عن الذهاب ، فان ذلك فرض علي ، ولكني أود أن أتفقد الذين في بيت المقدس أيضا » .

فقال أبو عبيدة : « فليذهب ابنك حماد الى بيت المقدس ونحن نرسل معه من يوصله اليها ، وسر أنت الى العراق . وكن واثقا أننا نحافظ على أهلك وولدك محافظتنا على أهلنا لأنك في ذمتنا . واعلم أن سفرك الى العراق لا يطول لأن الفتح قريب ان شاء الله » .

فأذعن عبد الله لعلمه أن ترديده ربما هاج غضب خالد لما يعلم من شدته . أما حماد فشق عليه فراق عبد الله ولكنه تأسى بقرب مشاهدة هند ثم قال عبد الله : « وهل يأمر مولاي بتسيير ولدي هذا قبل خروجي ؟ » .

قال : « نعم سنسيره في الغد ، وأما أنت فلا بد من بقائك بضعة أيام ريثما يتأهب الجند للذهاب » .

ثم خرج عبد الله وحماد الى الخيمة لا يلويان على شيء ، وباتا تلك الليلة لا حديث لهما الا حديث ذلك الفراق . وفكرا طويلا في الفرار ولكنهما خافا العاقبة لو قبض عليهما . ولو كان حديثهما مع أبي عبيدة لهان التخلص لما يعلمانه من سهولة أخلاقه ، أما خالد

فانه سريع الانتقــام •

وفي الغد ركب حماد وودع عبد الله وتواعدا على اللقــاء في بيت المقدس ، واذا اضطر حماد للخروج قبل مجيء عبد الله فليتــرك له خبرا في كنيسة القيامة هناك • ثم سار حماد الى أبي عبيدة فودعه فقــال أبو عبيدة وهو يبتسم : « سر في حراسة المولى ، ونرجــو أن نلقــاك قريبا في بيت المقدس وقد نحتاج الى خدمتك هنــاك مثل حاجتنا اليهــا في دمشق » • فأدرك حماد أنه يشير الى قرب ذهــابهم لحصارهــا فتجاهل ولم يجب ، فأمر أبو عبيدة بعض الرجــال أن يسيروا معه لحمايته أثناء الطريق ، ومضى حماد وعينا عبد الله تراعيانه حتى توارى • فلما ابتعد عن دمشق تذكر هندا وحالهــا وخيل لــه أنها تزوجت بثعلبة فارتعدت فرائصه ولكنه قال في نفسه : « أنها لو كــانت تزوجته لمــا أنفذت في طلبي الى دمشق » • ثم فكر في طول غيابه فخيل له أنهــا يئست من قدومــه فاضطرت الى مجاراة أبيها ورضيت بثعلبة فقضى معظم الطريق في هذه الهــواجس •

★ ★ ★

وصل حماد بيت المقدس فنزل بدير بالقرب من كنيسة القيــامــة حتى اذا استراح قليلا خرج للبحث عن هند في دير القيامــة نفسه فأخذ يفتش ويستطلع لعله يتنسم خبرا فلم ير أحــدا يعرف جبلة وأهله ، ولــم يكن للقوم من حديث الا عن الحرب وعواقبها ، وكلهــم خائفون ممــا سمعوه عن سقوط دمشق • فقال في نفسه : لأذهبن الى قيم الدير لعــل لديه نبأ » • وكــان ذلك القيم يونانيا فمضى اليه حماد وسأله فقــال الرجل : « ان أهل الملك جبلة نزلوا هنا أياما ولكنهم سافروا منذ أسبوع » •

فأجفل حماد وقال : « هل سافروا جميعا نساء ورجالا ؟ » .

قال : « لقد كانت النساء فقط عندنا ولكـن رجالهم أتوا منـذ أسبوع وأقاموا هنا ساعات ثم أقلعـوا الى حيث لا يعلم أحد » .

فقال حماد : « ألـم يتركوا شيئا من أمتعتهم هنـا ؟ » . قـال : « تركوا ما لا قيمة له من ثقيل الأحمـال هبة للدير ، ولـم يأخذوا الا مـا خف حمله وغلا ثمنه » .

فبهت حماد لذلك الخبر وسأل نفسه : « هل ثعلبة معهـم ؟ » . ثـم لم ير بدا من اعادة السؤال فالتفت الى القيـم وقال لـه : « أرجـو أن تعيرني سمعك ولا يثقل عليك سؤالي لأن هؤلاء القوم يهمني أمـرهم ، وقد كنت في دمشق أقاسي عذاب الحصار فلما تـم صلحها أتيت لأفتش عنهم ، فهـل عرفت أشخاصهم جيدا ؟ » .

فاهتم القيم لحديث حمـاد عن حصـار دمشق ، وكـان شديـد الرغبة في سماعه فقـال له : « وهل عاينت الحصار بنفسك ورأيـت جند العـرب رأي العـين ؟ » .

قال : « نعم رأيتهم واختلطت بهم وسمعت أحاديثهم » .

قال : « ألا قصصت علي حديث الحصـار ؟ » .

فقص عليه حماد الخبر مختصرا استجلابـا لرضـاه . ومـا انتهى من الحديث حتى امتقع لون القيم وقـال : « ومـا ظنك بهـم ؟ هـل يأتـون الينـا ؟ » .

فقال حماد : « اذا جد الامبراطـور في الاستعداد والتحصن فـلا خـوف من هؤلاء العرب ، على أنهم أشـداء صبورون على القتـال . فأخبرني الان عمـا تعرفه من أمر أهـل الملك جبلة ؟ » .

قال : « أمـا وقد أفصحت لي عن رأيك بعد أن خبرت الامـور ، فأخبرك يا ولدي بأن سقوط دمشق أوقع الرعب في قلـوب رجالنا فأصبح

كل منهم خائفا لا يأمن على نفسه ولا على أهله ، وكذلك جبلة فانه أسكن أهله في هذا الدير وفي عزمه أن يعقد لابنته الوحيدة القران على ابن عمها . فهل بينك وبينهم قرابة ؟ » .

قال : « ليست بيننا قرابة ولكن لي مع الملك جبلة حديثا » . قال ذلك وهو ينتظر بقية الخبر ليرى ما تم في أمر الاقتران .

فقال الراهب : « ولكنني لاحظت من الفتاة نفورا شديدا من ابن عمها هذا ، وكان أبوها قد كلفني اقناعها » .

فثارت الغيرة في قلب حماد وأصبح كله آذانا ليسمع نهاية الحديث وقال : « وهل اقتنعت ؟ » .

قال : « كلا يا ولدي ، لأنها شديدة النفور من ابن عمها ذاك ، وكانت تعتذر والدموع ملء عينيها ، ووالدتها لا تلومها » .

ولم يتم الراهب كلامه حتى تناثر الدمع من عيني حماد فتشاغل باصلاح كوفيته اخفاء لعواطفه وقال : « لقد أهمني أمر هذه الفتاة ، ومن الظلم أن يجبروها على الاقتران برجل لا تريده » .

قال الراهب : « صدقت يا ولدي ، ولذلك فان العناية الصمدانية حلت هذا المشكل على أهون سبيل » .

فقال حماد : « وكيف كان ذلك ؟ » .

قال الراهب : « ان ابن عمها المشار اليه قتل في بعض المواقع الأخيرة » .

فبغت حماد وقال : « هل تيقنت ذلك يا سيدي ؟ لعل الذي قتل غيره ؟ » .

قال : « بل تحققت أنه هو لأني سمعتهم يتحدثون بحكايته وكأنهم يهنئون هندا بذلك » .

فقال حماد : « ألا تذكر اسمه ؟ » . قال : « اسمه ثعلبة » .

فاستبشر حماد بتخلصه من ذلك المزاحم ، ولكنه ما زال في قلق لجهله مقر هند وأبيها فقال : « وماذا فعلوا بعد ذلك ؟ » •

قال الراهب : « بقي أهل جبلة عندنا بعد ذلك أياما حتى ذاع نبأ سقوط دمشق ووقع الرعب في قلوب الناس ، فجاء جبلة ومعه بعض رجاله وحملوا ما خف حمله وغلا ثمنه وخرجوا هاربين لا أدري أين ذهبوا » •

فوقف حماد صامتا وقد تحير في أمره لا يدري ماذا يعمل ، وشعر بافتقاره الى عبد الله وسلمان وهو بعيد عنهما ، فأظلمت الدنيا في عينيه وضاق صدره فنهض للحال وودع الراهب وانصرف الى حجرته وهو غارق في لجج الهواجس ، يفكر تارة في هند وطورا في سلمان وآونة في عبد الله • حتى عظم عليه الامر وخيل له أن المسالك سدت دونه ، فضلا عما يعترض سبيله من أحوال الحرب ومهاجرة أهل الشام على أثر سقوط دمشق زرافات ووحدانا الى مصر أو بلاد الروم أو غيرهما

ولما وصل الى الدير ، وأخذ طريقه الى غرفته فيه رأى عند بابها رجلا كان جالسا ثم هم مسرعا لملاقاته ، فما وقع نظره عليه حتى علم أنه سلمان فناداه باسمه ، فترامى سلمان على يده يقبلها ويشكر الله على لقائه ، فقال حماد : « أهلا بك أيها الصديق ، لقد أطلت الغياب علينا فأذقتنا من الوحشة ما لم يبق لنا صبر عليه » •

فخجل سلمان لذلك الاطراء وقال : « لقد غمرتني أيها الملك بفضلك فدعوتني صديقا لك وما أنا الا من بعض خدمك » •

فلما سمع حماد لفظ الملك ، تمثلت له حالته وتذكر حكاية النذر وما تلاها من شواغل الغرام والانتقام ثم اليأس حتى كأن الايام قد كتبت عليه الشقاء وضياع كل آماله بفرار جبلة وأهله الى حيث لا يدري

أحد . ولكن ظلمات تلك المخاوف كان يتخللها بعض النـور ممـا يتوقعه من مساعدة سلمان ومشورته ، فزاد استئناسا به ، ولمـا رآه ينكر عليه ذلك الاطراء مال اليه وصافحه وقال له : « أنك صديق وأعز من الصديق وما نحن في معرض الأنساب وانما يفضل أحدنـا الآخر بما طبع عليه من مكارم الاخلاق والشهامة وصدق المودة ولقد رأيت فيك من ذلـك ما يعـز مثالـه » .

فأطرق سلمان خجلا ، ومشيا حتى دخلا الحجرة وكل منهمـا يتوقع سماع حديث الآخر ، فلمـا استتب بهما المقـام قال حماد : « أين كان مقامك كل هذه المدة . وكيف جئت الى هنا ؟ » .

قال سلمان : « ان لقاءنا يا سيدي لم يكن على سبيل المصادفة ، ولكنني قطعت القفار وأطلت البحث حتى علمت بمقرك وجئت على مـا ترى ، وقبل سرد حديثي الطويل أبشرك بموت ثعلبة » .

فتنهد حماد وقال : « لقد عرفت ذلك يا سلمان ، ولكنـه نبـأ جـاء متأخرا بعد أن كادت تنقطع الآمال » .

فقال سلمان : « وكيف ذلك ؟ » .

قال : « لأني سمعت بمقتل ثعلبة وفرار جبلة في وقت واحد في هذا اليـوم » .

قال سلمان : « وأي فرار ؟ » .

قال : « لقد تحققت فرار جبلة من بيت المقدس بأهله الى حيـث لا يعلم أحد » . وقص عليه ما سمعه من قيم الدير ، حتى أتـى عـلى آخر الحديث ، فامتقع لون سلمـان وظهرت عليه مظاهر الاسف والفشل ، ولبث صامتا كأنه أصيب بصدمة وكـاد الدمع يتناثر من عينيه ثم تنهد وقال : « ألم تعلم أين سافر جبلة يا مولاي ؟ » .

قال : « كلا ولولا ذلك لهان الامر » .

قال سلمان : « لا تيأس يا مولاي ، اني غير تارك وسيلة دون أن أستخدمها في سبيل البحث عنه ، ويكفينا الآن أنا تخلصنا من ثعلبة » .

فقال حماد : « وكيف علمت بمقتله ، ومن هداك الى مكاني ؟ » .

قال : « ستعلم ذلك من سياق حديثي عن سبب تغيبي عنك » .

قال : « اقصص علينا خبرك » .

قال : « تركتكم في بصرى وجئت اليرموك فشهدت حربها ، وكان الأمير جبلة في جملة المحاربين ، فلما عقد لواء النصر للمسلمين وكنت قد علمت أن هندا في دمشق هممت بالمسير اليكم ، ثم حدثتني نفسي أن أستطلع مقاصد جبلة ، وكان قد فر الى حمص برجاله وفيهم ثعلبة ، فما التقيت بهم حتى أمروا بالمسير لملاقاة المسلمين في أجنادين ، فسرت اليها وشهدت موقعة هائلة وقعت بين الروم والعرب هناك تشيب لهولها الولدان . وفي تلك الواقعة قتل ثعلبة وفشل جند الروم وفر الغساسنة . وكنت قد سمعت بحصار دمشق فرأيت أن أسير اليكم بالخبر ومضيت الى بصرى فلم أجد أحدا منكم ، فظننت الراهب الشيخ ينبئني بخبركم فسرت اليه فاذا هو قد مات فأسفت لوفاته ومكثت حينا في بصرى أبحث عنكم وأسأل كل من عرفته دون جدوى . وخطر ببالي ذهابكم الى دمشق ولكنني استبعدت ذلك لما علمت من حصارها ، ثم ما لبثت أن سمعت بسقوطها فهممت بالمسير اليها لعلي أرى أحدا استطلع منه خبركم ، وفيما أنا أهم بذلك رأيت جندا من المسلمين قادما من بصرى ، بقيادة مالك بن الحارث بن هشام ، وقد وجهه أبو عبيدة أميرا على حوران بعد سقوط دمشق . وكان الحارث قد جاء مع أبي عبيدة أميرا على بني مخزوم لحصار دمشق فقتل في بعض الوقائع ، فلما سقطت دمشق عين ابنه مالك أميرا على حوران ليجند الجند الذي

يقدم من الحجاز مددا لأبي عبيدة في حروبه بالشام .

« فلما وصل هذا الجند الى بصرى تمكنت من الاجتماع بالامير مالك ، وعلمت منه ما كان من نزولكم على أبي عبيدة في الجابية والمهمة التي أنفذك بها الى حاكم دمشق ، الى أن أنبأني بخروجك الى بيت المقدس وخروج الأمير عبد الله الى العراق ، فهرولت حتى أتيت هذه المدينة وما زلت أبحث عن مقرك حتى علمت اليوم أنك مقيم بهذا الدير وأنك خرجت منذ الصباح فأقمت هنا في انتظارك حتى أتيت فأحمد الله على سلامتك وأرجو أن نلتقي بسيدي عبد الله قريبا » .

فقال حماد : « لقد نفذ الصبر يا سلمان واحتملت من غدر الزمان ما تعلم . وأراني قد مللت هذه الحياة المحفوفة بالمكاره المزوجة بالمشاق ، ويخيل لي أن الله لم يكتب لي الحصول على هند » . قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه . فثارت الحمية في رأس سلمان حتى كاد يتقد غيرة ونظر الى حماد وقال : « دع اليأس يا مولاي واتكل على الله ، واذا كانت لك على أبي عبيدة دالة فلنذهب اليه نستطلع منه خبرا » .

فقال حماد : « ان لي عليه دالة عظمى ، ولقد أصبح بعد ما تم على يدي من صلح الشام كثير الوثوق بي حتى أشار يوم قدومي الى بيت المقدس الي أنه ربما يحتاج الي فيها . فلا أظنني اذا استعنته في البحث عن جبلة الا فاعلا ما أريد » .

قال سلمان : « وأين هو الآن ؟ » .

قال : « تركته في دمشق يبعث البعوث لفتح ما بقي من بلاد الشام » .

قال : « اذا أذنت أن تذهب اليه غدا فعلنا » . قال : « حسنا » .

فقال سلمان والاهتمام ظاهر على وجهه : « أتقدم اليك يا مولاي

في أمر أرجو أن تطيعني فيه » . قال : « وما هو ؟ » .

قال : « أرجو اذا نحن ظفرنا بجبلة هذه المرة ورأينا منه ترددا أو سمعنا منه وعودا الا نضيع الوقت في الانتظار والماطلة عبثا » .

قال حماد : « وما معنى ذلك ؟ » .

قال : « معنى ذلك يا سيدي أن تأخذ هندا من بين يديه سواء أكان ذلك برضاه أم لا » .

فقال حماد : « سنرى » .

وقضيا بقية اليوم في الاحاديث المتنوعة ، وباتا على أن يركبا الى دمشق في الصباح .

★ ★ ★

ولما أصبحا أخذا يستعدان للسفر ، وكان اليوم من أيام الآحاد فقال حماد : « هلم بنا ندخل كنيسة القيامة نتبرك بسماع الصلاة قبل ذهابنا » . وخرجا حتى أتيا الكنيسة فرأيا جماهير الناس في صحنها ينتظرون قدوم البطريرك لاقامة الصلاة فوقفا بينهم . فلم يسمعا من أحاديثهم الا ما يتوقعونه من قدوم العرب لفتح بيت المقدس . ثم ماج الناس وتزاحموا يسابق بعضهم بعضا فعلما ان البطريرك قادم ، وبعد هنيهة جاء في موكبه يتوكأ على عكازه ، ويحف به الأساقفة والقسيسون ، وفتح الناس طريقا في وسطهم مر بها البطريرك وهم يتبركون بلمس ردائه ، حتى دخل الكنيسة فتبعوه حتى وقف عند الهيكل فبدل ثيابه بما يلبسه البطاركة أثناء الصلاة ، وعلى رأسه تاج مرصع بالحجارة الكريمة ، وعلى كتفه قباء مزركش بالذهب والفضة ، وفي عنقه صليب يتدلى على صدره بسلسلة من الذهب ، وقد أوقدت الشموع وأحرق البخور وعلت أصوات

المرنمين والمصلين • ثم وقف البطريرك على عرشه وهو كرسي من العاج مزين بالفسيفساء الجميلة ، والتفت الى الجماهير فعلموا أنه يهم بالكلام فاصغوا اليه فقال بعد البركة :

« أعلموا معاشر أهل النصرانية أن رجال الحرب الحجازيين الذين سمعتم بقدومهم الى هذه البلاد واستيلائهم على بصرى ودمشق ، قد استفحل أمرهم حتى فتحوا حلب وحمص وبعلبك وقيسارية وقنسرين وانطاكية وغيرها • وقد علمت هذا الصباح انهم قادمون الى هذه المدينة المقدسة بجند كبير • ولعلكم سمعتم بخروج مولانا الامبراطور هرقل من بلاد الشام الى القسطنطينية لأحوال اقتضت ذلك ، وقد فوض الينا التصرف في أمر هذه الحرب بالتي هي أحسن ، ففاوضنا حاكم هذه المدينة ورأينا من الحكمة الا ندع لاولئك العرب سبيلا لتخريب شيء من أبنيتها المقدسة فان فيها كنوز النصرانية ، بل ندافعهم بقدر الامكان فاذا رأينا خطرا في مقاومتهم عقدنا معهم صلحا نحفظ به الارواح والاموال ونستبقي كرامتنا ، لا كما فعل أهل دمشق • فما علينا الا أن نصلي الى الله أن يؤيدنا بالنصر في الدفاع ، وهذه حصوننا متينة وعندنا العدة والرجال فانبذوا الشقاق وأطيعوا أولي الامر منكم واعلموا أن الله لم يمكن هؤلاء العرب من بلادنا الا لانغماسنا في شهوات دنيانا والانشغال عن طاعة الله بالشقاق والانقسام ، فلتجتمع قلوبكم ولندافع جهد طاقتنا والله يفعل ما يشاء » •

فلما انتهى البطريرك من خطابه ضج الناس وهم بين مصوب ومخطىء • أما حماد فلما انتهت الصلاة خرج وهو يقول لسلمان : « لم تعد بنا حاجة الى سفرنا الى دمشق ، فاننا لا نلبث أن نرى أبا عبيدة هنا ، ويلوح لي انني سأخدمه في هذه المدينة خدمة أعظم شأنا من خدمتي في دمشق لأن أهلها على ما يظهر أقرب الى الصلح من

الدمشقيين » . ثـم سارا الى مرتفع من المدينة يطل على ضواحيها . وقضيا بقية اليوم يتشوفان لعلهما يريان جنود العرب قادمـين .

وفي صباح اليوم التالي رأيا الغبار يتصاعـد في الافق وظهرت من تحته أعلام المسلمين وفي مقدمتها راية العقـاب ، فعلم حمـاد انهم رجال خالد بن الوليد . وفي اليوم التالي جاءت فرقة أخرى نزلت في جانـب آخـر من المدينة ، وهكذا كانت تأتي في كل يوم فرقة بأعلامها وخيـامها وتنزل في ناحية من المدينة حتى صارت عدة الفرق سبعا ، كـل واحـدة منها خمسة آلاف . وجملة الجند ٣٥ الفا عليهم سبعة قـواد عرف حماد بعد ذلك أنهم : خالد بن الوليد ، وشرحبيل ، والمرقال ، ويزيد ، والمسيب ، وقيس المزادي ، وعـروة بن مهلهل . فلما تحقق حماد وسلمـان انحصار المدينة على هذه الصورة جعلا يبحثان عن أبي عبيدة لعله جاء معهم فلـم يريـا رايته هناك ولكن حمادا كان يظن ألا بـد مـن حـضوره فتـح المـدينـة .

وقضيا أياما يترددان بـين بيت المقدس والديـر يستطلعـان مقاصد الروم ، فرأيـا الخـوف مستوليا على الخـاصة أما العامة فكانـوا لا يزالون مصرين على الدفاع يرمون المسلمـين بالنشاب عـن الاسوار ، والمسلمون يردون عليهم بمثلها . ومضت أيام والحـرب سجـال بـين الفريقـين حتى مل حماد الانتظار وصمم على الخـروج الى الشام لملاقاة أبي عبيدة وسؤاله عن جبلة فقال له سلمان : « ان الطريق لا يخلو مـن الخطر يا مولاي ، وأخشى اذا خرجنا من المدينة ان يستغشنا أهلها فيصيبنا سوء ، فليكن خروجنا بحيلة » .

وبقيا بضعة أيـام وهما في كل يوم يقفان في مشارف المدينة يطلان على ما وراء الاسوار من السهول والمسالك ، فرأيا يومـا جيشا جديدا قادمـا من جهة دمشق عـرفا أنه أبي عبيدة ، فاستبشر حمـاد وقـال :

« قد آن الوقت يا سلمان لخروجنا ، فما الرأي ؟ » .

قال : « الرأي أن نحرض حاكم المدينة على مفاوضة العرب في شأن الصلح فلعله يأذن في خروجنا لذلك » .

فقال حماد : « ومن يوصلنا اليه ونحن لا نعرفه ولا هو يعرفنا ولا يثق بنا ؟ » .

قال سلمان : « دع ذلك الي فاني أدبره باذن الله » .

★ ★ ★

خرج سلمان من الدير وقد ارتدى أحسن لباس عنده وسار يلتمس الحاكم فعلم أنه عند البطريرك في الكنيسة ، فسار اليه ورأى الخدم والحاشية وقوفا أمام غرفة الاستقبال لا يأذنون لأحد في الدخول ، فتقدم الى كبيرهم وقال له : « اني آت في مهمة ذات بال الى حضرة الحاكم ، فاستأذنه في دخولي عليه » . فأذن له ، وأدخل الغرفة فوجد فيها البطريرك والحاكم وعلى وجهيهما دلائل البغتة وكأنهما كانا في جدال ، فسجد أمام البطريرك وقبل يديه ، ثم قبل يدي الحاكم ووقف متأدبا ، فأذن له في الجلوس فجلس وسأله الحاكم وهو مقطب الوجه : « ما هي المهمة التي جئت فيها ؟ » .

قال : « ان غرضي يا مولاي سلامة هذه المدينة من الاعداء ، وصيانة قبر السيد المسيح من الاهانة والاحتقار » .

قال : « ومن أنت ؟ » .

قال : « اني تابع لأمير من أمراء العراق كان ممن شهدوا فتح دمشق وتوسط في صلحها بين الروم والعرب ولولا توسطه لأهرقت الدماء وخربت تلك المدينة ، وله بأمراء جند المسلمين معرفة » .

فقال الحاكم : « أتريد أن نلتمس الصلح من عند أنفسنا ونحن لم نبد دفاعا بعد ؟ » .

فقال سلمان : « لا يا سيدي انما أنا أعرض عليكم الامر عرضا ولا غرض لي فيه سوى حجب الدماء » .

فقال البطريرك : « بورك فيك يا بني ، ولكننا لا نرضى بما رضي به أهل دمشق فان في بيت المقدس قبر سيدنا ومخلصنا وما تسليمها بالامر السهل » .

فقال سلمان : « اذا أمر مولاي بسماع رأيي ، فما أظنه الا راضيا به » . قال : « قل » .

قال : « أرى اذا خابركم هؤلاء العرب في أمر الصلح ألا ترضوا بعقده على يد أحد منهم اجلالا لمقام هذه المدينة المقدسة وحفظا لمنزلتكم ، بل تطلبون أن يتم ذلك على يد أمير المسلمين الاكبر وهو سلطانهم وخليفتهم ومقامه في يثرب بالحجاز ، فاطلبوا أن يكون الصلح على يده ، فاذا رضوا بذلك وأتى الخليفة بنفسه الى هنا كان في ذلك حفظ لكرامة هذه المدينة وامتيازها عن كل ما فتح من مدن الشام قبلها » .

ففكر البطريرك قليلا ثم قال : « أين هو مولاك ؟ » .

قال : « هو في منزله هنا ، فاذا أمرتم باستقدامه فعلت » .

فأمره باستقدامه ، فذهب سلمان وقد سر بنجاح مهمته حتى أتى حمادا — وكان في انتظاره — فلما قص عليه ما دار من الحديث نهض فلبس لباس الامراء وسار مع سلمان حتى دخل على البطريرك والحاكم ، فلما رأياه استأنسا بطلعته وما يتجلى في وجهه من المهابة والجلال . فأذنا له في الجلوس ثم قال له البطريرك : « هل تعرف قائد جند هؤلاء العرب ؟ » .

قال : « نعم أعرفه جيدا » .

قال : « هل أنبأك تابعك بما استقدمناك في شأنه ؟ » .

قال : « نعم وهو الامر الذي أراه أنا أيضا . وقد شهدت حرب هؤلاء في دمشق وبصرى وغيرهما ، ورأيت من ثباتهم وصبرهم ما لا أقول أن الروم يعجزون عن مثله ولكنهم قد يقلقون راحة الناس فتقف حركات الاعمال بلا فائدة ، ولا سيما بعد أن رسخت أقدامهم في كثير من البلدان ، وزد على ذلك أن الوسيلة التي اخترتموها لاتمام الصلح فيها ما يحفظ مقام هذه المدينة وكرامتها الى الابد ، اذ لا يخفى عليكم أن أمير المسلمين المقيم بيثرب رجل عظيم جدا قد أقر بعظمته القريب والبعيد ، وهو عندهم في أرفع منزلة بعد نبيهم لأنه خليفته والقائم بأمره ، ولم يسبق أنه قدم هذه البلاد لمثل هذا الشأن فقدومه بنفسه على ما ذكرت امتياز خاص ، ونظرا لما لي من الدالة على الامير أبي عبيدة كبير أمراء جند المسلمين ، فسأحبب اليه أن يجيب طلبكم وما أظنه الا فاعلا » .

فالتفت البطريرك الى الحاكم كأنه يستشيره فقال الحاكم : « لا بأس من ذلك ، غير أني لا أرضى أن يفهم هؤلاء أننا خائفون أو أننا نصطلح لعجزنا عن القتال » .

فابتدره حماد قائلا : « لا تخف يا مولاي فاني اذا خابرتهم سأجعل ذلك من عند نفسي على أسلوب ليس عليكم منه بأس ، غير اني ألتمس أن يصحبني من يخرجني من الاسوار لئلا يستغشني أحد من رجالكم » .

فقال الحاكم : « لك علينا ذلك ، ونحن نطلب أن يبقى تابعك هذا هنا ريثما تعود » .

قال : « لا بأس بذلك » . وخرج حماد فركب جواده ومعه بعض أهل القصر حتى أوصلوه الى باب المدينة فخرج الى معسكر أبي عبيدة ، فلما رآه أبو عبيدة استقبله باسما وقال له : « لعلك جئت في مهمة

أخرى ؟ » •

قال : « اني لا آلو جهدا يا مولاي في كل ما يؤول الى حجب الدماء » •

فقال أبو عبيدة : « هل جنح أهل بيت المقدس الى السلم ؟ » •

قال : « نعم يا سيدي ، أظنهم يريدون الصلح ، ولكني فهمت أنهم رفعة لمقام هذه المدينة المقدسة يريدون أن يكون صلحها على يد خليفتكم الامام عمر بن الخطاب • ألا ترى أنه يقدم اليها بنفسه وهي مدينة مقدسة يحترمها كل طوائف الناس ؟ » •

قال : « أظنه لا يرفض ذلك • وماذا بعد قبوله ؟ » •

قال : « اذا أكدت لي قبوله جعلت المخابرة في ذلك رأسا بينكم وبين حاكم المدينة أو بطريركها على مشهد من الناس ، واني انما جئت توطئة للأمر » •

فأثنى أبو عبيدة عليه وقال له : « لقد سعيت سعيا حسنا ، واذا تم الصلح وقدم أمير المؤمنين الى هنا سأقدمك اليه وأذكر له شهامتك » •

قال : « ان ذلك شرف كبير أكون سعيدا اذا حصلت عليه ، وأتقدم الى مولاي الامير بسؤال أرجو ألا يثقل عليه » •

قال : « ما هو ؟ » •

قال : « أتعرف جبلة بن الأيهم أمير الغساسنة الذي كان يحاربكم مع الروم ؟ » • قال : « نعم أعرفه » •

قال : « أن لي معه أمرا يهمني ، وكنت أحسبه في بيت المقدس فلم أجده ولا أحدا من أهله وقيل لي أنهم كانوا هناك وخرجوا خروج الفارين لا يعلم أحد بمقرهم ، فهل يعلم مولاي شيئا عن هؤلاء الغساسنة ؟ » •

قال أبو عبيدة : « الذي أعرفه أن هذا الامير خرج من بلاد الشام جملة هو وأهله ، وقد بعثت العيون عليه فاذا عرفت مقره أنبأتك به ، أو ربما سمعت بقتله بسيفنا الا اذا سلم صاغرا » .

قال : « وكيف تقتلونه وهو انما يحارب بسيف مولاه الامبراطور ، ولعله اذا خير لا يختار الا التسليم » .

قال : « اذا سلم فهو في ذمتنا له ما لنا وعليه ما علينا ، والا فان السيف بيننا وبينه ، وأخشى مع ذلك أن يكون قد قتل في بعض الاماكن ولم يعلم به أحد » .

فاضطرب قلب حماد وخاف أن يفتك الحجازيون بجبلة وأهله اذا التقوا بهم . فوقع في حيرة ونظر الى أبي عبيدة وهو يهم أن يخاطبه في الامر ويوقفه الحذر . فلحظ أبو عبيدة ذلك فيه فقال : « مالي أراك تحاذر أن تخاطبني ، هل ساءك أن يقتل جبلة ؟ » . قال : «نعم يا سيدي » .

قال : « وهل بينكما قرابة ؟ » . قال وقد تلجلج في الجواب : « نعم بيننا شبه قرابة » .

قال : « وأي قرابة بينكما وأنت من لخم وهو من غسان ؟ لعل بينكما مصاهرة ؟ » .

فقال وهو مطرق : « نعم يا مولاي » . ثم رفع نظره اليه وقال : « هل يأذن لي الامير في رجاء ؟ » .

قال : « قل ما بدا لك » . قال : « ان أمر جبلة يهمني كثيرا وحياته افتديتها بحياتي . وقد آنست فيك روح الانعطاف ، ولهذا أبثك أمرا يشغلني ، عسى أن أجد لديك بابا للفرج » .

قال : « قل ما هو ؟ » . قال : « أعترف لمولاي الأمير أيده الله بأني خطبت ابنة جبلة ، وقد قضيت أعواما في انتظار عقد القران

والحرب تحول بيني وبين ذلــك ، وكــان آخر عهــدي بجبلة وأهله في بيت المقدس فلمــا جئتها رأيتهم قد رحلوا الى مكــان لا يعلمه أحد ، فجئت أستفهم عن مكانهم » . قــال ذلك وقد ظهرت على وجهه علامات الاهتمام يمازجها الحيــاء .

فقال أبو عبيدة وهو ينظر الى وجهه ويراعي حركــاته : « كيف هان عــلى ملك غسان أن يزوجك ابنته وأنت غريب ولست من سلالــة الملــوك » .

فتغير حال حمــاد وعلا وجهه الاحمرار لمــا تذكر من حقيقة نسبه ولكنه تجــاهل وقال : « لقد عانينا في سبيل ذلك مشقة ولعلــه السبب في تأخير الاقتران الى اليوم » .

فقال أبو عبيدة : « طب نفسا يا حماد ، واعلم اني نصيرك في الحصول على مرامك ، ولا يحق لجبلة أن يفاخرك بأمر النسب وأنت شهم همــام قــد رفعتك همتك الى أعلى من مقــام الملوك ، وسأحمــل جبلة علــى اجابة طلبك متى علمنا بمكــانه » .

فأثنى حماد على أريحيته وهم بوداعه على أن يعود الى حــاكم بيت المقدس بنتيجة الرسالة . فقال أبو عبيدة : « تمهل ريثمــا أشاور الأمراء في الأمــر » .

وأمر فجاء خالد وسائر الامراء ، فخرج حماد وعقــد أبو عبيــدة مجلسا شاور فيه أصحابه فلمــا انفض المجلس دعا أبو عبيدة حمــادا الى خيمته ، فلمــا دخل عليه وجده عابسا فقال له : « مــا بال مولاي مقطب الوجــه ؟ » .

فقال : « ليس بي من بأس ، ولكنني لقيت من الأمراء رغبــة في اجراء الصلح على يدنا استعجالا للفتح . لأن استقدام الخليفة من المدينة يستغرق زمنا طويلا وقد يمتنع عن المجيء لمــا يحول بينه وبين ذلك مــن

المشاغل الكثيرة » .

فأدرك حماد أن خالد بن الوليد صاحب هذا الرأي ، فقال : « أظن الأمير خالدا أكثر الأمراء ميلا الى هذا ؟ » .

فلم يجب أبو عبيدة في باديء الرأي ، فصمت حماد ولبث ينتظر الجواب فقال أبو عبيدة : « عد الى حاكم ايلياء واذكر له أننا قبلنا الصلح على يد امامنا الخليفة أمير المؤمنين واذا جاءه أحد من الامراء بغير ذلك فهم مخيرون في القبول أو غيره » .

فنهض حماد فودعه وخرج يريد بيت المقدس ، فلقيه سلمان فأخبره الخبر فسر لنجاح مهمته وقال له : « هلم بنا الى الحاكم » . فلما أقبلا عليه استطلعهما الخبر فقص حماد ما دار بينه وبين أبي عبيدة ، فقال الحاكم : « لا نصالح أحدا غير كبير العرب » .

فقال البطريرك وكان حاضرا : « وكيف نميز بين الامام وأحد الامراء لو جاءنا باسمه » .

فقال سلمان : « اني عالم بصفة امامهم وقد شاهدته بنفسي غير مرة في المدينة ويوم شهدت فتح مكة وكان لا يزال أميرا كسائر الأمراء » .

وفي اليوم التالي صعد البطريرك والحاكم الى أسوار المدينة ومعهما حماد وسلمان متنكرين ، فلبثوا ينتظرون ما يكون من أمر العرب . فجاء رسول على جواد خاطبهم من أسفل السور يطلب اليهم التسليم فقال البطريرك : « اننا نقبل الصلح اذا كان على يد أعظم أمرائكم » .

فمضى الرسول وبعد هنيهة عاد ومعه فارس آخر علموا من لباسه وحاله أنه من الامراء فقال الرسول : « هذا هو كبير أمرائنا فصالحوه » .

فنظر حماد فاذا هو أبو عبيدة نفسه ، فعلم أن رأي أمرائه غلب على رأيه فجاء يطلب الصلح بنفسه ، فلما رآه البطريرك استطلع

رأي حماد عن الرجل فقال : « هذا هو أبو عبيدة كبير أمراء جند العرب في الشام » .

فقال : « أليس هو ملكهم الكبير ؟ » . قال : « لا » .

فنظر البطريرك الى أبي عبيدة وقال : « اننا لا نصالح أحدا غير خليفتكم المقيم بالمدينة فاستقدموه واحجبوا الدماء » .

فعاد أبو عبيدة ، وفي اليوم التالي جاءهم خالد بمثل ذلك فأبوا مصالحته وأصروا على أن يأتيهم عمر بنفسه . وكان الفصل شتاء وقد تكاثرت الأمطار والعواصف فامتنع على المسلمين الثبات هناك مثل ثباتهم في دمشق ، لأن أهل بيت المقدس مقيمون بالبيوت والعرب في الخيام . على أنهم صبروا على مناجزتهم أربعة أشهر بين حرب ونضال ومخابرة ، والروم مصرون على أن يكون الصلح على يد الامام عمر ، فلم ير أبو عبيدة بدا من استقدامه فكتب اليه بذلك .

أما حماد فكان يتردد الى معسكر أبي عبيدة يستطلع ما جد في أمر جبلة ويستحث أبا عبيدة على استقدام عمر .

وأما سلمان فانه لم يطق صبرا بعد طول الانتظار ، فخرج بنفسه يستخبر الناس ممن ظن أنهم يعلمون شيئا عن جبلة وأهله ، فلم يسمع الا أخبارا متضاربة ، فمن قائل : انهم فروا الى العراق أو مصر أو غيرهما ، ومن قائل : انهم لا يزالون مختبئين في بعض بلاد الشام . ولكن الاكثرين كانوا يرون أنهم فروا الى العراق ، فعاد الى حماد بتلك الأخبار المتضاربة فلم تغنه شيئا ، فاشتد به اليأس وضاقت دونه السبل ولم يكن يرى تعزية الا بلقاء أبي عبيدة .

وفيما هو عنده ذات يوم وسلمان ينتظر خارجا دخل عليه رجل منبسط الوجه كأنه جاء ببشارة فقال أبو عبيدة : « ما وراءك ؟ » .

قال : « ان بالباب رسولا من أمير المؤمنين جاء يخبرنا بقدومه » .

قال : « فليدخل » . فدخل وآثار السفر بادية علـى وجهه وعلـى ثيابه ، فقال له أبو عبيدة : « أين تركت أمير المؤمنين ؟ » .

قال : « تركته راكبا من دمشق » .

فقال أبو عبيدة : « ما باله أبطأ علينا ؟ » .

قال : « انما أبطأ لمـا اعترضه في طريقه من المسلمين يستفتونـه ويتقاضون اليه وهو لا يرى الا سماع أقوالهم والعدل بينهم » .

قال : « هكذا يكون الامراء بورك بطن حملك يا عمر » . ثم بعث الى خالد وسائر الامراء فجاءوه ، فأنبأهم بقـدوم عمر وقـال : « فلنذهب للقـائه » . والتفت الى حماد وهمس في أذنه قائلا : « هلم بنا نسمع من أهل المدينة خبرا عن صاحبك جبلة » .

فركب الامراء وركب حماد ومعه سلمان وقد شغله ركوبـه هـذا عن اهتمامه بجبلة وخبره وكـان الامراء بلباس الديباج والحرير وقـد امتطوا خيولا فوقها سرج من الفضة ممـا غنموه من دمشق الشام وغيرها ، الا أبا عبيدة فقد كـان على قلوصه (ناقته) وفوقـه عباءة قطوانيـة وخطـام الناقة من الشعر . وساروا وقد تركوا الجنـد في مكـانهم حول أسوار بيت المقدس . وكـان حماد مشتاقا لمشاهدة عمر بعد أن تولى أمر المسلمين وهو يتوقع أن يراه في موكب حافـل كما تعود أن يرى أو يسمع عن ملوك الروم والفرس ممـا يبهر النظر ويستوقف البصر . فكـان كلمـا مشوا قليلا تشوف عن بعد لعلـه يرى الغبار أو غيره مما يتقدم المواكب فلم ير شيئا .

- ٢٨ -

عمر بن الخطاب

رأى حماد هجنا قادمة فقال في نفسه : « هذه طليعـة الموكب قـد

جاءت ببشارة » . فلما اقتربت رأى في مقدمتها هجينا حمراء يقودها أحد الأعراب ، وعليها غرارتان وقربة ماء وجفنة صغيرة للزاد ، وقد ركبها رجل ذو وجه أبيض تشوبه حمرة ، حسن الخدين والأنف ، خفيف العارضين ضخم الكراديس ، على رأسه عمامة وعلى كتفيه عباءة من صوف عليها بضع عشرة رقعة بعضها من الجلد وبعضها من الصوف وفي يده درة هي سوط عريض من الجلد .

فتحير حماد في أمر هذا القادم والتفت الى سلمان ، فبادره قائلا : « هذا هو الامام عمر يا مولاي » . ثم ما لبث أن رأى أبا عبيدة ترجل عن ناقته وأسرع نحوه ، فترجل عمر أيضا وتعانقا ، فتحقق حماد أنه الامام عمر ، وعجب لزهده . ثم ما لبث أن سمعه ينتهر بعض الأمراء فتقدم ليسمع كلامه فاذا هو يؤنبهم لما اتخذوه من لباس الديباج والحرير قائلا لهم : « ما بالكم تمسكتم بالدنيا وغفلتم عن الآخرة ؟ ما هذه الملابس ؟ انها ألبسة أهل الترف وأنتم في سبيل الجهاد ! » . قال ذلك وحثا عليهم التراب . فقال أبو عبيدة : « انهم يا أمير المؤمنين انما اتخذوه كساء خارجيا وتحته السلاح » .

ثم نادى أبو عبيدة حمادا فأقبل فقدمه الى عمر وقال له : « انه شاب من أمراء العراق كان لنا نصيرا في حصار الشام وواسطة في صلحها » .

فرحب به عمر والتفت الى أبي عبيدة وقال : « لقد أذكرتني بجبلة ابن الأيهم الغساني ، ألم يصل اليك كتابي بشأنه ؟ » .

قال : « كلا يا مولاي وما خبره ؟ » .

قال : « له خبر طويل سأقصه عليك فيما بعد ، هلم بنا الآن الى بيت المقدس » .

وركبوا جميعا ، وقد خفق قلب حماد لسماعه اسم جبلة ، وتاق

لمعرفة أمره ، ولكنه لم يجرؤ على التماس ذلك فأجله الى فرصة أخرى •

وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على بيت المقدس وحولها معسكر العرب تلوح الاعلام فوقه من بعيد ، ولما اقتربوا من الخيام سمعوا ضجيج الناس ورأوا جماعات منهم مهرولين لملاقاة عمر ، فرحب عمر بهم وأثنى على غيرتهم وحسن جهادهم وكثرة ما فتح من المدن على أيديهم • حتى اذا وصلوا الى معسكر أبي عبيدة نزل عمر في فسطاط من شعر نصبوه له هناك ، ونزل الأمراء معه وتزاحم الناس للتيمن بمشاهدته وسماع كلامه • أما هو فجلس على التراب وجلس الجميع معه وحماد يعجب لزهده وتواضعه •

وبعد قليل نهض عمر فألقى عليهم خطابا ، ثم جلس الجميع يتحدثون بأمر الفتح وما لقوه من الجهد وما كان من فوزهم وكلهم فرحون •

وكان حماد ينتظر أن يجري حديث جبلة لعل عمر يقص خبره فاشتغلوا عن ذلك بأحاديث الفتح ثم نودي للصلاة • فخرج حماد وقد مل الانتظار ، وخلا الى سلمان وقال له : « هل ترى أن نسأله عن جبلة ؟ » •

قال : « لا حاجة بنا الى ذلك ، ويكفينا أن نسأل أبا عبيدة » •

قال : « حسنا » • وسارا الى أبي عبيدة بعد الصلاة فلما وقع نظره على حماد قال له : « غدا نسمع حديث أمير المؤمنين عن جبلة وأهل بيته ، أما الآن فأطلب اليك أن تسير الى حاكم هذه المدينة فتنبئه بقدوم أمير المؤمنين ، ليخرج للصلح • ومتى عدت من هذه المهمة قدمتك للخليفة » •

فخرج حماد وسلمان فأنبآ الحاكم والبطريك بقدوم عمر ، فخرج

البطريرك على الاسوار وطلب أن يرى عمر رأي العين •

فعاد حماد بالخبر فركب عمر ناقته ومرقعته وتقدم الى الأسوار وأبو عبيدة الى جانبه • وكان حماد قد عاد الى البطريرك وأشار الى الخليفة • فاستغرب البطريرك بساطة لباسه وشدة زهده بينما انغمس الروم في الترف والرخاء ، ثم التفت الى أعيان المدينة وكانوا وقوفا معه على الاسوار وقال : « يا أهل بيت المقدس ، هذا هو الرجل الذي تفتح بلادنا على يده ، فاخرجوا اليه واطلبوا صلحه واعقدوا معه الأمان والذمة » • ففتحوا الأبواب وكانوا قد ضاقوا ذرعا بطول الحصار ، وخرجوا أفواجا وفيهم الرجال والنساء والشيوخ والاطفال وهم يصيحون ويستغيثون ، فلما رآهم عمر على هذه الحالة سجد شكرا لله على قتب ناقته ثم أناخها ونزل وقال للناس : « عودوا الى منازلكم ولكم الذمة والعهد » • فعادوا ولم يغلقوا الأبواب ، وعاد عمر الى معسكره •

وفي صباح اليوم التالي دخل عمر المدينة والناس يرحبون به وقد رفعوا أصواتهم بالترنيم والترتيل ، وفيهم القسس في أيديهم المباخر ، حتى أتى قصر الحاكم قرب كنيسة القيامة ، واجتمع بالحاكم والبطريرك وكبار أهل الدولة وعقدوا صلحا على أداء الجزية ؛ وأوصى بها الامام عمر خيرا ، وهدأت الاحوال وسكنت القلوب الا قلب حماد فانه ما زال يتقلب على جمر الانتظار •

★ ★ ★

ومكث عمر في بيت المقدس عشرة أيام لم يخل يوم منها من الوفود القادمة من أنحاء سوريا ، وفيها عظماء البلاد التي خضعت للمسلمين جاءوا لرؤية الخليفة • وفي اليوم الخامس من دخوله وهو الجمعة خط عمر

محرابا في المدينة ، وفي موضعه بني جامعة بعد ذلك . ففي ذلك اليوم سار حماد الى أبي عبيدة وشكا اليه قلقه ورغبته في سماع حكاية جبلة من الامام عمر ، فاستمهله الى المساء وقال له : « ان أمير المؤمنين سيخرج من المدينة بعد صلاة العصر ليصلي العشاء مع سائر الأمراء في فسطاطه ، وسنقضي السهرة هناك فيقص علينا الخبر » .

وفي العصر خرج حماد وسلمان الى معسكر أبي عبيدة ، وبقيا حتى فرغ المسلمون من صلاة العشاء ، ثم سارا الى خيمة الامام عمر ، وجلسا في بعض جوانبها ، وكانت الخيمة كبيرة وفيها زهاء خمسين رجلا ، جلسوا جميعا على الثرى تمثلا بامامهم . وبعد أن قرأ القراء بعض السور ، التمس أبو عبيدة من الامام عمر أن يقص حكاية جبلة ابن الأيهم ملك غسان ، فقال الامام عمر : « ماذا تعلمون عنه أنتم ؟ » .

قال أبو عبيدة : « أنه فر بأهل منزله الى مكان لا نعلمه » .

فتبسم عمر وقال : « انه لم يفر ولكنه جاء المدينة بعد فتح دمشق يلتمس الدخول في الاسلام فقبلت منه ذلك ، فاعتنق الاسلام وأقام بيننا في أهل منزله معززا مكرما ، وأذنا له أن يبقى على ما اعتاده من فاخر اللباس من الحرير والديباج وركوب الخيل مسرجة بالسروج الثمينة عليها سلاسل من الذهب في أعناقها ، واذا ركب وركبت حاشيته عقدوا أذناب الخيل فسارت تخطر بهم حتى لا تبقى واحدة من نساء المدينة الا خرجت لمشاهدتهم ولكنا ما برحنا نرى فيه روح الاستبداد والظلم مما يأنفه عدل الاسلام . لأن هؤلاء المتنصرة عاشروا الروم واعتنقوا دياناتهم وتخلقوا بأخلاقهم ، ولا يخفى عليكم ما في دولة هؤلاء الروم من التفاوت بين طبقات رعاياهم فيأكل القوي منهم الضعيف بغير وجه الحق . فأراد جبلة أن يسير على ذلك فأوقفناه عند حده ولا سيما بعد حادثة جرت له مع رجل من فزارة ، وذلك أننا خرجنا مرة للحج ، وفيما

نحن نطوف بالبيت ومعنا جبلة وجمع غفير من المسلمين وفي جملتهم رجل من فزارة ، وطيء الفزاري أزار جبلة فانحل الازار ، فغضب جبلة ورفع يده وضرب بها الفزاري فهشم أنفه ، فجاءني الرجل يشكو ما ألم به ، فبعثت الى جبلة وقلت له : (ما هذا ؟) . قال : (هشمت أنفه لأنه تعمد حل أزاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف) . فعلمت أنه يريد الاستبداد فقلت له : (يا جبلة أنك أخطأت ، وقد أقررت بما ارتكبته فعليك أن ترضي الرجل ، أو يفعل بك مثل فعلك به) . فعظم عليه ذلك واستغربه وقال : (كيف ذاك وهو سوقة وأنا ملك ؟) . فقلت له : (ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله بشيء الا التقى والعافية) . فقال وقد خاب ظنه : (كنت ظننت يا أمير المؤمنين اني أكون في الاسلام أمنع مني في الجاهلية) . فقلت : (دع عنك هذا فانك ان لم ترض الرجل أقدته منك) . فقال : (اذن أتنصر) . فقلت له : (اذا تنصرت ضربت عنقك فذلك جزاء من يرتد عن الاسلام) . فسكت قليلا ثم قال : (اني ناظر في ذلك ليلتي هذه) . قات : (أنظر ما شئت) . ثم انصرف ولم أعد أراه ولا أدري مقره . وقد كتبت اليك في شأنه لتبحث عنه فهل علمت عنه شيئا ؟ » .

قال أبو عبيدة : « قضينا أشهرا نبحث عنه فلم نقف له على خبر » .

★ ★ ★

وكان حماد يسمع حديث عمر وهو شاخص ببصره يتطاول بعنقه وقلبه يخفق في انتظار آخر الحكاية ، فلما أتى عمر على آخر كلامه انقبضت نفس حماد وعظم عليه الأمر وهم بمخاطبة عمر يستطلعه رأيه في مصير جبلة وأهله فأقعدته هيبة المجلس ومقام الخليفة ، وما صدق

أن أرفض الجمع حتى خلا الى سلمان ووقفا بالقرب من معسكر أبي عبيدة فقال حماد : « ما رأيك يا سلمان ؟ » .

قال : « لقد هان الامر يا مولاي ، والرأي عندي أن نبحث عن جبلة في الطريق بين المدينة والشام اذ لا أظنه وقد فر من الحجاز الا قادما الى أطراف الشام أو البلقاء أو مكان آخر لم يفتحه المسلمون ، أو لعله يختبىء في بعض الاديرة ، ولا بد له في كل حال من المرور بدير بحيراء ولو متنكرا ، فلنبحث عنه بين أهل الدير ، واذا أشكل الامر قصدنا ناسك حوران فان له معرفة وكرامة » .

فتأفف حماد وتذمر ولكنه فكر في الامر فرأى كلام سلمان معقولا ، فظل صامتا برهة وسلمان ينظر اليه ويتأمل حاله فرآه غارقا في بحار الهواجس وقد تولاه الانقباض وغلب عليه اليأس فقال له : « ما بال مولاي لم يعتد بكلامي ؟ لعلي مخطىء فيما أقول ؟ » .

قال : « نعم الرأي رأيك ، ولكنني أفكر في هند وكيف طال الأمد دون أن أتلقى عنها خبرا مع علمها بذهابي الى بيت المقدس بعد فتح الشام » .

قال : « لا تلمها يا سيدي ، ألا تعلم انها فتاة لا تستطيع المجاهرة بسرها ، فضلا عما كانوا فيه أثناء فرارهم من الخوف والاهتمام وأقاموا بالمدينة غرباء ثم عادوا فارين كما رأيت » .

فقال حماد : « أراني مقيد الفكر مغلول اليدين والامير عبد الله صار بعيدا عنا ولا نعلم خبره ولا ما جرى له في العراق » .

قال سلمان : « أما الامير عبد الله فأنت تعلم أنه من الحكمة والتعقل بحيث لا نخشى عليه بأسا ولا يلبث أن يعود الينا وقد نال حظوة في عيون المسلمين ولكن ... » . وصمت .

فقال حماد : « ما بالك صمت قل ما في نفسك ؟ » .

قال سلمان : « ماذا أقول ونحن كما قلت مقيدو الفكر مغلولو الأيدي ؟ » .

قال : « ماذا تعني ؟ » . قال : « أعني يا مولاي اننا شغلنا بحروب الشام والتماس ملك غسان عن أمر انما أتينا هذه البلاد من أجله ، ولولاه لكان مقامنا بالعراق معا للانتقام من دولة الفرس » .

فانتبه حماد الى حكاية النذر وحقيقة نسبه وما له من الثأر على الفرس فقال : « لقد صدقت يا سلمان اننا تقاعدنا عن ثأرنا وشغلنا بمهام أنفسنا عن وصية أبي ، ووالله لو أني فرغت من مشاغلي المتواترة وخلوت الى نفسي يوما واحدا لما بقيت في هذه الديار ، بل كنت أول شاخص الى العراق أشهد فتح المدائن عاصمة تلك الدولة الظالمة ، واني لواثق بقرب سقوطها لما نعلمه من بطش العرب وفساد نيات الفرس وانقسام حكامهم بعضهم على بعض » .

فقال سلمان : « اذن نسير الى العراق » .

قال حماد بصوت مختنق : « وهند ؟ » . ونظر الى سلمان نظرة كان لها وقع السهام على قلبه فنظر اليه وتبسم ثم هم به وضمه الى صدره وقال له : « ان هندا في المقام الاول يا مولاي » .

فتنهد حماد وقال : « لا بل الانتقام للملك النعمان قبل كل شيء ، هكذا أوصانا بصوته المنبعث من ظلمات القبر ولكن ... » . قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه .

فابتدره سلمان قائلا : « ان كلا الامرين مستدرك ، فلنبحث أولا عن مقر هند فاذا التقينا بها وكان السفر الى العراق مستعجلا وكان أجل الفرس قريبا أجلنا الاقتران الى ما بعد سقوط دولة الفرس ، والا فانك تتزوج ثم نسير . فقم بنا الى بيت المقدس وغدا نستطلع أخبار العراق ثم نسير للبحث عن جبلة وأهله في أطراف الشام وحوران ويفعل

الله مـا يشاء » •

فقال حمـاد : « حسنا ، ولكن ذهابنا الى بيت المقدس في هذا الليل لا يخلو من المشقة والخطر ، وقـد دعانا أبو عبيدة للمبيت عنـده ، فلنبت الليلة وغـدا لناظره قريب » •

وتحولا الى الفسطاط ، فلما دنوا منه سمعا أصواتا عرفا أنها أصوات القـراء يتلون القرآن والناس يصلون ، فتنحيـا برهـة حتى فرغ القوم من الصلاة ، ثم دخلا على أبي عبيدة فقال لهمـا : « أين ذهبتمـا وأنا أبحث عنكما منذ خروجنا من مجلس الخليفـة ؟ » •

فقال حمـاد : « ان حديث أمـير المؤمنـين عن جبلة لم يزدني الا حـيرة ، فـلا أدري أين هو الان » •

فقال أبو عبيدة : « سنبحث عنه في سواحل الشام لعله يقيم بمكان هناك ، واذا كان قد خرج منها الى بلاد الروم أو مصر أو غـيرها عرفنـا خبـره » •

فقال سلمـان : « لقد رأينا أن نبحث عنه في أطراف الشام وحـوران لعلنـا نسمع عنه شيئا في بعض الاديار » • قال أبو عبيدة : « نعم الرأي هذا ، وسنبحث نحن أيضا عنه » •

فقال حماد : « وماذا تعلمون من أخبار العراق وفارس ؟ فان أبي لـم يكتب الي شيئا منذ سفره » •

فقال أبو عبيدة : « ان ما أتـانا به مولانـا أمير المؤمنـين يسر كل مسلم ، فان النصر معقود لواؤه لجنود المسلمين حيثما ولوا وجوههم ، وقد كان الامام عمـر على موعد من موقعة هائلـة بـين المسلمين والفرس في القادسية فخرج من المدينة وهو في انتظار البريد بخبرها وقد أبطـأ عليه ، فأوعز الى نائبه في المدينة اذا جاء بريد العراق أن ينفـذه اليه في بيـت المقدس حالا فنحن ننتظر ورود البريد • وكلنـا على يقين مـن نصرة

رجالنا مهما تكن كثرة جنود الفرس وأفيالهم ودوابهم ، وما هم بأشد وطأة من الروم ، بل نحن أشد وطأة على الفرس منا على الروم لأن هؤلاء أهل كتاب قد أوصينا بهم خيرا وأما الفرس فانهم مجوس يعبدون النار ، فضلا عن اختلال أحوال مملكتهم وتنازع دعاة الملك منهم ، فقد توالى على ايوان كسرى بضعة ملوك في عام واحد بينهم بعض النساء ، وملكهم الآن يزدجرد بن شهريار بن كسرى أنوشروان ، وهو ضعيف الرأي لا يستطيع القيادة ، فهل يعقل أن جنده يغلب جند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وعلى كل حال موعدنا بأخبار النصر قريب ان شاء الله » .

ثم أمر بعض رجاله فأعدوا خيمة للضيفين ، فباتا ليلتهما ، ثم أصبحا وقد أذن المؤذنون لصلاة الفجر وصلى الامام بالمسلمين ، فمشيا خارج المعسكر يتحدثان فوقع نظرهما على هجين قادمة من عرض الافق في سرعة البرق فقال سلمان : « هذا صاحب البريد على ما أظن » . ووقفا ينظران ما يكون من أمره فاذا به دار حتى بلغ معسكر أبي عبيدة وترجل عند فسطاطه ، فأسرعا الى الفسطاط فرأيا أبا عبيدة خارجا من خيمته ومعه الهجان وهو لا يزال بغبار السفر وهجينه وراءه ، حتى أتوا فسطاط عمر فدخلوا جميعا وحماد وسلمان معهم ، فرحب عمر بهم وخاطب صاحب البريد قائلا : « ما وراءك يا عبد الله ؟ » . فقال : « ما ورائي الا الخير » . ومد يده فأخرج من بين أثوابه صندوقا فتحه وأخرج ملفا من جلد ناوله الى الامام عمر ففضه ودفعه الى بعض خاصته وقال : « اتله علينا ما كان من أمر المسلمين في العراق » .

- ٢٩ -

وقعة القادسية

أنصت حماد وسلمان لسماع ما في الكتاب ، فاذا فيه : « الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من سعد بن مالك أمير جند العراق . أما بعد فاني أكتب اليك تفصيل وقعة القادسية التي فاز فيها المسلمون على أهل فارس واليك هي : جئنا يا أمير المؤمنين بجنود المسلمين فيمن تعلم مع من انضم اليهم من جند الشام وجملتهم جميعا خمسة وثلاثون ألفا ، ونزلنا في القادسية بين العقيق والخندق حيال القنطرة . والقادسية يا أمير المؤمنين واقعة على رأس بحيرة وراءها مضيق من البر يفصل بين البحيرة والفرات ، فأقمنا هناك شهرين ندافعهم تارة ونطاردهم أخرى حتى ملوا فكتبوا الى ملكهم يزدجرد وشكوا ما يقاسونه واننا خربنا ما بيننا وبين الفرات ونهبنا الدواب والاطعمة . فبعث يزدجرد الى رستم كبير قواده وألح عليه أن يقدم بنفسه لقتالنا ، فجاء وعسكر في ساباط . وقد كتبت اليك بذلك في حينه فكتبت الينا ألا يكربنا هذا . فاستعنا الله وأرسلنا نفرا من المسلمين الى يزدجرد في المدائن يدعونه الى الاسلام أو الجزية أو السيف فاستقدم رستم اليه واستشاره ، فهدد هذا رسلنا وتوعدهم ، ثم وعدهم بقوت ومال وكساء ، فأجابوه بكلام شديد فأخرجهم من المدائن مهانين . فلما رأينا ذلك منهم جعلنا نغزو ما حولنا من البلاد والقرى نسوق أغنامها وأبقارها وأسماكها وابلها . فلما بلغ رستم ذلك حمل بجند عدده مائة ألف وعشرون ألفا : منهم أربعون ألفا يقودهم رجل اسمه الجالينوس ، والباقون يقودهم رستم . فجاءونا ومعهم الفيلة والخيول ، وكانوا لا يمرون ببلدة الا أساءوا أهلها

وأكثروا من الفساد فيها ، فنقم الناس عليهم ، وقد علمنا من بعض أسراهم أنهم قضوا في انتقالهم من المدائن الى القادسية أربعة أشهر فلما بلغوا القادسية عسكروا حيالها ورأينا معهم فيلة بعضها مشهور عندهم بالفتك كالفيل المسمى فيل سابور الأبيض وغيره . وقد نظم رستم جيشه فجعل من الأفيال ثمانية عشر في الوسط وخمسة عشر في كل من الجناحين . ثم انفرد هو في مكان مرتفع يشرف منه على جندنا وبعث الينا أن نوافيه برجل منا يكلمه ، فأرسلت اليه رسولا وجده جالسا على سرير من الذهب وبين يديه البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب ، فدخل عليه بعباءته ودرعه وسيفه ولم يبهره ما رآه هناك من بهارج الدنيا ، بل قاد جواده فوق البسط وشق وسادتين ربطه بهما ، وسألوه أن يضع سلاحه فأبى ، ثم سأله ترجمان رستم وهو رجل من أهل الحيرة اسمه عبود عما جاء من أجله . فأجابه بالدعوة التي تعلمونها ، فعظم ذلك عليهم وقالوا : (كيف تطلبون قتالنا أو الجزية وقد كنتم في معيشة ضنك اذا قحطت أرضكم استعطيتمونا فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ، ولا نظنكم جئتم الينا الا من الجهد ، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، ولكل منكم بوقر تمر وتنصرفون عنا) . وبعد جدال طويل غضب رستم وأقسم ليقضين علينا أجمعين قبل أن يطلع النهار . فقال له الرسول : (من يقتل منا يدخل الجنة) .

« وأرسلت اليه رسلا آخرين يدعونه الى ما هو خير لنا وله فأجابهم بمثل جوابه الاول . وفي اليوم التالي جلس رستم على الهيئة التي ذكرتها ، واتخذ في ايصال خبر الحرب الى ملكه يزدجرد طريقة أعجبتني ولعلي متخذها في بعض حروبي ان شاء الله ، وذلك أنه جعل بينه وبين يزدجرد رجالا على كل منهم رئيس ، أولهم عنده ، وآخرهم على باب ايوان يزدجرد في المدائن . فكلما فعل رستم شيئا قال الذي

عنده للذي يليه ، كان كذا وكذا ، ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه ، وهكذا الى أن ينتهي الى يزدجرد في أسرع وقت . وكنت يا أمير المؤمنين مصابا بدمامل وعرق النساء فلا أستطيع الجلوس الا مكبا على وجهي وصدري فوق وسادة على سطح القصر أشرف على الناس وأرى قتالهم ولكن الله أعاننا بمنه وكرمه ، فلما رأينا الفرس يتهيأون للقتال بعثنا الخطباء في الجند وقرأنا سورة الجهاد ثم صلينا الظهر وكبرنا أربعا فزحف الجند وتلاحم الجيشان . ووالله يا أمير المؤمنين لقد كنت أرى جند فارس كالسيل وفيهم الافيال كالامواج المتلاطمة وهي تثور فتلقف الرماح والنبال بخراطيمها وتدوس الناس والخيول بخفافها ، فهالني أمرها فقلت : (يا قوم أما من حيلة لها ؟) . فرماها بعض المسلمين بالنبل فقتل ركابها وتقدم آخرون فأزاحوا عنها توابيتها فاضطربت حركاتها وفسد نظامها ، فجاء المساء وقد قتل من الفرس جند كبير وفي اليوم التالي جاءتنا نجدة أهل الشام التي أرسلها أبو عبيدة فهاجمنا الفرس حتى كدنا نقبض على رستم ولكنه نجا . وفي اليوم الثالث لقي الجندان شدة وجهدا وواصلنا العمل في الليل ، وكانت ليلة سميناها ليلة الهرير لأن رجالنا لم يكونوا يتكلمون فلم يكن يسمع الا هريرهم فنقلنا الجند الى مكان يأخذ العدو من خلفهم وهم لا يعلمون .

« ولما أصبحنا هاجمنا أعداء الله من كل جانب ، ففشلوا واختل نظامهم . ووصل بعض رجالنا الى سرير رستم وقد أطارت الريح المظلة عنه فاستظل بظل بغل ، فقتلوه وقتلوا الجالينوس ، فانهزم الفرس شر هزيمة ، وتعقبهم رجالنا وغنمنا أسلابهم وانتصرنا نصرا مبينا ونحن سائرون الآن لفتح المدائن بعون الله تعالى » .

فما فرغ القارىء من قراءة الكتاب حتى ضج المسلمون بالتكبير

والشكر لله على ذلك الفتح . أما حماد فانه صبر رغم قلقه حتى تفرق الناس فخرج ومعه سلمان ، وقال هذا : « يظهر أن أجل الفرس قريب ، وسيفتح المسلمون عاصمتهم فيندك عرشهم ويكون ذلك جزاء ما كسبت أيديهم من قتل الأبرياء » .

فقال حماد : « ولكننا لم نعلم شيئا عن الامير عبد الله ولا عن جبلة ، ألا تظن صاحب البريد يعلم شيئا عنهما ؟ » .

قال : « ربما كان على علم بأمرهما فهلم بنا نستطلعه » . وسارا يبحثان عنه فاذا هو خرج الى خيمة بعض الجند للاغتسال والوضوء وتناول الطعام .

فقال سلمان : « أظن صاحب البريد يحتاج الى الراحة بعد سفره الطويل فلندعه وشأنه على أن نعود اليه في صباح الغد » .

★ ★ ★

مضى حماد وسلمان الى خيمة يستريحان فيها ريثما يتمكنان من مقابلة ساعي البريد واستطلاع خبر جبلة وعبد الله . وفيما هما سائران الى الخيمة رأيا عجوزا حدباء عليها سمات الفقر وغبار الاسفار قادمة نحوهما تتوكأ على عكاز ، وقد لفت رأسها بخمار . فظناها من المتسولات فلم يعبآ بها وظلا في طريقهما حتى دخلا خيمة ليس فيها أحد ، وما لبثا أن جلسا حتى رأيا تلك العجوز قد شقت حجاب الخيمة بعصاها ودخلت بلا استئذان فصاح بها سلمان : « ماذا تريدين ؟ » .

فلم تجبه وظلت داخلة حتى دنت من حماد وحسرت اللثام عن وجهها فاذا هي خادمة هند التي لقيها في دمشق ، فخفق قلبه لرؤيتها

وشعر بانعطاف نحـــوها وقد تنسم منها رائحة حبيبتـــه فبغت وصاح بها : « مـــا خبرك وأيـــن هند ؟ » .

قالت : « تمهل ريثما أستريح فأخبرك الخبر ، وقـــد جبت البلاد وأنا في هذا الزي أبحث عنك فلم أقف لك علـــى أثر ، وقضيت حول هذه المدينة أياما لا يخبرني أحـــد عن مقامك ولا أنا أستطيع المجـــاهرة باسمك لأن حالنا تدعو الى الاستتار » . قالت ذلك وهي تبحث عـــن وســـادة تجلس عليها وتنظر الى الخارج مخـــافة أن يسمعها أحد ثـــم جلست وعينا حمـــاد تراعيانها وقد نفد صبره في استطلاع حـــال هند فقـــال لهـــا : « أخبريني عن هند قبل كل شيء هل هي في خـــير ؟ » .

قالت : « كن مطمئنا انها في خـــير وسلامة لا ترجو الا لقاءك » .

فقال : « أين هي ؟ » . قالت : « لا أدري أين هي الآن ، ولكنني أعرف الخطة التي ستسير عليهـــا ، فاذا قصصت عليـــك الحديث مـــن أوله سهل عليك فهم الحقيقة » .

قال : « قولي باختصار » . ولبث صامتا مصغيـــا لما تقوله .

فقالت : « تركتني في دمشق بجـــوار كنيسة مريـــم ، فاكتريت بغلة ركبتها حتى أتيت بيت المقدس . وكانت سيدتي هند ووالدتها وسائر أهـــل القصر مقيمين بدير هذه المدينة ، فأنبأتهم بسقوط دمشق فخافوا ، ولكنني طمأنت هندا وأملتها بقرب مجيئك فهـــان عليهـــا كل عسير ولبثنا ننتظر ذلك اليوم . ولكن سيدي الملك جبلة بعث الينا في اليـــوم التالي للرحلـــة سرا ، ثم جاء هو وأمر أن نسير على عجـــل بما خف حملـــه وغلا ثمنـــه ولم يجسر احد من اهله ان يسأله عـــن جهة المسيرة ، ولولا ذلك لبقيت أنا هناك لأخبرك بمكانهـــم ، فخرجنا وقد أسرت مولاتـــي هنـــد الي أنها حالمـــا تعرف المكان الذي سنقيم به تبعث بخبره اليك » .

« فسرنا أياما وليالي ولم نحط رحالنا الا في المدينة مقام خليفـــة

المسلمين الذين سمعتم الكتاب يتلى بين يديه الآن ، وقد كنا في خوف عظيم ولكننا آنسنا اكراما وحسن وفادة ، وبلغني أن سبب سلامتنا اعتناق سيدي الملك ديانة هؤلاء الفاتحين • فلما ظننا المقام استقر بنا هناك ، رأت سيدتي أن تبعث اليك بذلك • وقد فاتني أن أخبرك بوفاة ثعلبة أو لعلك سمعت به قبلا » •

قال حماد : « سمعنا بوفاته رحمه الله » •

قالت : « ولم نكد نتوسم الراحة حتى جاءنا سيدي الملك والبغتة ظاهرة في وجهه كما فعل يوم خروجنا من هنا ، وأمر بالرحيل في الليل ، فخفنا خوفا شديدا ، ولكن بعض جيراننا اليهود من أهل المدينة كانوا لنا عونا في مسيرنا الى ما وراء أسوارها • وفي اليوم التالي تحققنا أننا قاصدون بلاد الشام فرأيت في سيدتي هند ارتياحا الى هذه الوجهة على رجاء أن تقرب منك ، فقضينا في طريقنا هذه زمنا ونحن نسير ليلا متنكرين ونختبىء نهارا ولا نقيم الا في الاديار لأنها خير مبيت أمين أو مقام لأهل النصرانية ، وكنا نمكث في بعضها أياما وأسابيع » • قالت ذلك وخفضت صوتها لئلا يسمعها أحد وجعلت تتطلع من باب الخيمة خوفا ممن يتجسس أو يسمع • فقال لها سلمان : « تكلمي لا تجزعي اذ ليس في هذا المعسكر من يظن بنا سوءا ولكن أخفضي صوتك » •

قالت : « وآخر مكان أقمنا به هو دير بحيراء ، ولا تسل عن حالنا لما أطللنا قبل ذلك على صرح الغدير وبستانه وميدانه ، وقد استولى أولئك الحجازيون على المغارس والابنية التي بناها الملوك الغساسنة منذ أجيال ، ورأيت في وجه سيدي الملك علامات الغضب والفشل حتى كادت الدموع تتناثر من عينيه لولا عزة النفس • أما سعدى وهند فقد بكتا ، وأظن هندا انما بكت لتذكرها أمرا وقع لها في

ذلك الصرح • والخلاصة أننا لم نصل الى دير بحيراء حتى أخذ اليـأس من سيدي الملك كل مأخذ لما ذاقه من ذل التنكر في بلاد كانت طـوع اشارته لايمر بها الا محفوفا بالجنود والاعوان فتنصب له الاعلام ويحتفل أهلها بقدومـه » • قالت ذلك وشرقت بدموعها فمسحتها بطرف خمارها فتأثر سلمان وحماد بكلامها وعظم عليهما ما آلت اليـه الغساسنة ، وتصور حمـاد أن حال ملوك الحيرة ستؤول الى مثل ذلك فشكر الله في سره لأن سقوطهم سيكون على يـد غـيره •

وأتمت المرأة حديثها فقالت : « ففي ذات ليلـة دعا مـولاي الملك سيدتي سعدى وهندا وخلا اليهما في حديث طويل ، وفي الصبـاح التالي دعتني هند وأسرت الي أن أبحث عنك في بيت المقدس فمـا حولهـا حتى أقف على مكانك وأطمئنك عنها وأخبرك أنهم ساروا الى العراق وسيقيمون بدير هند بعيدين عن الشام والبلقاء ، لأنهـم لا يستطيعون صبرا علـى ما كان في أيديهم من الملك وقـد صار في أيدي الغالبين » •

فلما سمع حمـاد اسم دير هند أجفل وقال : « أي دير تعنين ؟ »

قالت : « ديـر هند في ضواحي الحـيرة » •

فنظر الى سلمان وقـال : « أعهـد ديـر هنـد في الحيرة وليس خارجها فما هذا الديـر ؟ » •

فقال سلمان : « ان في الحيرة ديرين ينسبان الـى هند أحـدهما وهو الاصغر في الحيرة والآخـر في ظاهرها ، أما الاول فقد سمي باسم أختك هند ، بنته لمـا قبض كسرى على المرحـوم الملك النعمـان في أوائل حكمه وحبسه قبل أن تولد أنت بأعـوام ، فنذرت شقيقتك هنـد ان رده الله الى ملكه أن تبني ديرا وتسكنه حتى تموت فلما أطلق سبيله مكثت في ذلك الدير » •

« وأما الدير الأكبر وهو ما يسمونه بدير هند الكبرى فقد بنته

هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي بظـاهر الحيرة وهي من كندة وليست من لخم ، والدير كبير أذكر اني زرته غير مـرة وكـان رهبانه يترددون على منزل الأمير عبد الله للمداولـة في شؤون تتعلق باملاك له هناك ، ويؤم هذا الدير أنـاس من جهات العراق وغيره يقيمون به أياما وفيه ما يحتاجون اليه من الزاد ونحوه » .

فنظر حماد الى المرأة وقال : « هل تظنين هندا في ذلك الدير الآن ؟ » .

قالت : « لعلها لا تزال هناك لأنها أوصتني بمـا تقدم منذ بضعـة أسابيع قضيتها في البحث عنك . ولكن مولاتي سعدى أسرت الي بعـد خروجي من بين يدي هند ان مولاي الملك جبلة انمـا يريد الشخوص الى القسطنطينية ليقيم بقرب امبراطوره هرقل معززا مكرمـا ، وانـه سيجعل طريقه في الفرات ومنه برا في البـلاد التي لم يصل سيف المسلمين اليها . أمـا سواحل الشام فانها في أيديهم فلا يخلو المرور بهـا مـن الخطر . وذكرت لي انها أقنعته بأن يقيـم بدير هند حينا لـيرى مـا يكون من حال جند العراق . فـاذا طال غيابي عنهم فأظنهم يقصدون القسطنطينية ، وذاك آخر مكـان يقصدونه فافعل ما يبدو لك » .

فلمـا سمع حماد ختام الحديث انقبضت نفسه مخافـة أن يقصد العراق فيذهب سعيه عبثا ، وأدرك سلمان فيه ذلـك فقال له : « الا ترى يا مولاي أننا بمسيرنا الى العراق نرمي حجرا فنصيب صيدين ، ألـم نكن في حاجة للبحث عن سيدي الأمير عبد الله في العراق فمسيرنـا الى هناك يجمعنا به وبهند ان شاء الله » .

فقال حماد : « ألم تسمع ما تلي علينا اليوم من خبر وقعة القادسية وهي بالقرب من الحيرة ؟ » .

قال سلمان : « ان الحيرة يا مولاي دخلت في صلح مع المسلمين منذ أعوام وكنت شاهدا صلحهـا بنفسي ، وزد على ذلك مـا نعلمه من صيانة

الاديـار عند المسلمين •

فالتفت الى الخادم : « وهل تعرف الطريق الى الحيرة ؟ » • قال : « نعـــم » •

قالت : « لا أظنني أستطيع المسير معكما لمـا أنتما فيه من الاستعجال، ولكنني أتبعكما في طريق آخر أو أبقى بدير بحيراء أنتظر خبـرا مـن عندكـم » •

- ٣٠ -

في دير هند الكبرى

كـان دير هند الكبرى الذي أنشأته هند بنت الحارث الكندية بناء واسعا شيد بحجارة ضخمة في بستان خارج الحيرة يشرف عن بعـد على بحيرة كانت هناك ، وفي الحديقة أنواع الرياحين والأزهار ، وحولهـا كروم العنب والتين وغيرها من الفاكهة •

وكان فيه منازل للأضياف ينزل فيها الغربـاء من المـارة يقيمون أياما ثم ينصرفون • ورئيس الديـر راهب شيخ سريـاني أصله مـن ساباط • وقد جاء جند المسلمين العراق وجرى لهم كثير من الوقـائـع والدير في مأمن لم يصب بسوء وأهله آمنون •

وقد نقش على عتبة باب الدير بالسريانية « بنت هذه البيعة هنـد بنت الحارث بن عمرو بن حجر ، الملكة بنت الأملاك ، وأم الملـك عمـرو ابن المنذر ، أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده ، في ملـك ملك الأمـلاك خسروا أنو شروان ، في زمـان مار أفرايم ، فالالـه الـذي بنت هند له

هذا الدير يغفر خطيئتها ، ويترحم عليها وعلى والدها ، ويقبل بقومها الى أمانة الحق ، ويكون الله معها ومع والدها الدهر الداهر » .

ففي ذات ليلة بعد انقضاء وقعة القادسية وسكون الناس الى الراحة ، سمع أهل الدير قرع الاجراس ، وهي أجراس تعلق ببنيان بعض الاديار حتى اذا مر غريب دقها فيفتحون له فيبيت هناك يتناول الطعام أو نحوه . فلما سمعها خدام الدير هرول بعضهم الى الباب وكان ثقيلا مصفحا بالحديد وفيه المسامير الضخمة ، فأطل من فوقه من غرفة صغيرة فرأى ركبا على أفراس ومعهم الخدم والامتعة ، فنزل الى الباب ففتحه ورحب بالقادمين ، وأسرع الى قيم الدير يخبره بقدوم ركب كبير ، فدخلوا وفيهم المشاة والفرسان فلما وصلوا الى ساحة الدير ترجل الفرسان وتقدم بعض المشاة فأمسكوا بأزمة الخيل ووقفوا جانبا لا يفوه أحد منهم بكلمة . فلما ترجلوا جميعا تقدم واحد منهم وهو لا يزال ملثما حتى دنا من قيم الدير فهمس في أذنه فأسرع هذا وسار الكل وراءه الى غرفة باتوا بها ليلتهم وأهل الدير يتساءلون عمن عسى أن يكون هؤلاء الناس المتنكرون ، ولكنهم عرفوا من قيافتهم وسروج أفراسهم أنهم من أهل الشام ، وكانوا قد سمعوا بحروب المسلمين هناك فترجح لديهم أنهم بعض كبار الغساسنة ، وكان هذا هو الواقع ، فهؤلاء اللاجئون الى الدير مستترين فيه ، لم يكونوا غير جبلة وأهليه .

أما حماد وسلمان فلما عزما على العراق سارا لوداع أبي عبيدة فاذا هو يتأهب لوداع الامام عمر وقد هم بالرجوع الى المدينة ، فوقفا ريثما ودعه فامتطى عمر وركب معه بعض الامراء وودع الناس وتحول نحو المدينة ، وسلمان وحماد ينظران اليه ويعجبان بما أوتيه من رفعة المنزلة مع رغبته في الزهد والاقتصار على بسائط الاشياء .

ولما توارى الامام عـاد الامـراء الى معسكرهم وفي مقدمتهم أبو عبيدة فانتظر حمـاد وسلمان ريثما خلا الى نفسه فسارا اليه واستأذناه في الانصراف ، فقال : « الـى أين ؟ » .

فقال حماد : « اننا سائرون الى العراق عسى أن نلتقي بـأبي فقـد طالت غيبته » .

قال : « ثقوا بسلامته وصحته فانه مقيم على الرحب والسعة ، وهل سمعتم خبرا عن جبلة ؟ » .

قال : « لم نسمع خبرا بعد ولعلنا نعرف عنه شيئا » .

قال ذلك لمـا يعلم من أن أبا عبيدة اذا علم بمكـانه بعث من يقبض عليه عملا بارادة الامام عمر .

فقال أبو عبيدة : « أظنكما تعثران عليه في العراق ، فقد سمعت من بعض الناس أنه سار الى هناك وربمـا أقـام بدير هنـد الكبـرى خارج الحـيرة » .

فلما سمع حماد ذلك أجفل ولكنه تجلد وتجـاهل وقال : « سنبحث عنه جهد الاستطاعة ، وهل تظن عليه بأسا اذا عرف مكانه » .

قال : « ان أمـير المؤمنين كتب الى عماله في الشام وفلسطين والعراق كـافة أن يقبضوا على الرجل حيثما وجدوه لأنه أسلـم ثم ارتد وخرج من المدينة فـارا » .

فارتاح حماد لأنه لم يبح بمكـان جبلة ، ولكنه خـاف عليه مـن الرقباء ومال الى العجلة في المسير الى العراق ، فـاستأذن أبا عبيـدة وودعه هو وسلمان ثم سارا الى خالد وغيره من الامراء فودعـاهم وخرجا يتأهبـان للرحيـل .

وبعد بضعة أيام حمل حماد وسلمان ما استطـاعا حمله من المتاع وخرجا من بيت المقدس ، وفي أثناء الطريق قال حماد : « لا تظننـا اذا

أتينا العراق عائدين الى هذه البلاد فلنأخذ أمتعتنا التي تركناها في بصرى ولا سيما الدرع فانها كنز ثمين عندي وقد أحتاج اليها في دفاع أو هجوم • فمرا ببصرى فنزلا البيت وحملا منه ما طاب لهما من خفيف الحمل وغالي الثمن ، وخرجا الى دير بحيراء ودخلا الصومعة وقبلا أيقوناتها ، فتذكر حماد أياما مرت به هناك فهاجت أشجانه وتاقت نفسه الى العراق لملاقاة حبيبته قبل أن يصيبها سوء ، ولقيا في دير بحيراء خادمة هند فسألاها عن حالها فذكرت أنها ستسير في أثرهما مع قافلة من قوافل العراق •

أما هما فاصطحبا خادما أو دليلا يسوس الخيل ويدلهما على الطريق ، وسارا وهما تارة يمران بغياض وطورا برمال وآونة بجبال وأودية وتارة بصخور وعرة • وكانت أكثر البقاع مشقة عليهما صحراء الشام وفيها بقايا مدينة تدمر العظمى • وبعد بضعة عشر يوما أطلا على وادي الفرات من أكمة مرتفعة ، فاذا هو سهول منبسطة يخترقها الفرات ، وفيها القنوات والبحيرات بينها المغارس والبساتين والمزارع • وكان وصولهم الى هناك قبل الغروب فوقفا والخادم ينصب الخيمة على نية المبيت فوق ذلك التل • أما حماد فوقف على متن جواده والتفت الى تلك السهول الخصبة وما يتخللها من القرى والمدن وفيها الماشية عن بعد وشجر النخل كأنه جند واقف لالقاء التحية ، فتذكر ملك أبيه النعمان وقال في نفسه : « هذه هي البلاد التي كان يحكمها أبي »• ومرت بذاكرته خيالات جمة أكثرها مخيف ولكن صورة هند كانت تظللها كلها فتزيل المخاوف • على أنه ما لبث أن تصورها في حال الضيق فعاد الى قلقه •

أما سلمان فكان يساعد الخادم في نصب الخيمة واعداد معدات الراحة ، فلما فرغ من ذلك جاء الى سيده وطلب اليه أن يترجل فساق

الخادم الفرس ووقف حماد وسلمان ينظران معا الى وادي الفرات •

فقال حماد : « وأين موقع الحيرة يا سلمان ؟ » •

قال : « ان الحيرة أول مدينة تستقبلك قبل وصولك الى الفرات وأظننا نشرف عليها غدا وبينها وبين القادسية بضعة عشر يوما •

ثم جلسا للعشاء وانصرفا بعده للرقاد لأن التعب أخذ منهما مأخذا عظيما • وفي الصباح التالي بكرا وركبا وحماد لا يصدق أنه يشرف على الحيرة ويرى دير هند ولو عن بعد • وبعد ظهيرة ذلك اليوم أشرفا على بحيرة كبيرة ظنها حمادا حين رآها لأول وهلة بحرا فقال : « ما هذا يا سلمان ؟ » • قال : « هذه بحيرة النجف يا مولاي ، وعلى ضفافها جرت وقعة القادسية التي سمعنا خبرها في معسكر أبي عبيدة • ووراء هذه البحيرة شمالا مدينة الحيرة مقام المناذرة أجدادك ، ووراء الحيرة شرقا نهر الفرات • وأما دير هند فهو خارج الحيرة وربما أطللنا عليه بعد قليل • ولا يخفى عليك أن معظم الكروم والبساتين المجاورة للدير في ضواحي الحيرة هي من أملاك الأمير عبد الله ، ولا ندري ماذا جرى فيها بعد وقعة القادسية ، واذا كان مولاي الأمير ممن شهدوا الوقعة فأظنه تدبر في حفظها وحمايتها » •

فقال حماد : « ألا ترى اذا أطللنا على الحيرة الآن أن نبيت ليلتنا في الدير » •

قال : « لا أظننا نستطيع والمسافة بعيدة ولا ندري بما هنالك من العقبات فقد نبيت الليلة في مكان على مقربة من الحيرة وفي الغد نسير الى الدير » • قال : « حسنا » •

وفي الغروب ظهرت لهما الحيرة بأبنيتها ولكن الظلام غشيها قبل أن يتبيناها فباتا تلك الليلة وأصبحا وحماد لم ينم الا قليلا لشدة قلقه

وتشوقه فكان كلمـا تصور ملاقـاة هند اختلج قلبه ، فوصلا الى ضواحي الحيرة عند الظهيرة وأطلا على دير هند ، فلمـا رآه حماد تذكر أنه يعرفه من قبل ولكنه لم يدخله ، فمشيا بـين الكروم ومغارس الفاكهة والزيتون وسلمـان يدله على ما يملكه الأمير عبد الله منها ، وحمـاد يزيد استئناسا ولكنه مـا زال مشغولا بهند . ثم وصلوا الى قنـاة من المـاء تظللها شجرة عظيمة وحولهـا الأشجـار يانعة يمر بهـا النسيم اللطيف فتسمع لأوراقها حفيفا يطرب السمع بمـا يمازجه من خرير المـاء الجاري فـوق الحصباء . فاقترح سلمان على حماد أن يستريحـا هناك ويتناولا الغداء ويدخلا الدير في الأصيل .

فقال حماد : « لا صبر لي على ذلك ، كيف تكون بقـرب الدير ولا نسرع اليـه ؟ » .

قال سلمان : « أرى والامر لمولاي أن تستريح أنت هنا والخـادم يدبر لك الطعام ، وأذهب أنـا الى الدير أبحث عـن هنـد وأعـود اليـك بالخبر » .

قال : « لا أراني قادرا على ذلـك ، ولا بد لي من المسير معـك ، فلنترك أحمالنا تحت هذه الشجرة ونذهب الى الدير » .

قال : « افعل ما بدا لـك » . فشربـا وغسلا أيديهما ووجهيهما من الغبـار وهمـا بالمسير .

★ ★ ★

سار حماد وسلمان بـين الاشجار ، والشمس فوق الرؤوس فلـم يغنهما ظل الاغصـان الا قليلا ، حتى انتهيا الى باب الديـر وحماد قـد نفد صبره . وكان سلمان عارفا الجرس المعلق هناك فجـذب الحبل ودق

الجرس فدق قلب حماد معه، ثـم وقفـا برهة لم يفتح لهمـا أحد ، فأعاد سلمان الدق ، وبعد قليل أطل من فوق الباب راهب وقال مستفهمـا : « من أنتم ؟ » . قال سلمان : « زوار للدير » .

قـال : « من أين أنتم قادمون ؟ » . قال : « من جهات الشام » .

فقال الراهب بلهجة النفور : « لا محل للزيارة عندنا » . وتحـول الى داخل الدير فناداه سلمان فلم يجب فكلمه بلسان أهل الحـيرة فعاد الراهب وقد تذكر أنه يعرف ذلك الصوت فأطل ثانيـة من أعلى البـابّ وقـال : « مـن أنتم ؟ » .

قال سلمان : « لسنا من أهل الشام وانما نحـن عراقيون مثلكـم افتحوا لنا » . فتفرس الراهب في وجه سلمان برهة ثـم جذب سلسلة مشدودة بالنافذة ففتح الباب ، فدخل حماد وسلمان وفرساهما وراءهمـا ، فأخذ الراهب يرحب بهما وينظر الى سلمان لعله يعرفه » .

فقال له سلمان : « أتعرف هذا الشاب يا حضرة الأب ؟ » . وأشار الى حمـاد .

فالتفت اليه وقال : « أليس هو الأمير حماد ابن الأمير عبد الله ؟ » .

قال : « بلى فهل رأيت الامير عبد الله ؟ » .

قال : « رأيته مرارا وهو الآن مع جند المسلمين في خير ، ولولاه لأصابنا ضنك وربما قتلنا فقد كان لنا عونا بورك فيه ومرحبا بابنه » .

وما زالوا سائرين حتى أتوا دار الضيافة وحمـاد ينظر يسنة ويسرة وقد شاعت عيناه لعله يرى شيئا يتنسم منـه رائحة هند فلم ير الا رهبانا وفعلة ، فدخلوا دار الضيافة وتناول بعض الخدم الفرسين فساقوهما الى الاسطبل وبعثوا من يدعو الخادم ليأتي بالأحمـال .

أما حماد فتعاظم قلقه ولم يعد يستطيع صبرا ، فـأدرك سلمان فيه ذلك فابتدر الراهب الاستفهام عما منعه من فتح الباب لهمـا أول الأمر ،

وماذا يخافونه من أهل الشام ، فقال الراهب : « نلتمس من الامير حماد عذرا ، فقد وقعنا منذ أيام في ورطة بسبب أضياف نزلوا عندنا وكانوا قادمين من الشام » •

فقال سلمان : « ومن هم أولئك الأضياف ؟ » •

قال : « جاءنا جماعة نزلوا في هذا الدير شهرا ونحن نحسبهم من أعيان الشام ثم عرفنا أنهم جبلة بن الأيهم وامرأته وابنته وبعض خدمه » •

فلما سمع حماد ذكر جبلة وأهله خفق قلبه وخاف أن يسمع خبرا يسوؤه ، وقد عودته حوادث الايام أن يتشاءم فأصاخ بسمعه ليرى ما تم لهم واكتفى باصغائه حثا للراهب على اتمام حديثه • وكان بعض الرهبان قد جاءوا بالمواعين فيها الماء ليغتسل الضيفان فلم يلتفت أحد منهما اليها وظلا مصغيين ، فقال الراهب : « أقام الملك جبلة بيننا أياما على الرحب والسعة ونحن لا نحسبه الا من بعض أمراء الشام • على أننا كنا نعجب لاحتجابه في الدير واحتباسه عن العيون في حين تدل هيئة خيوله ومعداته على أنه محب للصيد والفروسية • ولكن الأمر انكشف لنا بغتة فجاءنا جماعة من جند المسلمين عصر أحد الايام وفيهم الفرسان والمشاة ، وقرعوا الباب ففتحنا لهم غير هائبين لما نعلمه من العهود التي قطعوها للمحافظة على الاديار والكنائس • فخرج الرئيس لاستقبالهم فقالوا : (لا خوف عليكم ولكن عندكم عدوا فر منا في حرب الشام ، وكان قد أسلم ثم ارتد فلا بد من القبض عليه وسوقه الى الامير سعد بن مالك) •

« فسأله الرئيس عن ذلك العدو فقال : (انه جبلة بن الايهم ملك غسان) • وكان جبلة قد رأى الرجال وعلم أنهم قادمون للقبض عليه ، ولو كان وحده لتمكن من الفرار ولكنه لم يجد اليه سبيلا • فقبضوا

عليه وساقوه معهم ولم يمهلوه ريثما يلتفت وراءه » .

فقطع سلمان الحديث قائلا : « هل أخذوه وحده » .

قال : « ساقوا معه امرأته والخدم » .

فقال حماد : « وماذا جرى لابنته ؟ » . قال ذلك وهو مضطرب الحواس .

فقال الراهب : « أما ابنته هند فكانت قد خرجت في صباح ذلك اليوم لزيارة دير هند الصغرى في الحيرة على أن تقضي نهارها هناك وتعود في المساء . فلما جاءت في المساء أخبرناها بما كان فأجفلت ولطمت خديها وندبت أباها ثم وقفت تبكي تارة وتفكر اخرى حتى قاربت الشمس الزوال ونحن نخفف عنها ؛ ثم سألتنا عما قاله أبوها قبل ذهابه ، فأجبنا بأنه لم يجد وقتا ليقول شيئا . فأسرعت الى جواد لها كان باقيا هنا فركبته وتزملت بعباءة من الحرير المزركش وانطلقت في الجهة التي ساروا فيها ، ثم لم نعد نعلم عنها شيئا » .

وما أتم الراهب كلامه حتى انقبضت نفس حماد واتقدت الغيرة في قلبه وتولاه اليأس ، فلبث صامتا كأنه أصيب بصدمة ثم التفت الى سلمان فاذا هو صامت لا يفكر .

ثم قال سلمان : « وهل سمعتم عنهم شيئا بعد ذلك ؟ » .

قال : « سمعنا أخبارا متضاربة فمن قائل : (ان أسعد أمير جند المسلمين قتلهم) . ومن قائل بأنهم قتلوا قبل وصولهم اليه ، وقائل بأنهم لا يزالون أحياء » .

فازداد اضطراب قلب حماد وهم بالنهوض فأقعده سلمان وقال للراهب متجاهلا : « وماذا سمعتم عن ابنته المسكينة ؟ » .

قال : « لم نسمع شيئا عنها منذ خروجها ولعلها اقتصت آثارهم الى معسكر المسلمين » .

فلم يعد يستطيع صبرا فنهض الى جواده وتبعه سلمـان .

وكان خادم حماد قد وصل الى الدير بما معه من الامتعة ، فأودعها احدى الغرف ولحق بهمـا .

فقال سلمان : « أرى أن نقصد معسكر المسلمين وندخل على سعد ابن مالـك أميرهم فنسأله عن مولاي الامير عبد الله ، وهو عنده من كبار المشيرين كما تعلم ، فاذا لقينـاه أعاننا في البحث عن جبلة وأهلـه ، واذا كان جبلة لا يزال حيا وسطنا الأمير عبد الله في العفو عنه » .

فقال : « نعم الرأي رأيك ، ولكن أين نجد هندا ؟ » .

قال : « لعلها معهم ، وهب ان أباهـا قتل فهي لا تقتل لأن المسلمين لا يؤذون النساء ، فعسى أن نجدها عندهم ، وأن يكون سيدي الأمـير عبد الله قد رآها أو عرف مقرها » .

ثم تجلدا ودخلا على رئيس الدير وكـان قد عرف قدومهما ، فرحب بهما وقبل حمادا وأمر لهما بمائدة ، فقالا : « لا نستطيع طعاما لاننا خارجان للبحث عن الامير عبد الله في معسكر المسلمين ، فأين معسكرهم ؟ » .

قال : « ان المسلمين معسكرون الآن تجـاه المدائن في بهر شير ، وأظنكم تعرفونها وهي القسم الغربي من المدائن . فقد نزلهـا المسلمون وحاصروها ورموهـا بالنبال والمجانيق حتى فتحت ، فاحتلوها وهم عاملون على فتح القسم الآخر من المدائن » .

فقال سلمان : « اني أعرف بهرشير جيدا وهي قريبة » .

- ٣١ -

فتح المدائن

ودع حماد وسلمان رئيس الدير ، ونزلا الى الغرفة التي وضعت

بها الأمتعة ، فلبس حماد درعه ورداء النعمان وجعل خاتمه بين أثوابه ، وكان سلمان ينظر اليه فسأله عن سبب لبسه ذلك الرداء فتنهد وقال : « ألسنا ذاهبين الى المدينة التي قتل فيها أبي النعمان ؟ ولقد آن الوقت الذي يجب علي أن أنتقم فيه لأبي ، وهؤلاء جنود المسلمين على أبواب المدائن ، فسأقاتل حتى أدخل الايوان بنفسي فاقتل كسرى بيدي فاذا قتلت قبل ذلك فما أنا خير من هند ولا عيش لي بعدها » .

ولبث سلمان صامتا لا يدري ما يقول . ثم قال : « ألا ترى يا مولاي أن تتنكر بزي المسلمين لئلا يستغشنا أحد وسط المعركة فيحسبنا من الفرس أو من عرب الحيرة أحلافهم » .

قال : « لقد رأيت حسنا » . وكان بين ثياب سلمان كثير من تلك الأثواب لما كان يحتاج اليه من التنكر ، فأخرج ثوبين لبساهما واعتم كل منهما بعمامة أهل الحجاز .

ثم ركبا وأطلقا الاعنة للجوادين وأفكارهما سابحة فيما سمعاه وهما لا يتكلمان . فأمسى عليهما المساء وراء الحيرة فباتا في دير هناك ، وأصبحا راكبين فمرا بجيف بعضها رمم خيول وجمال وبعضها جثث آدميين مبعثرة في تلك السهول لم يبق منها غير العظام الضخمة التي لم تقدر على قضمها النسور . فتذكرا ما وقع هناك من الحروب الهائلة بين المسلمين والفرس . ثم قطعا الفرات على جسر من السفن . وفي اليوم التالي أشرفا على المدائن وقصورها ، ثم همزا الجوادين حتى وصلا بهرشير فاذا هي في هرج والناس فيها بين فارس وماش يهرعون نحو النهر ، فسألا عن سعد بن مالك فقيل لهما : « انه يخوض النهر بجيشه لفتح المدائن والمسلمون يقتفون أثره » . فبحثا عن الأمير عبد الله فلم ينبئهما بخبره أحد ، فصعدا الى أكمة أشرفا منها على المدائن والنهر ، فرأيا المسلمين يقطعونه على جيادهم والرماح مشرعة في أيديهم ، وبعضهم قد

بلغوا الضفة الاخرى يحملون الاعلام . ونظرا الى المدائن فـاذا ببعض حاميتها قد خرجوا من الأسوار فأفيالهم وأفراسهم وأعلامهم يتأهبـون للقاء المسلمين ، وقد علا الضجيج حتى صمت المسامع ، وتصاعـد الغبار حتى حجب السماء . فهاجت عواطف حماد وجرى دم الملـوك في عروقه وثارت الحمية في رأسه ، ونظر سلمان اليه فرآه قد احمرت عيناه وهو يتفرس في ساحة القتال كأنه يهم بالوثوب اليها فقال له : « مـا بـال مولاي مشغولا ؟ » .

فنظر حماد اليه وقال : « أراني يا سلمان راغبا في نزول هـذه الساحة فقد حلت ساعة الانتقام لأبي » .

وما أتم حماد كلامه حتى ارتعشت أنامله وثارت عواطفه ولم يتمالك عن همز جواده نحو النهر حتى بلغه فخاضه وسلمـان في أثـره على جواده حتى أتيا الضفة الأخرى فرأيـا المسلمين يطاردون الفرس حتـى دخلوا المدائن في أثرهم وأوغلوا فيهـا وحماد في جملتهم ، حتى أتوا ايـوان كسرى فدخلوا حديقته وخيولهم تدوس الأزهار والرياحين ، ورماحهم تخترق أغصان الليمون والازدرخت ، فلمـا وصلوا الى بـاب الايوان كان حماد أول داخل وقد اعتزم أن يقتل كسرى بيده . والايوان قـاعة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون ، مبنية بالآجروالجص ، وسقفها عقد واحد قائم على عمد من الرخـام المنقوش ، وفي صدر الايوان عرش يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة في داخلهـا مروحـة من ريش النعام ، والى جانبي العرش مجالس الاعوان والوزراء من المرازبة والكهنـة ، وجدران الايوان وسقفه مزينة بالرسوم وبينهـا رسوم لكسرى أنو شروان وغيره من الأكـاسرة العظـام ، وأبيات من الشعر الفارسي مكتوبة بالحرف الكلداني ، وفي سقف الايوان رسوم الافلاك والاجرام .

فلما رأى حماد نفسه وسط الايوان ووقع نظره علـى ذلك العرش

أسرع نحوه وهو يحسب كسرى جالسا عليه فاذا هو خال وليس في المكان أحد من الفرس لفرارهم جميعا الى حلوان . ولم تمض لحظات حتى امتلأ الايوان بالمسلمين وقد أخذوا في تكسير التماثيل وتمزيق الصور ، وكان الفرس قبل خروجهم قد حملوا معهم ما خف حمله وغلا ثمنه وبقي بعد ذلك مما لا تقدر قيمته من الذهب والحجارة الكريمة والثياب المزركشة والاسلحة المذهبة .

فلما تحقق حماد سقوط المدائن ، أخذ يبحث عن الامير عبد الله فلم يره بين الهاجمين ، فانشغل باله وكان سلمان أكثر قلقا على عبد الله ، فقال لحماد : « لا تبعد أنت عن هذا الايوان فاني ذاهب الى سعد بن مالك أمير هذا الجند لعلي أسمع منه خبرا عن مولاي الامير » .

قال : « حسنا » . وبقي حماد بين الجند حتى عاد سلمان فقال له حماد ، « ما وراءك ؟ » . قال : « لقيت بعض حاشية سعد بن مالك وسألتهم عن الامير عبد الله فقالوا انه كان معهم ولكنه خرج من المعسكر أول من أمس ولم يعد » .

فقال : « هل سألتهم عن جبلة ؟ » .

قال : « سألتهم فقالوا ان سعدا أمر بقتله منذ قبض عليه » .

فقال : « هل كانت هند معه عند قتله وماذا جرى لها ؟ » .

قال : « علمت أنها لم تكن معه ، وان جبلة سيق أسيرا ومعه امرأته فقط ، وعلى كل حال لا ظننا تتبين الحقيقة الا من سيدي الامير عبد الله » .

وتركا المدينة والمسلمون يحسبونهما من جملة جندهم لما تنكرا به من الزي الحجازي ، حتى اذا صارا خارج المدائن قال حماد : « أخاف أن يكون الأمير عبد الله قد لقي حتفه أيضا » .

قال : « لا أظن ذلك ، لأنه لم يكن في المعركة . وقد علمنا أنه كان

في المعسكر قبل الهجوم فلعله التجأ الى مزرعة لـه على بضعة أميال منا فلنذهب اليها لعلنا نقف على خبره من بعض الفلاحين هناك » .

قال حماد : « سر أنت في هـذه المهمة ودعني أعـد الى الحـيرة لأجدد البحث عن هند ، فلعل أحدا من أهل الدير ينبئني بخبرهـا . ولنضرب موعدا نلتقي فيه في موضع نعينه » .

قال : « حسنا ، أرى أن نلتقي في دير هند الصغرى في الحـيرة بعد ثلاثة أيـام فمن استطلع خبرا قصه على الآخر » . وافترقا .

أطلق حماد لجواده العنان حتى عاد الى النهر فخـاضه وسار قاصدا دير هند الكبرى ، وبات ليلته في الطريق ، ثم نزل بـالدير في أصيل اليوم التالي ، وقد فتحوه له وهم يحسبونه مسلمـا لتنكره بلبـاس الحجازيين ولبثوا ينتظرون ما يبغيه فلم يكلمهم وقصد غرفة الرئيس ، فاستقبله هذا أحسن استقبال وبالغ في اكرامه .

وأطلعه حماد على حقيقة أمره ، وقص عليه خبر المدائـن وفتحها فشكر الله وقال : « لقد توسمنا قرب سقوط الفرس منـذ أشهر لأنه سبحانه وتعالى لا يبقى على عبدة النار فان هؤلاء الفاتحين ــ وان لـم يكونوا نصارى ــ يعبدون الله ويوحدونه ويؤمنون بالانبيـاء والرسل ويـذكرون عيسى ومريـم بالخـير ، ففي انتصارهم نصرة للـديـن القويـم » .

ولم يكن هذا الحديث ليهم حمادا ولكنه صبر حتى فـرغ الرئيس من كلامه فقال له : « هل سمعتم شيئا عن جبلة بعد ذهابي ؟ » .

قال : « لم نسمع عنه شيئا ، ولكننـا سمعنا خبرا عن ابنته » .

قال : « وماذا سمعتم عنها ؟ » .

قال : « ان بعض رهباننا يقصدون سوق الحيرة مرتين في الاسبوع ليستبدلوا بما يفضل عندنا من غلات أرضنا مـا نحتاج اليـه من الانسجة

أو الآنيـــة ونحوها ، فاتفق للذين ذهبـوا الى هنـاك على أثر خـروج جبلة وأهله أنهم رأوا هندا في بعض طرق الحـيرة ، على أنهـم اختلفوا في أمرهـا » •

فلمـا سمع حماد ذلك تحير في أمره ، ومـال للمسير الى الحـيرة ليتفقد هند بنفسه ، فتظـاهر بالاكتفـاء بمـا سمعه وهم بالنهـوض ، فدعـاه رئيس الدير للمبيت عندهم فاعتذر بمـا يدعوه الى سرعـة المسير ، وودعـه وخـرج قاصدا الحـيرة والشمس قـد مـالت الى المغيـب •

ولم يكد يتوارى عن الدير حتى أشرف على الحيرة ورأى غديرهـا المتصل بالبحيرة ، وقد غابت الشمس وأخذت الكواكب في الظهـور ، فأظلمت الدنيا في عينيه والتفت فاذا هو على ميل وبعض الميـل مـن المدينة ، ثم اشتد الظلام ولم يعد يرى الطريق ، حتى تبـين له نور بعيد مزدوج عرف من خفقانه أنه وقود عند الشاطىء انعكس نوره في المـاء فظهر مزدوجا فقصده ، وقبل أن يصل اليه سمع صوتا يناديه بلغة أهل العراق : « من أنت ؟ » •

فقال : « غريب لا أعرف الطريق ، ومن أنت ؟ » •

فقال : « يا أهلا بالضيف يا أهلا بالفارس » •

ثم رأى حماد الرجل قادمـا وبيده خشبة مشتعلـة يستضيء بهـا فتفرس فيه فاذا هو شيخ طـاعن في السن قد استرسلت لحيته وشاب شعره ولكنه لا يزال في نشاط الشباب ، وعليه عبـاءة خرقة ، وبيـده عصـا كبيرة ، فعرف حماد أنه راع ، على أنه ما لبث أن سمع معاء المـاعز فتحقق ظنه ولكنه لم ير هنـاك بناء ولا خيمة فترجـل وسلم والراعي يتفرس فيه وينظر تارة الى وجهه وطـورا الى لبـاسه ، وكـأنه يعجب من لبـاسه الحجـازي وكلامه العراقي • ثم أخذ الراعي جواد حماد فقاده بعناية ،

ومشى وحماد في أثره وهما لا يسمعان صوتا غير معاء الماعز ونقيق الضفادع ، حتى انتهيا الى كوخ صغير مبنى من سعف النخل ، ربض عند بابه كلب كبير الجثة ، وقد ظل رابضا هادئا كأنه أدرك أن النازل ضيف لا خوف منه على القطيع •

وجاء الراعي بفرو من جلد الماعز جلس عليه حماد ، ثم ذهب بالجواد الى عمود وراء الكوخ فشده اليه ، وأخذ في نزع السرج • وفيما هو يفعل ذلك سمعه حماد يتمتم ويقول أقوالا لم يفهمها ، فناداه فلم يجبه ، فأعاد النداء فجاء الشيخ واللجام بيده فنظر حماد اليه فاذا هو يبتسم فبانت لثته ولم يبق فيها الا سن بارزة الى الاعلى •

فقال له حماد : « ما يضحكك يا أخا لخم ؟ » •

قال : « أضحكني ما رأيته في عدة هذا الجواد مما يشبه عدة جواد تعودت أن أراه كل ليلة من ليالي الأسبوع الماضي يركبه فارس قد أعجبني فيه ما أعجبني فيك » •

قال : « من هو ذلك الفارس ؟ وما الذي أعجبك فينا ؟ » •

قال : « لقد أعجبني فيكما التنكر فان ذاك كان يأتيني في كل صباح ملثما وعليه عباءة من الحرير فيكلمني بصوت النساء وعليه رداء الرجال • وأنت جئتني بلباس الحجاز وكلام العراق فلا أدري هل تغيرت الأرض واختلط الناس أم ماذا حدث ؟ » •

فتذكر حماد هندا وما سمعه وما ترملها بالعباءة بعد خروجها من الدير ، فاستأنس بحديث الرجل وهم باستيضاحه الأمر فاذا هو قد تركه وتحول نحو الحظيرة ذاكرا أنه سيعود على عجل ، فلبث حماد كأنه على الجمر حتى عاد الراعي وفي يده قطعة من الخشب قد أكمد لونها من توالي السنين على استخدامها بلا غسيل وفيها لبن جلبه من ماعزه وقدمه له ليشرب •

فاعتذر حماد بأنه لا يحتاج الى طعام . فقال الشيخ : « لقد نزلت ضيفا فما عليك الا أن تتناول الطعام واذا كنت ملآن الجوف فتمهل ريثما آتيك ببعض الخمر » . قال ذلك وتحول نحو الكوخ وعاد بقصعة فيها خمر فقدمها لحماد وهو يقول : « اليك هذه الخمر ، فانها من غلة كرمنا هذا العام » . فتناول حماد القصعة لا رغبة في الشرب ولكنه خاف اذا اعتذر أن يأتيه الشيخ بشيء آخر .

ثم جلس الراعي بجانب كلبه ويده على رأس الكلب يلاعب ناصيته بين أصابعه وهو ينظر الى حماد . فابتدره حماد قائلا : « ذكرت لي الفارس المتنكر ولم تتم حديثك » .

قال : « هذا هو كل حديثي عنه فانه أتاني منذ بضعة عشر يوما فأوقف جواده عند هذا الكوخ وطلب مني الذهاب الى دير هند لأستفهم له عن أناس قادمين من الشام هل نزلوا الدير أم لا . وكنت اذا نظرت اليه رأيته فارسا ملثما ، فاذا تكلم خلته امرأة . فسألته أن يحسر اللثام عن وجهه فأبى ودفع الي دينارا ، فأطعت أمره ووعدته بالجواب في المساء فعاد في المساء وهو يظنني ذهبت لانفاذ مهمته ولم يدر أني لا أستطيع التخلي عن ماشيتي وليس عندي من أعهد في أمرها اليه . فلما سألني أجبته بأني سألت أهل الدير فقالوا أنه لم يأتهم أحد . وما زال يكرر زياراته ويدفع الدنانير وأنا أجيبه جوابا متشابها حتى جاء منذ بضعة أيام واستحلفني ببدر الماشية والسيدة مريم أن آتيه بالخبر اليقين ، فسرت الى الدير فعلمت أنه لم يأتهم أحد ، وأنهم لا يقبلون أحدا من أهل الشام . فلما أخبرت الفارس بذلك غضب وتمتم ، ثم تحول عني ولم أعد أراه منذ ذلك اليوم ، فندمت لاخلاص الخدمة وانفاذ المهمة بالصدق . فلما رأيتك وآنست المشابهة بينكما ضحكت وعولت على الا أصدق في خدمتك » .

فلما سمع حماد ذلك تحقق أن السائل هند بعينها فقال للشيخ : « ألم تعلم الجهة التي سار فيها ذلك الفارس ؟ » .

فلما أبطأ الشيخ في الجواب ، مد حماد يديه وأخرج دينارين دفعهما اليه فتناولهما الشيخ وهو يتفرس فيهما ويضحك ثم قال : « أما اذا شئت أن أصدقك الخبر فاعلم أن الفارس سار محاذيا هذا الشاطىء » .

وأخذ الشيخ بعد ما آنس من بذل حماد يبالغ في اكرامه ، ويقدم له الخمر واللبن ، فلما رآه لا يشرب شيئا وقد مضى بعض الليل دعاه للرقاد في الكوخ فقال حماد : « لا أحتاج الى رقاد » .

فقال : « اذا كنت تحتقر كوخي وقد تعودت النوم على الاسرة ، فاني معد لك فراش من الحرير . ودخل الكوخ ثم عاد وفي يده ملاءة فرشها له ، فعجب حماد لوجود تلك الملاءة عنده فتفرس فيها فاذا هي عباءة مزركشة فأجفل لرؤيتها ومد يده فتناولها ونظر اليها في ضوء القمر فاذا عباءة هند ، وكان كثيرا ما يراها عليها اذا ركبت فصاح في الرجل : « أين لك هذه العباءة ؟ » . فضحك الراعي ضحكة يمازجها خوف ، ثم أشار الى كلبه وقال : « انها من صيد هذا الكلب » .

قال : « وكيف كان ذلك ؟ » .

قال : « افتقدته ذات صباح فلم أجده ، وكان قد تعود الغياب في بعض الايام ، ثم ما لبث أن عاد وفي فمه هذا الرداء يجره وراءه » .

★ ★ ★

تحقق حماد ان العباءة التي جاء بها كلب الراعي هي عباءة هند ، فخاف أن يكون هناك سبب محزن فخفق قلبه وتشاءم وحدثته نفسه بأن يتبع الشاطىء لعله يقف على أثر آخر ، ثم تردد مخافة أن يضل

عن الطريق والوقت ليل ، فحاول الانتظار الى الصباح ولكنه نظر الى السماء وتأمل مواضع الابراج فعلم أنه في نصف الليل فاستبعد الاجل • وكان القمر قد طلع حتى تكبد السماء فأنار البحيرة وشاطئها وأبنية الحيرة • وفي أول تلك الابنية قصر الخورنق الشهير فعول على مغافلة الراعي والمسير على الشاطىء ، فتظاهر بالضجر والقلق وقال له : « أراني لا أستطيع رقادا الان فاحتفظ بالجواد ريثما أتمشى على هذا الشاطىء برهة لعل النعاس يأتيني وأعطني العباءة ألتحفها فتقيني من البرد » •

وتناول حماد العباءة وتزمل بها ، ثم تقلد سيفه وسار الهوينى محاذيا الشاطىء وقد سكن الهواء وأوت الطيور الى أوكارها • وبعد أن قطع مسافة وقف والتفت وراءه فاذا بالحظيرة قد توارت عنه فنظر الى ما حوله فعلم أنه على مقربة من الحيرة وبينه وبينها المغارس والكروم ، وأمامه البحيرة وقد هدأ ماؤها ونور القمر ينعكس عن سطحها فيتلألأ كالزجاج ، والطبيعة هادئة ساكنة لا يتخلل سكونها الا نقيق الضفادع • فجلس على صخر هناك وأطلق لتصوراته العنان •

ثم أوغل في البكاء وهو يقلب العباءة بين يديه ويقبلها ويشم رائحتها حتى تعب وخارت عزيمته فاتكأ على الصخر فعقرته الدرع فتوسد الثرى وألقى رأسه على حجر ، فغلب عليه التعب والنعاس •

★ ★ ★

استيقظ حماد مذعورا كأنه سمع صوتا يناديه ، فنظر الى ما حوله فلم ير أحدا ، فعلم أنها أحلام اقتضتها هواجسه وشكوكه •

وكان البرد قد قرصه والتعب نهكه على أثر ما قاساه من الركوب

نهاره كله مع ما ألم به من التهيج والكدر في ذلـك الليل فالتف بالعبـاءة جيدا ، ونهض ومشى على الشاطىء وهو يحـاذر أن تسمع خطواتـه . ثم رأى النجوم تتوارى رويدا رويدا حتى لم يبق منهـا الا القليل وقد تضاءل ضوؤها ، ولم تمض ساعة حتى سمع دقـات الاجراس من كنائس الحيرة وأديرتهـا فـأخذ يتفرس في الشاطىء لعله يقف على أثر آخـر من آثار هند ، ثم خاف أن ينزل أحد من أهل الحيرة ليغتسل أو يستقي فيراه في تلك الحال فهم بالرجوع . وفيمـا هو يتحول سمـع وقع حوافـر فأجفل والتفت فرأى فـارسا خارجا من سور الحيرة كأنـه يطلب البحيرة ، وما وقع نظره على الجواد حتى خفق قلبه لأنه جواد هند ، لكنه لم ير فوقه سرجا وقـد ركبه غلام يشبه أن يكون خادمـا ، فوقف حتى دنـا الجواد منـه فتأمله فاذا هو جواد هند بعينه ، فبغت واستبشر وصاح في الغلام فوقف فقال له : « الي يا غلام ؟ » .

فحالمـا رأى الغلام العمامة الحجـازية خاف وأسرع نحوه . فقال له : « لمن هذا الجواد ؟ » .

قال : « هو لسيدي الذي أعمل عنده » .

قال : « ومتى اقتناه ؟ » . قال : « أول من أمس » .

قال : « وممن اشتراه ؟ » . «قال : » من بعض الرهبـان في سوق الاربعـاء » .

فقال : « وأنـى للرهبان مثـل هـذا الجواد وهو من خيـول الشام ؟ » .

فقال : « لقد تعودنا مشاهدة مثل هذه الخيول يـا سيدي منـذ قامت الحرب فكل قتيل لم يكن لـه وارث توهب أمتعه وأسلابه للأديرة لتنفقها في سبيل البر » .

فلما سمع حمـاد ذلك أيقن بموت هند غرقـا في تلـك البحيرة ،

وتحول عن الغلام خشية أن يرى بكاءه وأطلق لدموعه العنان .

ثم سكت ونظر الى الشمس فاذا هي لم تطل بعد فقال : « هل أنتظر شروقك لعلك تأتيني ببشارة ام أنت لا تحملين الا البلاء والشقاء ؟ . دعيني أتوسد الماء قبل أن أرى وجهك » . ونظر الى الماء أمامه فاذا هو رقيق لا يغرقه فتحول الى صخر رآه ناتئا فوق الماء على مقربة منه وقال : « الاولى بي أن ألقي نفسي من فوق ذلك الصخر » . ثم مشى نحوه .

- ٣٢ -

لقاء الحبيبين

وصل حماد الى الصخر الناتىء فوق الماء فصعده الى قمته . وفيما هو يتحفز لالقاء نفسه حانت منه التفاتة فرأى أشباحا قادمة هي أشباح نسوة احداهن تحمل جرة والأخرى سلة وأخرى تسوق بعيرا . وكلهن في زي واحد فاستغرب ألبستهن المتشابهة وكلها سوداء وعلى رؤوسهن أغطية سوداء ، لا تكون الا في الاديار . فخيل له أنهن راهبات خرجن للاستقاء وقطف الثمار والبقول من مزروعات الدير ، فحسدهن على سذاجتهن وخلو قلوبهن من لواعج الحب . ورأى حاملة الجرة تقترب نحو الشاطىء ثم ما لبثت أن دنت منه حتى كرت راجعة كأن أحدا يطاردها فاستأنس بخطواتها لمشابهتها خطوات هند وان كانت أضعف منها كثيرا ، فعلق ذهنه بتلك الفتاة وود لو أنه يراها لحظة أخرى فظل يتبعها بنظره حتى رآها وقفت الى رجل يحتطب فخاطبته وأشارت الى حماد ، فاشتغل بال حماد ومال الى معرفة سر ذلك الخطاب ،

ثم رآهمـا آتيـين معا فلبث ينتظر وصولهما فتقدم الرجل أولا وحياه متلطفا في السلام عليه وحمـاد ينظر الى الفتاة وهي منصرفة نحو الشاطىء لتملأ جرتها فقال الرجل لحمـاد : « هل تأذن لـي في سؤال ؟ » • قال : « قـل » •

قال : « من أين اشتريت هذه العباءة لانهـا مسروقة من صاحبهـا ، فاذا أخبرتنا عمن باعك اياها طالبناه بها » •

قال : « ومن هو صاحبها ؟ » •

قال : « الفتاة التي رأيتها الان ، فانها حالما رأتك عادت الي بالخبر ، وكنا قد قضينا ثلاثـة أيام نبحث عنها » •

فلما سمع ذلك الكلام ظن نفسه في منام ، فمسح عينيه والتفت الى ما حوله واستشهد وجدانـه ، فتحقق أنه في يقظـة ، فنظر الى حاملـة الجرة فرآها قد ملأت جرتها وعادت الى زميلاتهـا ، فجعل يتأمل خطواتها فاذا هي خطوات هند ولكـن الجسم نحيل • فقال للرجل : « مـا بال صاحبة العباءة لا تطالب بها بنفسها ؟ » •

قال : « لأن صاحبتها من راهبات دير هنـد الصغرى ، ولا يؤذن لهن في مخاطبة الرجال • وأما أنا فمن خدمة الدير » •

فقال حماد وقلبه يكاد يطير من الفرح وهو يمسك نفسه ويتجلد : « وهل صاحبة هذه العباءة قديمة في سلك الرهبنة ؟ » •

قال : « لا ، فقد دخلت الدير منذ قليل ، وستمضي بضعة أشهـر تحت الاختبار ، ولذلك وهبت الدير كل ما كان معها من الثيـاب والحلى والدواب » • فأيقن حماد أنها هند ، ولولا عمامتـه ولباسه الحجـازي لعرفته لأول نظرة • فلما أيقن أنها هي بنفسها ارتعدت فرائصه وحدثته نفسه بأن يسرع الى هند ، ولكنه خشي عليهـا من البغتـة مع ما آنسه من ضعفها فصبر • ولكنه خاف أن تكون قد نذرت العفة فلا يبقى اليهـا

من سبيل فقال للرجل : « وهل نـذرت العفة ؟ » .

قال : « لا تنذرها قبل أن تقضي فترة الاختبار » .

فاطمأن باله وقال للرجـل : « اذهب الى صاحبة العباءة وقل لها اني لا أعطي العباءة الا تسليما ليدها » .

قال : « قلت لك يا مولاي انها لا تستطيع ذلك » .

قال : « اليك هذا البرد » . وخلع برد النعمـان عنه من تحت العباءة وقـال له : « ادفعه اليها بدلا من عباءتهـا » .

فتناول البرد وتأمله فاذا هو أثمن من العباءة كثيرا ، فأسرع بـه حتى أتى الفتاة وهي لا تزال جالسة وحدها فدفعه اليها وقال : « لـم يعطني العباءة ولكنـه دفع الي هذا البرد » . فلما رأته صاحت للحـال : « حمـاد .. حمـاد ! » . وتركت الجرة وأسرعت نحوه . وكان هـو يراقبها ليرى ما يبدو منها فلما رآهـا نهضت وأسرعت نحوه لـم يبـق عنده ريب في شأنها ، فأسرع لملاقاتها وقد نزع العمامة عن رأسه . فلمـا التقيا وقعت هند وقد أغمي عليهـا ، فأنهضها وأسرع خادم الدير بالمـاء ورشها به فأفاقت وعادت تقول : « حماد .. حماد .. حماد » . وهو يقول : « هند .. هنـد .. حبيبتي .. أأنت حية وأنا أحسبك غريقة في هـذا المـاء ولو تأخر قدومك لحظة أخـرى لذهب حماد طعاما للأسماك ؟ » .

قالت : « وقاك الله يا حبيبي » . ثم غلب عليها الحياء فغطت رأسها بالنقاب الاسود وجلست متأدبة وقد امتقع لونها وتولاها الهزال فقال لها : « أين أبـوك يا هند ؟ » . قالت : « أما سمعتم خبره ، انهم قتلوه وأظنهم قتلوا أمـي ، ولم يبق لي في الدنيـا مطمع بعد ذهابكم . ولا أنـكر عليك أني هممت بالانتحـار غـير مرة ولكن قلبي لم يطاوعني لاني لم أيأس من لقائك بعد . فلم أجـد وسيلة غـير الترهب في ديـر أعرف رئيسته وبعض راهباته ، فطلبت ذلك فقبلوني مبتدئة تحت الاختبار ،

فوهبتهم جـوادي وكل مالي ولم أحفظ شيئا غـير الاساور عربون المحبة بيننا فانها مخبأة بـين أثوابي . وكنت قد أضعت عباءتي هـذه في أثناء رجوعي للمرة الاخيرة من عند الراعي لفرط قلقي وهواجسي ، على أثـر ما أنبأني به ، فلما علمت بفقدها في اليوم التالي وهو اليوم الذي طلبت فيـه الرهبنة ، أخبرتهم بأني فقدتها فاذا عثروا بها كانت حلالا للدير . وهذا هو اليوم الثالث من دخولي وقد كلفوني تجارب كثيرة فحملـت الاحمـال واشتغلت الاشغال الشاقـة فزادني ذلك ضعفا على ضعف » .

وكان الخادم واقفـا وقد ذهـل لمـا رآه ، ثـم أشار الى هنـد أن عملهـا هذا مخالف لشروط الرهبنة فقالت : « دعنـا نذهب الـى الرئيسة » . فنهضت ونهض حمـاد ومشيا لمقابلة الرئيسة . وفيما همـا في الطريق سألته عن سبب تنكره وما مر به فحكى لها حكايتـه بالاختصار حتى أتى الى حديث المدائن والبحث عن أبيها فتنهدت هند وقالت : « آه يـا حمـاد ، اني لسعيدة بلقياك ولكن حظي غـير تـام لما قاسيتـه مـن فقد أبي وأمـي » .

فقال لها : « انا لم نتحقق مقتلهما ، وقد كلفت سلمان بالبحـث عنهما ، وموعدنا في ديـر هند هذا في الغد ، وهـو اليوم الثالـث من افتراقنـا . وقد فزت بحبيبتي فعسى أن يفوز بمن يبحث عنهم والامـير عبد الله معهـم » .

وكانا ماشيين في وسط المدينة لا يهمهما استغراب الناس لمسيرهما معـا ، بل كانا في شاغل من تجاذب القلوب لا يكادان يريان الطريق ، فلما وصلا الى الدير أسرع الخادم الى الرئيسـة فأنبأهـا بما شاهـده من جرأة ذلك الحجازي على الراهبة المبتدئة مما يخـالف العهـود المعطاة من المسلمـين . فأطلت الرئيسة من باب الدير فرأت هنـدا وحمـادا قادمـين ، وكان حماد قد نزع عمامته فعرفت من ملامح وجهه أنه عراقي

فأرادت استطلاع السر فدخلت بهما الى غرفة منفردة ، فهـم حمـاد فقبل يـد الرئيسة فعرفت أنه مسيحي ، فسألته عن أمره . فقال : « ان هـذه الفتاة خطيبتي منذ أعـوام . وقضت حروب الشام بافتراقنا فلم يعلـم أحدنا بمكان الآخر حتى أذن الله باجتماعنا على يدك » .

أما هند فتذكرت أول معرفتهـا حمادا وتذكرت أبويهـا ويأسها من حياتهما فترقرقت الدموع في عينيها ، فلحظت الرئيسة فيهـا ذلـك فقالت لهـا : « ما بالك تبكين يا ابنتي ؟ » . وكان حماد قـد أدرك سبب بكائها فقـال : « انها تبكي لضياع بعض أقاربها في أثناء حرب الشام » .

فجعلت تخفف عنها وتعزيها . وتذكر حماد الامير عبد الله وسلمـان فصبر لـيرى ما يأتي به الغد وقال للرئيسة : « هـل ترين مـا يمنـع خروج هند من سلك الرهبنة ؟ » .

قالت : « لا أرى مانعا لأنهـا لم تنذر العفـة بعد » .

قال : « فلتبق اذن يوما آخـر في ضيافتك لأنني على موعـد مـع خادمي هنا غدا ، وقد ذهب للبحث عن بعض أهلنا ، فاحتفظي بهـا ريثما أعود فاني ذاهب الى راع في ضاحية الحـيرة تركت جـوادي عنـده أمس » .

ثـم نهض فلبس العمامة لئلا ينكره الراعي وتـرك العباءة عنـد هنـد وهـم بالخروج فأمسكته قائلة : « لا تذهب فاني لست تاركتك لحظة بعـد هذا اللقـاء فقد كفانـي ما قاسيته فلا يفرق بيني وبينـك الا الموت » . قـال : « والجـواد ؟ » .

قالت : « دعنـا منـه ، أو أرسل من يأتي بـه . فمـا أنا راضية بذهابك ولا نخـرج من هذا الديـر الا معا أمـا الـى القتـل وأمـا الـى الحياة » .

فعذرها والتفت الى الرئيسة طالبا اليها أن تنفذ رسولا من قبلـها

لاحضار الجواد ، فأرسلت رسولا يعرفه الراعي ويثق بـه ، وأعطاه حماد دينارين ليعطيهما للراعي •

ثم قالت الرئيسة لحماد : لا يخفى عليك يا سيدي أننا في دير راهبات ، لا يؤذن للرجال في دخوله الا اذا نزلوا في دار الأضياف وأما اجتماعهم بالراهبات فمحظور ، فهل تتفضل فتنزل في دار الاضياف ريثما يأتي الغد ؟ » •

قال : « أفعل ما تأمرين » • وودع هند ونزل يصحبه الخادم الى دار الاضياف ، فمر بمربط الخيول فرأى أفراسا شاهد بينها جوادا يشبه جواد سلمان ، ولما وصل الى الدار فوجيء بوجود سلمان فتعانقا وقال سلمان : « هل ظفر سيدي بهند ؟ » •

قال : « نعم ولكنها راهبة في هذا الدير » •

قال : « وهل نذرت العفة ؟ » • فضحك حماد وقال : « لا •• وأنت هل ظفرت بالأمير عبد الله ؟ » •

قال : « ظفرت به وبجبلة وامرأته ! » • قال : « أين هم ؟ » •

قال : « سيصلون الينا الليلة أو غدا ، وسيأتون متنكرين لأنهم كانوا مختبئين عند سيدي الامير عبد الله ، ولولاه لكان حموك في عالم الاموات • ولكن الامير عبد الله حالما علم بالقبض عليه استرضى الذين أمسكوه وأظهر للناس أنه قتل وخبأه في منزله بالمزرعة ريثما يتمكن من العثور على هند أو الاجتماع بك ، فلما وصلت اليهم وأنبأتهم بخبرك أنفذني لأطمئنك وأساعدك في البحث عن هند ريثما يقدمون هم الينا » •

فانشرح صدر حماد أيما انشراح وحمد الله على انقضاء الازمة بالتي هي أحسن ، ولم يملك صبرا عن تبشير هند ببقاء أبيها حيا •

وهم بالرجوع الى الدير فرأى هندا واقفة في الشرفة تطل على دار الضيافة لأنها لم يعد يرتاح بالها على حماد الا اذا كان أمامها ،

فلمـا رأته عائدا وعليه أمارات الدهشة أومأت اليه فنظر اليهـا وضحك ، فضحكت هي وقد أشرق وجههـا ونسيت كـل متاعبها وقـالت : « ما وراءك ؟ » .

قال همسا : « ان أباك وأمك قادمان الينا غدا » .

فأبرقت أسرتها وأسرعت لملاقـاته عند الباب ولم تعبـأ بقوانين الدير . فلمـا لقيته مدت يدها اليه وصافحته وضغط كـل منهمـا يد الآخر . ولا تسل عن حديث القلوب وجواذب العيون .

ثم قالت هند : « هل أنت متحقق صحة هذا الخبر ؟ » .

قال : « لقد جاء به سلمان . وهم قادمون ومعهم الامـير عبد الله متنكرين فاحـذري أن يلحظ أحد ما نحن فيه لئلا نقع في شر أعمالنا فتكون البلية الثانية شرا من الاولى » .

قالت : « لا تخف » . وتحولت عائدة الى الدير ، وتحول هو عائدا الى دار الضيوف .

* * *

في صباح اليوم التالي ، استحسن حماد الخروج لملاقـاة القادمين في الطريق ، فخرج وسلمان معه على الخيول وهند لا تعلم ، وقطعـا مسافة حتى وصلا الى عين مـاء لا بد للقـادم من المدائن الى الحـيرة من الوقوف عندها ، فترجلا وجلسا ولم تمض برهة حتى رأيـا هنـدا وخادمتها قادمتين مسرعتين على الاقدام ، وهند في ثوبهـا الاسود الجديد ، فبهتا وصاح بها حماد : « ما الذي أتى بك يا هنـد ؟ » . قالت : « سامحك الله ألم أقل لـك اني لم أعد أستطيع البعـاد عنك لحظة مخافة أن نعود الى ما كنا عليه من الفراق » .

فشكرها وجلسوا ، ولم يستتب بهم الجلوس حتى رأوا الغبار يتصاعد من جهة الفرات ، فتقدم سلمان لتحقق القادمين ، فعاد ضاحكا مستبشرا ، فنهضوا جميعا وتهيأوا لاستقبال القادمين ، ولكن سلمان مضى فأخبر الركب بأن حمادا وهندا ينتظرانهم ، عند العين ، فترجلوا جميعا وهم جبلة مسرعا الى حماد فضمه الى صدره وجعل يقبله والدموع تتساقط من عينيه ، وأسرعت سعدى الى هند وجعلت تقبلها وتبكي ، ثم قبل جبلة هندا وقبلت سعدى حمادا ، أما عبد الله فظل واقفا يتأمل في ذلك المنظر المؤثر • فلما انتهت سعدى من تقبيل حماد تقدم وضمه الى صدره وجعل يقبله ، ثم تقدم عبد الله الى هند فقبلها والجميع يبكون بكاء الفرح ، وسلمان ينظر اليهم وقلبه يكاد يطير فرحا •

ثم نهض جبلة والدموع لا تزال في عينيه وقال : « أما أنا فلا أقدر أن أصف خجلي من ولدي حماد لما سببته له من الشقاء وما بذله هو والأمير عبد الله من الجهد في سبيل انقاذنا » •

فنظر سلمان الى جبلة وقال : « الا تزال سيدتي هند تمتنع على سيدي حماد ، ومن يا ترى أفضل لديك : حماد ؟ أم ثعلبة ؟ » •

فضحكوا جميعا ثم نهض عبد الله وقال : « اعلموا أيها السادة أننا في خطر عظيم الآن ولم يعد يحلو لنا المقام في هذه البلاد لأننا أعداء الفرس بالطبع وأعداء المسلمين بالفعل لما ارتكبناه من مخالفة أميرهم ، فلا شك في أنهم سيبحثون عنا ويبذلون كل سعي في القبض علينا » •

فقال سلمان : « لقد نطقت بالصواب ، وأزيد على ذلك أننا لا نبرح الحيرة قبل أن نعقد للعروسين ثم نذهب حيثما تشاءون ، ولو غضب حماد وهند ! » •

فضحك الجميع ، ثم قال جبلة : « هذا هو الرأي الصواب ، واذا

استحسنتم فلتكن وجهتنا القسطنطينية مقر الامبراطور هرقل نقضي بقية العمر هناك ، اذ لم يبق لنا مقام في الشام ولا العراق » .

قالوا : « حسنا » . ونهضوا الى كنيسة بقرب الدير عقدوا فيها قران حماد وهند .

ولا يحتاج القاريء الى وصف قيمة تلك الساعة السعيدة ، فانها أسعد ساعات العمر ، وبعد الاكليل ركب الجميع وساروا متنكرين نحو القسطنطينية فوصلوا اليها بعد بضعة عشر يوما وأقاموا بها حتى قضى الله بما شاء .

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان

١ ـ فتاة غسان
٢ ـ أرمانوسة المصرية
٣ ـ عذراء قريش
٤ ـ ١٧ رمضان
٥ ـ غادة كربلاء
٦ ـ الحجاج بن يوسف
٧ ـ فتح الأندلس
٨ ـ شارل وعبد الرحمن
٩ ـ أبو مسلم الخرساني
١٠ ـ العباسة أخت الرشيد
١١ ـ الأمين والمأمون
١٢ ـ عروس فرغانة
١٣ ـ أحمد بن طولون
١٤ ـ عبد الرحمن الناصر
١٥ ـ فتاة القيروان
١٦ ـ صلاح الدين الأيوبي
١٧ ـ شجرة الدر
١٨ ـ الانقلاب العثماني
١٩ ـ أسير المتمهدي
٢٠ ـ المملوك الشارد
٢١ ـ إستبداد المماليك
٢٢ ـ جهاد المحبين